
لأول مرة!

الطبعة الأولى

١٤١٤هـ - ١٩٩٤م

الطبعة الثانية

١٤١٧هـ - ١٩٩٧م

الطبعة الثالثة

١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م

جميع حقوق الطبع محفوظة

دار الشروق

أسسها محمد المصطفى عام ١٩٦٨

القاهرة: ٨ شارع سيويه المصري

رابعة العدوية - مدينة نصر - ص.ب. ٣٣ البانوراما

تليفون: ٤٠٢٣٣٩٩ - فاكس: ٤٠٣٧٥٦٧ (٢٠٢)

البريد الإلكتروني: email: dar@shorouk.com

أنيس فتاح

لأول مرة!

دار الشروق —

جدة : لأول مرة !

أول مرة أرى فيها رجلا سعوديا كان في مهرجان البندقية السينمائي . . وكان يجلس قريبا من الممثلة الإيطالية جينا لولو برجيدا . . وكانت تداعبه بالإيطالية . . ونظرت إليه . . إنه على خلاف ما توقعت . فما الذى توقعت ؟ لابد أن يكون أسمر اللون طويلاً نحيفاً له أنف كبير . ولا يتكلم أية لغة ، وإلى جواره يجلس واحد يترجم له . . ولابد أن له سيارة كاديلاك تقف على الباب . ولكن المنظر الذى رأيته مختلف تماماً . وانشغلت بفاتنات السينما العالمية . ولكن لم أسأل نفسى : من أين أتيت بهذه الصورة لأى مواطن سعودى ؟ لم أناقش . . ولا كان عندى وقت . ولا كنت مستعداً لتصحيح هذه الصورة . .

والمرة الثانية : كنت فى برلين فى حديقة الحيوان . وجلست على أحد المقاعد ووجدت شاباً إلى جوارى يقرأ صحيفة عربية . . وفى مواجهته فتاة صغيرة شقراء زرقاء العينين . . إنها بنت أخته . . ولم أعرف ما الذى يميز هذا الشاب الأسمر عن أى إيطالى أو إسباني أو يمنى . . وهذه الفتاة عن أية ألمانية أو بولندية . . ولم أصحح هذه الصورة للمواطن السعودى . . وانشغلت . فلم تكن قضيتى : ما هى الصورة الصحيحة للمواطن السعودى !

وامتلاً دماغى بمفارقات الدنيا الواسعة . . ومشاكلها السياسية والفلسفية . . وكنت مشغولاً بمستقبلى وهمومى . .

وفجأة وجدت أننى مسافر إلى السعودية لأداء العمرة . . بالضبط ما هى العمرة ؟ وأين تذهب وماذا تفعل ؟ . . لم أفكر فى ذلك وإنما أحببت أن أستمتع بوقوع الأحداث الجديدة لأجد كلاماً ومعانى جديدة . . (لقد أديت العمرة بعد ذلك ثلاثين مرة وحججت البيت الحرام سبع مرات وصليت فى داخل الكعبة ثمانى عشرة مرة ، ولكنى لم أكتب إلا كتاباً واحداً عنوانه . طلع البدر علينا - بعد أداء أول عمرة . ولم أكتب حرفاً واحداً بعد ذلك) .

فكل المعانى الجديدة والمفاجئة التى أحسست بها بعد الصدمة الوجدانية الأولى هى التى سجلتها وصورتها وعاشتها عند تأليف هذا الكتاب . ولم أجد عندى ما أقوله دينياً وفلسفياً

ونفسياً ووجدانيًا . . كأننى شجرة تحملت بالثمار التى نضجت . وكانت فى حاجة إلى هزة واحدة ، لتسقط كل هذه الثمار . فلم يبق فى الشجرة إلا أوراقها وأوکار بعض الطيور التى هربت .

وفى كل مرة أنظر إلى شجرتى بعد كل عمرة أو حج أو أثناء ذلك ، أجد أن الأوراق ذبلت والثمار صغيرة جافة . . ولا شىء ينضج هذه الثمار ولا شىء يسقطها معها هزتها . . إنها إحدى تلك الأشجار التى لا تثمر إلا مرة واحدة فى العمر كله .

ولكن حاولت أن أحشر فى دماغى بعض الصور التى سوف تكون عليها مدينة جدة التى لم أرها . . وكذلك أهلها . .

ولا أنسى يوم رأيت باريس لأول مرة . كنت أتصور أن الناس فى الشوارع فى عناق دائم والأشجار والطيور . . كله فى عناق غنائى موسيقى . . إنها باريس . .

ولما نزلت فى محطة ليون بباريس ، نسيت أن أنظر إلى الناس من القطار مع أنهم من باريس وأهلها . . وإنما تصورت أن أهل باريس يقفون على الأرصفة فقط . . ووقف القطار . وكانت دهشتى عظيمة أن وجدت الناس قد فرغوا من القبلات والعناق . . وأنهم يقفون متباعدين . وفى حالة قرف . . وفى مكان بعيد وجدت شابين يتعانقان . . ووقفت أتفرج . . لم أجد شيئاً غير عادى . . هذه باريس . . كأي بلد فى الدنيا . . وإنما الصورة التى رسمتها فى خيالى جاءت من قراءة الشعر الفرنسى ، وقصص الحب والغرام وصور الكباريات . .

وعلى الأرصفة وجدت الكتب . . وتلاحقت أسماء أبطال التاريخ الفرنسى : نابليون وفولتير وروسو . . وسارتر أستاذنا فى الفلسفة الوجودية . . ثم سارتر نفسه : قصير القامة قبيح الوجه أحول العينين . . فمه وأنفه مدخنة . . وهذا الدباب الذى يلف حوله ليس إلا كلمات تطايرت من دماغه فالتحلت لها أجنحة وحاولت أن تبعد عنه فلم تستطع !

ولما ذهبت إلى طوكيو لأول مرة ، لم أجد أهل اليابان كما تخيلت وأحببت . . فليسوا ضاحكين « عمال على بطل » . . ولا هم قصار القامة صفر الوجوه . . ففيهم بيض طوال القامة ، ثم إنهم لا يضحكون بلا مناسبة . ولكن الذى لم أتوقعه هو هذا الأدب العظيم . . وهذا الانحناء طوال الوقت . مثلاً :

- صباح الخير (ينحنى)

- صباح النور (ينحنى)

- إلى أين ؟ (ينحنى)

- فى ستين داهية (ينحنى أكثر)

- ولماذا ستين ؟ (ينحنى)

- إن خمسين لا تكفى (ينحنى)

- إذن لتكن ٥٩ داهية فنحن فى سنة ١٩٥٩ (ينحنى)

- هذا رأيك ؟ (ينحنى)

- مجرد اقتراح (ينحنى)

- سوف آخذ برأيك ورأى زوجتى وسوف أذهب فى ١٥٠ داهية (ينحنى)

- أشكرك ولا أتمنى لك السلامة (ينحنى أكثر وأكثر) .

وقد ذهب الرجل الأول وبقي الثانى فى حالة انحناء كأنه يريد أن يتأكد من أنه فعلا ذهب ولن يعود !

وعندما ذهبت إلى مدينة هونولولو فى جزر هاواى . . جاءت واحدة ووضعت عقداً من الزهور حول رقبتي سعيدة جداً . وسألتنى : مستر جورج !
قلت : لا . .

فسحبت طوق الورد فعدت أقول لها : ماذا قلت ؟

قالت : أنت مستر جورج ؟

قلت : نعم . . لقد ارتبكت أمام جمالك ونسيت اسمى !
فوضعت الورد وقبلتنى قبلة مفاجئة وقالت : السيارة فى انتظارك !

قلت : إذن لم يقولوا لك إننى أحب أن أمشى إلى الفندق وأحمل حقيبتى فى يدي فضحكت
وهى تقول : لقد اعتدنا على شذوذ أصحاب الملايين الأمريكان !

وكنت أنصوّر بنات هاواى عاريات حافيات يضربن الطبول ويتفخن فى الأرغول ويحملن
السائح على الأكتاف الناعمة ويلقينه فى أحواض الشمبانيا . . حتى أفقت من هذا الحلم
الجميل عندما وجدت واحداً يعطس ويمسح أنفه فى حذاء من القماش !

ويوم رأيت مدينة سيدنى فى استراليا لأول مرة . . كنت التخيّل الاستراليين طوالاً بيضا حمرا
إذا وقفت إلى جوارهم فإننى أصل إلى حزام كل واحد منهم بصعوبة . . وإنهم إذا ركبوا الطائرة
جلسوا على الأرض حتى لا ترتطم رؤوسهم بسقف الطائرة أو تخرج منه . . وفى مطار
سيدنى . . لم أجد إلا أناسا مثل الإنجليز أو أقرب إلى الأمريكان سألت واحداً منهم .
سيادتلك إنجليزى طبعاً !

فقال : ولماذا طبعاً ؟ أنا استرالى ابن استرالى ! لماذا ؟

- كنت أتصور أنكم طوال جداً .

— هذه هى المعلومات الحاطة التى عند الجهلاء الأجانب . . فهم يتصورون أن لنا ذيو لا
مثل حيوان الكانجرو . . وأنا لا نفيق من الشراب . . وأنا شخصيات مريضة لأن أجدادنا
كانوا من المساجين والمجرمين الإنجليز . . إننى كما ترانى عاقل ومحترم . . وليس لى ذيل .
ثم تركنى غاضبًا . . فعرفت أنهم لا يحبون الدعاة وأنهم معقدون . . وأننى لمست جرحًا
غائرًا . . مع أننى كنت أحاول فقط أن أفتح حوارًا معه . . كلام يعنى !

ويوم ذهبت إلى نيويورك . . بلد ناطحات السحاب . . لم أكن أعرف أن هذه العمارات قد
ارتفعت إلى السماء بسبب ضيق الأرض . . فبدلاً من بناء عشر عمارات متجاورة ، فهم يضعونها
الواحدة فوق الأخرى لأن الأرض ضيقة . . ولأن نيويورك جزيرة سكانها من الوحوش الذين
يشربون دماء البشرية ويتحول الدم فى أيديهم إلى ذهب يعبدونه من دون الله . . والأفلام
الأمريكية تصور نصف مواطنيها من المجرمين — السود خصوصًا . .

وهى مدينة تشعر أنها باردة . . وسبب هذه البرودة هو أنك تحس من أول لحظة أنك
وحده . . وأن أحدًا لا يدرى بك ولا يهمل أمرك . . حيا أو ميتًا . . الجدران رخام والأرض
والوجوه والقلوب . . وحاولت أن أبدو طويلاً عريضاً بسبب شعورى بضآلتى وتفاهتى . .
فأخرجت جيوبى وشددتها بعيداً عن البنطلون دليلاً على أنه ليس معى شىء يجعل اللصوص
يدورون حولى ويرفعون السلاح صارخين : هات ما معك فوراً ولا ترفع صوتك ولا تحاول أن
تستجده بأحد . .

وزودتها شوية فارتديت الجاكته بالمقلوب للدلالة على أنه ليست عندى جيوب ولا عندى
فلوس . . ووقفت أتلفت حولى وأستحضر الصورة التى رسمها الكاتب الأمريكى يوجين
أوينيل فى مسرحية « القرد كثيف الشعر » . . وتذكرت البحارة فى هذه المسرحية يدقون جدران
نيويورك الرخامية الجليدية التى تشبه وجوه الناس — بلا معنى ولا مشاعر ولا قلب !
وأنا على هذه الحالة الضائعة — أو حالة الضياع هذه وقف أمامى شاب يبدو أنه مهاجر
إيطالى عربجى أو بلطجى ومد يده فى جيبيه وأعطانى دولارًا !

فمن قال إن الأمريكان لا قلب لهم ؟

* * *

وفى مطار جدة لم أحاول أن أملاً عيني من الناس فى المطار . . إنهم بالجلاليب البيضاء
والعقال الأحمر أو الأسود . . ولا تستطيع أن تفرق بين الغنى والفقر . . بين المسافرين
وموظفى الجمارك . . الوجوه ليست سمراء كلها ولا سمراء صفراء . . فهناك وجوه بيضاء . .
والنساء لسن جميعاً محجبات . . هناك العباءة التى لا ترى من تحتها إلا ملامح عامة . .
وهناك من تكشف وجهها . . وهناك من لا تضع شيئاً . . فما الحكاية إذن ؟

إنها ليست صورة سعودية . . وإنما خليط من السعوديين والأجانب العرب والخواجات . .
من أهل البلد والعاملين فيه . .

إذن فلا بد أن تكون الصورة السعودية في الشارع : فالعربات كلها سريعة . . والشوارع
مرصوفة . . ناعمة - وليست نظيفة تماما . . وفي الشارع أناس بالجلاليب والبدل أيضًا . .
والمحلات ملائنة بالبضائع . . كل شيء موجود . . فأين هو السعودي . . وأين هي السعودية
الملاصحة . . الناس . . العادات . . أليست هذه المدينة هي المدخل إلى الأرض المقدسة . .
إذن فالصورة التي عندى هي التي ليست صحيحة . . فالسعوديون ليسوا وحدهم سكان هذه
البلاد . . وهم لا يفرضون عاداتهم وتقاليدهم على كل الناس بالقوة . . فالأجانب أحرار
يلبسون ما يعجبهم : رجالا ونساء .

أول شيء أدهشنى في مدينة جدة : بعض اللافتات . من بين هذه اللافتات واحدة
تقول : فقيه للدواجن . .

وكل الذى خطر على بالى أنه طبيب للدواجن أى متخصص في تربية الدواجن ، أو بيعها
أو إنتاجها أو علاجها !

فهل الدواجن كثيرة في هذه البلاد لدرجة أن يكون لها فقيه ؟ وما عيب كلمة دكتور ؟ أو
إخصائى ؟

ثم ما هو بالضبط الذى يمكن أن يفعله هذا الفقيه ؟ . . ولماذا لافتات هذا الفقيه كثيرة
وفي كل مكان ؟ . . ثم لماذا لم يكتب اسمه ؟ . .

الحقيقة لم أفهم !

فهل معنى فقيه للدواجن أن التقاليد الدينية مفروضة على الديك والفرخة فلا يقرب الديك
الفرخة إلا بموافقة الفقيه - عقد زواج يعنى ؟ معقول ؟ !

حتى الفراخ في السعودية يجب أن تكون عشرتها حلالا كالمسلمين تماما ؟ معقول ؟ ! وكان
في استطاعتى أن أسأل أى أحد . ولكنى لم أحاول . وقررت أن أعرف بنفسى . . فنزلت إلى
الشوارع . . واللافتات عن فقيه الدواجن في كل مكان . . وأخيرًا وجدت دكانا به أقفاص
الدجاج - واللافتة تقول : فقيه للدواجن . . وقررت أن أرى بعينى . . فلم ألاحظ أن أحدا
دخل يحمل قفصا للدواجن لكى يكشف عليها الطبيب . . ولا كانت الدواجن في الأقفاص
مریضة . . إنها في صحة وعافية . .

فلماذا لا يوجد فقيه للأبقار والجواميس والخراف - وفي البلاد ملايين الخراف التى
يستوردونها ولا يحبون سواها طعامًا في السعودية وفي مصر أيضًا . هل الخراف في صحة جيدة
والدواجن هي المريضة ؟ شيء مش مفهوم !

ولما تعبت سألت . فكانت الحقيقة الطريفة أنها أسرة اسمها أسرة « فقيه » تبيع الدواجن في طول البلاد وعرضها . وبعد ذلك عرفت منهم أصدقاء أدباء وأطباء . . . ووجدتهم لا يأكلون الدواجن !

وعرفت د . سليمان فقيه صاحب أشهر وأكبر وأجمل مستشفى في السعودية . . . وعرفت أسرته . . . زوجته سيدة مثقفة لطيفة مجاملة . . . وابنته الجميلة وابنه الدكتور مازن فقيه الظريف الذكي الذي هو صورة مصغرة من والده . . . أما والده دكتور سليمان فقيه فهو من أطف الناس ومن أشدهم حسماً في إدارة إمبراطوريته الطيبة . قال لي د . سليمان وأسعدني : أن ٨٠٪ من العاملين في مستشفاه من المصريين . . . وأنه شخصياً تعلم وتخرج من مصر . . . وأن المصري يحتاج إلى إمكانيات فقط . . . وأن عيب المصريين هو : الإدارة والإدارة والإدارة . . . أى نقص الإدارة أو سوء الإدارة . . . إدارته لقدراته هو الشخصية . . . وإدارته لشئون الآخرين . . .

صدق يا دكتور . . . وأنا أصدقك لأنك محب لمصر . . . ولأن هذه هى حالتى !

وقالوا لى تعال لنزور قبر أمنا حواء !

أمنا حواء ماتت ودفنت في جدة ؟ وهم في السعودية يعرفون قبرها ؟ يا سلام ، وهل أحد يعرف متى عاشت ومتى ماتت وأين نزلت ؟

المؤرخ الإسلامى الطبرى يقول لنا : إن الله خلق آدم يوم جمعة وأنزله من الجنة يوم جمعة وتوفاه يوم جمعة . . . وكان آدم عليه السلام نائماً - وفجأة وجد من تجلس فوق رأسه سألها : من أنت ؟

قالت : امرأة !

- ولماذا خلقتك الله ؟

- لأكون زوجة لك . . .

ويقال إنه كان نائماً ولما صبحا وجدها فوق دماغه فقال : أنا - وهى كلمة باللغة النبطية معناها : امرأة . . .

والملائكة سألوا آدم : وماذا أسميتها ؟

قال : حواء !

فسألوه : لماذا ؟

قال : لأنها خرجت من كائن حى !

وكل المدة التى أمضاها آدم فى الجنة هى خمس ساعات . وقالوا إن الساعة تساوى ٣٥ سنة بحسابنا اليوم . .

ولما نزل آدم من الجنة ، وقفت رجلاه على جبل فى جزيرة سيلان . أنا رأيت هذا الجبل . والجبل له قمة اسمها قمة آدم . . أما موطىء قدم آدم فبحيرة كبيرة . . وآدم كان طويلاً وكان رأسه يمتك بالسما ، أما قدمه ففى حجم البحيرة أو القرية . . أما اتساع خطوته فصحراء شاسعة . . أما أمنا حواء فقد نزلت فى مدينة جدة . . وتعرف عليها أبونا آدم عند جبل عرفات . . ومات أبونا آدم عن ٩٦٠ عامًا ودفن فوق الجبل فى جزيرة سبرى لانكا . . وبعده بسنة ماتت أمنا حواء . . ودفنت فى نفس المكان . . ولكنهم فى السعودية يرون أنها دفنت عندهم - والله أعلم !

ولما قالوا لى : تعال تفرج على قبر أمنا حواء ، لم أذهب . . ولا واحدة من بناتها فكرت فى زيارتها أو قراءة الفاتحة على روحها الطاهرة . . فقد انشغلن عنها . . أو أنهن غاضبات عليها . . فالحياة قاسية . . فكان أفضل لبنات حواء ألا يولدن . . وهذا احتجاج على آدم وحواء . . أو أنهن مثلى لا يصدقن أن تهبط حواء فى جدة وأن تموت فيها دون أن توصى أولادها بأن تدفن مع زوجها فى قمة جبال بوذا فى سبرى لانكا . . فكانت أمنا حواء مثل أختنا حواء . . وإنما ترى أن الزواج عمل . . وإن أية علاقة مهما طالت فإنها تبهث على الضيق . . وإنما اكتفت بأن تعيش معه وتموت بعيداً عنه . . لعل حظها فى الآخرة أن يكون أفضل من الدنيا - وهذا رأى بنات بناتها منذ ذلك اليوم !

مدينة جدة - فى ذلك الوقت من سنة ١٩٦٩ - لم تكن لها شخصية واضحة . وإذا كان الواحد يشم هواء سحرى فإنه قادم من ناحية مكة التى لم أرها إلا بعد أيام . . وإذا كان القلب يطلع وينزل فليس لشيء فى جدة ، ولكن لما سوف يكون فى مكة . . فجدة هى العتبة إلى مكة . . أو هى الحجر الصحى الذى يتأهل فيه الإنسان نفسياً ووجدانياً قبل أن يذهب إلى مكة . . وبعد أيام من جدة لم أعد أراها . . وإنما أنظر وأنتظر ما وراءها . . وأسمع وأستمع إلى ما بعدها . . وأتخيل وأنشغل بالمجاهدات القلبية عند نهاية هذا الشارع المرصوف الناعم الممتد إلى مكة . .

وأحسست قبل ذهابى إلى مكة أنني لم أعد أطيق البقاء فى جدة . . فليس فيها شيء يبهرك أو يدلك على أنها مدينة مختلفة عن أية مدينة أخرى فى أية دولة على الخليج . . إنها حارة . . رطبة . . فى شوارعها رائحة الدجاج ورائحة السمن والدهن واللحم والأرز والبحارات ، كأنك فى إحدى المدن الهندية - طبعاً هى أنظف وأقل عددًا . . والوجوه أصح وأكثر مرحاً . .

لقد غامت جدة وغابت . . فهى مدينة « الترانزيت » إلى مدينة المدن وأم القرى . . ومركز

الدنيا الإسلامية . . وملتقى كل الوجوه والجباه والقلوب . . وأحسست أن كل البيوت في جدة
أحجار تعترض الطريق . . وأن كل الطرق طويلة . . وأن المدينة زحام من الأحجار تسد
العين والأذن وتجثم على القلب . . وأنهم جعلوا جدة في الطريق إلى مكة ، ليزداد الإنسان
شوقاً وحنيناً . . وتتجمع كل همومه وأحقادها وأحزانه وآماله في عينيه ، وبسرعة تتحول دموعها
عندما يجد الدنيا كلها قديمها وحديثها تحولت إلى شيء واحد : الكعبة !

مكة المكرمة :

١- لاجج بغيرة مشقة !

سألني الملك فهد وله ابتسامة حلوة : إن كنت وجدت صعوبة في الحج هذا العام سنة ١٩٩٢ . وقال : لابد أن تجد شيئاً من الصعوبة .

مع أنه لا دخل له ولا دخل للمملكة السعودية التي وفرت الطعام والشراب ورصفت الطرق والأنفاق والكبارى والأمن . . ولكن الحجاج قد زاد عددهم . ثم إنهم يتزاحمون في مكان واحد وفي اتجاه واحد وفي أيام معدودة . وكأن الملك « فهد » بابتسامته الرقيقة يعتذر لك . .

وسألني ولي العهد الأمير عبد الله إن كنت قد وجدت في الحج هذا العام أى نوع من المشقة . وقال : إن الثواب أعظم كلما عظمت المشقة . وإن شاء الله تكون هذه المشقة قد ذهبت آثارها . .

والأمير عبد الله رجل لطيف رقيق ورحيم أيضاً . وعلى الرغم من ملاحه الصارمة وعوده المشدود ورأسه المرفوع ، فإنه طيب القلب . . والذين يعملون معه يحدثونك كثيراً وطويلاً عن حبه للناس وحب الناس له . .

أما صديقي الأمير بدر فقلت له : والله لا أعرف عدد الأكواب الثلجة التي شربتها . . قل ثلاثين . . قل أربعين . . ولا عدد قطع الثلج التي ذابت فوق دماغى وفي يدي وأنا أحاول أن أخفف درجة حرارة تصل في الظل إلى خمسين مئوية وفي داخل السيارة إلى خمس وخمسين . . وفي الشارع إلى ١١٠ درجات ٥٥ درجة منعكسة عن سطح الأرض ومثلها من فوق الشمسية . . ثماني ساعات في سيارة لا يعرف سائقها أين يتجه . . فحرفات كيوم القيامة . . لا أحد يسمع أحداً ولا يدرى به . . والناس من شدة الحرارة والإرهاق « سكارى وما هم بسكارى » . .

وكان تعليق الأمير بدر ما لا نهاية له من الحكايات التاريخية والدينية والفنية والسياسية كأنه يريد أن يفعل في دماغى ما لم يفعله الثلج . . وقد حدث !

.. على باب الكعبة كان الزحام شديدًا .. دخولاً وخروجاً .. ولا نهاية للناس أمامك ووراءك .. ولا أحد يستطيع أن يفعل شيئاً .. وإنما يحدث أن تجد مكاناً خاليًا إلى جوارك .. هذا المكان الخالي يتسع لشخص واحد .. هنا يجب أن تلقى بنفسك في هذا المكان وسوف يتحرك ورائك طابور لا نهائى .. وتقدمت ووجدت قوة هائلة تدفعنى .. فأنا رأس حربة .. ولا سلطان لى على ضغطى على الناس .. ولكى أتقى الناس لففت يدى حولى .. وتحركت بجانب من الجسم .. والحمد لله وجدتني وراء الباب .. وعينى على الطائفين حول الكعبة .. إن عددهم بضعة ألوف .. ليس كثيرًا .. إذن سوف يكون الطواف سهلاً .. وتقدمت ونويت واتجهت وطففت وما هى إلا لحظات حتى امتلأت الكعبة بالناس .. طبعى أن يحدث ذلك .. ولا يحق لأحد أن يستنكر أو يتألم .. أو يقول : آه .. إنه شرط الطواف بين مليونى حاج جاءوا من كل الدنيا .. فهم يريدون أن يملثوا عيونهم .. وأن يفتحوا قلوبهم .. وأن يتجهوا إلى الله .. فمن أجل هذه اللحظات كان المشوار الطويل من آسيا وأفريقيا وكانت تحويشة العمر .. ثم إن أناسا قد جاءوا ليموتوا فى الكعبة أو فى هذه الأراضى الشريفة .. فلا يهيم إن ضربته أو زغدته فى جنبه أو ظهره أو فى بطنه .. إنه استعداد نفسيًا لذلك .. وأنت فى أثناء الطواف ريشة فوق موجة تندفع إلى أقصى اليسار وإلى اليمين .. وتتوقف وتلتوى .. ولا قدرة لك على مواجهة شيء .. بل ولا إحساس لك .. فأنت أيضًا غارق فى هذا الذى لا يوصف .. فى هذا الذى يجعلك لا تشعر بالحر ولا بالنعيب ولا بأن أحدًا قد دق ظهرك أو نقد بأصابعه إلى بطنك .. أو إلى الروائح التى تنبعث من الأجسام العارية الغارقة فى العرق .. فأنت لك رأس وليس لك جسم .. والناس أيضًا .. إن قوة هائلة لا تعرف من أين تفيض عليك تجعلك ريشا فى جناح لا أول له ولا آخر .. فأنت خفيف .. وأنت بلا إرادة .. وإذا سمعت من يقول : لبيك فأنت تقول أيضًا .. ومن يقول : يارب .. فأنت تردده أيضًا .. فليس على لسانك إلا الله والدعاء إلى الله .. وإلى والديك وإلى أحب الناس إليك .. تدعو بالصحة والعافية والستر وحسن الختام .. فأنت تدعو وأنت موقن بالاستجابة عند الله ..

وزاد الزحام وارتفعت درجة الحرارة .. وأصبحت الحركة مستحيلة .. وكان الحل الوحيد الممكن وهو حل شاق جدًا .. ولكنه هو الحل .. لقد أكملت الطواف فوق .. فى الدور الثانى .. الثالث .. فوق .. وكان الشوط فوق يعادل عشرة أشواط تحت .. ولكن فوق هواء ومراوح .. وأناس يعترضونك نائمين .. لا يصح .. ولكن لا يهيم .. إنهم يجدون الراحة الكبرى هنا .. فمن الذى لا يجدها هنا .. أو يجدها عندما يتخيل نفسه هنا .. وكان هناك أناس يصلون حول الكعبة ويعترضون الطائفين .. لا يصح .. ولكن لا جدال فى الحج .. وهناك الرجل فى السبعين يحمل على كتفيه رجلا فى المائة والعشرين .. لا يصح .. فالدين أعفاهما من الحج .. والحديث النبوى يقول : إن الله يحب أن تؤتى رخصة .. أى يجب أن

يستمتع الناس بما رخصه الله لهم .. فقد رخص الله الحج عند الاستطاعتين المادية والصحية .. فالذى لا يستطيع فلا عليه . ومع ذلك فلا شأن لى أو لك .. فلا جدال فى الحج .. ومن الطائفين سيدة سحبت أمها أو جدتها .. وحتى لا تموت منها مختنقة ، فإنها أمسكت مروحة تحرك بها الهواء .. ولا يصح .. ولكن لا جدال فى الحج .. وهناك رجل يتوكأ على ساق خشبية . والناس يزلزلونه . وهذا لا يصح .. ولكن لا جدال فى الحج .. وأناس أتوا بأطفالهم الصغار يجرجرونهم حول الكعبة وتتساقط الأطفال ويبيكون - ولا جدال فى الحج !

وشربت من ماء زمزم ما يكفى خمسة من الموتى عطشاً .. وكان السعى سهلاً . وكان فى الدور العلوى أيضاً .. المكان واسع والتكييف نعمة من نعم الله ..

* * *

وفى منى التقيت بعدد كبير من الأصدقاء . لم أرهم إلا فى مثل هذه المناسبات الكريمة .. والحديث الشريف يقول : الحج عرفة .. أى الحج هو الوقوف بعرفة ..

ولكن المشكلة هى الطريق إلى عرفة .. هنا المشقة الحقيقية هذا العام . فالحرارة فى الظل فى السابعة والأربعين ويقال فى الخمسين .. الأرض من نار - ومن الغريب أن الأسفلت فى السعودية لا يسيح كما هو حادث فى مصر . عجبى !

كأننا أراد الله سبحانه وتعالى أن يسوى بين الناس .. وأن يجعلنا نشعر حقيقة بما يشعر به الآخرون .. وما دمنا لم نفعل ذلك بالذوق فليكن بالقوة .. بقوة حرارة الشمس والزحام وتعطل جهاز التكييف فى السيارة الملكية .. وأن يكون السائق من أهل البادية .. لا يعرف أى شىء من معالم عرفة .. ثم يرى أنه من العار أن يسأل الناس عن الطريق .. بل إنه يؤكد لنا أن أحدًا لا يعرف .. وحتى إذا عرف فما هو وجه الاستعجال .. فالوقوف بعرفة قد تحقق .. فسواء جلسنا على الأرض أو تحت السيارة أو فوقها فهذه هى عرفة . وليس من الضرورى أن نذهب إلى الخيام الملكية التى أعدت لضيوف خدام الحرمين .. ولذلك لم يحاول السائق كثيرًا أن يجد الطريق .. ولا أن يسأل أحدًا ولا أن يشجعنا على ذلك . ثم إن الناس حولنا لا يعرفون .. ولا يهمهم أن يعرفوا .. فالذى تسأل عنه يعتبر نوعًا من العيب .. أو نوعًا من الترف هم بعيدون عنه .. ثم إن السؤال يغيظ الناس .. فأنت تسأل واحدًا قد تصدع رأسه وقدماه واحمرت عيناه هكذا : قل لى يا حاج ما تعرفشى الاستراحة الملكية الأبهة فى ١٩ !

طبعًا لا يعرف . وكيف يعرف ولماذا يعرف . ثم كيف تبحث عن الاستراحة الملكية ولا تريد حتى أن تتعب نفسك قليلًا فى البحث عنها ١٩ !

وكانت السيارة قد امتلأت بالثلجات والثلج نفسه . . وزجاجات الماء المثلج . . كل ذلك اختفى بالتدريج . . ونزلت أشترى من الناس . . أما السيارات الملكية التى توزع الماء المثلج على الناس مجاناً . فالناس يخطفون منها أكثر من احتياجاتهم . . وبعضهم يبيعه مرة أخرى . . واختفى الماء المثلج . . ثم اختفى الثلج . . وأصبحت عاجزاً عن مواجهة الشمس . . فإن لم تكن هذه جهنم الصغرى ، فهى تذكرنا بها . .

ورحت أسأل ولا أحد يعرف . والناس فى غاية التعب والأدب أيضاً . فالتعب واضح عليهم أما الأدب فلأن أحداً منهم لم يقل لى مثلاً : الاستراحات الملكية فى عرفات ؟ وتريد أن تسمى هذا حجا ومشقة . . ياراجل اختش على دمك ! واختشيت على دمي ولم أعد أسأل أحداً !

أما أصعب لحظة . . أقسى لحظة فى كل حياتى فهى التى سوف أحدثك عنها . . دعنى أقدم لما بعض معلومات خاصة عن الفلسفة الوجودية . ففى الفلسفة الوجودية عبارة للفيلسوف سارتر يقول فيها : الجحيم هو الآخرون ! أو الجحيم هو عيون الآخرين . .

أضرب لك مثلاً صغيراً هو : نفرض أن أحداً جلس إلى جوارك وداح ينظر إليك . . إلى وجهك . . إلى أنفك . . إلى شفتيك . . سوف تشعر بضيق . . وتحاول أن تستدير بعيداً . . أو تحاول أن تمسح أنفك . . أو تسوى شعرك أو الكرافة . . فما الذى حدث ؟ حدث أنك تضايقت من هذه النظرات إليك . . التى لا تجد لها مبرراً . . فأنت تضايقت لأنك لا تعرف ما الذى فى رأسه . . ما الذى يقوله عنك . . ما الذى وجده فىك . . إنه اقتحم خصوصيتك . . تسلل إلى خصوصياتك . . لقد تضايقت . وكثيراً ما تقول لأحد : أنت بتبص لى كده ليه ؟

وأنت تقول ذلك لأنك تضايقت من هذا الذى جعله ينظر إليك بعد أن دار فى دماغه كلام وآراء وأفكار عنك أنت لا تعرفها . . ولكن فوجئت بقرار هذا الشخص . وقراره أن ينظر إليك وأن يتأملك دون أن يقول لك السبب فى هذا الاحتراق ! ولم يكن هذا إلا شخصاً واحداً . .

أما الذى حدث لى فشئ لا يمكن وصفه . ولا يمكن تصويره ولا احتماله . إنه أقصى وأقصى درجات العذاب والانتهاك أيضاً .

فقد اتجه السائق إلى الطريق الخطأ . وتصادف خروج المصلين من (مسجد نمرة) . . المصلون مليون ونصف مليون على الأقل . . كلهم خرجوا فى وقت واحد . .

والسيارة تخوض .. تعترض .. تتحدى .. كأنها صرصار يقف على ذيله في وجه
بركان .. الحر شديد .. والزحام شديد .. والناس ألوف .. مئات الألوف العيون تتجه إلى
هذا الشيء الذى يواجه الناس .. ويريد أن يفحصهم كأنهم نمل .. كأنهم لا شيء .. دون
احترام .. دون اعتبار .. دون اعتذار .. ما الذى فى عيون الناس .. ما الذى تقوله .. ما
الذى تريده .. شيء مروع أن ترى .. إذا استطعت .. ألوف ألوف العيون كلها فى غضب ..
فلا غضب فى الحنجرة ونخن فى عرفة .. لم أستطع أن أواجه ملايين العيون .. ليس عندي ما
أقوله .. وليس عندي ما أدافع به عن نفسي .. فأنا جالس فى سيارة .. ولست راضياً ..
والناس حفاة عراة راضون .. وأنا أخوض فى غضبهم وأدوس رضاهم .. وأتقدم بسيارتي
وأنا جالس على مقعد مريح .. وحولى زجاجات المشروبات .. صحيح أنها فارغة .. ولكن
كان عندي ما أشربه جالساً .. ولا يزال عندي ما يجعلني أتحرك دون أن أمشي على الأرض ..
والناس ليس لديهم من ذلك شيء .. ثم إنني لست راضياً أبحت عن مكان أفضل .. عن
الظل والهواء البارد والماء الثلج ..

ولم أجد إلا سلوكاً تعويضياً واحداً هو أن أظهار بأنني ميت .. أو شبه ميت .. وأنا لا
أستطيع أن أطلب إلى الناس أن يسهلوا مهمة السائق حتى يمكن دفنى والصلاة على ..
وأخفيت وجهي فى يدي كأنني أبكى .. وكأنني منهار .. فلا طاقة لى على عيون الناس ..
وعندما أخفيت عيني عن عيون الناس تخيلت أنهم يقولون : حتى لو مت .. فأنت تموت على
مقعد فى سيارة ولست تحت أقدام الملايين !

ونزلت من السيارة وأفنيت نفسي بين الملايين هرباً منهم !

ولم أكن أعرف قبل اليوم أن جهنم هى عيون الآخرين .. مليون جهنم انفتحت فى لحظة
واحدة .. لن أنساها ما حييت !

وتحت الماء الثلج تركت رأسى حتى كادت عروقي تتجمد .. ونصحوني أن أضع الملح
على البرتقال .. الملح وفيتامين ج والكثير من الماء هى وحدها التى أنقذت غي من أن يسيل
عرقاً ..

وكلما تذكرت عيون الآخرين نزل الماء يغلى من دماغي .

وقالوا أيضاً : أحسن شيء هو أن تبتلع عددًا من الأقراص المهدئة .. وأن تستسلم لآى
نوع من النوم !!

النوم ؟ من قال إننى أريد أن أنام .. كيف ينام أى إنسان والناس من حوله يتحملون
ألواناً وأشكالاً من الشقاء والعناء فى سبيل الله .. لقد خجلت من نفسي .. فاكثفت بأن

جلست أشكر الله على أنه قد يسر لي الطريق وهداني . . بعد أن لسعتني أشعة الشمس
وأبخرة الأرض . .

أما عيون الناس فهي التي كوتني بنار لا دخان لها !
حتى ساعات العذاب هذه ، قد أصبحت ذكرى أضيفها إلى قدرتي على الاحتمال
الرهيب . .

ولم أكن أتصور أن عندي هذه القدرة المخزنة التي تظهر في المناسبات الفريدة . .
إذن فالإنسان أقوى كثيرًا جدًا مما يتصور وأقدر على تحمل الألم أكثر مما يتصور . . ولكننا
لا نحاول .

فالحمد لله الذي لا يحمد على مكروه سواه - ولم يكن ذلك مكروهاً . . وإنما كان مرغوباً
مطلوباً محبوباً في سبيل الله ! .

المدينة المنورة :

٢- شئ لا يوصف !

لو أحد يقول لى ما هذا الذى يحدث فى المدينة المنورة . حاولت أن أعرف بالضبط ، ولكن لم أستطع . . شئ غريب عجيب يحدث لأى إنسان إذا ذهب إلى المدينة . . أو حتى فى الطريق إليها . .

إن أهل المدينة أنفسهم يرون أن كل شئ عندهم يبعث على الشفاء وراحة البال . . والصحة والعافية . . تراهم وهوأهم . . وماؤهم وسماؤهم . . وإذا أكلت التمر . . واحدة أو عشرين . . فكل شئ قد جعله الله لهم مصدراً للشفافية والنور . . فقد كافأهم الله على أنهم احتضنوا الرسول عليه الصلاة والسلام . . حتى كمل الإسلام بينهم وعلى أرضهم . . فعاد الرسول إلى مكة المكرمة . . وهو يقول ، لا هجرة بعد الفتح .

أى لا هجرة من مكة أو المدينة إلى أى بلد آخر . . فقد نصر الله الإسلام ولم يعد أحد يخاف أن يجاهر به . . إن أهل المدينة قد ناصرُوا الرسول وساندوه . فجعل الله كل ما يمسكه أهل المدينة خيراً لهم وبركة لضيوفهم .



جلست مع عدد من الشبان العلماء والأدباء فى مكان بعيد عن المدينة . . الأرض بساط أخضر . . وجبل أحد قطعة من الظلام بين السماء والأرض . . والنجوم قريبة تكاد تقع علينا . . والسماء عميقة . . ما هذا الذى فوقنا . . كل هذه الأجسام السماوية قطع من نار تدور بعضها حول بعض من الأزل إلى الأبد . . أحجار تتوازن فوق . . بيننا وبينها ألوف ملايين السنين الضوئية . . فلا أحد يعرف أبعاد الكون ولا متى كان أوله ولا متى يكون آخره .

وكان الفيلسوف الألماني كنت يقول : إن الذى أشعر به فى أعماقى أعظم من هذا الكون . . فالله أسمعه وأراه فى داخلى . . وليس هذا الكون إلا صورة متواضعة جداً من هذا الجمال والجلال فى وجدانى !

وكان أستاذنا العقاد يقول : إن هذا الكون كله ليس أقوى من حشرة صغيرة . . قل لي كيف خلقها الله بهذا الكمال وبهذه الدقة . . إن عظمة الله تبدو في أصغر مخلوقاته معجزة من المعجزات . . من الذى يستطيع أن يخلق جناح بعوضة ؟

وكان الأستاذ العقاد يقول : إن معجزة الخلق والإبداع وحكمة الله وقدرته المطلقة تظهر في الحيوان المنوى . . هذا الكائن الضئيل جدًا الذى ينقل صفات الأب والأم والجنس البشرى كله . . كيف ؟ وأين ينقلها ؟ وكيف ينظمها ؟ ومن يشرف عليها حتى يكتمل الجنين فيجىء له صوت أبيه ويشبه أمه . . ومزاج أبيه في الطعام والشراب ؟ كيف حدث ذلك ؟ ما هو هذا العقل الجبار الذى يشرف على تكوين الحيوان المنوى والبويضة . . ثم كيف يرتب الخلايا المتنوعة . . هذه الخلايا للمخ وهذه للأظافر . . ولون العين وحجم الشفتين . . أين يوجد (العقل المدبر) لكل غدد الإنسان وكل عادات الأبوين . . وكل مكتسبات الجنس البشرى فلا تلد سيدة بطة أو ثعبانًا أو شجرة . . وإنما تلد إنسانًا يجمع صفاتها وصفات زوجها . . بل أحيانًا تكون له صفات أبيها أو خالها ؟ كيف ؟

الجواب : هذه هي عظمة الله !

وكان للقمر لون وحجم هو الآخر لم أرهما من قبل . . فلم يحدث إلا نادرًا جدًا أن جلست في الصحراء أتفرج على السماء . . ولم يحدث أن ذهبت أتفرج على القمر . . إن السنين تمضى بنا ليلاً ونهارًا ولا يحدث أن أرى شروق الشمس أو حتى غروبها . . فأنا في ساعة مبكرة جدًا أنكفيء على الورق وأظل كذلك حتى تعلق الشمس أمتارًا عن الأرض . . ولم أر شروق الشمس إلا نادرًا ولا غروبها إلا قليلًا . . أما القمر هلالًا وبدرا فهو مفاجأة كل شهر . . وأرى القمر من نافذة السيارة أو على زجاج النوافذ . . ولكنهم هنا في الصحارى يرون السماء يكادون يلمسونها بأيديهم .

قال لي أحد الأدباء : ما هذا الذى نشرته الصحف العالمية عن خلق الكون ؟ وإن العلماء يعرفون الآن يقينا كيف خلق الله هذا العالم . . ومتى ؟ أى كلام هذا ؟ هل يستطيع أحد أن يقطع بذلك ؟

ولم أنطق . فالإجابة طويلة . وكلها احتمالات . . ومن السابق لأوانه جدًا أن أقول كلامًا محددًا . وكل معلوماتي هي التى نشرتها المجلات والكتب العلمية . .

- قل لنا !

- أنا أقول ؟ أنا فقط أنقل ما قاله علماء الفلك والفيزياء . . وسوف أحاول أن أجعله بسيطًا دون أن نضيع معا في تفاصيل لا أول لها ولا آخر .

قلت وأنا أنظر إلى القبة السماوية . . وقد تناثرت بينها البقع البيضاء اللامعة . . واضحة . . وبعضها أقل وضوحًا . . ولا أول لها ولا آخر . . وهذه البقع المتقاربة هي التي نسميها (المجرة) . . والمجرة تضم ألوف ملايين ملايين النجوم التي تشبه الشمس . . وحول كل نجم عشرات الكواكب مثل الأرض . . وفي الكون ألوف ملايين ملايين المجرات . . ولو انطلق نجم مثل الشمس في أى اتجاه وبأية سرعة فإنه لن يصطدم بأى نجم آخر - فإلى هذه الدرجة اتسع الكون فوقنا وتحتنا وحولنا . . تمامًا كما لو قلت لك : إن أبة نملة في استراليا مهما سارت في أى اتجاه وبأية سرعة ولأى وقت فلن تصطدم بنملة أخرى في القاهرة ! واضح الكلام ؟

- نعم . .

- إذن أنقل ما قاله العلماء . . من خمسين عاما ظهرت نظرية تقول إن هذا الكون كانت له بداية . . وهذه البداية عبارة عن انفجار كبير . . انفجار مادي . . هذا الانفجار أدى إلى تناثر المواد الملتهبة مع الغازات في الفضاء . . وظلت هذه المواد تتباعد بسرعة هائلة . . ملتهبة . . ثم تعرضت للبرودة فتجمدت . . ودارت حول بعضها البعض تتوازن وتتجاذب . . ألوف ملايين السنين . . وكانت هذه النظرية مجرد فرض علمي . . أى إنه لا بد أن يكون للكون بداية . . ولا بد أن المواد أو المادة الأولية التي خلق الله منها الكون كثيفة جدًا . . صدر لها أمر بأن تنطلق وأن تنفجر ساخنة شظايا بسرعة هائلة . . فحدث الانفجار . . وكانت الشظايا مجرات ونجوم وكواكب . . بعضها ما يزال ساخنا وبعضها قد أصبح باردًا وجوفه ساخنا - كالأرض مثلاً . . ولأن الانفجار كان هائلًا . . والغازات سريعة تطوحت المادة في جوانب لا نهاية لها في هذا الكون . . واضح ؟

- نعم . .

- وبقيت هذه النظرية مجرد فرض علمي معقول لبداية الكون . . ولم تظهر نظرية أخرى تقول إنها باطلة أو إنها خرافية . . ولكن العلماء حاولوا في الخمسين عاما الماضية أن يجدوا تفسيرًا آخر ، ولكنهم لم يجدوا . . فسلموا بهذه النظرية مؤقتًا إلى أن يبتدوا إلى حل لمشكلة . . بداية الكون . . أو بداية الخلق . . حتى الشهور الأخيرة !

- فماذا حدث ؟

ونظرت إلى السماء فوجدت النجوم كأنها تقترب أكثر وأكثر تريد أن تسمع ما نقوله نحن عنها وعن ميلادها من ألوف ملايين السنين وموتها بعد ألوف ملايين السنين . . فالنجوم كالحيوان تولد وتنمو وتزدهر وتذبل ثم تموت . . قلت : وكان الأمريكان قد أطلقوا منذ ثلاث سنوات سفينة فضاء تدور في فلك حول الأرض ارتفاعه ستائة كيلو متر . . والسفينة ترصد

درجات حرارة الكون والإشعاعات في الفضاء الخارجى وتسجل الأصوات . . وتبحث بملايين الصور إلى محطات المتابعة الأرضية في أمريكا وأستراليا . . ولم يجد العلماء شيئاً جديداً . وفجأة حدث أعظم اكتشاف في هذا القرن . . أو في كل القرون . . لقد أرسلت السفينة (صورة تذكارية) للكون بعد أن خلقه الله بمئات ألوف السنين .

- يعنى ؟

- يعنى أن هذه السفينة أرسلت معلومات عن انفجار حدث بعيداً جداً . المسافة بين السفينة ومكان الانفجار عبارة عن رقم ستة وأمامه واحد وعشرون صفراً من الأميال . . أى ألوف ملايين السنين الضوئية - السنة الضوئية هى حاصل ضرب ١٨٦ ألف ميل (سرعة الضوء فى الثانية) 60×60 ثانية $\times 60$ دقيقة $\times 24$ ساعة $\times 365$ يوماً . . الصورة التى التقطتها السفينة هى عبارة عن شكل المادة وهى تتباعد إلى الوراء وبسرعة واحدة متسقة منظمة . وهذا هو أخطر ما فى الاكتشاف . ومعنى السرعة الواحدة أن الانفجار ما يزال قوياً وأنه لم يضعف بعد بسبب أنه قد بدأ قبل ذلك بألوف ملايين السنين . . والصورة التى التقطتها المركبة الفضائية (كوب) تؤكد أن الانفجار العظيم قد حدث منذ ١٦٠ ألف مليون سنة . . وأن هذه الصورة قد وصلت المركبة الفضائية بعد خلق الكون مباشرة - أى بعد حوالى خمسة عشرة ألف مليون سنة . وأن الانفجار ما يزال قوياً . . وأن شظايا الانفجار تتحرك بسرعة هائلة لم تضعف بعد . . وأن الغازات ما تزال فى درجات حرارة مثوية بالملايين . . وأن سرعات الغازات أضعاف أضعاف سرعة الضوء . . وأن مادة الكون التى انفجرت بهذه الصورة الجبارة لابد أن تكون صغيرة جداً . . وأن انفجارها كان عتيقاً جداً لأن المادة الأولى للكون كانت لا متناهية الكثافة . . فاحتاجت إلى انفجار جبار لكى يفكك ذراتها ويكون انطلاق لا يتصوره العقل . . ومن يدرى ربما حدث انفجار آخر بعد ألوف ملايين السنين ، وذلك بأن ينكمش الكون وتتجاذب المواد لتكون أصغر وأصغر وأصغر كما كانت عند بداية الكون . . ويولد الكون مرة أخرى ويكون الانتشار والازدهار وإلى غير نهاية ! واضح ؟

- نعم . .

- لابد أن أوضح هذه الصورة التى يعجز العقل عن تصورها أو إدراكها . . نفرض . . نفرض أن هذا الكون عمره سنة احدة . . نفرض . . إذن فالله قد خلق الكون فى الثانية الأولى من الدقيقة الأولى يوم أول يناير . . واضح ؟

- نعم . .

- أى إن الانفجار العظيم للمادة الأولى التى استخدمها الله فى صنع هذا الكون قد نفخ فيها فتفجرت فى أول ثانية من أول دقيقة من أول يوم فى شهر يناير . . هل نعرف متى ظهر

الإنسان على سطح هذا الكوكب ؟ لقد ظهر الإنسان قبل ثلاث دقائق من منتصف ليلة ٣١ ديسمبر . . . وظهرت كل حضارة الإنسان في الثانية الأخيرة من ليلة ٣١ ديسمبر . . . أى إن عمر الحضارة الإنسانية كلها لا يزيد على ثانية ونصف في عمر هذا الكون . . . كل الذى أنجزناه وقاتلنا من أجله . . . وحاربنا وانتصرنا وانكسرنا على الأرض وفي الماء وفي الهواء . . . وكل عظمة الإنسان في العلم والأدب والفن . . . كل ذلك عمره ثانية ونصف فقط . . . واضح ؟

- نعم . . .

- لابد من توضيح آخر . إذن أين نحن من هذا الكون كله . . . أى الكون الذى نعرفه . . . أى الكون الذى نقلته لنا سفينة الفضاء . . . فلا بد أن أجزاء أخرى لا أول لها ولا آخر في هذا الكون لم تصلنا . . . فالمادة الأولى التى خلق الله منها هذا الكون مادة مظلمة . . . إذن لا يزال في هذا الكون ما لا ندرى من المساحات والمسافات المظلمة . فالكون أضعاف هذه الصورة المتواضعة التى تلقيناها أخيراً . . . والتى أطلقناها أصابع الله - سبحانه - إلى جوانب الفضاء اللانهائى في امتداده . . . أين نحن . . . من مثل هذه ؟

ومددت يدي إلى ثمرة من ثمر المدينة المنورة وقلت : بل نحن مثل هذه . . . مثل هذه النواة التى فى داخل الثمرة . . . إذا ما قورنت بجبل أحد الذى وراءنا . . . ونحن نسكن هذه النواة . . . وكل تاريخ الإنسان وحضاراته القديمة والجديدة . . . كلها تتصارع فوق هذه النواة . . . أما سفينة الفضاء هذه فليست إلا ميكروباً يدور حول النواة ويلتقط صورة لجبل أحد . . . كل الذى أقمناه وندافع عنه ثم نخترع لأنفسنا ما لا نهاية له من النظريات العلمية والفلكية والأخلاقية . . . ثم نخترع أسلحة الدمار . . . كل ذلك يتحرك على سطح هذه النواة . . . أما الكون حولنا فهو مثل هذا الجبل الهائل الضخم الأشم . . . نحن هكذا والكون كله هكذا . . . وكان الإنسان يتصور - وأهما - أن الله قد خلق الكون من أجل أن يتفرج عليه الإنسان إذا اتسع وقته ؟ ! فقط هذه الأكوان للزينة ؟ ! لتكون في شرف استقبال نظرات الإنسان . . . الحقيقة نحن كائنات ضئيلة جداً فوق بلحة تطلق حولها في سعادة وغرور ميكروباً يدور حول البلحة ويمد خراطيم هزيلة وعدسات بدائية تلتقط ما يصدر من إشعاعات وموجات صوتية تنبعث من جبل أحد ومن جبال أخرى لا نراها ولا نعرفها . . . فجبل أحد ليس إلا التكوين الهائل الذى بعث بإشعاعاته إلى أجهزة الرصد الدقيقة البديعة التى ابتدعها الإنسان ووضعها فوق هذا الميكروب . . . أما ما وراء الجبل ؟ وكم عدد الجبال الأخرى ؟ ومتى ظهرت ؟ ومتى تكونت ؟ وكيف هى ؟ فلا يزال الميكروب عاجزاً عن معرفتها . . . لأن سكان البلحة لم يبتدوا إلى أجهزة أخرى بالغة الدقة . . . واضح هذا الكلام ؟

- نعم . . .

- لابد من توضيح آخر . . فالإنسان رغم ضآلته . . فإنه لاشك يشعر بالعزلة والكبرياء . . فهو رغم هذه الضآلة ورغم أنه حديث العهد بالظهور على مسرح هذه البلحة في هذا الكون اللانهائى ، فقد استطاع أن يعرف . . والإنسان حيوان عنده استطلاع وخيال وكبرياء . . وفي نفس الوقت يشعر هذا الإنسان بأنه تافه جدًا إذا ما قورن بهذا الكون . . وإذا ما أدرك أن في الكون ألوف ملايين ملايين الكواكب الأخرى - مثل الأرض - تدور حول ما لا عدد له من النجوم مثل الشمس . . وفي هذه الكواكب أشكال وألوان من الحياة العاقلة . . أعقل وأعظم من الإنسان . . أو في مراحل سابقة على تكوين الإنسان . . فليس وحده في هذا الكون ويستحيل أن يكون كذلك . . تمامًا كما لو قال النمل الذى يجرجر صرصارًا : نحن الكائنات الوحيدة في هذه الأرض . . أو كما لو قالت أشجار الليمون نحن الأشجار الوحيدة على هذه الأرض . . أو في كل الكواكب الأخرى . . فقدرة الله لا جد لها . . والذى نراه في أنفسنا وفي تكويننا والأكوان حولنا ، ليس إلا صورة متواضعة جدًا لعظمة الله التى لا حدود لها! واضح ؟

- نعم . واضح وياق . . ويبعث على الإيمان بعظمة الله . .

- لابد من توضيح أخير . . ما الذى جعلنا نتقل إلى الكلام عن الكون وعظمة الله ؟ إنما هذه الصورة الرائعة حولنا . . إنه هذا الشعور الباهر لأعماقنا والذى لا يجده الإنسان إلا في المدينة المنورة . . هو الذى أطال أعناقنا ووسع عيوننا وفتح عقولنا لتلقى هذا الفيض اللانهائى من النور والصفاء والاقتراب من السماء التى أحسنا أنها تقترب منا أكثر وأكثر - فسيحان الله ما أعظمه وأحكمه ! .

المدينة المنورة :

٣- يا رسول الله صرنا غرباء!

لا أعرف كيف أصف لك لون السماء قبل الفجر .. ولا أعرف أن أحدد لك درجة الحرارة في ذلك الوقت .. ولا من أين يجيء الناس بملابسهم البيضاء .. ولا مصدر الحمس الذي يملأ المكان .. أما الصوت فهو صوت المؤذن يجيء من فوق .. من فوق مسجد الرسول .. من فوق فوق .. من السماء .. ومن تحت تحت من الأحصاق .. ومن كل اتجاه .. بل من كل خلية في جسمي .. كأنه يؤذن في دمي .. كأنني هو .. كأنه أنا .. كأنه نحن .. كأنني المؤذن وجميع المصلين .. كأنني حشد هائل يتدفق إلى داخل المسجد .. وأنا لست إلا واحدًا من مليون .. كيف ؟ لا أعرف .. ولا تصدق أن أحدًا يستطيع أن يقول بالضبط .. ما هذا الذي حدث ..

ولا تكاد تدخل المسجد حتى تصبح قيادتك في يد غيرك .. تمامًا كالسفن عندما تدخل الموانئ فإن القبطان يترك السفينة لقائد آخر أكثر وعيًا وفهماً بطريق الأمان ..

وإلى جانب من المسجد .. إلى حائط أسندت ظهري واسترحت إلى ذلك وظللت مغمض العينين أدندن .. أدمدم .. أقول ما لا أعرف وما لا أدري .. ولكنني أقول .. أفتح فمي وأغمض عيني وأسند ظهري وأمد ساقى .. كأنني نائم أو أريد ذلك .. فكل شيء كأنه صدر أم .. وكل صوت كأنه الضوء تحول إلى نغم .. أو كأنه النغم تحول إلى شعاع .. إنني أتدفق .. إنني أفيض .. إنني لست إنني .. صدقني لا أبالغ ولا أحاول أن أكون غامضًا .. ولكن كل شيء هو طوفان من المعاني والأصوات والألوان والأضواء والبركات ..

وفتحت عيني على جاري .. إنه صديق الأمس .. ونظرت إلى جاره والذي يليه .. إننا جميعا صحبة الأمس .. سألت جاري .. كأنني أريد أن أفيق وأن يفيق هو أيضًا : كيف ؟ فلم يرد .. أردت أن أقول له : كيف جئنا إلى هذا المكان من المسجد ؟ هل اتفقنا على ذلك ؟ هل الصدفة ؟ الصدفة أن نكون نحن السبعة في مكان واحد كأننا على موعد .. وكيف وجدنا مكانًا واحدًا وسط الزحام ؟ إننا سبع من السفن دخلت الميناء معًا ، وقادها

رجل الأمن والأمان إلى هذا المكان وألقينا مراسينا وربطونا إلى الشاطئ وإلى حيث الموج أ
والبحر أمداً . . . وطيور البحر أكثر . . . فما الذى تفعله الطيور ؟ ما الذى أسعدها ؟ ما
جعلها هكذا كثيرة ؟ ما الطعام الذى وجدته حولنا ولا نراه ؟ شيء عجيب أن ت
الهمسات إلى أجنحة والأجنحة إلى طيور والطيور إلى موجات ضوئية إلى نبض مبارك . .
المسجد قلب واحد ونحن ملايين الكرات الدموية . . كل شيء كأنه وكأنه . . فأنا لا أ
بالضبط ما هذا الذى هو نحن . . والذى هو غيرنا . .

جارى يتغنى في مدح الرسول هامساً في صوت جميل :

كيف ترقى رقيق الأنبياء	يا سماء ما جاوزتها سماء
حبذا عقد لؤلؤ وفخار	أنت فيه اليتيمة العصماء . .
- يا رسول الله صرنا ضعفاء	- يا رسول الله صرنا أغنياء
- يا رسول الله صرنا حقراء	- يا رسول الله صرنا (مسخراء)

ثم جارى وجاره ويتبادلان الغناء والمديح . . بيت من قصيدة (البردة) للبوصيرى في
الرسول . . وبيت من قصيدة (نهج البردة) لشوقي :

أمن تذكر جيران بلدى سلم	مزجت دمعا جرى من مقلة بد
ريم على القاع بين البان والعلم	أحل سفك دمي في الأشهر الحرم
بالأئمة في الهوى العذرى معذرة	منى إليك ، ولو أنصفت لم تد
بالأئمة في هواه والهوى قدر	لو شفق الوجد لم تعذل ولم تد
محضتك النصيح لكن لست تسمعه	إن المحب عن العذل في صم
لقد أعرتك أذنا غير واعية	ورب مستمع والقلب في صم
والنفس كالطفل إن تهمله شب	على حُب الرضاع ، وإن تطفمه ينفظ
والنفس من خيرها في خير عافية	والنفس من شرها في مرتع وخ

يا رسول الله صرنا (مسخراء) .

وكأننا لم نتوقف عن حديث الأمس ، فمضى جارى يقول : كان ذلك من عشرين س
وربما أكثر . . وأنت تعرف . .

ولكنى لا أعرف ما الذى يريد أن يقول . .

ومضى يكمل حكايته لأننى أعرف - هو الذى يقول - ولم أندesh كأننى أعرف وانتظ
يمضى دون توقف . .

كانت أمه مريضة وكان جالسا إلى جوارها في المستشفى أياما موصولة الليل وا

والصلوات . . وكان يرى من شدة التعب أن الممرضات طيور بيضاء تقدم لأمه طعاما . . وكانت الطيور تضع الطعام في فمها . وهو ليس مندهشا لما يرى . . بل إنه كان ينظر إلى يديه فوجدهما جناحين . . وإلى ريشه الأبيض . . وإلى منقاره وعنقه في المرأة . . يقول إنه أحس أنه مات . . ميت . . وإن الذي يراه كان في العالم الآخر . . وإننا جميعًا كذلك . . وإننا نتحدث بغير كلام . . بغير شفاه . . في هذه اللحظات أحس أنه خفيف الوزن . . بلا وزن . . وأنه يطير . . كل شيء يطير . . ونور قد ملأ السماء والأرض . . ليس شمسا تشرق من مكان . . وليس قمرًا في السماء . . ولكنه ألوف الشمس . . لأشعتها نعومة ضوء القمر . . كأن الضوء من ألف ألف قمر يشرق ويغرب ويستقر في السماء وفي الأرض وفي أحشائه أيضًا . . وسمع من يقول : إنه الرسول عليه الصلاة والسلام . .

وأفاق من نومه ليجد أنه قد انكفأ على صدر أمه المريضة . . إنه الأرق الطويل . . فاغثاله النوم وأسقطه جثة فوق جثة . . أما الذي رآه فالرسول حقا وصدقًا . . وأما الذي لم يكن في حسابه فهو أن أمه قد ماتت . . هل ماتت فانكب عليها فنام وسار معها في دروب الموت ؟ هي لم تعد وهو عاد ؟ هل عندما سقط عليها قد دفعها إلى الموت ؟ هو الذي قتلها ؟ هو الذي مات وأخذته في يدها ثم عاد وحده يروى ما حدث ؟ إن الدموع في عينيه واقفة تنتظر الإذن بالسقوط . . ولم يبك . . ولم يحزن . . فقد ذاق طعم النعيم الذي ترفل فيه أمه . . رحمها الله ! شيء عجيب أن يترك مكانه لجاره الذي بدأ يتكلم كأننا ننتظره . . وكأن ترتبًا قد اتفقنا عليه بالأمس . .

قال مغنيًا في مدح الرسول . .
وجملة القول فيه أنه بشر
وأنه خير خلق الله كلهم .
- يارسول الله صرنا جهلاء . .

قال جارى يحكى كيف حدث له ما حدث . . فقد كان في رحلة صيد . . هو لا يصيد ولكنه يرافق الذين يصيدون . . وكان هو الذي يروى النكت ويضحك . . وهو الذي يقلب المواجع . . مواجع الجميع في قصص الحب الفاشل والزواج الذي أفضى إلى طلاق والطلاق الذي أفضى إلى زواج . . وهو يضحك ويضحك وغلبه النوم فرأى البحر يبلع الزورق ويبلع الأشجار على الشاطئ والشاطئ . . وامتدت سمكة صغيرة ورفعت رأسها وابتلعت . .

ونظر إلى نفسه في ظلمات بطن السمكة فوجد نفسه في حجم الصرصار . . كيف ؟ ولكنه يعلم أنه ليس صرصارًا . . ولكنه كان في مثل ضعفه . . وتساءل إن كانت هذه هي جهنم . . وإنه انفصل عن الحياة إلى الموت فجأة وتطلع في كل اتجاه إن كانت هناك جنازة . . ووجد صفا

طويلاً من الكلاب .. مع أنه ليس كلباً ، فكيف تكون جنازته من الكلاب .. وكانت للكلاب وجوه أصدقائه وأقربائه .. شيء عجيب .. وراح يتلمس كل جوانبه .. لقد عادت إليه آدميته .. ثم استقرت جوانب البحر والشاطئ ووجد نفسه يقول : اللهم صل عليك يابى .. صلى الله عليك يابى .. يابى .. يابى !

وقلت أنا : أنا حكيت حكايتي للشيخ الباقورى وصديقى الشيخ محمد .. وهو بركة من بركات دراويش السيد البدوى .. ورويتها قبل ذلك للشيخ حسن البنا .. وفى كل مناسبة حكيت هذه الحكاية .. ولم أكن متواضعا .. وإنما كنت متباها .. مفاخرًا بنعمة الله .. وهى من نعم الله على الناس .. وهى ذات معنى .. إنها رسالة ودعوة وأمر بأن أفعل شيئاً .. ولم أفعل أى شيء .. وقاومت وقاومت وتراجعت وعدت فقاومت .. وتصلبت وتناسيت ونسيت .. واستسلمت وانهزمت وجمعت فلولى وقاومت .. ثم ذبت ثماماً ولم أعد قادراً على جمع شتاتى ..

فلا أنا من الذين يصلون الليل بالنهار فى الصلاة والدعاء .. ولا أنا مثل والدى يرحمه الله أنظم الشعر فى مدح الرسول .. ولا أنا مؤهل لذلك .. ولا أنا أشارك فى حلقات الذكر ولا أصف الآيات القرآنية علاجاً لأوجاع الناس ، كما كان يفعل والدى .. ولا أنا نذرت نفسى لله .. وإنما أنا مثل مئات ملايين الناس أفكر وأأمل .. ثم أعلن عجزى عن الفهم .. وأعلن يأسى من أن أحقق شيئاً من النجاح فى فهم قضايا الكون : الله والحياة بعد الموت والبعث والنشور والوحى والرسول عليه الصلاة والسلام والقرآن الكريم .. كلها أضواء باهرة لا أستطيع أن أفتح عينى فيها .. ولا يستطيع عقلى الصغير أن يحيط بها .. فعقلى فى حجم كفى وأنا لا أستطيع أن أضبع الكون فى كفى .. ولا أن أضبع الشمس والأقمار والنجوم فى عينى ولا أن أحشر كل المعانى والكلمات فى فمى .. فأنا ضئيل جداً والكون عظيم جداً .. وعمرى قصير جداً .. وسنوات عقلى قليلة جداً .. وأنا ذاهب وكل شيء باق .. لرب جزمته أطول عمراً منى .. والكون لا أول له ولا آخر .. لابد أن يكون له أول ، أين ؟ كيف ؟ متى ؟ ماذا ؟ لماذا ؟ والله أعظم .. أروع .. أقوى .. أبلغ .. أحكم .. أعدل .. وأنا لا شيء .. فكيف يعرف اللا شيء أى شيء .. كل شيء ؟ والذى رأيته فى نومي : معنى .. رسالة .. رسالة تلقيتها .. إنذار .. إخطار .. استدراك .. رحمة .. بركة .. ولكنى سددت أذنى وعينى ووضعت عقلى تحت قدمى وسحقته ولم أرفع قدمى إلا بعد أن تحول قلبى إلى تراب .. فنفضته واستراح عقلى إلى ذلك .. ثم صنعت تاجاً من الذهب على شكل عقل ووضعت فوق رأسى .. وقلت : عقلى جالس على عرشى فى مملكتى .. فما هى مملكتى ؟ لا مملكة .. أنا مملكتى ؟ فمن أنا ؟ إن شيئاً من مملكتى لا يطاوعنى .. فالقلب يدق دون إذن منى .. والمعدة تطلحن بغير ارادتى .. والهواء داخل خارج من أنفى بغير إذنى .. وأنا م بغير

أذننى وأصحو بغير إذننى .. فما هى مملكتى ؟ وعقلى يتذكر وينسى بدون إذننى .. فما هى مملكتى ؟ .. لا مملكة .. لا عرش ولا تاج ..

ولم أنطق بكلمة واحدة . ونظرت إلى جارى فإذا به يقول لى : هه .. وبعدين ؟ وبعدين ؟ . كأنه يسمع ما يدور بينى وبين نفسى .. كأننى أتحدث بصوت مرتفع دون أن أدرى .. وتلفت إلى جارى إلى اليمين فإذا به يقول لى : كلامك معقول .. وبعدين ؟

وبعدين هو الآخر يقولها : إذن لقد كنت أتكلم بصوت مسموع من الجميع رغم ما فى المسجد من همهمة استعداداً لصلاة الفجر .. أو صلاة الظهر .. أو للصلاة فى أى وقت .. ونظرت إلى الناس القادمين وإلى وجوههم .. وإلى الابتسامات الوضيئة الراضية الرضية .. وواحد قال لى : سامعك .. وبعدين ؟

وبعدين قالها واحد وسط الزحام قادمًا من الشارع .. كل الناس سمعوا ما دار بينى وبين عقلى وقلبى .. كل الدنيا تسمعنى . كيف ؟

ولن أجد سبباً يجعلنى أفتح فمى وأقول .. فالكل يرى ما أريد أن أقول .. ويسمع ما لم أقل عن حكاية قديمة رويتها لعلماء زمانى أسأل واستوضح .. ما المعنى ؟ قالوا : هناك معنى . ما الهدف ؟ قالوا : الرؤيا الصادقة هدف .. وأن تراها أنت هذه رسالة .. أنت لم تستوعبها ولكن أعطيت فرصة طويلة لكى تتذكرها وتفهم .. كان ذلك من أربعين عامًا .. وربما أكثر .. كنت أجلس فى البلكونة وأنظر إلى النيل .. والليل قمر .. والقمر منعش .. والنهار لم يطلع بعد .. وكنت جالساً وحدى .. وفجأة وجدتني أقف وأقول : اللهم صل عليك .. اللهم صل عليك يابنى .. ونهضت واقفًا .. لقد نمت جالساً ووضعت رأسى على يدي على سور البلكونة ورأيت وسمعت وتزلزلت .. ولم أعرف ما الذى حدث .. لقد كان طويلاً جداً .. ساعتين .. ثلاثاً .. ليلاً طويلاً .. مع أن الذى حدث لم يزد على ثانية أو ثانيتين .. ووجدت العرق يتصبب أنهاراً من عيني ومن رأسى .. ووجدت قلبى يدق فى كل مكان من جسمى .. وتراجعت فى مقعدى أستريح من هذا التيار الكهربى الذى صعبنى .. وبعدها أحسست أن وزنى أخف .. أننى أكثر حيوية وانتعاشاً .. وأننى طفل .. ولو نظرت إلى وجهى فى المرآة لرأيتنى رضيعاً على صدر أمى .. ولم أقصص رؤياى على أحد .. عامًا .. وعشرين عامًا ..

وسمعت من الناس أن السعداء هم الذين يرون الرسول عليه الصلاة والسلام فى أحلامهم .. وإن علماء ومتصوفين عاشوا وماتوا ولم يروا الرسول .. وقد حاولوا بالصلاة والدعاء .. ولكنهم لم يروه .. وماتوا حزناً وكمدًا كيف أن الله قد حرّمهم من هذه النعمة . كنت أسمع وأسكت ولا أقول . ولا أعرف لماذا أنا ؟ ما المعنى ؟ ما الحكمة ؟ ما الرسالة ؟ ..

قال لى الشيخ الباقورى : أنت عليك مهمة خطيرة . وأنت مطالب بأدائها . .

قال لى الشيخ حسن البنا وكنت وقتها أميناً لمكتبة الإخوان المسلمين بإمبابة : يا ولدى لا أعرف ماذا أقول لك . . إن المعنى واضح . . قليلون جداً من لهم مثل حظك . . ولكن العبء ثقیل وأنت مطالب بأن تحمله وحدك . . والله على ما أقول شهيد . . انفض عنك مغريات الدنيا . . واتجه . . واستقم . . وانسلك . . وانسلخ . . وانقل علمك للناس . . إن وزرك عظیم إن لم تفعل . .

وأخافنى كلام الشيخ حسن البنا . . ولم أعد أحكى لأحد . فأنا لا أعرف ما الذى يمكن أن أفعله . . إننى مؤمن لاشك فى ذلك . .

فقال جارى : ولكن يجب أن تحكى وتقول لتكون قدوة للناس . . وليكون العلم فى خدمة الإيمان . .

واندهشت كيف أننى لم أقل شيئاً وجارى قد سمع كل شيء !

ما هذا الذى نحن فيه ؟ كيف لا أقول ويسمعنى جارى ؟ كيف لا أحكى ويفهمنى جارى ؟ كيف لا أظهر شيئاً ويفضحنى جارى ؟

ثم قال لى : أفضل !

قلت : ماذا ؟

قال : أن نصلى فى مكان آخر وأن نعود لننام فقد تعبنا اليوم .

وكان هذا بالضبط ما أريد . . وقمنا جميعاً معا . . ووقفنا فى الصف . . وتلفت إلى جارى فلم يكن هو جارى . . وإلى جارى فى الناحية الأخرى . . ليس هو جارى . . هل كنت نائماً ؟ أبداً . . هل لم أنم ؟ نعم . . فأين الناس ؟ إنهم أمواج صغيرة فى محيط . . شعاعات قصيرة فى شمس . .

يا رسول الله صرنا غرباء !

عزرائيل الموت !

تساءلنا عن أكثر السائقين في الدنيا جنونًا . . .
واحد قال : إنه السائق المصرى !
وواحد قال : الإيطالى هو الأكثر جنونًا . . . يساعده على ذلك السيارات الصغيرة
والزحام . . . والموتوسيكلات ذات الدوى العنيف والفرامل القوية . . .
وواحد ثالث قال : بل هو الفرنسى . . .
وفجأة توقفت سيارتنا مرة واحدة . . . وفى نفس واحد قلنا : بل هو السائق الإسرائيلى . . .
فاليهود عصبيون جدًا . . . ولذلك فحوادث السيارات أكثر من حوادث الحرب . . . ولذلك
فأسنانهم مسوسة وضغطهم عال جدًا . . . والسبب هو هذه الحالة العصبية الجنونية . . .
وكنا فى طريقنا إلى مدينة حيفا . . .
وكان من أثر هذه القرملة المفاجئة أن ارتطم رأس المرحوم على حدى الجبال رئيس تحرير
الأهرام فى المقعد الأمامى ونزل الدم من أنفه . . . ولما رأنا انزعجتنا ازداد اضطرابه . . . وأشار لنا
ألا نهتم بالحوادث وأن نكمل الحوار الذى بدأناه : إن الإسرائيلى أكبر سائق مجنون فى الدنيا ، ثم
إنه لم يعتذر كأن السيارة ليست إلا دبابه فى معركة . . . أو كأن من واجبه أن يقتل بعض
المصريين ، فقد فاته أن يقتلهم فى الحرب . . . فلماذا لا يستهل بهم معركة السلام ؟ . . .
وكان عزرائيل الموت أراد أن ينبهنا جميعًا فنتلقى خبر وفاة على حدى الجبال بعد ذلك فى
واشنطن بصدمة أقل . . . فقد رأينا وفاته بشكل ما فى الطريق بين القدس وحيفا . . .
وكلما تذكرت حيفا تذكرت هذه الحادثة . . .
وتذكرت قصة قديمة تقول إن أحد الأمراء نزل إلى الحديقة فوجد ملاك الموت جالسًا تحت
شجرة تفاح . . . ولما رآه ملاك الموت سقطت التفاحة من فمه . . . فخاف الأمير . فاصطدم

يلجأ إلى الأشجار ونزف الدم من أنفه . . . وذهب الأمير إلى والده يقول له : أريد أسرع حصان عندك . . .

فسأله الملك : لماذا ؟

قال : لقد وجدت ملاك الموت في الحديقة . . . ومد يده ناحيتي وهربت فارتطم رأسي يلجأ إلى الأشجار . . . وأريد أن أهرب منه على ظهر أسرع الخيول .

فأمر له الملك بالحصان الذي يريد وسأله : إلى أين ؟ فقال الابن : إلى بغداد . . .

ونزل الملك من قصره وذهب إلى ملاك الموت يقول له : لماذا تخيف شابًا صغيرًا هكذا ؟ فقال له ملاك الموت : أبدًا . . . وإنما أنا اندهشت لوجوده هنا . . . فأنا على موعد معه غدًا في بغداد !!

وكان الموت على موعد مع على حمدي الجمال في واشنطن !

أما الحقول الخضراء فهي على الجانبين . . . أما الطريق فمرصوف ناعم حرير . . . وتوجد قرى أو مستوطنات بين الأشجار الكثيفة . . . ومحطات للأتوبيسات . . . والناس من كل لون رجالاً ونساء واقفون في انتظار الأتوبيس . . . المحطات صغيرة نظيفة وفي المحطة مقاعد ومظلات والناس بيض وحمرة وسمر . . . إنهم من أوروبا وأمريكا وآسيا . . .

وأما مدينة حيفا فهي مدينة أوروبية . . . عمارات عالية . . . والشوارع صغيرة ونظيفة . . . والمدينة كلها فوق . . . أعلى من البحر . . . أعلى من الميناء الذي ازدحمت فيه السفن . . . وتعالى المداخل . . . والشوارع خالية من الناس إلا عددًا قليلًا من المشاة . . . من السيدات والأطفال . . . وفي البيوت حدائق صغيرة . . . وأشجار كثيرة في كل مكان . . . وهناك فيلات . . . وإذا وقفت على الشاطئ كان البحر الأبيض بعيدًا . . . تحت . . . هناك درجات أو طبقات من الأرض أو من الجبال . . . فالمدينة قد أقيمت على جبل أو عدة جبال متجاورة . . . وماء البحر لا هو أبيض ولا هو أسود . . . وإنما هو رمادي وكذلك السماء . . . والناس هنا أهدأ ووجوههم ملامحها قد استراحت تمامًا . . . والمثل في إسرائيل يقول لك : تعمل في القدس . . . وتسهر في تل أبيب . . . وتنام في حيفا . . .

ففي حيفا تنتهي الحياة عند غروب الشمس وينامون ، بينما لا يعرفون إلا السهر في تل أبيب .

* * *

دخلت إلى مكتبة الجامعة . . . إلى المطعم . . . إلى محل لبيع الورق والأقلام والكتب . . . جاءت فتاة صغيرة وقالت لي : أنت فلان ؟

واندهشت جدًا . فقلت لها : كيف عرفت ؟ قالت : رأيت صورتك على كتب عند والدى .

-ومن هو والدك ؟ . .

قالت : محمود العباسى . .

-آه . . طبعًا أعرفه . .

إنه مؤلف وأديب ومترجم وناشر للكتب وصاحب مجلة . . وقد التقيت به فى مؤتمر القلم الدولى فى فيينا قبل ذلك بعشر سنوات . .

وكان منظرنا عجيبيًا ونحن نمشى فى الشوارع . . فلا يوجد فى إسرائيل كلها واحد يرتدى الكرافة إلا السيد مناحم بيجين رئيس الوزراء ورؤساء تحرير الصحف المصرية . . فكنا ونحن نمشى فى الشارع الوحيد الذى يرتدون البدل والكرافات . . وتتشابه أيدينا فى الشارع . . والناس من حولنا بالفساتين أو البنطلونات الجينز والقمصان . . وكنا الوحيدى الذين يمشون بالعرض لا اثنين اثنين . . وإنما ثلاثة ثلاثة . . وأحيانًا جميعًا فى صف واحد نعرض المشاة على الأرصفة . .

وأشار السائق الذى تقدمنا إلى أحد المحلات على اليسار . . ولم تنتظر إشارة المرور ، وإنما عبرنا الشارع وتفادينا السيارات من هنا وهناك . . ودخلنا المحل وقيل لنا : إن صاحبه مصرى . .

وكانت مفاجأة للرجل الذى قال لنا بالعربية وبلهجة مصرية : أهلاً وسهلاً . . نورتم إسرائيل . . أهلاً . . تفضلوا . . ماذا تشربون ؟ .

وكنا نريد أن نشترى لمبات لقتل الناموس . . وسمعنا محاضرة مختصرة عن هذه اللمبات الفلورسنت التى يبيعونها للسويد والنرويج . . ومعظم الدول الأوروبية - ومعنى ذلك أن هذه البلاد جميعًا تعاني من وجود الناموس مثلنا . . أو أقل قليلاً !

وكانت البائعات يتكلمن العربية بلهجة مصرية . .

ونظرت فوجدت كل واحد يحمل لمبة أو اثنتين ، وخرجنا بنفس الطابور بالعرض إلى الشارع . . وقبل أن نخرج حاولت أن أغير المعنى الذى رأيته فى عيون البائعات . . فقلت لواحدة : إن هذه اللمبات خلقت لنا مشكلة لسنا فى حاجة إليها .

سألتنى : مشكلة ؟

قلت : ومن أين سنأتى لهذه اللمبات بالناموس الكافى ؟

قالت : سهلة .. خذ من عندنا أى عدد من الملايين .. فلدينا فوق الحاجة والطاقة !
هاها .. هاها !

أى إننا نعرف بعضنا البعض وهى فاهمة وأنا فاهم ! ..

هذه المنطقة كانت مستنقعات جففوها وزرعوها .. وكانت البعوضة فى حجم الدبور ..
ولابد أنهم سمعوا أو قرءوا عن البعوض المصرى عند الفيضان وعند رى الأرض .. وقبل أن
أصافح مديرة العلاقات العامة قالت لى : لا تكتبوا فى مصر أن الناموس الذى عندكم بالوف
الملايين قد جاء هو الآخر من إسرائيل !

المدينة ليست لها معالم خاصة .. اللهم إلا الكلمات العبرية على المحلات .. ولكن
الوجوه شرقية وغربية .. والوجوه هادئة حزينة .. أو هادئة فقط .. ومظاهر الصحة على
وجوه الأطفال والشباب .. ولم ألاحظ أحداً قد ارتدى شيئاً أنيقاً .. لا الرجال ولا
الفتيات .. ولكن المحلات قد امتلأت بكل أنواع السلع ..

والشوارع طالعة نازلة .. والأشجار كثيرة .. والبيوت نظيفة صغيرة جميلة ..

سألنى السائق : هه ماذا تريد ؟

قلت : المحفل البهائى .. فهنا أكبر معبد بهائى فى العالم كله .. وكان هذا المحفل هو
مصدر مهمة للبهائيين بأنهم عملاء لإسرائيل جواسيس خونة كفرة !!

وركبنا الصاروخ - أقصد السيارة - فالسائق كان يعمل سائقاً لدبابة فى الحرب .. وأكد لى
أنه كان يحارب على الجبهة السورية وأنه لم ير مصرياً قبل ذلك ..

قلت له : طبعاً تتكلم العربية ؟

قال : ولا كلمة !

قلت فى نفسى : كذاب ..

فقد لاحظت أنه يتابع أحاديثنا من المرأة كلمة كلمة .. فكنت أعاكسه بأن أستأذن الزملاء
وأتكلم الألمانية وأحياناً الإيطالية .. وأراه فى المرأة فى حالة من الغيظ لأنه يريد أن يعرف ..
ثم استخدم بعض الكلمات العبرية .. وأرى الدهشة على وجهه ..

ومن حين إلى حين يسأل : هل تكلمنى ؟

فأقول له : لا ..

ووقف بالسيارة . ونزلت مع المرحوم على حدى الجبال وهو لا يزال متضايقاً من الإصابة فى
أنفه . وقال لى : يا أخى أنت الذى يمشى معاك توجع له دماغه وتكسر له مناخيره ؟ يا أخى
احنا مالنا ومال البهائيين ؟ .. يعنى هو ده الذى ناقصنا ؟ ..

- ياراجل تعال اتفرج . . وأنا أحكى لك قصة هذه الديانة ، وكيف خرجت من إيران حتى جاء عباس أفندى عبد البهاء إلى مصر وقابل الشيخ محمد عبده والعقاد وما دار بينهم . . سوف أحكى لك قصة قبيحة ولكنها تاريخية والله العظيم . .

- يا أخى مش عاوز . . سأنتظرك فى السيارة . .

- يا راجل عيب تعال . . إنها فرجة . . سوف ترى أعظم المحافل البهائية فى الدنيا . .
أليس لك أصحاب من البهائيين ؟
- أبداً .

- إزاي ؟ ألا تعرف الفنان الكبير حسين بيكار ؟ . . إنه شيخ مشايخ البهائية فى مصر . .
ألا تعرف فلانة ؟ . .
- لا . .

- يا أخى تعرفها . . ألم تذهب ولو مرة واحدة لأم كلثوم . . ألا تعرف السيدة الطويلة السمراء التى تتكلم عدة لغات وتنادى الناس . . كل الناس ياباشا . . بتضحيم الباء .
- أبداً .

- ياراجل طيب إيه رأيك أنا شفتها فى مكتبك مع الفنان الكبير صلاح طاهر . . يوم سقطت القهوة على بنطلونى . . وفوجئنا بأنها أخرجت منديلاً حريراً جميلاً ، فضحكت أنت وقلت لها : خسارة . . معى منديل . .

- أيوه . . أيوه . . هذه بهائية ؟

- أيوه ! وتعيش فى أمريكا وقد جاءت لزيارة مصر مع زوجة الأخاخان . . إنها عندما خرجت من مكتبك رفعت يدها لكى تقبلها . .
- وأنا قبلت يدها ؟ .

- لا . . صلاح طاهر فعل ذلك بالنيابة عنا جميعاً !

- وإزاي هذه الجميلة جداً بهائية ؟

- وجهة نظر !

وقفت السيارة بعيداً . . ومن فوق الجبل رأينا البحر والبيوت صغيرة . . فالمعبد البهائى أقيم على السفح . . المعبد عبارة عن حديقة واسعة على السفح . . حديقة جميلة الأشجار والورد . . والطرق كلها نازلة . . وكلها سلاسل حتى لا يتساقط الناس . . والمحفل نفسه له قبة ذهبية . . ويقال من ذهب . . ويقال إنها أقيمت بفلوس ملايين البهائيين فى أمريكا وأوروبا وآسيا . .

وكل زوار المعبد من الأمريكان والفرنسيين . . وكل واحد معه كتاب يقرأ معالم المكان . .
وفي الحديقة تماثيل لطيور ضخمة . . لا علاقة لها بالديانة البهائية . . فهذه الديانة قائمة على
« التوفيق » بين كل الأديان . . فأملها أن يتحقق الوفاق بين الناس . . لأنه لا يوجد خلاف
جوهرى بين كل الأديان . . وإنما الخلافات قد خلقها الخاضعات والقساوسة والمشايخ . .
والله واحد عند الجميع . . وكل الأنبياء يكمل بعضهم البعض . . ولكن الخلاف بين البهائية
وكل الأديان أنها تحاول إلغاء الخلافات بين الأديان . . ثم إنها تضيف إلى الأنبياء - وآخرهم
محمد عليه الصلاة والسلام - أنبياء آخرين . . فالقرآن الكريم يقول : إن محمدًا خاتم الأنبياء
- أى آخرهم . . ولكن البهائية ترى أنه « خاتمهم » أى الخاتم الذى تزدان به أصابع النبوة . .
فهو أجملهم وأعظمهم وليس آخرهم !!

فالبهائية حاولت إرضاء كل الأديان فأغضبت الجميع . ولأن البهائية لم تتخذ موقفًا حاسمًا
من كل دين ، اتهمتها كل الأديان . . ولأن معبدهم الأكبر هنا فى حيفا ، اتهمناهم
بالحاسوسية لحساب إسرائيل . .

والبهائية دين معترف به فى إيران . .

ومن حق كل إنسان أن يكتب فى بطاقته أو جواز سفره أنه بهائى !

وقد عاقبت مصر الفنان الكبير حسين بيكار فلم تعطه جواز سفر إلا إذا كتب أنه مسلم أو
مسيحى أو يهودى أو بوذى - ولكن بهائى لا . .

وبعد ذلك دخل حسين بيكار السجن ، فغضب كل الفنانين والأدباء والشعراء فى مصر
وفى العالم العربى . . لا إيمانًا بدينه ، ولكن احترامًا لحرية العقيدة . . وحبا فى الفنان الكبير
الذى هو رمز للصفاء والنقاء !

ونحن فى داخل المعبد الخالى تمامًا من أى شىء إلا النقوش الذهبية والنوافذ الطولية ذات
الزجاج الملون الجميل ، اقتربت سيدة تسألنى بالفرنسية : أنت إيرانى ؟ قلت : نعم . .

- بهائى ؟

- نعم .

- لماذا ترتدى هذه السيدة - التى هناك - قبة عليها هذا العدد الكبير من العصافير ؟ . .
ولماذا زوجها يمشى حافى القدمين ؟ . . ولماذا يلفان كل هذه الأحذية حول طفلها الصغير ؟

- مجانين ياسيدتى !

- تقصد أنها ليست تعاليم البهائية .

- لا . .

- ولكننى قرأت أن المسلمين يخلعون الأحذية فى المساجد . . ويتركونها عند الباب . . فأنا اعتقدت أن هذه الأسرة تخشى على أحذيتها أن تسرق فلفوها حول عنق هذا الصغير . .

- ولكن البهائيين لا يفعلون ذلك . .

وسمعتها تقول لزوجها عنى بالألمانية : لقد سألت رجلاً مجنوناً . . هيا بنا نخرج فليس هنا إلا أناس مجانين !

واندهش على الجحال وسألنى : ما هذا ؟

- يا أخى ما الذى تتوقعه ؟ . . إنها تريدنى أن أكون إيرانيًا بهائيًا . . فليكن .

- لماذا لا تسألها : على أى أساس قررت أنك إيرانى وأنتك بهائى !

- ولماذا أسأل ؟ . . ولو قالت لى أنت هندى . . صينى . . فلن أعترض ! فأنا لست موضوع البحث . . وإنما أريد أن أعرف ماذا تريد هى . . كلام يا أخى . . كلام ! تحب تشوف ؟ . .

- أرجوك . . لا بأحب ولا عاوز أشوف . . كفاية !

- آخر اقتراح . . لماذا لا تدخل أحد المستشفيات لعلاج أنفك لكى تنفج على نظام المستشفيات والعلاج ؟ . .

- لا .

- ما الذى تخسره ؟ . . عندنا وقت . .

- لا .

- طيب عندى اقتراح . . ونحن فى طريق العودة إلى تل أبيب . . سوف أتظاهر بالمغص والدوخة بالقرب من إحدى المستوطنات ونطلب إلى السائق أن يذهب إلى أقرب مستشفى ونتفج على هذه المستوطنات . . يا أخى فرجة . .

- ما هو المرض اللى عندك ؟

- يا أخى أى مرض ؟ . . إن شا الله أشكو من أعراض الحمل والولادة فأنا أريد أن اعرف !

* * *

وفى الطريق اصطدمت سيارتنا بسيارة أخرى . . وفى آخر لحظة تفادى السائق موتا مؤكدًا . . إنه ملاك الموت يرفرف حول هذه السيارة . . أعوذ بالله . .

قلت للسائق : كم سوريا قتلت ؟

قال : أنا ؟ . لا أعرف . . فنحن في الدبابات نطلق النار في كل اتجاه . . وغيرى هو الذى
يحصى عدد القتلى . .

- هل أنت آسف أنك لم تقتل أحدًا من المصريين ؟ . .

- آسف ؟ . . ولماذا ؟

- لأنك الآن كدت أن تقتل اثنين من رؤساء تحرير الصحف المصرية . .

- من هما ؟

- نحن !

- بالعكس أنا تفاديت الاصطدام وموتنا جميعا . . إن السائق الآخر هو الذى يريد أن يقتل

سائقًا إسرائيليًا آخر ولا يهتم من يكون معه . . بل هو متضايق جدًا لأن سيارتى حكومية !

- هو على خلاف مع الحكومة ؟

- كلنا على خلاف مع الحكومة !

- هذه الحكومة ؟

- أية حكومة !

بكين: من الذى يعرف؟

تلك لك . . كوان هون هوا بوم توكا - ليست هذه أخطاء مطبعية . وإنما هى عبارة صينية معناها : المكان الذى تسأل عنه أنت واقف أمامه !

ولم يكن هذا المكان إلا مطعماً من ناحية ودكاناً لبيع الصينى والجلود والحزف ولعب الأطفال من الناحية الأخرى .

وقالوا لى : إذا دخلته فقل على نفسك يارحمى يارحيم . يعنى أننى سوف أنفق كل أمولى ! ونظرت حولى يميناً وشمالاً ولم أجدى تحت أى إغراء . . فقد رأيت محلات كثيرة فى الدنيا شرقاً وغرباً بعدد شعر رأسى . فليس من السهل أن يبهرنى أى محل . . ولكن أعدت النظر مرة أخرى . . ابتداء من الفتيات الصغيريات اللاتى يبعن . . هذه إذن هى الملامح الصينية التى تسيطر على كل قارة آسيا عدا الهند والشرق الأوسط . . ولا أكاد أقرب من أية واحدة حتى تظهر ابتسامة خفيفة مع حركة من شفيتها الصغيرتين . . وانطلاق صوت صارخ كأنه صوت فأر أو قط مخنوق . . ولابد أن هذا الصوت معناه : أهلاً وسهلاً أو تحت أمرك . .

ففى هذه الحالة لا تملك إلا أن تحنى رأسك وتقول أى كلام مثلاً : يانهار أسود . . هيه دى بكين ؟ هيه دى المحلات اللى تدوخ من يدخلها وتدوخ أكثر من يخرج منها ؟

فأنت تستطيع أن تقول أى كلام فلن يفهمك أحد ، كما إنك لن تفهم أحداً ! وتذكرت ما يفعله الصينيون فى هونج كونج . . فأنت لا تستطيع أن تضحك أو تهرب أو تخرج أى واحد منهم . فكل شىء سوف يصنمونه لك . . مثلاً : أريد بنطلوناً رجله بيضاء والثانية حمراء . . وله زراير من الخلف . .

وبسرعة يقول الرجل : موجود !

فتقول له : بنطلونا ضيقاً خانقاً كالبنطلونات الأمريكية وواسعاً كالبنطلونات اليابانية . .

ويرد عليك : موجود !

وتقول : وأريد الجيوب أن تكون من الخارج . .

- موجود !

وتقول له : ولكن اللون الأحمر أريده درجات . .

- موجود !

- وأنا مستعجل ولذلك أريد البنطلون بعد ساعتين . .

- بعد ساعة واحدة !

فما معنى ذلك ؟

معناه أن الصينى فى هونج كونج قادر على أن يحقق لك أية رغبة . . ولا يمكن أن تفلت منه مطلقاً . كل شيء يمكن عمله وبأسرع مما تتصور . . أما فى بكين فالأمر مختلف . فكل شيء محدد تمامًا . وكل شيء معروف . ولا تستطيع أن تضيق وقت أى واحد . قلت للفتاة الصغيرة التى تتكلم اللغة الإنجليزية بصعوبة : عندك سيارة كاديلاك ؟

قالت : نعم .

وفتحت الدرج وأخرجت نموذجًا لها !

وجدت أن الاستمرار فى هذه اللعبة شيء سخيف . فأنا أعرف مقدمًا الظروف الصعبة التى لقيها الصينيون (ألف مليون نسمة) وأن هذا الشعب جاد جدًا . . فليس عندهم وقت لهذه المسخرة !

خرجت من المحل بسرعة . فالمحل كبير . الجدران عالية . لا يوجد تكييف . . الهواء خائق فاسد . . كل واحد يعرف لماذا وماذا يريد . . وفهمت أن هناك نوعين من المنتجات الصينية . النوع الذى نراه أمامنا وهو لكل الناس . . والنوع الذى يباع خارج الصين وهو أحسن المنتجات من السجاد والمفارش والأكواب والفناجين والحرير المشغولة الجميلة . . يعنى إذا كان أحد يريد أن يشتري مشغولات صينية يجب أن يذهب إلى الرياض أو باريس أو هونج كونج . . أما هنا فى بكين فلن يجد إلا السلع الشعبية !

وركبت السيارة وانطلقت يمينًا وشمالًا . . وطولًا وعرضًا . . الشوارع واسعة جدًا . . والمؤسسات عالية ضخمة . . كتل حجرية متراصة . . والناس صغار الأحجام لهم وجوه واحدة . . شاحبة . . أو هى صفراء سمراء . . لا تعبير عليها . . وعلى الجانبين الأيمن والأيسر ألوف البسكلتات . . تمشى فى هدوء وفى صمت . . لا أحد ينظر لأحد . . الكل يتحرك . . وقد تدربوا على ذلك العمر كله . . وعند إشارات المرور يقفون فى صمت . . ومن النادر أن تجد أحدًا بدينًا ، كما إنه أندر من ذلك أن تجد أحدًا يضحك !

وجدت فتاة قد ارتدت قميصًا أمريكيًا عليه أسماء بعض الأفلام والنجوم ثم إنها تضحك . . أشرت بيدي إن كان من الممكن أن أتحدث إليها . فتوقفت ونزلت من البسكلت وقالت : هالو من أى البلاد أنت ؟

قلت : من مصر .

قالت : هالو . . وأنا من مدينة جنوب العاصمة ، وقد تعلمت الإنجليزية بلهجة أمريكية من سنوات طويلة . .

قلت : سنوات طويلة ؟ ولكن أنت صغيرة !

- كم عمري ؟

- المرأة لا عمر لها . .

- ٢١ سنة . .

- كدت أقول ١٢ سنة . .

- فى يوم من الأيام كان عندى ١٢ سنة .

- عندك وقت ؟

- نعم .

- هل أدعوك إلى شاي ؟

- شكرًا .

وجلسنا . سألتها عن هذا الذى أراه وهذا الذى لم أره فى بلاد الصين الواسعة جدًا . . عشرات المقاطعات . . واللغات واللهجات . .

قالت : أحسن ما فعلت أن تجلس فى مكان وتتفرج على الناس . . فالمثل الصينى يقول . لا زفة فى سوق !

والمثل معناه أن الإنسان لن يدرى به أحد إذا كانت له زفة فى الزحام . ويقال إن الرجل الطيب كونفوشيوس قد سمع عن سيدة جميلة جدًا ، ومنحطة جدًا وزوجة لأمر قوى جدًا . . ولكنها هى التى تحكم الأمير . ذهب إليها . وتحدث الناس وقالوا كيف يذهب الخير إلى الشر؟ كيف تسعى الحكمة إلى الرذيلة ؟

فتضايق كونفوشيوس وخرج من عندها . . ثم عاد إليها مرة أخرى ومعه زوجها . . فقال الناس : كيف استطاع الرجل وامراته أن يلطخا سمعة هذا الحكيم العظيم ؟

فخرج كونفوشيوس غاضبًا وقال عبارته الشهيرة : غلطة : زفة فى سوق ومعنى ذلك أن من الصعب أن يوجد شيء جميل . . وسط شوشرة من الكلام والشائعات !

وسألتها إن كانت من الريف . فأجابت بأنها فعلاً من الريف . ولما سألتني عن كيفية استنتاج ذلك . قلت لها : لأنك تضربين أمثلة كثيرة . . ككل أبناء الريف الذين تتحكم في حياتهم وسلوكهم الأمثلة الشعبية مثل : الصبر مفتاح الفرج . . طولة البال تهد الجبال . . يا جاري أنت في دارك وأنا في داري . . إلى عنده حنة يحنى ديل حمارة !

قالت لي : إن هذا الجانب من المدينة هادئ جداً . . والمثل يقول : تستطيع أن تمسك العصافير من فوق العتبة . . أى إن أحداً لا يدخل ولا يخرج من هذا البيت لدرجة أن العصافير قد اعتادت على الوقوف أمام الباب دون خوف من أحد . .

قلت لها : ونحن عندنا يقول : كأن على رؤوسهم الطير !

أى إن الطير يقف على رؤوسهم دون خوف ، لأن رؤوسهم لا تتحرك !

* * *

الشوارع كلها واسعة طويلة متشابهة . . والأشجار على الجانبين وفي وسط الطريق . . وليس عندهم شارع لا تجدد عند جانب من جوانبه حديقة صغيرة . . ولا يوجد وقت نهائياً أو ليلاً لا تجد واحداً قد وقف يتأمل جمال الماء والزهور وأحياناً الطيور . . أما في الساعات المبكرة من كل يوم فتحول الشوارع إلى ملاعب . . أو جمانزيوم مفتوح . . فالناس تؤدي ألعابها الرياضية في الشارع . . وتجد أناساً تقدمت بهم وبهن السن يؤدون ويؤديون ألعاباً صعبة جداً هذا يحنى ظهره . . أو يكسره مائة مرة . . وهذه ترفع رجلها إلى مستوى الرأس بخفة ورشاقة رغم أنها تجاوزت السبعين . . وهذا يزحف على بطنه . . وهذا يتقلب كأنه ثعبان . . وهذا يقف على أطراف أصابعه نصف ساعة . . وهذا معه سيف . . وهذا يرفع حديدًا . . كل ذلك في الطريق إلى العمل . . وقبل دخول المصانع والورش . . اقتربت من أحدهم وقرأت ما كتبه لي المرافق الصيني فقلت : تلبوا . . لوكو . . أدنا هوا أوناشى تون تى - ومعناها : كم مرة تؤدي هذه الحركة ؟ فقال : مائة وعشرين مرة !

تصور . . الرجل عنده سبعون عامًا أو أكثر ويقفز على الأرض فوق ساق واحدة مائة وعشرين مرة .

وكتب لي المرافق في ورقة : لوهانا . . يوهاتا شنشو مودانى . . كوتو . .

فأجاب : مرتين في اليوم . . مرة في الصباح ومرة قبل النوم . . فيما عدا الحركات الرياضية الأخرى . . إننى أؤدي هذه الحركات ساعة كل يوم منذ أكثر من ستين عامًا . .

وقرأت من الورقة : وفي اعتقادك أنك سوف تعيش كم عامًا !

فظهرت ابتسامة خفيفة على وجهه وقال : إذا لم يصبنى مرض خطير . . فسوف

أعيش حتى الخامسة والتسعين . . وهى السن التى مات فيها أبى وأمى وجدى وخالى وأخى
الأكبر

* * *

أما البيت الذى أقيم فيه . .

فدعنى أصف لك البيت . . إنه ليس بيتًا . . وإنما هو قصر من قصور الأمراء أو الملوك . .
وسط حديقة جميلة . . بها أشجار كثيفة وفيها بحيرات صناعية . . وعدد كبير من البيغوات
التي ترقع بالصوت منذ شروق الشمس حتى غروبها . . وفى البحيرات يوجد الأوز الأبيض
والأسود والبط البكى الشهير . . وعلى شاطئ البحيرة توجد بجعة ضخمة كالتى نشاهدها
فى سوق السمك فى الإسكندرية تمشى بين المحلات وتلتقط ما تشاء من السمك دون أن
يعترض أحد . حاولت أن أشتريها لنفسى فقال لى واحد بلدياتى من تجار السمك : خذها إذا
أردت الآن . . ولكن يجب أن توفر لها كل يوم خمسة كيلو جرامات سمك ؟

هذه البجعة الصينية تعترض المشاة . . وتهجم عليهم . . ولكن أحدًا لا يتعرض لها . .
إنهم يداعبونها . .

وعلى باب القصر موظفون للاستعلامات والتليفونات . . وتنظيف الغرف وتنظيم
الوقت . . وكل شيء يتم بنظام وفى هدوء تام . . ولا صوت فى أى مكان ولا صدى . . ولكن
يغلب على الروائح كلها رائحة البن . . وروائح أخرى لا أعرف ما هى ولا أعرف كيف
أصفها . .

أدخل المطعم . . القاعة كبيرة . . واسعة . . كل شيء نظيف جدًا ومنظم . المائدة عبارة
عن ترابيزة دائرية . . وفوق الترابيزة قرص دائرى . . وعلى هذا القرص توجد الأطعمة كلها . .
وأنت تدير القرص فيجىء الطعام الذى تريد أمامك . .

هذا الطعام الذى يقدمونه هو الذى يناسبك أنت وليس الذى يأكلونه . . إنه طعام
أوربى . العجة والخبز والصلطة والمربى والفاكهة والشاى والقهوة . . ويحدث ارتباك بين
السفرجية - أكثرهم بنات - إذا أنت طلبت مزيدًا من أى شيء غير الشاى والقهوة . . فإذا
قلت : ممكن من فضلك بيضتين . .

فلا أحد يتصور أنك مفجوع لدرجة أن تأكل على الريق أربع بيضات . . ولكنها سوف
تأتى لك بما تريد بعد حوار يدور فى المطبخ ينطوى على الدهشة من وحشيتك ، وأنت لا تهتم
بصحتك . . ولا أحد يعرف إن كان هذا بيض عصافير أو بيض غربان . . إنه بيض والسلام !
وأحسست فى هذا القصر كأننى أعيش فى أية دولة أوربية . . لولا الفتيات وبعض الزينات
واللوحات . . فقررت أن أذهب إلى مطعم شعبى . وكان معى المرافق الذى رجوته ألا يتدخل

فى سلوكى إلا إذا أحس أننى ضمت تمامًا أو أكاد أضيع . . ووافق الرجل . وكان لطيفًا .
وقال لى : كلها دقائق وسوف تنادينى . . قلت : لا . . سوف أحاول !

أما المطعم فهو متوسط المساحة . . ولكن الزحام شديد . . والروائح لا توصف . ولا
يمكن معرفتها أبدًا . . هل هذا لحم ميت ؟ هل هذه غازات سامة ؟ هل هذا الدخان احتراق
شئ ؟ لا يمكن أن أصف هذا الذى أشمه . . ولكن الناس جلسوا فى هدوء . ومعظمهم
يتكلم . . ولكن هناك ضوضاء لا أعرف مصدرها . . جاء الرجل وأشرت بيدي لى أننى أريد
طبقًا كبيرًا . . ولم يفهم الرجل . . أو لم يهتم كثيرًا بأن يفهم . فأنا لست إلا أحد الأجانب ولا
داعى لوجع الدماغ معى . . وجاءت فتاة صغيرة تلميذة وحاولت بلغة إنجليزية مكسرة جدًا
أن تسألنى عن الذى أريد . . وأتت بقائمة طعام وأشرت بأصبعى لى سطور باللغة الصينية .
وذهبت الفتاة وعادت بعد لحظات .

الطبق ملىء بأكوام صغيرة من الأعشاب أو من اللحوم . . أو من الاثنين معًا . مع كوز
ذرة صغير جدًا مسلوقة . . وبعض سيقان الكرنب أو البصل أو الفجل وبعض الصلصة . .
نقطة صلصة هنا ونقطة هناك . . وانحنت الفتاة وذهبت . . وأدريت الطبق من أنفى . . لا
يمكن أن أعرف بالضبط ما هذا الذى أمامى . .

وكان لابد أن أسأل المرافق فقال لى : بيض ثعبان . . ولحم القطط الصغيرة . . وقطعة من
لحم الكلب . . وقطعة من قلب ثعلب . . وأعشاب من الجنوب . . وصلصة من دم الخنزير
مع دهن الخنزير وديدان البحر والعلق والقليل جدًا من عسل النحل أو من السكر . . وكلها
طازجة ، فهنا لا يعرفون الثلاثجات . . كلها حيوانات ذبحت صباح اليوم . .

* * *

فهل لو جاء سائح أجنبى لى القاهرة ورأى جامع الأزهر فقط . . أو مسرح البالون
فقط . . أو المديح فقط . . أو مقابر الغفير فقط . . فهل يحق له أن يقول إنه رأى القاهرة وعرف
عادات وتقاليده أهل مصر كلها ؟

هل إذا أنا انتقلت من قصر لى حديقة ومن حديقة لى شارع لى ميدان لى مطعم أستطيع
أن أصف لك ما هى بالضبط حياة أكثر من ألف مليون نسمة يسكنون مساحة من الأرض
تبلغ ستملايين كيلو متر مربع ودينهم الكونفوشية والبوذية والتاوية والمسيحية والإسلام ؟ هل
يمكن معرفة التغييرات التى أصابت الناس . . وثوراتهم على النظام العتيق . . أو الدول
الشيوعية التى جعلت من مذهبها هذا المذهب المهيمن للإنسان وكرامته . . الشيوعية ذلك
الحيوان المتوحش الذى لا يأكل إلا نوعين من الطعام : الحرية والكرامة ، ولابد أن يدمن نوعًا
واحداً من الكلام : المستقبل . .

وهى أكذوبة كبرى . فالشيوعية قد قضت على أى أمل فى مستقبل الإنسان . . . ولذلك
ثار الشباب فى الصين . . . ولكن ثوراتهم صغيرة . وكان من السهل القضاء عليها . . . ولكن لا
يهم . إنهم أعلنوها . وعرفت الدنيا سخطهم وقرفهم . وهم يفعلون ما يفعله الذين يفقدون
طريقهم فى الجبال أو فى الغابات . . . إنهم يطلقون أعيرة نارية فى الفضاء لكى تلتفت إليهم
الطائرات فتقتلهم . . . وهذا ما حدث . فقد عرف العالم كله ماذا يريد الشباب فى الصين . .
ولابد أن يحدث فى الصين وفى كوريا الشمالية وفى كوبا وفى البانيا ، ما أصاب كل الدول
الشيوعية . . غدا أو بعد غد . . فلا بد أن تتحطم الأغلال والأسوار وتنطلق الألسنة . .
ويسترد الألف مليون نسمة ما فقدوا عشرات السنين . .

ولابد أن تكون البداية فى الاتحاد السوفيتى . هذا مؤكد .

قال الفيلسوف الإنجليزى ميل : لو أن نملة وقفت على حجر أسود كبير فى بناء كبير ولم
تبرح هذا الحجر ، فإنها ترى أن كل شىء أسود . . وأن هذه طبيعة الأحجار . ولو أن نملة
أخرى وقفت على حجر كبير أبيض لرأت أن اللون الطبيعى للأحجار أن تكون بيضاء . . وهذه
على حق إلا قليلاً . . وتلك على حق إلا قليلاً . . ولكن الصقر الطائر فى الهواء هو الذى
يعرف أن البناء يتكون من أحجار سوداء وبيضاء وحمراء وصفراء . . ومنها جميعاً تتكون لوحة
فنية . . وأن المهندس قد اختار هذه الألوان ليحقق انسجاماً واتساقاً فى الألوان والأحجام . .

وكننت واحدة من هذا النمل . . وكننت واحداً من هذه الصقور أيضاً . . رأيت القليل من
بكين عن قرب ، والقليل منها عن بعد أيضاً . هل رأيت بكين ؟ جانباً منها . . هل رأيت
الصين ؟ جانباً منها أيضاً . . تماماً كما نلتقط قطرة من المحيط ونقوم بتحليلها لنعرف عناصرها
التي هى عناصر مياه المحيط كله . . لولا أنها لا تحتوى على الحيوانات من كل نوع وعلى
النباتات من كل لون وعلى السفن والغواصات وصراع الناس فى كل العصور . .

فإن لم تكن هذه هى بكين فهى عينة منها . .

وإن لم تكن هذه هى الصين فهى ثقب ضيق فى حائط الصين العظيم أنظر من خلاله .
هل رأيت ؟ نعم ! هل سمعت ؟ نعم ! كل شىء ؟ لا . كل الناس ؟ لا . . وإننا بعض
الأشياء وبعض الناس وبعض الوقت - أملاً فى زيارات أخرى .

ولكن القليل الذى رأيت وسمعت وأكلت وهابشت يكفى للدلالة على أكثر المعانى
والعادات والتقاليد . . والشعور أمامها بالصخامة والضآلة . . وبالحكمة والعجز . .
والرسوخ والزلازل . .

ولقد ذهبت أطلب العلم من الصين - كما ينصح الحديث النبوى الشريف - ولكن الصين
لم تبح إلا بالقليل ولم تتكرم إلا بالفضيل . . ولكنها قالت وباحت . . فشكراً على ذلك !

سيدنى : وضاعت ذاكرتى !

حدث لى شىء عجيب لأول مرة . . فقد كنت أمشى فى الشارع أنلفت يميناً وشمالاً . . أقرأ اللافتات وأحياناً أنظر إلى الناس . . فجأة وجدت أنى لا أعرف أين أنا . . ما اسم هذه المدينة ؟ فقد رأيت مدناً كثيرة جداً . . وتشابهت المدن الأوروبية والأمريكية . . وخاصة فى الدول التى تتكلم لغة واحدة . .

حاولت أن أتذكر أين أنا . . لم أستطع . . اندهشت لما أصابنى . . ورحت أفكر كيف من الممكن أن يفقد الإنسان ذاكرته . . كيف يتعطل العقل . . كيف أن كل شرائط الذاكرة قد مسحت تماماً . . إن هذا يحدث عندما تضع شريط كاست فى جهاز تسجيل ، وتضغط على زر فإذا هو يمحوه كله . . ولكن ما هو الزرار الذى ضغطت عليه فى ذاكرتى فإذا كل شىء أبيض ؟ كأنى ألقيت فى بئر مظلمة . . لا صوت . . لا ضوء . . لا إحساس بأى شىء فعلاً أنا لا أعرف أين أنا . . فالشارع أوروبى أو أمريكى . . واللافتات مكتوبة بالإنجليزية . . والناس أوروبيون . . حاولت أن أجده شيئاً فى الشارع . . فى الناس . . فى الفترينات يدلنى أين أنا . . لم أجده . . ووجدت صندوقاً حديدياً على الرصيف فجلست أفكر فى هذا الذى أصابنى . . فلم يحدث من قبل أن فقدت ذاكرتى كل هذه الفترة الطويلة . .

أحاول أن أتذكر أين كنت بالأمس . . لا أعرف . . أين أنا الآن . . لا أدرى . . فى أى فندق . . أمد يدى إلى جيبى أستخرج جواز السفر . . لقد تركته فى الفندق . . أضع يدى فى جيبى أستخرج النقود . . لم تكن معى نقود . .

قررت أن أمضى فى السير ، فلا بد أن أجده شيئاً يدل على المكان . . بعض المحلات التى تضع اسم هذه المدينة فى أسائها أو منتجاتها أو أرقام تليفوناتها . . المحلات كلها مغلقة . . لابد أنه يوم الأحد . .

لقد ازداد ضيقى وفى نفس الوقت تصميمى على أن أعرف أين أنا . . مشيت طويلاً

وعرضها . . العمارات واحدة في هذا البلد وفي أوروبا . . اللافئات بالإنجليزية ولكن في أى مكان ؟ هل أنا في إنجلترا أو كندا أو نيوزيلندا أو استراليا . . آه إنها استراليا . . قفزت هذه الكلمة فإذا كل المصاييح تضىء في رأسى والدنيا أمام عيني . . وهذه المدينة هى سيدنى وأنا جئت هنا . . وأنا أنزل في فندق في شارع جورج بالقرب من شركة طيران استراليا كانتاس . . وأنا الآن أبحث عن مطعم لرجل لبنانى قابلته في الطائرة . . والدنيا برد فنحن في شهر أغسطس وهو عز الشتاء في النصف الجنوبي من الكرة الأرضية . . ومددت يدي إلى صدرى فوجدت أننى أضع « بلوفر » وفوق البلوفر بالطو وهذا الذى في يدي شمسية للمطر . . وفي أحد جيوبى قرص أسبرين وأنبوية « مرهم النمر » الصينى الذى يستخدم عند الإصابة بالبرد . . إصابة الرقبة أو الكتف . . ورفعت البنطلون فوجدت أن جوربى من الصوف . . إذن فأنا في مأمن من البرد تمامًا فأنا أستطيع أن أعبر مفارق الطرق وأعرض للهواء دون خوف . . فقد اتخذت الاحتياطات الضرورية . . الأجسام والوجوه والألوان كلها إنجليزية أو أمريكية . . فالاستراليون وسط بين الأمريكان والإنجليز . . ويسعدهم أن يقال إنهم إلى الإنجليز أقرب . . فهم أحفاد المجرمين الإنجليز . . فالإنجليز كانوا يعيشون بالمجرمين إلى أمريكا . . وكانت أمريكا مستعمرة بريطانية . . ولكنها عندما استقلت سنة ١٧٧٠ لم يعد في استطاعتهم نفى المجرمين هناك . . وإنما اتجهوا إلى هنا . . إلى « خليج النباتات » الشهير في مدينة سيدنى . . ففى سنة ١٧٨٨ جاء « الأسطول الأول » البريطانى إلى هذا الخليج الذى أراه أمامى الآن . . ورسى إحدى عشرة سفينة عليها ٧٥٩ مجرمًا و ٢١١ جنديًا و ٣٠ زوجة و ١٢ طفلًا . . أنزلوا إلى هذا المكان الذى أقف عليه . . وتركوهم بلا طعام ولا شراب ولا مأوى . . ولا أحد يعرف شيئًا عن هذه البلاد . . وكانوا يطلبون إليهم أن يبحثوا لهم عن أى شىء يأكلونه . . فلم يكن أمامهم إلا أسماك البحر . . وفي الليل كانوا ينامون على السفن . . وكان قائد هذه الحملة رجلًا غليظًا . . كان يضرب بالكرباج ويضع السلاسل في الأيدي وفي الأعناق . . لقد رأوه يشنق أحد الجنود لأنه سرق قطعة صابون . . ثم رأوه يأمر بحبس جميع الضباط في سجن السفينة ١١ ثم جعلهم يعملون في تسوية الأرض ورصف الطرق المجاورة للخليج . . أما وراء أشجار الغابات فوقف سكان استراليا الأصليون ينتظرون ويتحفزون .

وكانت هذه هى البداية لإقامة « مستعمرة العار » كما كانوا يسمونها أى مستعمرة المجرمين واللصوص والقتلة . .

وبعد ثماني سنوات من الاستيطان جاء أحد الجنود يعلن لقائد الحملة أنه وجد قطيعًا كبيرًا من الأبقار . .

فقد أطلق القبطان عندما رست السفن في الخليج ست بقرات وثلاثة ثيران . . وتركها ونسيها ، فتكاثرن . . وكان ذلك أول طعام فخم لكل المجرمين . .

وفى كل رحلة استكشاف إلى أى مكان فى العالم يوجد رسام وطبيب وفلكى . . الرسام يسجل الجديد من النباتات والحيوانات والشعوب التى تسكن الأراضى المجهولة . . ومن بين الصور التى سجلها رسام هذه الحملة صورة رجل أبيض وقف على كتفى زجل أسود يلتقط الثمار من بين أوراق الشجر . . وصورة لرجل أسود أمسك كانجرو وواحد آخر يذبحه والناس يصرخون فرحاً . . وصورة لضابط كبير يجلد طفلاً صغيراً وكل الدموع والرعب والذل فى عيني الطفل - منتهى الوحشية !

ولا أظن أن استرجاع هذه الصور والأحداث قد أحرق المصابيح فى ذاكرتى فأصبح كل شيء أسود ذاكناً . . هل كرهت هذا العنف ؟ هل ندمت على أننى جئت إلى بلاد ليست لها أية معالم ؟ وهل من المنطق أن أحكم على قارة استراليا من أول ليلة ومن رؤية جزء من مدينة كبيرة لا أعرفها وقد فتحت عيني على كل شيء ساعة أو ساعتين ؟ طبعاً هذا خطأ فظيع . . لا بد أن أنظر . . أن أرى . . أن أتكلم . . أن أناقش . . أن أقرأ . . أن أستمع . . أن أعيش . . فأنا الآن لم أر شيئاً . . ولا بد أن أرى !

قلت للصديق اللبنانى الجديد: لا بد أن أرى لكى أعرف . . لكى أكتب . . لكى أقول لنى جئت فعشت . . فعندى ذكريات !

جلسنا نتكلم عن كيف جاء اللبنانيون إلى هذه البلاد . وكيف أصبحوا أصحاب ملايين ولهم رأى وسلطة ثم إنهم استراليون لحماً ودماً . إن لهم قصة واحدة . فهم يبعثون إلى هذه البلاد تجاراً يبيعون الأقمشة والمنتجات الصينية . . ويتنقلون بها على ظهور الخيول . . ومعظمهم كان يتنقل على ظهور الجمال . ولولا الجمال ما كانت حضارة هذه القارة . . فلان البلاد صحراوية شاسعة جداً ، كان الجمل هو الحيوان الوحيد الذى يقاوم الصحراء والجفاف . . وعلى ظهور الجمال انتقلت كل أدوات الحياة . . أهم شيء : أسلاك التليفونات والأعمدة الخشبية . . كلها نقلتها الإبل ألوف الكيلومترات . . وكذلك نقلت الإبل أشرطة السكك الحديدية . .

فاستراليا قارة قامت على ظهور الإبل !

ثم كيف أن اللبنانيين والسوريين عندهم صبر أيوب . . فكانوا يتنقلون بين الشواطئ بالزوارق فى رحلات خطيرة . . ولكن كان نجاحهم مطرداً . وإصرارهم قاطعاً . ثم إن الواحد منهم لا يكاد يستقر حتى يدعو أهله . . ثم أهل قريته جميعاً . ولذلك ففى مدينة سيدنى هذه قرى لبنانية كاملة جاء أفرادها الواحد وراء الآخر . . وأكثرهم لا يعرف كلمة إنجليزية . . ثم إنهم الآن يتكلمون الإنجليزية بطلاقة ولا ينسون اللهجة اللبنانية الجبلية . .

وكان صديقي « جوزيف أبو سمرة » قد أجلسنى فى ركن ضيق من المطعم الصغير . . لا هواء ولا شباك . . كأننى فى مخبأ هارب من العدالة . . فقلت فى نفسى : لعلها من عادات هذه البلاد إخفاء ذكرى الهاربين الملعونين الذين أسسوا هذه القارة !

وكلما روى لى حكاية استأذن دقيقة ليعود ويقول لى : حالا . .

ولم أفهم . . ولا أعرف ما هذا الذى يستعجل حدوثه . . حالا . . دقيقة . . حالا وحكاية . . حالا وضحكة غير مفهومة . . ويتخلل ذلك أن أصافح والدته . . ووالده وولديه . . وأحد الأقارب ، وفى كل مرة يقول : إنه صحفى مصرى . . أول مصرى نراه فى استراليا . .

وحالا لآخر مرة . . وقدم لى زوجته . . وبسرعة خلعت زوجته حزام فستانها . وقال لى . هذا الزنار - أى الحزام - هو طوق النجاة وسلم الحرية . . تفضل يايه !

لم أفهم . ولكنه لف الزنار حول رقبتى وجعله على شكل كرافطة . . لأن المطاعم لا يمكن دخولها إلا إذا وضعت كرافطة . . وكان هذا الزنار هو الكرافطة . . ثم طلب منى أن أخلع البلوفر وأن أكتفى بالباطور فوق القميص . .

وعندما دخلنا المطعم . . أشار الجرسون لى أن أخلع الباطور ، فسعلت بقوة . وقالوا : إنه مريض . . نرجوك !

ووافق الجرسون على مضمض !

وبسرعة قامت مدام جوزيف وشبكت طرفى ياقة القميص بدبوس . . لأن القميص بلا زراير . . وهذا من شأنه أن يجعل الكرافطة تبدو كأنها ليست كرافطة ، هذا بعد أن لفت الجرسون نظرنا لى أن بعض الموجودين مستاء تمامًا من هذه الحيلة المكشوفة التى تؤدى إلى إفساد الجو العام الوقور فى المطعم . . فهمسوا فى أذنه أننى أمريكانى « كاوبوى » ، ولا أعرف أصول الدوق والأدب الإنجليزى الاسترالى !

فوجد الرجل فى هذا الاعتذار تحية له واعترافًا بالتفوق على الأمريكان رعاة البقر !

ووافقت على أن ألتقى فى إحدى الحفلات بأكبر عدد من الأجانب والاستراليين . . ولم أجد صعوبة فى الحصول على كرافطة مناسبة أول الأمر ، ثم وجدت صعوبة فى معرفة الفرق بين اللبنانيين والحواجات . . وخاصة إذا كان الذين أتحدث إليهم من الشباب . . أما العواجز فيظهر الفرق واضحًا وخاصة فى اللغة . سألت سيدة لها هيئة فخمة ونظرة متعالية كأنها صاحبة هذه القارة . فقلت لها : سيادتك زوجة السفير البريطانى ؟

قالت : لا يوجد سفير بريطانى هنا !

قلت : إذن السفير الأمريكى ؟

قالت : لا !

فقلت (باللغة العربية) : آمال منفوخة على إيه ؟

سألتنى : ماذا تقول ؟

قلت : إننى أتلو بعض الدعوات قبل تناول الطعام .

قالت : ماذا قلت ؟ فأنا لا أزال أعرف اللغة العربية . .

فقلت : كنت أقول : اللهم اجعلنى قادراً على هضم الذى أرى وأسمع وأتذوق .

سألتنى : أعجبتك هذه البلاد ؟

- جميلة . . نظيفة . . غنية والناس فى غاية الصحة والعافية . . وهذا واضح فى نعومة
البشرة وواضح فى بياض العين والأظافر . .

- تحب تعيش هنا ؟

- أحب بعض الوقت .

- لا تهاجر ؟

- لا أهاجر . .

- ولماذا ؟

- لأن السلعة التى أبيعها ليست لها سوق هنا . .

- وماذا تبيع ؟

- أبيع الكلام !

- مش فاهمة . .

- أنا صحفى . . كاتب . . أديب . . سلعتى هى منتجات الكلام . .

- وهل هناك أكثر من الكلام ؟

- الكلام العربى الذى أبيعته لا أحد يشتريه هنا . .

- ولكن شطارتك وبراعتك وإصرارك وصبرك وتضحيتك هى وحدها التى تجعلك قادراً

على فرض هذه السلعة وجعلها ضرورية لكل الناس . . هذه هى الموهبة . . نحن جئنا إلى

هذه البلاد نبيع الزراير والأحزمة والقماش الدمشقى . . لا أحد يعرفه . . ولا أحد يريد . .

ولكننا أفلحنا فى أن نجعله مفخرة لكل أسرة . . وأهم من كل ذلك فرضنا احترام الجميع

لنا . . لأننا مهاجرون مكافحون شرفاء . . لم نكن نملك شيئاً . فأصبحنا نملك الملايين . .

وفى كل مناسبة نعتز بفضل هذه البلاد علينا . . ونفعل ذلك فى كل مناسبة دينية واجتماعية

وعائلية . . وهم سعداء بنا لأننا نذكر فضلهم علينا دائماً .

فقلت : لو أضمن مليون مواطن مصري هنا لقررت البقاء . . ولكن لا يوجد مصري واحد في هذه القارة . .

وكان ذلك في سبتمبر سنة ١٩٥٩ . .

وأخذت بطاقتها وقررت زيارتها وأسرتها في اليوم التالي . .

التاكسى وقف بى أمام بوابة من الحديد المذهب . . ووراءها شارع طويل من أشجار عالية . . والأرض مفروشة بالورد . . أما الطيور فقد جاءت وحدها . وتمت الأشجار توجد الغزلان والسنجاب وعدد من الكانجرو تقف جميعًا حول نافورة لها شكل عروس شابة حلوة . . أما الأطفال فهم أحفاد السيدة . .

إن الذى أراه أعظم عملية كيمياوية في تاريخ أستراليا : كيف تحول الدمع والعرق إلى طوب أحمر وحجارة ومصاييح ونافورات وحدائق وفاكهة وبهجة وأطفال أصحاء وبوابات ذهبية وموسيقى حاملة . . كل ذلك في ثلاثين عامًا !

موسكو: تماماً كالكتب!

ألا يحدث لك أن تمشى فى مكان ويخيل إليك أنك جئت إلى هذا المكان من قبل مع أن هذه هى المرة الأولى ؟ . . . الجواب : ممكن . وبعض الناس يكون عنده هذا الإحساس قوياً لدرجة أن يقول لنفسه : وعلى هذه الناصية توجد صيدلية . . ثم يذهب إلى الناصية ويجد الصيدلية . . ويجد أن صاحبها رجل قصير وبكرش كما توقع . كيف ؟

هناك نظريات . واحدة تقول لك إنه يخيل لك أن تكون قد رأيت هذا المكان من قبل لأن الأماكن تتشابه . وبعض الأحيان تتطابق تماماً . فكأنك رأيتها من قبل . .

ونظرية أخرى تقول إن الإنسان أثناء النوم ، تنطلق روحه إلى أماكن كثيرة من الدنيا . وتكون هذه الروح مرتبطة بالجسم بخيط نورانى . . تماماً كارتباط الجنين بأمه بالحبل السرى . وهذه نظرية لها اسم آخر . . اسمها نظرية « الطرح الروحى » - أى إن الروح تطرح الجسم وتنطلق وحدها بعيداً . . ترى . . وتحفظ بهذه الرؤية فى الذاكرة .

أما النظرية الثالثة فهى أننا عندما ذهبنا إلى موسكو لم نشعر بأى شىء جديد ، فهذا الذى رأيناه بالعين قد رأيناه بالخيال فى الأدب الروسى عند جوجول وجوركى ودستوفسكى وتشيكوف ولرمنتوف وبوشكين وسولوفيف . . وأخيراً عند شولوخوف الذى ألف رواية « النهر الهادئ » .

كل هذا قد رأيناه : الشوارع الواسعة المغطاة بالجليد . . . والأشجار المنزوعة الأوراق . . . والناس الذين هم أشباح سوداء غليظة الملابس والأحذية والأغطية ويدبون فى الأرض بقعا سوداء ثابتة الخطوات .

ولم نكد نضع حقائبنا حتى اقترح الأستاذ خالد محبى الدين الزعيم الشيوعى أن نذهب فوراً إلى الميدان الأحمر لزيارة قبر لينين الذى توفى ١٩٢٤ ولا يزال حياً أى لا يزال محتطاً كأنه حى . . أو يريدونه أن يظل حياً خالداً لا يموت . . وسرنا وراء خالد محبى الدين : الصحفيان محمد

عودة ولويس جريس وأنا . . أما هو فقد استعد لذلك فهو يعرف البلاد وجاءها كثيراً .
فالحذاء لا يتزحلق وغطاء الرأس فروو وبالطو . . أما نحن فالأحذية عادية والجوارب ولا غطاء
للرأس . . وكنا مصدر سعادة للروس . . فلا يكاد الواحد منا يمضى خطوة حتى يتساند على
زميله ويتساقط على الأرض . ويتوقف الروس يضحكون . . ويتوقفون عن السير تمامًا لأنهم
على يقين من رؤية هذا الانقلاب مرة أخرى . . وحدث مرات . . والأرض رمادية والجليد
زجاج حاد والانزلاق شديد وسهل . ولكن الوقوف صعب جدًا . فأنت تضع يديك على
الجليد وتحاول أن تقف . . وتتزحلق الجزمة وتنقلب حتى تمتد الأيدي الروسية . . والأيدي كأنها
فروع لأشجار راسخة في الأرض . .

وجاء من يعرض علينا شراء دولارات . وصرخ خالد محيي الدين يحذرننا من ذلك لأن قانونًا
صدر بحبس وإعدام تجار العملات الصعبة . . أما إن قانونًا صدر فهذا صحيح ، وإما أن
الروس يدقون أبواب غرقنا يسألون عن الدولارات ، فهذا صحيح . وبسرعة عدنا إلى الفندق
وانتهى وسط أكفان الجليد أول مشوار خارج الفندق . درجة الحرارة خارج الفندق ٢٠ تحت
الصفر وفي داخله ٢٠ فوق الصفر . . والفنادق دافئة ساخنة خانقة . . ولا شيء فيها يمكن
أن تراه فالتناس يتحركون وينظرون ولكنهم لا يتكلمون . ما هذا ؟ إنهم هكذا . ويمكن لأي
إنسان أن يضرب دماغه في الحائط ألف مرة . . فكل شيء سوف يبقى هكذا سواء أعجبك أو
لم يعجبك . . فليس في استطاعتك أن تغير ما تراه . فقط أن تستسلم وأن تتوافق معه . إنها
دولة عظمى وشعبها يقف فوق تاريخ من البطولة في الثورة والحرب . . وبطولة ابتلاع القهر
والظلم والجوع والتخلف والعزلة والجاسوسية . .

قلت للفتاة المرافقة لنا وهي تتكلم نوعًا من اللغة العربية : أريد أن أنطلق . . أن أمشي
على كفي في هذا البلد الطويل العريض الذي لا أرى منه إلا فتوة صغيرة . كيف ؟

قالت : إلى أين تريد أن تذهب !

قلت : إلى أي مكان . . أنا حر . .

قالت : إلى أي مكان ؟ إلى الغابات ! إلى الأوبرا . . إلى المسرح . . إلى السيرك ماذا تريد أن
أدبر لك !

قلت : أنا حر . . لا أريد تدخلًا منك .

قالت : أنت في حاجة إلى سيارة . هذه السيارة أنا التي أدبرها .

قلت : اعطيني السيارة .

قالت : هذه هي السيارة . تفضل !

وركبت السيارة . ولا أعرف ما الذي قالته للسائق . . وانطلق السائق في الشارع . . واسع

جداً . . طويل جداً . . والناس أشباح سوداء منتظمة الخطوات كل واحد في حاله . .
الشارع أبيض . . رمادي . . والأشجار تغطت بالجليد . . والتماثيل من بعيد . . وأشير إلى
السائق : من هذا ؟ أقولها بالإنجليزية . إنه لا يعرف أية لغة . . إنه يقول ما لا أعرف .
وكنت قد تعلمت عددًا من الكلمات الروسية : أهمها خاراشو ومعناها : حسن جداً . .
وكلمة نيت ومعناها : لا . . وكلمة : دا ومعناها نعم . . واسباسيفا : من فضلك
وباجالوستا . العفو . . ودازيدانيا : مع السلامة . ولكن هذه الكلمات لا ضرورة لها . .
والسيارة ما تزال تنطلق من شارع إلى شارع . . وكل الشوارع متشابهة . . والعمارات كتل
ضخمة متشابهة تمامًا . . والنساء في الشوارع يكنسن الجليد ويكومنهن على جانب من
الشارع . . واللون رمادي لكل شيء : السماء والأرض والأشجار . . وبعض المشاة قد تساقط
عليهم الجليد فهم قطع من الأرض أو قطع من السماء . . والدنيا كلها اتخذت ألوان الموت . .
والحياة تدب فيها ولكن بصورة لم نعرفها . . قرأنا عنها . . كأننا ما نزال نقرأ عنها . . نحن
نرى الناس ولا نلمسهم . . نقرب منهم ولا نسمعهم . . نسمعهم ولا نفهم عما يقولون شيئًا .
وعاد السائق إلى الفندق ووقف . وانتظر منى أن أنزل . ونزلت . خائبة . أنا الذي خاب أملى .
وقابلتنى المترجمة : هـ . . ما طعم الحرية ؟ ماذا فعلت بحريتك ؟

قلت : لا شيء .

قالت : أنا أعرف . . ولكن سوف أنظم لك حريتك في أن تذهب إلى الباليه أو السيرك أو
معرض سفن الفضاء . .

وكان أروع ما رأينا طبقًا : مسرح البولشوى . . باليه البولشوى . . أروع ما ابتدع الإنسان
في الدنيا . فالباليه الروسى هو قمة الفن والجمال والأداء .

الناس يدخلون وقد ارتدوا أحذية غليظة يمشون بها في الشوارع . . ثم يخلعون الأحذية
الغليظة ويرتدون أحذية عادية . . ويخلعون الباطن والقبعة - اسمها الشبك ، وهي طاقية
مصنوعة من الفرو . . ولا سيجارة ولا كوب ماء . . فالمطعم في الدور العلوى . . فوق يأكلون
ويشربون . .

وتركت في القاهرة مناقشة بينى وبين الإخوة الشيوعيين قد نشرتها مجلة « آخر ساعة » : هل
نسمح بقزقة اللب في الأوبرا المصرية .

وكان من رأى الكاتب الشيوعى محمود أمين العالم : أن اللب يفرج عن النفس وأن المتفرج
جاء ليستريح . . يعنى مسموح بقزقة اللب ، لكن في الاتحاد السوفيتى غير مسموح لأى
عامل أو فلاح أن يدخل الأوبرا بدون كرافته . . ومستحيل أن يأكل ويشرب إلا في المطعم .
أما في الأوبرا وفي السيرك فالصمت تام ! وكانت السفارة السوفيتية في القاهرة تستاء جدًا من

الشيوعيين المصريين الذين يجيئون إلى حفلاتها بالقميص والبنطلون ومن غير كرافطة ١١
وتؤكد لهم أن الشيوعية ليست بهدلة . . وأن الاتحاد السوفيتى دولة متحضرة تحترم
البروتوكول والذوق العام ولا تقل عن أية دولة رأسمالية !

وكنا وفداً مصرياً متجهاً إلى كوبا لنشارك فى مؤتمر القارات الثلاث - رأس الوفد المصرى
المرحوم يوسف السباعى - والأعضاء أذكر منهم خالد محيى الدين وأمينة السعيد وسهير
القلماوى ورفعت المحجوب ومحمد عودة ولويس جريس وأنا . . وكان يرأس الوفد السعودى
المنشق عن السعودية أحمد الفاسى ، والوفد اليمنى المنشق عن اليمن الشاعر عبد الله بن يحيى
العلوى . .

وفى الاتحاد السوفيتى وقعت أحداث هامة جداً : خروتشيف أسقطوه وقفز إلى مكانه
ثلاثة : كوسيجن رئيساً للوزراء وبرجنيف سكرتيراً عاماً للحزب ويودجورنى رئيساً للدولة .
وكانوا يسمونهم الترويكاً - أى الثلاثى .

وفى العالم الخارجى سقط بن بيللا فى الجزائر وجاء بدلا منه هوارى بومدين .
وسقط الملك سعود وجاء أخوه الملك فيصل .

ومات الملك فاروق ونهرى وتشرشل والأديب سومرست موم والشاعر الإنجليزى اليوت
والفيلسوف السويسرى اشفيتسر والفيلسوف الإسرائيلى بوبر ، وماتت ملكة التجميل هيلينا
روبنشتين وحصل الأديب الروسى شولوخوف على جائزة نوبل فى الأدب .
واحتفلت بريطانيا بمرور سبعة قرون على ميلاد البرلمان الإنجليزى .

وخرج رائد الفضاء السوفيتى ليونوف من المركبة فوستوك ومشى فى الفضاء عشر دقائق
وبسرعة أطلق الأمريكان مركبة خرج منها الرائد ومشى فى الفضاء ٢١ دقيقة وفازت روسيا فى
الدورة الأولمبية بإحدى وأربعين ميدالية ذهبية وأمريكا بسبع وثلاثين واليابان بست عشرة
وألمانيا بثلاث عشرة وبريطانيا بخمس ميداليات . .

وكانت عندنا لحظات من المرح . . أو عندى أنا . فالترجمة لنا تتكلم لغة عربية غريبة .
كل شئ له كلمة واحدة . فمثلا النافذة لها كلمة واحدة اسمها : الشباك . . فإذا قلت لها
النافذة فإنها لا تفهم . . كل يوم تقول لنا : غداً نلتقى فى « صحن » الدار . . ترجمة هذه
العبارة : الصحن معناه الهول أو البهر . أو الصالة أمام استعلامات الفندق . . الدار .
معناها الفندق أو الأوتيل . . ولما حاولت أن أضيف إلى معلوماتها كلمات أخرى لها نفس
المعنى رفضت تماماً . لأنها لا تثق فى حسن نيتى . ولابد أن تحصل على تصديق رسمى على
هذه الكلمات التى اقترحتها . .

قلت لها : إننى أحبك .

قالت : آه فهمت . . تقصد أنك تعشقنى وأنتك تريد أن أكون عشيقه لك !

قلت : لا . . لا . . وإنما أريد أن أقول لك : إنك جميلة الوجه والعينين والشفيتين والقوام . . يعنى أننى معجب بجمالك فقط . . كإعجابى بالزهور . . أو الورد أو الطيور . . أو القمر ، إن كان عندكم قمر . . فقط . .

تقول : يعنى أنا مثل الزهور تريد أن تقصبنى .

أقول : تقطفنى لا تقصبنى . .

تقول هى : تقصبنى . . يعنى تقطع رقبتى وتقضى على مستقبلى .

أقول لها : لا . . ياست لا . . هذه لغة عربية نظيفة . .

تقول هى : فهمت . . ولكن أريد أن أصارحك . . فأنا لى عشيق . . ولا أستطيع أن أكون عشيقه لرجلين فى وقت واحد !
لم أفصح فى أن أكون مفهوماً . .

وفى يوم دعتنا جميعاً لكى تلقى علينا بياناً هاماً .

قالت : مرحباً بكم فى الاتحاد السوفيتى . . ضيوفاً على اللجنة المركزية للحزب الشيوعى ولكن ! . . نعم ولكن البوطة على حسابكم !

أى أنتم ضيوف على الدولة ولكن إذا أردتم أن تأكلوا البوطة - أى الأيس كريم - فهذا على حسابكم . لأن البوطة من الكماليات . والكماليات شأنكم . . أما الضروريات فعلى الدولة .

وكان معنا الأخ السعودى أحمد الفاسى . رئيس الوفد السعودى والعضو الوحيد . وكانت تربطه بأجهزة المخابرات السوفيتية والمصرية صلة قوية . . وفى إحدى الليالى كنت أتسلى فاقترحت عليه أن أصنع له « المانيفستو » لحزب شيوعى سعودى . وكنت أسميه : « حزب شيوعى شريف » . . واقترحت عليه أن يكون أخوه شمس الدين الفاسى هو سكرتير عام الحزب والمتحدث الرسمى باسم الحزب : أبو هريرة الحزب . .

وكتبت بخط يدى إجابة عن كل التساؤلات التى تخطر على بال أى إنسان مثل . .

ما هى أحب الأديان إليك ؟

الإسلام !

ما هى أحب السيارات ؟

الكاديلاك !

ما هي أحب العطور ؟

الفرنسية .

ما هي أحب الخمور ؟

الاسكتش . .

ما هي أحب النظم السياسية والاقتصادية ؟

الشيوعية . .

إلى آخر هذه المداعبات . وفي ليلة من الليالي اكتشفت أنني أعطيت هذه الورقة لأحمد الفاسي ويخط يدي . مصيبة لو ظهرت هذه الورقة في أيدي المخابرات المصرية . فنهضت من النوم في حالة من الرعب . . ودققت على باب أحمد الفاسي : يا أحمد . . أحمد . . اصح . عاوزك ضروري .

وفتح الباب أكثر انزعاجًا وقال لي : إيه مالك !

- الورقة . لقد هبط على الرحي . . وأريد أن أضيف جديدًا !

- الصباح .

- أبدًا الآن . .

وأخذت الورقة ومزقتها وألقيتها في نار المدفأة !

وكان معنا الشاعر عبد الله بن يحيى العلوي . صديقي . والذي لا أكف عن مداعبته حتى أصدر عني كتابًا كبيرًا عنوانه : أنيس منصور - آه منه وآه عليه . . « أكلني نيا ودفتني حيا » .

وفي هذا الكتاب كل الرسائل والقصائد التي بعث بها ليّ من عشر سنوات . . ولم أنشرها . . للشاعر العلوي مرافق روسي باعتباره واحدًا من رؤساء الوفود ، هذا المرافق أستاذ في جامعة موسكو اسمه د . جيريجوري . وكان يناديه ونحن جلوس في المطعم يا جيريجوري . - أفندم .

- اطلع هات الشنطة بتاعتي من فوق .

- حاضر . .

ويذهب البروفسور جيريجوري ويأتي بحقيبة كبيرة قديمة . ويقول له : افتح الشنطة . واستخرج لي منديلًا .

فيفتحها ويعطيه المنديل .

ويقول له : يا جيريجوري أعد الشنطة إلى مكانها ولا تنس أن تغلق باب الغرفة .

- حاضِر . .

وكنا نتضايق جدًّا ونقول للشاعر العلوى : يارجل عيب . . إنه أستاذ جاء ليشرح لك
ويقدم المعلومات التى تريدها لا أن يكون خادماً . . عيب يا مواطن يمنى ! .

وكان يقول : أنتم حاقدون . . أنتم لا تحبون أن تروا يمنيا يستعمر سوفيتيا . . هذا
حق . . افعلوا مثلى إن استطعتم !

ولم نفعل .

وعدت أقول للمترجمة : إننى ما أزال أحبك .

فتقول : آه أستطيع أن أحادثك . . أنت تحبى . . يعنى أنت تريد أن تشغلنى . . فأفكر
فيك . . وأتعطل عن عمل . أنت تلهو وتلعب . . وأنا أصاب بضرر شديد . . أنت تذهب
إلى بلدك تحب فتاة أخرى وأنا أبقي هنا أتعذب بالتفكير فيك . . فأنت بأفكارك الرأسمالية
تعطل إنتاج الاتحاد السوفيتى . . أنت تقوم بعملية تخريب محدودة . . ولو فعل كل أعضاء
الوفود التى تزورنا هنا نفس الشئ لكان ذلك تخريبًا عامًا . .

- ياخبر أسود . . أبدًا لا شئ من ذلك . . والله أبدًا .

- هل أنت جاد ؟

- نعم .

- إذن لماذا لا تتزوجنى فورًا ؟

- لا أريد الزواج . . هل إذا قلت للوردة أنت جميلة ورائحتك جميلة . . هل هذا عرض
للزواج . . هل إذا قلت للأشجار . . للقمر . . للقط . . للكلب . . هل هذه كلها عروض
لزواج ؟

- فهمت . . أنت لا تريد الزواج وأنت لا تريد العشق . . وأنت لا تريد الحب . . أنت
تقول كلامًا فارغًا .

- لكن ليس بالضبط .

- يعنى كلام فارغ . وعندك وقت لهذا الكلام الفارغ . . وليس عندي أنا وقت لهذا الكلام
الفارغ ، وأنا أودى عملى فى خدمة الشعوب السوفيتية المحبة للسلام . .

- آسف . . أنا غلطان !

- نعم أنت غلطان !

والطوابير في كل مكان . . هذا طابور للطعام ، وهذا طابور لأدوات المطبخ ، وهذا طابور للملابس التي وردت أخيراً من الخارج .

وقفت في الطابور . لا أحد يتكلم . . لا أحد يتبرم . الطابور يتحرك ببطء وكل واحد يأخذ ورقة ويدخل إلى أعماق المحل الكبير . . وجاء دوري ولم أعرف ماذا أقول . . ولكن البائعة أشارت إلى الرقم الذي يجب دفعه .

ودفعت عشرين روبلا . . وأخذت ورقة ودخلت . . ووقفت في الطابور . وكان نصيبي لعبة . . دب كبير في مثل طولي . . أخذته ولا أعرف ما الذي أفعله به . . وعندما عدت إلى الفندق فأجاني أحد الزملاء : من أين ، كيف ؟ إنني أريد واحدًا لابني .

وبعت له الدب !

واشتريت بعض الكافيار وبعض الفراء وبعض فناجين الشاي . . أما الكتب ففي كل مكان ويملايم . . وأما الأسطوانات فرخيصة جدًا . أرخص ما يمكن شراؤه وأهم : الكتب والأسطوانات وكل آداب الدنيا مترجمة إلى اللغة الروسية . ولا أحد لا يقرأ كتابًا في المترو أو القطار . . ويتركون الكتب في القطارات بعد قراءتها . . والروس يحبون من الفنون ثلاثة . البالية والموسيقى والشعر . . وكلها موسيقى !

وأكثر التماثيل الموجودة في موسكو وفي العواصم السوفيتية : للشعراء والموسيقيين .

فما هي الصورة التي بقيت في عيني وخیالي لموسكو ؟ : هي الصورة التي جاءت في الروايات الروسية . . هي هي فكأنني عندما ذهبت إلى موسكو تنقلت معدتي وعيني في رواية طويلة لجوجول أو تولستوي أو شولوخوف . . صفحة وراء صفحة . . جليد وراء جليد . . والناس مثل جذور الأشجار تدق الأرض راسية راسخة ، كل شيء هائل ضخمة مخيف غامض سحري . .

إن أسبوعاً في موسكو لا يكفي ، فالذي سوف نعرفه عن البلد قليل وعن الناس أقل . . وبعد ذلك ذهبت إلى موسكو كثيراً . وكل مرة أضيف قليلاً جدًا إلى القليل الذي أعرفه . . إن موسكو ساحرة باهرة لغز في فزورة في أسطورة تستدرجك إلى أن تعود وتعود فلا ترتوى ولا تشبع !

ألف مبروك : ألمانيا الموحدة !

الثقافة الألمانية عميقة في دمي . . ولذلك فاحترامى لألمانيا وعظماؤها في الموسيقى والعلم والأدب والفلسفة لا حدود له . . وقد أمضيت كل عمري لا أرفع عيني عن كل ما هو ألماني في الفلسفة والأدب والعلوم .

وحتى عندما تخصصت في الفلسفة ، كانت الفلسفة الألمانية هي الفلسفة . . وفلاسفتها هم أعمدة الحكمة والنور في حياتي الفكرية - ولا يزالون !

أول اسم ألماني في حياتي كان « باير » . . أسبرين باير الذي يشفى من كل داء . . للصداع والمغص . . وهو أرخص دواء ، وأضمن شفاء !

وأول عرض سينمائي في حياتي هو فيلم ألماني . . ولم يكن فيلماً وإنما هو إعلان سينمائي . . فكانت سيارة لامعة تجيء إلى المنصورة . وهذه السيارة تخرج منها موسيقى . وكان صوت الموسيقى داعياً لأن نجرى وراءها ونتعلق بها . . حتى تقف السيارة في خرابة - عادة في خرابة . وتضع شاشة على الحائط . . وعلى الشاشة تظهر رسوم متحركة عن الصداع ووجع الدماغ وكيف أن الأسبرين يشفى من الصداع ويقضى على عمليات الكسر والنشر في عظام الإنسان !

وكان مجيء هذه السيارة أهم أحداث الأسبوع . وكانت السيارة تبهرنا بلمعائها . . وكان لابد إذا التفقنا حولها أن نلمسها بأيدينا . . أو نلوثها بأيدينا . . فكان السائق يحذرنا . . ولكننا لا نسمع . . وفجأة نجد أنه قد كهرب السيارة فلا نكاد نضع أيدينا عليها حتى تطردنا بعنف . . أما السائق فهو أحمر الوجه أصفر الشعر أزرق العينين . نظيف لامع كالسيارة ، فقد جلس على مقعد أخرجه من السيارة وراح يتفرج معنا على الشاشة !

وأول مجلة علمية قرأتها كان اسمها « الفلاح » - يصدرها واحد اسمه ثابت ثابت . . وهذه المجلة تتحدث عن الصناعات الألمانية . . وخاصة مصانع الأسمدة . . وتترات الجير الذي

يستخدم في تسميد التربة وإحيائها وخصوبتها ووفرة المحصول . . وفي المجلة صور للأنابيب الضخمة والمداخن الطويلة . . والعمال الألمان بصحتهم وشبابهم وقمصانهم وبنطلوناتهم التي لها حمالات . . والرهوس كبيرة والشعر طويل وهم عمالقة . .

وأول قصة مترجمة قرأتها كانت قصة « الحب والدسياسة » للشاعر الألماني فريدريش شيلر . . وقد ترجمها إلى العربية كاتب مصرى اسمه عادل صادق . . والقصة قد هزنتى وإندهشت جدًا لبعض العبارات الحكيمة التي جاءت بها . . ومبهرتنى هذه التراكيب التي تتخذ شكل الحكمة . ولا أعرف كيف تتكون أو كيف يصبح الإنسان قادرًا على إبداعها . مثلاً هذه العبارة : إذا باض الشيطان بيضة أفرخت بنتاً جميلة . . أو العبارة التي قالها أحد أبطال الرواية عندما جاءه شاب يطلب ابنته للزواج فأندهش الأب كيف أنه يطلب ابنته منه ، ولا يطلب منها هي . . فقال هذه العبارة : إن الشاب الذي يريد أن يستعين بى لكى أقنع ابنتى لا يلهمنى الثقة به . . لأنه عاجز عن إقناع واحدة أن تكون زوجة له !

وأول لغة أجنبية تعلمتها كانت الألمانية . . فقد كانت فى المنصورة جالية ألمانية كبيرة ، وكان الألمان يعلموننا اللغة الألمانية ويعطوننا مكافأة على ذلك . . وكانت بينهم بنات جميلات . . وقد تكلمت الألمانية قبل أن أتقن قراءتها . . أو قبل أن أقتنى كتاباً واحداً !

وتعلمت « النشيد الوطنى » الألمانى قبل أن أعرف أن لمصر نشيداً وطنياً . . فكنت أردد مع الألمان : ألمانيا فوق الجميع . . فوق الجميع فى العالم . . الحق والوحدة والحرية من أجل هذا الوطن الألمانى . . المرأة الألمانية والفن الألمانى والأغنيات الألمانية . .

والألمان يتغنون الآن بعد توحيد الشرقية والغربية : ألمانيا . . ألمانيا فوق الجميع فى العالم . . الحق والوحدة والحرية للوطن الألمانى .

وأول مرة أسمع عن الحرب كانت الحرب العالمية الثانية ولا أعرف ما هى ولا كيف تكون . . وأول وجه ساحر لرعيم أجنبى أراه كان وجه هتلر . . وكنت أندهش لوجهه وعينييه والشعر المتهدل على جبهته على جانب منه . . من هذا ؟ ما قوته ؟ وما سرها ؟ ما عظمتة ؟ وقصص كثيرة خرافية غير واضحة فى ذلك الوقت . . وكانت صورته وحكاياته التي أسمعها وأنا طفل مختلفة عن كل الحكايات الحقيقية والخرافية فى ذلك الوقت . ولكن كنت أضيف هتلر إلى بقية العظمة الألمانية . . أو العبقرية الجرمانية ، ولا أرى ذلك غريباً أو عجبياً . وإن كنت فى ذلك الوقت لا أعرف حدود العظمة الألمانية ولا مفرداتها ولا علاماتها . . ولكنها عظمة تستغرقنى وتغرقنى ولا أجد إلى جوارها أية عظمة أخرى . . لماذا ؟ هذا ما حدث فى ذلك الوقت من الطفولة والشباب المبكر !

وفى الجامعة كانت التى تدرس لى اللغة الألمانية سيدة سويدية . . كانت عجوزاً . . وتمنيت

لو كانت ألمانية . . ووجدت جميع من يقومون بتدريس اللغة الألمانية في كلية الآداب من السويسريين . . وأصبح من آمالي في ذلك الوقت أن أبحث عن أستاذ ألماني . . ووجدته وكان اسمه باول كراوس من كبار المستشرقين . وكان يعلمنا اللغتين اليونانية والعبرية . . وعرفت أنه يوغوسلافي وليس ألمانيا . .

وأخيراً وجدت رجلاً ألمانيا وكان مهندساً . . وكانت في ملاحظه كل علامات الفلاسفة الألمان . . كما كنت أتخيلهم في ذلك الوقت : الرأس الكبير . . والشعر الطويل . . والبشرة شقراء . . والعيون زرقاء . . والطول عملاق . . وإذا تحدث برقت عيناه واهتز جسمه . . وكانت لهجته واثقة وكلامه فلسفة في فلسفة ولا يضحك . . إذ كيف يضحك وهو فيلسوف مثل أفلاطون وأرسطو وهيكل وشوبنهاور يحمل كل هموم الدنيا . ويحاول أن يجد لها حلاً . هكذا تصورت كل ألماني !

ولما سافرت إلى أوروبا لأول مرة رأيت فيها إيطاليا وسويسرا وفرنسا وبريطانيا والسويد وألمانيا . . وكأني كنت أذكر عيني وأذني لألمانيا وحدها . . فكل البلاد زرتها قبل أن أرى ألمانيا كانت ظلالاً وأشباحاً هلامية . . وكأني ادخرت عقلي ووجداني لألمانيا وحدها . . وكانت ألمانيا في ذلك الوقت من سنة ١٩٥٠ مهتمة محطمة . . ولم أكن أعرف معنى الحرب . . ولا دمارها . . ولكن عندما رأيت ألمانيا تأكدت من ذلك . . فانا أقف في أول مدينة دسلدورف وأرى آخرها . . وبين الأنقاض تخرج الفتيات الشقراوات وتمد أيديها تأخذ مني . أنا . قطعة من الشيكولاتة أو سيجارة . . ياخبر أسود . . هل هؤلاء هم الألمان أولاد العباقرة في كل شيء ؟ ماذا جرى ؟ قالوا : هتلر كان السبب . . أي إن عبقرية ألمانيا هو الذي قضى على بقية العباقرة . ولم يقض عليهم . . ولكن قتل منهم الملايين . . ولا يزال هناك عشرات الملايين !

المصانع فككها الإنجليز ونقلوها إلى بلادهم . . والعلماء شحنهم الأمريكان إلى بلادهم . . وكذلك فعل الروس . . فكيف تقوم هذه الدولة من الانقراض إلى العظمة ؟ كيف تصبح أجمل مما كانت وأقوى ؟ وأعظم من الذين حطموها ؟ وتصبح ألمانيا الغربية جنة أوروبية . . وكيف تنتشل بعد ٤٥ عاماً نصفها الآخر ؟ هذا ما حدث . . والسبب عبقرية الشعب الألماني !

ونحن طلبة في الجامعة كنا مدرستين :

مدرسة عبد الرحمن بدوي . . مدرسة الفلسفة الألمانية المثالية . . ثم الوجودية بعد ذلك . . ومدرسة لويس عوض اليسارية الماركسية العلمانية . .

أما نحن الوجوديين ، فكان لنا أسلوب مختلف في كل شيء . . فنحن لا نتكلم إلا عن

الفلاسفة الألمان : كنت وشوبنهاور ونييتشه واشبنجلر وهوسرل وهيدجر وباسبرز والشعراء الألمان : نوفالس وهيلدرلن وجيته وشيلر وتيك وريكه . . وإلا عن عباقرة الموسيقى موتسارت ويتهوفن وفاجنر وشومان وشوبرت واشتراوس وإلا عن قادة الأوركسترا الألمان : كراوس وفورنجنجلر وفون كريان . .

وقد رأينا في القاهرة المايسترو فورنجنجلر يقود الأوركسترا الألماني في سينما ريفولي . وقد عرفنا أن التصفيق بعد « الحركات » في السمفونية غلط فطبخ . . وقد أحسن هذا المايسترو تأديتنا فكانت تظهر العصبية على وجهه ثم لا يلتفت إلينا . . وعندما عزف مقطوعة من أوبرا « عابدة » التي كانت السلام الملكي في ذلك الوقت ، تصورنا أنه فعل ذلك تحية للملك أو لمصر فصفقنا طويلاً . . والحقيقة أنه فعل ذلك تحية لمؤلفها للموسيقار الإيطالي العظيم فردى

* * *

ويوم ذهبنا إلى برلين لأول مرة وقفت أمام سور برلين وبوابة براندنبرج . ولم أفهم . ووجدت من الصعب أن أعرف بالضبط ماذا حدث . . وكان من الممكن أن انتقل عبر الأسلاك الشائكة والحائط الحجري من برلين الغربية إلى برلين الشرقية . . من النور إلى الظلام . . من الأناقة إلى البهذلة . . من الحرية إلى القهر . . إنه شعب ألماني واحد . . واحد اختار الحرية والرأسمالية والإبداع إلى غير حدود . . وشعب آخر مقهور فرض عليه الروس الذل والهوان والعبودية والحقد المكثف على شقيقته ألمانيا الغربية ، لقد تخلفت ألمانيا الشرقية في كل شيء إلا في الرياضة . . فليس أمام المقهور إلا أن يقهر جسده ، وأن يجعل هذا القهر منظماً . ويكون التفوق في الرياضة نوعاً من تسلق سور برلين والرقص فوقه على مرأى ومسمع من العالم كله . .

وكما إن الدببة يعلمونها الرقص فوق سطح ساخن على إيقاع الموسيقى - أى إنها ترفع أرجلها على إيقاع الموسيقى - أى إنها ترفع أرجلها على إيقاع الطبول - فكذلك الألمان الشرقيون قد علموهم الرقص على دقات العذاب . . حتى تفوقوا في تحريك القدمين والساقين . .

* * *

والآن ومنذ أيام قد انتهى زمن الجوع والحرمان والقهر والعبودية الإيديولوجية . . عادت ألمانيا إلى ألمانيا . . في عناق طويل وقبلة حارة . . إنه زمان الوحدة والألفة وإلقاء السلاح وحمل الفثوس وفتح أجهزة التكييف وتديد الساقين والذراعين للراحة بعد العمل والمتعة بعد المشقة . . فلا حرب ولا خراب ولا دمار . .

ولكن ما تزال في الشرق حروب ودمار وخراب . . إنها صورة قبيحة أمام العالم كله . .

صورة للشيوخى قبيح الوجه ، لأنه يستأنف ما تركته أوروبا وأمريكا . . فقد تقهقر فعاد إلى
أوائل القرن العشرين ، بينما أوروبا وأمريكا بالوفاق والسلام قد قفزتا إلى القرن الواحد
والعشرين . .

* * *

مبروك على الألمان وأوروبا التى تحررت من الشيوعية . .
وروسيا التى تحررت من الماركسية . .

وهار علينا أننا نستأنف الوحشية بعدوان العراق على الكويت وعلى السعودية بمساعدة
ومؤامرة أوروبا وأمريكا . . ثم نتبادل المواقع : فنحن نعود إلى القرن التاسع عشر ، والأمريكان
والأوروبيون يقفزون إلى القرن الواحد والعشرين .

أستاذتى كثيرون ولكنى لم أتعلم !

قالوا لى : إن السباحة أم الألعاب .. فأنت تمشى وتجرى فوق وتحت الماء وترقص وتنتعش ، إذا أردت الصحة والجمال وهدوء الأعصاب فعليك بالسباحة اسمع كلامى ! وشجعنى الكلام ، وذهبت لى عبد الباقي حسنين الكابتن الكبير أبى المدرسين وأبى النكت وأستاذ جمال عبد الناصر والسادات - هو الذى قال لى ذلك !

ولست متأكدًا إن كان قد قال لى إنه هو الذى أنقذ محمد على الكبير عندما غرق فى مياه الإسكندرية أو إن الشاعر الإنجليزي شيلي قد غرق لأنه لم يسعفه !

وقلت لعبد الباقي حسنين : أنا أخاف من البرد !

قال : خلاص السباحة فى حمام التربية والتعليم . الماء هناك دافئ ولا يكون هناك أحد ! - إذن نذهب فى ساعة مبكرة جدًا !

- وأنا مستعجل !

- خلاص سوف تتعلم فى أسبوع واحد !

- كثيرًا !

- فى أربع وعشرين ساعة !

وذهبنا إلى حمام الماء الدافئ ولكن عبد الباقي حسنين جلس على أحد المقاعد فرجله مكسورة وفى الجبس وقال بصوت عال جدًا :

انزل يا أفندم سوف تكون أحد أبطال السباحة للمسافات الطويلة ويكرة تقول عبد الباقي قال . انزل يا أفندم ايوه برجلك اليمين ايوه انزل انزل سيب نفسك .

ووجدتنى تحت الماء وصرخت ..

عبد الباقي يقول : يا أفندم سيب نفسك .. وسوف تقوم .. هذه طبيعة الأشياء فكل

جسم خلقه الله يطفو على الماء . . سيادتك تعلمت ذلك في الابتدائي . . معقول تكون نسيت يا أفندم مرة ثانية يا أفندم ايوه كده ايوه اللهم صل على النبي معلش سوف تضع رأسك فوق الماء عارف يا أفندم سيادتك سبحت كام متر يا أفندم ؟ ثلاثة أمتار اللهم صل على النبي أكثر من المسافة التي سبحتها السيد الرئيس عبد الناصر والتي سبحتها سيادة الرئيس السادات صدقني أنت تعلمت أسرع منهما ثاني يا أفندم !

وأمام هذا الرجل الظريف الجالس مجبسا على مقعده نزلت الماء وطلعت كل يوم ، وهو الذي جعلني أتصور أن البحر يضحك وأنا نازل اتعلم العم ، فأنا لا أرى أى تقدم من أى نوع ولكنه يؤكد أنى أسرع من كل من الرئيسين وفي إحدى المرات سألت الرئيس السادات إن كان عبد الباقي حسنين قد علمه العم فضحك وقال : نحن الفلاحين عندما نولد يلقوننا في الترع والمصارف فنحن كالأمهات نولد سباحين !

يعنى عبد الباقي حسنين أراد تشجيعي . . لا مانع ولكنى لم أتعلم !

فجاء دور الزميل الناقد الرياضى ما هر فهمى وكان قد أعلن في الإذاعة والتلفزيون أنه هو الذى علمنى وأننى أستطيع أن أعبر الحمام ذهابا وإيابا وأننى أتنفس تحت الماء .

هو الذى يقول ولكن لا شىء من ذلك قد حدث وعندما سمعته يتكلم في التلفزيون التفت حولى لعله يقصد أحداً غيرى . هو يقول إنه علمنى والحقيقة أننى لم أتعلم !

وفي يوم جاءنى شاويش من الكلية الحربية وأخذنى على جنب وقال لى : اسمع ياسعادة البيه سيبك من الجماعة اللي يقولوا لك أحنا اتعلمنا في أكسفورد كل ده بكش ياسعادة البيه أنا سوف أعلمك السباحة على الناشف يعنى هنا خارج الحمام سيادتك تنام على الأرض وتحرك يديك ورجليك وبعد ذلك أرميك في الماء وسوف تدعولى .

ثم استوقفنى قبل النزول وقال لى : ياسعادة البيه سيادتك طبعاً شفت الكلب عندما يمسك العظمة في سنانه .

قلت : نعم .

قال : خلاص ياسعادة البيه تمسك الخشبة دى زى الكلب تماماً !

ولم أتعلم . .

وظهرت في التلفزيون أحكى خييتى مع عبد الباقي حسنين وماهر فهمى . . وفي اليوم التالى جاءنى عبد الباقي حسنين ومعه طشت بلاستيك وقال : ياسعادة البيه أنا غلبت معاك أنا جايب لك طشت وسوف أعلمك فيه أمام كل الصحفيين !

ولا أعرف سبب الخوف من الماء . هل صحيح أننى غرقت فى النيل وأنا طفل ، أنا أقول ذلك كثيرًا ولكن لست متأكدًا من أن هذا قد حدث وسألت أخى وإخوتى فوجدتهم لا يذكرون شيئًا من ذلك ، إذن لابد أنها أسباب فلسفية .

قال الفيلسوف ابن سينا :

لا أركب البحر أخشى على منه المعاطب .

أنا طين وهو ماء والطين فى الماء ذائب .

وعندما كنت فى جزر هاواي وفى إحدى الليالى القمرية تسلقت شجرة مدت فروعها كذراعين جميلتين لمن يريد أن ينام عليهما وفى شعاعات القمر والموسيقى على الشاطئ والنسيم الهادئ والجمال الأبدى غلبنى النوم وصحوت عند الفجر لأجد الشجرة فى وسط البحر . . . يانهار أسود . . . ففى الليل ارتفع وزحف على الشاطئ وأصبحت الشجرة التى كانت على الشاطئ تبعد عنه خمسين مترًا ونظرت إلى الماء وأنا فى حالة من الرعب وظلمت هكذا حتى طلع النهار ورحت كلها رأيت أحدًا أصرخ وأقول انقذونى !

وكان الناس يضحكون ويلوحون ببرانيطهم أى إننى لست جادًا ورأيت واحدة وقلت لها : فى عرضك انقذينى إننى لا أعرف السباحة !

فضحكت ووقفت وقالت : تعال أنت .

وأقول لها : تعال أنت !

تقول : لا تعال إنت .

أقول : والله أنا لا أعرف السباحة أرجوك فى عرضك .

تقول : كذاب قالوها كثيرًا قبلك تعال أنت وأنا آجى معاك .

أقول لها : انظرى إننى بملابسى كاملة راحت على نومة من امبارح . . أرجوك أتوسل إليك أبوس رجلك .

ولما اقتربت ناحيتى وجدت أن الماء يصل إلى منتصف ركبتيها قفزت سعيدًا من أعلى الشجرة إلى الماء الذى وصل إلى ركبتي فضحكت الفتاة وقالت : كلكم كذابون !

وعندما ذهب وفد الأدباء إلى اليمن - يوسف السباعى ونجيب محفوظ وصالح جودت ومحمود حسن إسماعيل وأنا - توقفت الباخرة فى ميناء الحديد وعرض علينا القبطان أن ننزل إلى الماء لم أتردد فلا أحب أن يعرف أحد أننى لا أحسن السباحة ونزلت بالمايوه والماء طين قدر

ليس للسباحة ، وإنما للدفن حيا وتقدم السباحون إلى أبعد من الشاطئ وظللت واقفاً وجاء نجيب محفوظ من ورائي مداعباً ودفعني إلى الماء والله لا أعرف ماذا حدث ، هل بدأ دفنى من فمى . كم لثراً من الطين شربت ولا أعرف كيف وقعت وكيف صرخت أطلب النجاة ولم يلاحظ أحد شيئاً . . فلا أحد يتصور أننى لا أعرف السباحة .

وكننت قبل سفرى إلى اليمن قد طلبت من الأدوية د . نوال السعداوى - وكانت مديرة العلاقات العامة بوزارة الصحة - أن تعطينى صندوقاً به كل الأدوية التى يمكن أن أحتاج إليها عند الإصابة بأى مرض ، وبسرعة رجعت إلى الصندوق أقرأ الأدوية وأسباب استخدامها ولم أجد فى كل الذى كتبته د . نوال السعداوى ما يمكن عمله إذا شربت الطين فى ميناء الحديدة باليمن !

وكانت ليلة سوداء فظللت أتخيل إصابتى بكل الأمراض وخاصة « دودة مدينا » . . فهذه الدودة موجودة فى اليمن ، وهى دودة تنمو تحت الجلد ثم تظهر من تحت الأظافر وكلما ظهرت بعد ذلك قطعوها ثم تعود إلى الظهور !

ولى صديق وقريب هو اللواء محمد فريد حجاج قرر على مسئوليته أن يعلمنى السباحة ثم ندم على ذلك فليست محاولة تعليمى إلا محاولة لإغراقه هو فى الماء ، فخوفى من الماء وسقوطى بسرعة إلى الأرض يجعلاننى أسحبه معى إلى القاع يانموت سوريا يانعيش سوا .

وقرر هو أن يعيش وحده وعدل وعدلت نهائياً عن السباحة !

وأنا الآن إذا نظرت إلى صور رواد الفضاء الأمريكان والروس الذين خرجوا من المركبة الفضائية وراحوا يمشون فى الفضاء فإننى أصدقها ، ولكن إذا رأيت الباليه المائى فإننى لا أصدق أبداً أن السابحات الفاتنات لا يستندن بأرجلهن ورؤوسهن إلى أرضية الحمام لأنه ليس معقولا أبداً أبداً أن يرقصن وهن معلقات فى الماء إزائى أنا لا أصدق !

أما التنس فقد بدأت بأن قرأت كتاباً لزميل كان يعمل محرراً فى جريدة الزمان وهى جريدة مسائية كانت تصدر عن دار الجورنال ديجيبيت رئيس تحريرها جلال الدين الحماصى قرأت الكتاب وأعجبني وفكرت فى ترجمته عن لعبة التنس وساعدنى على فهم الكتاب الكثير من الصور والرسومات البيانية .

ولم أترجم الكتاب ولكن كان اهتمامى بالتنس شديداً ، وخاصة بعد أن قابلت اللاعب الألماني المصرى فون كرانر ولم يكن اللقاء وجها لوجه وإنما رأيته ضمن آخرين ، بل رأيته فى صورته وكلامه واحداً من أبطال التاريخ الألماني ، ولكن ليس هذا سبباً كافياً لأن أمارس رياضة التنس .

وذهبت إلى نادى التوفيقية وكان أستاذى اسمه رمضان ، ولم أجدنى قادرًا على أن أجاريه في سلاسة اللعب فهو يلعب بلا مجهود ، وإنما حركاته رشيقة وكراته ناعمة طائفة وأنا أضرب الكرة . والكرة والمضرب لقاؤهما في يدى عنيف ولا أعرف مدى تقدمى في هذه اللعبة .

وانتقلت إلى نادى الجزيرة ألعب مع سعيد سنبل الذى أصبح رئيسًا لأخبار اليوم وحمدى فؤاد زميل الدراسة الذى أصبح نائبًا لرئيس تحرير الأهرام . أما سعيد سنبل فكان لا يلعب وإنما هو يحرك ذراعيه وكان يتضايق إذا أنا ضربت الكرة بعيدة عنه فيصرخ : الله أنت مش شايفنى هات لى الكرة هنا .

أى أمامه مباشرة .

وبعد لحظات من اللعب يهجم الجرمون يحمل لنا عصير الليمون فى الملعب ونشرب ويتتهى اللعب !

وأنا الآن مستمتع تمامًا بمباريات التنس العالمية والفضل يرجع إلى الكابتن عادل شريف فهو الذى حبيب إلينا هذه اللعبة وإلى ملايين من مشاهدى التلفزيون فهو رجل خبير ومحدث ظريف وعنده معلومات كثيرة وأعتقد أن المذيع الظريف المسلى قادر على أن يجتذب الملايين .

ولاحظت أن جمهور كرة اليد وكرة السلة ليست لديهم معلومات ولا حكايات ، وإنما المفردات التى يستخدمونها قليلة جدًا ولذلك فهى مملة ولم أحاول مرة واحدة أن أتابع مباراة حتى آخرها بسبب سرعة اللعب أو بسبب إفلاس المذيع وعجزه عن اجتذاب الناس إليه وإلى الكرة !

أما رياضة المشى فقد مارستها طوال عمرى فعندما كنت طالبًا فى مدرسة دمنهور الثانوية كنا نمشى من مدينة أبو حمص حتى دمنهور كل يوم ، ولم تكن نجد ذلك مشوارًا كبيرًا . . وفى المنصورة كان بيتنا فى الحسينية والمدرسة فى آخر المدينة وهو مشوار طويل وكنا نمشى كل يوم بعد الظهر من شجرة الدر إلى تورييل وهى مسافة طويلة .

أما رياضة المشى الحقيقية فهى التى كانت مع الرئيس السادات فهو لا بد أن يمشى كل يوم فى أى مكان . . حتى فى كامب دافيد طلب منى الرئيس السادات أن أذهب لأتمشى معه . . كان يمشى فى القناطر الخيرية وفى ميت أبو الكوم وفى داخل بيته فى الجيزة . . فى داخل جنينة ضيقة جدًا وكان المشى فيها نوعًا من الألعاب البهلوانية فالمسافات صغيرة جدًا وكنا نمشى فى الحرائية فى حديقة عثمان أحمد عثمان . . وفى أسوان وراء البيت . . وفى جزيرة الفرسان بالإسماعيلية وفى المعمورة . . وفى كنج مريوط . . فى أى مكان لا بد أن يمشى ساعة وأحيانًا ساعتين وبعد المشى يحرك رجله على البسكلت ثم التدليك ثم النوم بعد ذلك . . ويصحو

ليتناول الوجبة الوحيدة ويجلس بعد ذلك يرى الفيلم الذى كان قد رآه قبل ذلك مرتين وثلاثا ويسرح أثناء العرض فكأنه لم يره !

وقد حاولت كثيرا أن أعود إلى رياضة المشى فى نادى الجزيرة وفى ساعة مبكرة ، وكان يشاركنى فى المشى الكاتب أبو هيف وقد ارتدى حذاء أدخل فيه الأصابع أما بقية قدميه فهى خارج الجزمة وهو لا يمشى وإنما هو يلهث ويحكى لك حكايات ويجمع حولك الناس والى ما يشترى يتفرج ثم يغرينى بأنه سوف يعلمنى العوم فى حمام الأطفال ولا من شاف ولا من درى . . لكن لأن أبو هيف لا يستطيع أن يكون وحده فقد اعتاد على الأمواج وهديرها فلا بد أن يكون الناس حوله أمواجها هدير ولسان طويل . ووجدت أن المشى فى نادى الجزيرة هو انعدام للهدوء والراحة والعزلة ، وصحيح أن أبو هيف رجل لطيف ، ولكنه قادر بمنتهى السهولة والهدوء على أن يحطم أعصابك ويوقعك فى مشاكل مع كل خلق الله !

أما تجاربى فى البنج بنج فمحدودة فهى تحتاج إلى سرعة وتركيز وأنا غير قادر على التركيز . وكذلك لعبة البادمتو جربت بها بعض الوقت وكرة السلة أيضًا ، أما كرة القدم فكنت أعبها أيضًا . . لقد كنت أشارك فى جميع الألعاب ولم أتقدم فى لعبة واحدة .

فمثلاً فى كرة القدم كنت كابتن الفريق ولم يقل لى أحد معنى أن يكون الإنسان « كابتن » ولكن قالوا لى كده وفى يوم كنا فى مباراة مع إحدى مدارس المنصورة وبدأ اللعب وكان لابد أن أشوط ضربة جزاء ، وكانت الكارثة . . فقد خرجت جزمتى ودخلت الشبكة أما الكرة ففى الاوت فلم تكن هذه الجزمة إلا جزمة واحد من إخوتى الأكبر سنا . وضحك التلاميذ وخرجت مع الجزمة من الملعب ولم أعد .

وبعد ذلك عرفت فى تاريخ الفلسفة أن الفيلسوف اكزسيون عندما ألقى بنفسه فى فوهة بركان فيزوف بإيطاليا لم يعرف الناس أنه انتحر إلا عندما دفعت الغازات بحدائه بعيداً عن البركان !

وكذلك ماتت كل رغبة فى اللعب بعد خروج هذا الحذاء وضحك كل التلاميذ ! غلطة واحدة ارتكبتها جميع المدرسين فقد كانوا ينظرون إلى الرياضة على أنها لعب أى ابتعاد عن الدراسة الجادة ، وإن هذا اللعب لا يليق إلا بالطلبة الكسالى ، ولذلك كان المدرسون يخرجوننى من طوابير الألعاب الرياضية ويقولون : اخرج انت يا ابنى روح أقرأ لك حاجة تنفعك دول أولاد بايظن اذهب الله يفتح عليك !

وهكذا خسرت صداقة زملائى والرياضة وكسبت القراءة والتفوق وظلت فكرة أن اللعب لا يصلح إلا للفاشلين مسيطرة على عقلى وقتاً طويلاً فدفنت نفسى فى الكتب وابتعدت عن الصحة وهدوء الأعصاب !

لإنهم أساتذتى الذين علمونى ألا أكون رياضياً وحرمونى من نعمة الماء والهواء والكرة من كل لون وحجم واسم ولا أعرف لو كنت شبطت فى إحدى هذه الألعاب وأخذتها بجدية ، كما أخذت القراءة والكتابة فهل كنت أحد أبطال مصر ؟

لا أظن فلست ميالا بطبعى إلى الابتعاد عن الكتاب . . فالكتاب بالنسبة لى كالماء بالنسبة للسماك . إذا ابتعدت عنه فإننى أموت وكما بدأت اهتمامى بالتنس بعد أن قرأت أحد الكتب كذلك كان اهتمامى بالشطرنج بأن عرفت حركة قطع الشطرنج ثم اشتريت عددًا من الكتب أدرس الألعاب المشهورة لأساتذة الشطرنج وكنت أحفظ بعض هذه الألعاب ، ولكنى انهزم فى النهاية . والسبب بسيط جدًا فإننى أوجع دماغى فى فتح اللعب . وفى اللعب فى منتصف الرقعة بينما خصمى لا يفكر على الإطلاق ولا يعرف نظريات اللعب ، وإنما هو يرانى وأنا أحرك الفيل والطايرة والوزير ولا يعرف ما الذى فى رأسى فسهل عليه أن يغلبنى ، ولذلك فمذاكرة اللعب وحفظ النظريات لا أهمية لهما ما دام الذى ألاعبه لا يعرف ما يدور فى رأسى فعدلت عن الشطرنج الذى بدأ من الكتب ومن القراءة !

فالبداية هى الكتاب عادة .

والنهاية هى الكتاب أيضًا ، ولذلك فأنا أقرأ عن الألعاب ولا أمارسها واتفرج على مباريات كرة القدم ولم أذهب إليها إلا مرتين فى حياتى مرة عندما لعبت البرازيل مع الأهل من ثلاثين عاما والمرة الثانية عندما لعبت مصر مع انجلترا فى كاليارى .

وأول رياضى عرفته فى حياتى وجلست إليه وحاول إقناعى بأن أتفرج عليه وهو يلعب وكان من الأخوان المسلمين فى شعبة إمبابة اسمه عمر شندى وكان له أخ يلعب أيضًا وقد دعانى أكثر من مرة ولم أجده سببا يقنعنى بأن أفعل ولا عندى سبب حتى الآن لأن أذهب إلى أى ناد رياضى مهما كانت هذه اللعبة حتى لو كانت التنس أو كرة القدم أو مجرد المشى مع أبو هيف فى جنات تجرى من تحتها الأنهار !

ذهبت إلى كاليارى أبحث عن جراتسيا

قال لى : تسافر قلت : موافق .

- موافق على إيه . . هل تعرف إلى أين وبأية طريقة ولمدة كم يوم أو كم ساعة ! . .

- يا أختى أنا موافق على أى سفر إلى أى مكان بأية وسيلة ولأية مدة !

- كده على طول .

- أيوه !

- وكان السفر إلى كاليارى عاصمة جزيرة سردينيا لكى أتفرج على آخر مباراة للفريق القومى مع انجلترا طبعًا موافق . . وسمعت د . خيري السمرة عميد طب القاهرة يتحدث إلى التليفزيون المصرى ويقول : إن أنيس منصور ضحك عليه كمال الطويل وعبد الحليم حافظ وأخذه إلى الملعب حيث يتبارى فريق البرازيل مع فريق النادى الأهلى من حوالى ٢٨ سنة . . وذهب وهو معتقد أنها الأهلى والزمالك يلعبان . . ولما قيل له إن ييليه هذا هو اللاعب حنفى بسلطان أبدى إعجابه بعبقريه حنفى بسلطان وفوجئ . فى اليوم التالى بأنه ليس إلا ييليه الذى كانت تتحدث عنه صحف مصر كلها من شهور طويلة . . وإن « أخبار اليوم » التى كان يعمل فيها رئيسًا لتحرير مجلة الجليل هى التى دعت ييليه إلى مصر !؟

وسمعت صلاح الطاروطى عضو مجلس الشعب يقول : والله ياست أنا كانت عندى ساعة ذهبية مضبوطة وكنت سعيدًا بها إلى أن قابلت أنيس منصور فى الطائرة المتجهة إلى أمريكا لنشهد توقيع اتفاقية كامب دافيد . . وظل يقول : إنها ساعة حقيرة . . وإننى لقيتها فى الزبالة . . وكلما سألتنى أحد : كم الساعة . . فأنظر إلى ساعتى ويشير هو إلى لونها وجلدتها وشكلها . . فقررت أن أتركها فى البيت . . ثم اشتريت ساعة ذهبية . . ولم أكد أعرضها عليه . . حتى اتهمنى بأنها ساعتى قد استأجرتها . . أو أننى أخدتها من واحد من إخوتى . . وضاعت هذه الساعة . . ومعنى الآن ساعة فى جيبي ولا أريد أن أفصح نفسى فأعرضها عليه . . وأنا الآن أكتفى بأن أسأله هو عن الساعة !

والطبل والزمر والهاثافات في الطائرة المتجهة إلى كاليارى .. الجو صاف .. والرياح معتدلة .. والطائرة راسية في الهواء .. ومضى الوقت بسرعة .. وكل واحد يسألنى : لماذا السفر إلى كاليارى ؟

وكان يتطوع بالإجابة عنى د . خيرى السمرة وصلاح الطاروطى .. ولكن لماذا لا أذهب ؟ إنها فرصة لكى أرى جزيرة سردينيا ولم أكن قد رأيتها من قبل .. انها ثانى الجزر الإيطالية الكبيرة . الأولى هى صقلية وعاصمتها باليرمو ، وهى مهد حركات المافيا فى إيطاليا وفى أمريكا أيضًا . وقد استعان الحلفاء بالمافيا فى الحرب العالمية الثانية ضد موسولبنى وضد هتلر . والمافيا هى الحكومة السرية لأمريكا . وهى التى قتلت كنيدي وقتلت مارلين مونرو . لماذا ؟ إنها حسابات طويلة ومعقدة .. وجزيرة سردينيا طولها ٢٥٠ كيلو متر وعرضها ١٥٠ كيلو متر .. وتقع إلى شمال جزيرة كورسيكا الفرنسية التى ولد فيها نابليون العظيم .. ومدينة كاليارى قد بناها الأجداد من الفنيقيين ، وأهل الجزيرة يتكلمون لهجات كأنها لغات مختلفة لا يفهمها الإيطاليون أنفسهم . وهم خليط من أولاد الإغريق والرومان والفنيقيين والأسبان . وكل ذلك واضح فى فن العمارة وفى العادات والتقاليد والأفراح والليالى الملاح ..

وفى مطار كاليارى لا شىء يدل على أننا فى إيطاليا أو أسبانيا أو اليونان .. فالوجه كأنها يونانية أو أسبانية .. أو حتى مصرية .. ولكن الكلمات الإيطالية تدق الأذن فينطلق اللسان .. وتعالى النداءات : تعال .. ترجم لنا ماذا يقولون !

قلت : إنهم يتمنون للفريق المصرى أن يهزم الإنجليز ٢ / صفر .. فهم لا يحبون الإنجليز . ويريدون أن نخطف منهم كأس العالم !

الجو صحو .. جاف .. السماء مفتوحة والبحر حولنا أزرق .. شديد الزرقة والصخور من كل لون : بنى فاتح وغامق وأحمر وأصفر .. والمدينة تبعد عن المطار دقائق .. وكل المصريين نظرنا إلى الشوارع : نظيفة مستقيمة ناعمة .. والبوليس فى كل مكان .. سألنى أحد رجال البوليس : إن كانت عندنا أية علامة للفريق المصرى .. فأعطيته « الفانلة » التى توزعها شركة الطيران - الأصح أن تقول « الفالنة » لأنها انجليزية الأصل !

ركبت السيارة أفرج على المدينة . قلت للسائق :

أنا جئت هنا أبحث عن جراتسيا دليدا .. تعرفها ؟

- لا ..

- ولم تسمع عن واحدة بهذا الاسم ؟

- أبدا !

- حاول أن تتذكر !

- هل يمكن أن تسأل أحداً أكبر سناً ؟

ففتح النافذة ودار حوار بإحدى اللهجات ولم أفهم منه كلمة واحدة . وعاد يقول .
أبداً . . لم يسمع أحد بهذا الاسم ! .

وتذكرت مداعبة قمت بها في إحدى المرات في محطة مصر . عندما استوقفت أحد المشاة
وسألته : من فضلك تعرف « رامتان » ؟

- رمضان مين ؟

- لا . . رامتان !

- لا مواخدة ده ايه ؟

- بيت !

- بيت ؟ لا مواخدة اسمه كده ؟

- ايوه !

- بيت من ؟

- طه حسين .

- آه . . طه حسين ولا مواخدة ده يبقى فين . .

- أنا عاوز أعرف . .

وجاء واحد يبدو أنه أكثر ثقافة فسألني : ماذا تريد سيادتك ؟

قلت : أريد أن أعرف بيت طه حسين . . اسمه رامتان . .

- فآكر حاجة زى كده . . يمكن تلاقيه عند الأوبرج . . مرة قرأت عنه . .

- واحد يقول : بيت اسمه رامتان . . يا أخى طه حسين ده عليه حاجات ؟ ! وده لا

مواخدة اسم ولا اسم حد من أولاده ؟

- اسم بيت .

- خلاص عرفت البيت . . شوف ياسعادة اليه . . مفيش حد عارف حاجة . . وكله

بيقول إنه بيعرف . . وحياتك مفيش حاجة بالاسم ده . . ده كله كلام جرايد . . وهيه البيوت
لها أسماء !!

ونفس الشيء حدث مع السائق الإيطالي . فقلت له : جراتسيا دليدا هي الأدبية الإيطالية
التي ولدت هنا وحصلت على جائزة نوبل في الأدب سنة ١٩٢٧ . . لأنها واحدة من ست
سيدات عالميات حصلن على هذه الجائزة الرفيعة . . أول واحدة كانت سويدية اسمها سلما

لاجر فيلد حصلت على جائزة نوبل سنة ١٩٠٥ وحصلت عليها واحدة نرويجية اسمها سجيريد اوندست سنة ١٩٢٨ والرابعة من أمريكا اسمها بيرل بك حصلت عليها سنة ١٩٣٨ والخامسة من شيلي واسمها جبريلا مسترال وكان ذلك سنة ١٩٤٥ .

وسألت السائق إن كان يتابع ما أقول فقال : والله أنا مكسوف .. إنها أدبية هذه الجزيرة .. الآن تذكرت وأنت تعرفها وأنا لا أعرفها .. لا تؤاخذنى .. إننى تخصصت فى هندسة السيارات .. وليست لى اهتمامات أدبية ..

عدت أقول له : إن جراتسيا هى الابنة المخلصة لهذه الجزيرة .. أدبها إقليمي بحث .. كانت تتحدث طوال الوقت فى روايتها عن فقراء ولصوص ومجانين وأغنياء هذه الجزيرة .. ولم ترفع عينها عنهم .. استطاعت أن تقدم صورًا عالمية رائعة لأهل الجزيرة .. حتى عندما تزوجت وسافرت إلى روما ، لم تكتب سطرًا واحدًا عن روما واقعها وخيالها .. كله هنا فى هذه الجزيرة .. ثلاثون رواية .. واحدة منها اسمها « الهروب إلى مصر » ..

ووقف السائق يسأل : تعرف بيت الكاتبة جراتسيا دليدا ..

- جراتسيا إيه ؟

- دليدا ؟

- دليدا من أين ؟

- ولدت هنا !

- ماتت أين ؟

- فى روما !

- اسأل عنها هناك !

وتوقفت السيارة نهائيا ونزل السائق . وبعد لحظات عاد يقول : لابد أن تسأل واحدًا كبيرًا فى السن .. متى ماتت ؟

قلت : سنة ١٩٣٦ عن ٦١ عاما !

ومن الممكن أن ترتاد المدينة طولًا وعرضًا ولا تجد أحدًا يعرف بيتها أو حتى قرأ لها ..

وأذكر أننا ذهبنا إلى بيت كان يملكه توفيق الحكيم بالقرب من ميدان العتبة . وسألنا أحد السكان . تعرف توفيق الحكيم ؟

- لا والله .

- هل تعرف اسم صاحب البيت الذى تسكنه ..

- البيت ده ..

- أظن اسمه توفيق الحكيم .

- هل تعرف ماذا يعمل ؟

- لا والله !

- ألم تسمع عن كاتب مشهور اسمه توفيق الحكيم ؟

- لا والله !

* * *

والبحر حولنا هادئ ومياهه صافية تمامًا . . وعدد المصطافين قليل جدًا . . والعاريات ونصف العاريات . . واحدة . . اثنتان . . ثلاث . . وواجهات البيوت إسبانية الطراز . . والشوارع الملتوية والحواري الضيقة كلها إسبانية . . ووجوه الناس وشعرهم الأسود . . وعيونهم الواسعة السوداء . . وأحجامهم الصغيرة . . كلها لا تدل على أنهم من أصل روماني واحد ، وإنما من أصول مختلفة . . أما ملابس السيدات التقليدية ، فهي إسبانية الألوان والخطوط . .

وفي الشوارع خيول البوليس وكلابه . . وفي الفندق سألت : أين نجد بيت جراتسيا دليدا ؟
- جراتسيا ماذا ؟

- دليدا . .

- من هي .

- أديبة عالمية عاشت هنا . . ورفعت شأن هذه الجزيرة إلى السماء .

- لابد أنها قديمة جدًا . .

- يعنى .

- تعرف أين يوجد بيت اسمه رامتان ؟

- رامتانو ؟ !

- إيوه . .

- لم أسمع به قط . .

- فعلا لأنه موجود عندنا في مصر !

- ها . . هاما . .

-

* * *

الله . . الله . . سمعتها من ورائي ومن أمامي . . وكنت أظن أنها كلمات استحسان للأستاذ الرياضي الذى بنى حديثًا . . أو دليل على الإعجاب بالنظام والضبط والربط . .

ولكن عرفت أن المقصود هو الأربعون فتاة الجميلات اللاتى أتى من كل إيطاليا . . جميلات
لاشك . . رشيقات لا جدال . . ما هذا الذى يقدمه للناس . . كل المشروبات الممنوعة
وغير الممنوعة . . والآيس كريم والشيكولاتة . . وكل ذلك ملفوف فى ابتسامة جميلة من وجوه
جميلة وشعور جميلة استقرت على أكتاف . . على أجسام . . على سيقان . . الله . . الله . .
يادين النبى . . ففى أى موقع تنهال عليك هذه الكلمات . . والمعنى معروف ومفهوم . . ولم
أصدق واحدًا ضبطته ينظر فوق وتحت ويقول : شايف الموبيليا . . شايف السجاجيد . .
شايف البوفيه . . شايف الاستعداد !!

البوفيه فيه كل شىء بوفرة . . ولكن ليس هذا هو المقصود بالاستحسان . . الله يا أخى
الكوكا هنا لها طعم وفيها غازات . . هذا صحيح والاستحسان ليس للكوكا . . ولكن
لعشرات الفتيات بعثت بهن شركة الكوكا توزعها على كل الناس . .

وفى البوفيه قبل الماتش التقى المصريون بالإنجليز بالإيطاليين . . وقالوا لنا : إن فى الملعب
على الأقل عشرة آلاف متفرج انجليزى ولكن البوليس يشدد عليهم الحراسة ، وقد علمهم
الأدب . . وبين كل صفوف الإنجليز يوجد رجال أمن أشدرا غلاظ لا يعرفون الرحمة . . ولن
يسمحوا لأحد أن يفسد هذا المهرجان . . وقد ألقوا القبض على كثيرين وطردوا من الجزيرة
كثيرين . . فالأمن مستتب تمامًا . هم يؤكدون ذلك . والبوليس الإنجليزى قد تعاون معهم
تمامًا ، وهذا ما حدث أثناء المباراة وقبلها وبعدها . . والبوليس قد فصل تمامًا بين الموكب
المصرى المتجه إلى الملعب وإلى المقصورة وبين الموكب الإنجليزى . . ولم نسمع عن حادث
استفزازى واحد . . ولا اشتباك . .

جلست فى الصف الأول . .

إلى جوارى صلاح الطاروطى . . وورائى اللواء منير ثابت واللواء فاروق أبو العزود . عبد
الأحد جمال الدين والسفيرة هدى المراسى . . وإلى اليسار كبار ضباط البحرية المصرية . .
وعدد من المصريين متناثرين فى المقصورة . . وفى مواجهتنا المشجعون المصريون . .
والإيطاليون الذين يشجعون المصريين . . وإلى اليمين المشجعون الإنجليز وبدأت المباراة . .

وبينى وبين نفسى أقسمت أن تكون هذه آخر مباراة أذهب لرؤيتها . . فأننا لا أرى وجوه
اللاعبين ولا أستطيع أن أميز واحدًا منهم . . فقط لون الفانلة . . وإن كان الناس وزائى
وأمامى يميزون اللاعبين بالاسم . لا أعرف كيف . . مع أن بعضهم يضع منظارًا على
عيونهم . . إذن هو التدريب الطويل والمعرفة العميقة للملامح وجوه وأجسام اللاعبين
وحركاتهم . . ولكن أمام التليفزيون فالوجوه أوضح واللاعبون أقرب . . أما هنا . . فلا أعرف
أحدًا . . ولم أعد أفرق بين اللاعبين والمشاهدين فأننا أجهل الجميع . .

والفرق بين المباراة التى أشاهدها فى التلفزيون والمباراة التى أشاهدها فى الملعب . .
كالفرق بين المسرح والسينما . . ففى المسرح ترى الممثلين ويرونك . وفى السينما لا ترى إلا
تسجيلا فلا أنت تراهم ولاهم يرونك . . ولكنهم فى السينما أوضح ثم إنك تتفرج وأنت على
راحتك . . جالسا نائما . . أكلا شاربيا . . بالبيجامة أو بلبوصا . . أنت حر ولكن عشاق
الكرة لا يطيقون أن يروا تسجيلاً . وإنما يذهبون إلى مكان الأحداث ويدوبون مع اللعب
والملاعب ويصرخون !

وكان د . عبد الأحد جمال الدين رئيس الشباب والرياضة يصرخ : ليه يا جمال . . كويس
يا هانى يا واد عظيم . .

وجارى يقوم بدور وكيل النيابة الذى يتهم اللاعبين بعنف . . فإذا كان واحد إلى جواره
أعنف منه دافع عن اللاعب هكذا : إيوه يا حسام اقل عليه . . فيقول واحد : يا أخى أنت
نايم ! فيرد عليه واحد ثالث : يا اخوانا مش كده هو يعمل ايه . . مش شايف الراجل هاجم
عليه زى البلدوزر ياناس الرحمة . . يخص عليك يا جمال . هيه دى لعبة . . ياراجل فين
الحاجات الحلوة بتاعتك . .

وصلاح الطاروطى : قد اتجه بوجهه الذى ازداد شحوبا إلى اللاعبين . . وفجأة يقفز
قائلاً : ليه بس . . دى ميه ميه جون ! ليه بس حرام عليك . . يا شيخ وقعت قلبى . . ويرد
عليه آخر : الله جرى ايه . . حيشم على ظهر إيدته ؟ . دول محلقين عليه من هنا ومن هنا . .
ومش لاقى حد يديله الكرة . . علشان كده بيدبها وراءه !!

شئ عجيب لا أحد من المتفرجين يلتفت لأحد . . وكل واحد منهم يصرخ فى اللاعبين
الذين لا يسمعون . ولا أحد لا يتوقف عن الصراخ وفى نفس الوقت يرد على المتفرجين
الأخرين . .

وحاولت أن أداعب أحد الزملاء . . ووجدت أن هذه الدعابة بايخه وغير مقبولة ، وليس
هذا وقتها . . حاولت أن أسبح ضد التيار الجارف . قلت : والله أنا نادم على أننى جئت
أتفرج على هذه المباراة . وكان الرد من ورائى : نادم ! دى عظمة . . ده يوم تاريخى !! وقال
الذى إلى جوارى : نادم ده يوم مشهود فى تاريخ مصر . . اقعد أحسن تندم أكثر إذا لم تر هذا
الجنون الذى سوف يسجله مجدى عبد الغنى حالا . . اقعد . . اقعد ! وقال واحد من إمامى .
لا تكن قاسيا . . اخص الله يلعنك ! وكان يقصد أحد اللاعبين الذى يريدنى أن أجلس
لكى أراه حتى النهاية !

أما الصرخات الخريمية ورائى فكانت من السيدة هدى المراسى سفيرتنا فى إيطاليا . .
وابتنها أكثر حماساً وانفعالاً وصراخاً ! ومن الصعب ألا يكون أحد كذلك . .

طبعًا لو أن هذه المقصورة في القاهرة لتعالت شتائم للأب والأم . . مع ألفاظ نابية وكلها مقبولة من المتفرجين ، وقد اعتادوا عليها . . ولا يرونها شتيمة ، وإنما هي حالات عصبية لا تحمل أى عداء . . وإنما هي دليل على الحب الصادق للاعب الذى تقول عنه : إنه ابن عفریت . . إنه ممتاز . . أو تقول عنه : إنه وسخ . . إذا كان خصمًا . . أى إنه لاعب ماهر . . هذا دليل على الإعجاب بغير حب . . ولو كان من النادى الذى يشجعه لقال عنه . إنه مجرم . . وهى صفة أخف من الصفة الأخرى . . وهى دليل على الإعجاب به والحب له !

الحمد لله . . الحمد لله . . قالوها جميعًا . فقد انتهى الشوط الأول بلا أهداف . وواضح أن الإنجليز فى غاية السرعة والعنف . . وأن اللاعب ينطلق صاروخًا يصيب كل من يتعرض له . . ومن أهم ما يميز الإنجليز عن المصريين أن الإنجليز يجدون أنفسهم بسهولة . . بينما المصريون فى حالة بحث دائم عن بعضهم البعض . ولذلك تجد اللاعب المصرى أمام المرمى ويلتفت يبحث عن أحد . ليجد هذا الأحد وراءه . وبدلاً من أن يشوط فى المرمى ، فإنه يشوط إلى الوراء . .

والحكم عندما أعطى إنذارًا إلى شويير يتهمه أنه بطيء يعطل اللعب . . كان الحكم ظالمًا . لأن شويير لا يعطل اللعب . . وإنما هو - مثل كل المصريين - إيقاعه الحركى بطيء . . ثم إنه مثل كل اللاعبين يفتش عن زملائه ! والمدرسة الإنجليزية مختلفة عن المدرسة المصرية . . فالمدرسة الإنجليزية هى نفس المدرسة الألمانية النمساوية هى المدرسة الأنجلوساكسونية . . هى مدرسة القوة والعنف والسرعة . . وياقاتل يامقتول !

أما المدرسة اللاتينية : الفرنسية . . الإيطالية . . البرازيلية والمصرية أيضا فهى مدرسة تعتمد على فن اللعب . . على المرونة والذكاء وعلى اللعب فى الوسط . . وعلى التمريرات القصيرة الثعلبية . . والمدرسة الإنجليزية الألمانية هى مدرسة الطابور العسكرى . . أما المدرسة اللاتينية فهى مدرسة الرقص الشعبى . . وفارق كبير بين الذى يذهب إلى القشلاق والذى يذهب إلى البيت . . فاللاعب الإنجليزى عسكرى ذاهب إلى الميدان . . واللاعب المصرى راقص شعبى . . ولذلك ليس غريباً أن نجد ما وادونا - الطلاينة يسمونه مكرونا لأنه كثير الالتواء والسقوط - على الأرض واقعا . . لقد اعتاد على ذلك . . واعتاد الناس على أن يروه محاصراً مضروباً معوقاً . . ولذلك يتتهز هذه الفرصة ليرتمى على الأرض ليأخذ نفسه . .

اللاعب الإنجليزى يشوط من أول الملعب لآخره . . ويشوط دون أن ينظر وراءه وأمامه . . وسوف يجد لاعبين فى انتظاره فى كل مكان . فهم يفهمون إلى أين تتجه الكرة . بينما اللاعب اللاتينى فى حالة بحث دائم عن زملائه . . فإذا وجدهم كانوا على مسافة أمتار منه . . فهم

يلعبون في الوسط . . وسط الملعب كله . . أو وسط ملعب الخصم . . ولكن لا يطلقون
قذاذهم بعيدة المدى !

والارتباك الذى أصاب الفرق الرياضية هذا العام سببه أنهم خلطوا المدارس . . فكثير من
الفرق تبدأ انجليزية وتنتهى برازيلية . . أو العكس . . فكأنهم يتكلمون لغتين مختلفتين .
إحداهما لا يتقنوها . . فكانوا غريباء على أنفسهم . . أما الفرق التى اتقنت مدرسة واحدة ولم
تغير أسلوبها فهى التى استطاعت أن تصل إلى نهاية سعيدة . . وفى تفسير عدم دخول فرنسا
كأس العالم أنها حاولت أن تغير أسلوبها التقليدى فى اللعب . فبدلاً من أن تحتفظ بذكائها
والعابها القصيرة حاولت تقليد بعض تلاميذها فى اللعب العنيف . . استعانت بلاعبين من
الجزائر فيهم عنف وغلظة - تماماً كالمدرسة الإنجليزية . . فحدثت لخبطة فى الفريق الفرنسى
فتأخر عن اللحاق بكأس العالم !

ونحن نتزاحم على أكوام المكرونة الإيطالية فى البوفيه . مكرونة من كل لون وطعم . . وأكوام
الجبنة اللذيذة . . ومالا نهاية له من المشروبات . .

قال لى جارى الإنجليزى :

من سيخرج من الكأس ؟

قلت : أنتم !

قال : هكذا ؟

قلت : نعم ولأسباب أخلاقية .

وقال : ماذا تقصد ؟

قلت : لقد أثبت التحليل لدم وبول أحد اللاعبين الإنجليز أنه تعاطى حبوباً منبهة . .

وفى هذه اللحظة لم أعد أفرق بين لون وجه الرجل ولون المكرونة فى الطبق . . ومددت يدي
أمسك طبقه الذى ارتعش . وسحبت الرجل حتى أسند ظهره للحائط . . وسرحت . .
وتميت أن يكون هذا الذى قلته صحيحاً . ولم اتنبه إلى أن الرجل من الممكن أن يموت فوراً . .
وإن هذا حدث كثيراً فى ملاعب الكرة . . ويحدث عن الرجل فلم أجده . . وانزعجت . .
ورحت أبحث عنه . . فلم أجده . . واندذهشت كيف أن الرجل اختفى بهذه السرعة . . أو
كيف أننى سرحت لدرجة أننى لم أشعر به واقفاً أو جالسا أو حيا أو ميتاً . . وانشغلت برؤية
الناس . . وهم يأكلون . . إنها صورة مختلفة عن التى رأيته فى المقصورة . . ولا شىء يدل
على أن الكرة قد استغرقتهم إلا أن أحداً منهم لا يدخن ، وأن أحداً منهم لا ينظر إلى
الجميلات الإيطاليات طالعات نازلات جالسات على الأرض . . ولما اتجهت إلى المقصورة
جاءنى الرجل ومعه اثنان آخران ويسألان : إن كان صحيحاً هذا الذى قلت ؟

فقلت : يا اخى كنت أداعبك !

وسألت أهل الذكر ما الذى يمكن أن يحدث لو كشف التحليل أن أحد اللاعبين الإنجليز
تعاطى حبوبا منبهة . . فبدت السعادة على كل الوجوه المصرية : يبقى صعدنا لدور الـ ١٦
والإنجليز راحو فى أبو نكلة !

ولم أفهم العمليات الحسابية التى ذكروها ! سألت إحدى الجميلات : وأنت تشجعين
من؟ قالت بسرعة : الفريق المصرى !
لماذا؟

- لأننى لا أحب الإنجليز . .

- ولا تعرفين أحداً من المصريين ؟

- ولا أحد . . ولكن رأيتهم على الشاشة . .

- أعجبوك ؟

- بعضهم .

- تذكرين بعض الأسماء . .

- هشام . . وشوبير . . وهانى . طبعاً تعرفهم ؟

- لا والله . . ولا واحد منهم . ولا رأيتهم من قبل .

- الست أحد الوزراء ؟

- لا . . الوزير هو الجالس هناك . .

- أنت ماذا ؟

- مؤلف .

- إذن انت ملك !

- شكراً . .

- تعرفين جراتسيا دليدا ؟

- آه أديبة إيطالية . . إنها مفخرة هذه الجزيرة . .

- هل تعرفين أن الناس هنا لا يعرفونها . .

- اهتمامهم ليست أديبة . .

- وأنت اهتمامك أديبة ؟

- أنا أكتب قصصاً قصيرة . .

- أنا ترجمت أكثر من مائتى قصة قصيرة لأديب إيطاليا البرتو مورافيا . . ولزوجته الأولى إلزه مورانته . . وترجمت لزوجته الثانية داتشا ماريانى . . وكارلو ليفى . . وشيزاره بافيزه . .
- أنت متخصص فى الأدب الإيطالى . .
- لا . . وإنما فى مرحلة من مراحل نمو الأدبى ، كان الأدب الإيطالى قد سيطر بواقعيته على كل تفكيرى .

- والآن ؟

- آداب أخرى وفلسفات أخرى . .

- هل تسمع عن الكاتبة البادشسبندس ؟

- التى كانت ترد على رسائل القراء فى مجلة « أبوكا » !

- تمام . . أنا حفيدتها ؟

- أنت لست من سردينيا . .

- لا . . أنا من روما .

- وكل الفتيات الجميلات طبعاً .

- لماذا طبعاً ؟

- لأنهم هنا فلاحون صيادون أجانب عن إيطاليا . .

- تمام . .

- أول مرة تقابلين مصريين ؟

- نعم . . وكنت أتصور أنهم فى غاية العنف والغلظة . . قالوا لنا كده . . ولكن المصريين أناس فى غاية الأدب والرقّة . .

- شكرًا .

- ربما كانت هذه المعلومات بقصد أن تكون فى حالة احتراس ويقظة دائمة . . حتى الإنجليز الذين تراهم هنا ليسوا بالصورة المخيفة التى وصفوها لنا . .
- إنهم يقصدون إنجليز المدرجات وليسوا الذين فى المقصورة . .
- تمام . .

- أنت تستخدمين كلمة « تمام » كثيرًا ؟

- أنا أصلاً ضابطة بوليس وزوجى ضابط ووالدى وأخى . .

- تمام يا افتندم !

يا ابن الـ . . يا ابن الـ . . الله يخرب بيتك . . يا ألف خسارة . لقد دخل هدف فى

شوير. ! كيف ؟ .. بسرعة غريبة . استروبية .. يقولون حولى .. لقد قفز اللاعب الإنجليزي إلى أعلى .. وكان شوير أقل شبرا .. وجاء هشام يكن فكانت قفزه أقل ستيتمرا واحداً .. ودخلت الكرة وخرجت مصر من كأس العالم !

يعنى إيه ؟ !

ولا حاجة .. تمنينا كأس الكرة .. ولكن هذا يكفى .. لم نكن نحلم بأن نصل إلى هنا .. ولا أن نتعادل مع هولندا .. ولا مع ايرلندا .. ولا نحلم بأن نلعب مع انجلترا تسعين دقيقة في قوة ورجولة وبراعة . لقد خرجنا من الكأس !

وقفزت نبرة الكلام حولى . وغضبت الأصوات .. وخرجت علب السجائر لأول مرة .. وسمعت من يقول : البنات دى ماها ؟ عليها عفريت .. ما تقعدى ياست خيلنا نتيل نشوف إيه اللي بيهيبوه فى الملعب ! !

لقد أفاق المتفرجون ..

وعلى مائدة العشاء جاء كل اللاعبين إلا شوير .. وجاء جارى وهو لاهب قديم يشتم «شوير» .. واتجهت إليه بكل وجهى وجسمى . يا راجل حرام عليك .. شوير أنقذ عشرات الأهداف وأخطأ مرة .. فهل معنى ذلك أنه ولا حاجة .. عشرون مرة حقق المعجزات ومرة أخفق فكانه لا لعب ولا أنقذ !

وبسرعة كانت الأصوات المصرية كلها تنصف الفريق .. وتجد له ألف عذر .. ثم تطيب خاطر المدرب الجوهري .. الذى كان يطمع فى أكثر .. ونحن أيضًا !

وبسرعة أطفئت الأنوار فى كل مكان : فى الوجوه وفى الشفاة .. وجاء الطعام .. فنحن مرهقون فجأة .. فقد ركبنا الطائرة الساعة ١٢ ظهرًا والآن الساعة ١ صباحًا .. فلماذا لا نتجه إلى الطائرة لننام ؟ . وياريت ننام فينقلنا النوم من كل الهموم والأحزان والشعور بالإحباط .. وإن كنا نواسى أنفسنا بأن ما حدث هو أحسن ما يستطيعه أى فريق مصرى ليس محترفًا .. ولم يتدرب إلا أربعة شهور ، والحقيقة أننا «زودناها» شويتين عندما تخيلنا أنه فى الإمكان ما ليس ممكنًا أن نهزم انجلترا ونقتل ألمانيا ونقضى على إيطاليا .. وبقدرة قادر نجد الكأس قد استقرت على رأس الجوهري !

وما زلت احتفظ ببعض العبارات التى لا أفهمها . وإن كنت أعرضها لعل أحدًا غيرى يجد لها تفسيرًا :

لماذا لم يلعب طاهر أبو زيد ؟

لماذا أنزل الجوهري لاعبا مبتدئا في آخر لحظة ؟ ياعمى . . كلها أيام ويسافر الجوهري إلى السعودية ويعمل مدربا بالشىء الفلانى هناك . . هو الوحيد الذى استفاد !

سألت د. عبد الأحد جمال الدين : فى رأيك ما الذى جعل الجوهري يحقق هذا الإنجاز الفنى ؟ . قال : أنا أعطيته حريته الكاملة فى الاختيار والتدريب ولم يتدخل أحد فى عمله . . لا أفرض عليه رأيا ولا لاعبا . . وثم إننى قلت له أنا على استعداد أن أقدم لك أية مساعدة مالية فى أى وقت !

شئ يبعث على الضحك أيضًا أن تتصور أن اللاعبين المصريين مجموعة من الوحوش الشاردة . . ثم قام الجوهري بوضع السلاسل فى أيديهم وأرجلهم حتى لا ينفلت عيارهم لعبا وطوا . . كأنهم بلا إرادة ولا عقل . . ولذلك لابد من حبسهم انفراديا حتى لا ينهد حيلهم فى اللهو والسهر !

وهم يفعلون ذلك لأنهم هواة . . إذا لعبوا وجدوا طعاما ، وإذا لم يلعبوا وجدوا مالا . . وإذا خلطوا اللعب باللهو وجدوا من يقدم لهم الهدايا من الفلوس والسيارات . . فهم لا يخافون على رزقهم !

أما اللاعبون المحترفون فهم يخافون على أنفسهم . . على الصحة واللياقة . . وإلا ماتوا من الجوع . . إنهم أبناء القطاع الخاص . أما اللاعب المصرى فهو الموظف ابن الموظف ابن القطاع العام . . وهم مثل فئران السفينة : إذا عامت السفينة وجدوا ما يأكلونه ، وإذا غرقت وجدوا ما يأكلونه !

سألونى فسألت : هل إذا جاءك ابنك الحاصل على الثانوية العامة وانداهش كيف أنه لم يأت وزيرا فى التشكيل الوزارى الجديد فماذا تقول له ؟ .
- أقول له أنت مجنون !

- كيف ننتهم أنفسنا جميعا بالجنون ، ونحن نتمنى للفريق المصرى الذى لم يصل إلى كأس العالم من ٥٦ عاما أن يحصل على الكأس لأنه تعادل وتعادل . . يجب أن تدق رأسك فى الحائط وتقول : اعقل . . وأن يفعل أحد ذلك معنا جميعا ويقول لنا : اعقلوا . . يرحمكم الله !
والذى أسعدنى أننى وجدت كل الناس من كل فئة يعطفون على الفريق القومى ويقولون .
لقد أدوا ما عليهم وزيادة . .

والحمد لله على كده . . كده كويس جدا جدا !

ألمانيا التي لا تموت ..!

في سنة ١٩٥٠ م رأيت برلين قلت : خسارة !

في سنة ١٩٩٠ رأيتها قلت : عظيمة !

* * *

في سنة ١٩٥٠ أحسست كأننى لا أريد أن أرى ما أراه ، ولا أن أسمع ولا أن أستبق الأحداث إلى المستقبل .. فقد غمرنى الحزن على المدينة الجميلة التى قرأت عنها ورأيت صورها .. ولا أعرف كيف كانت قبل أن يتعاون الحلفاء على دمارها .. وكان من نصيب الروس أن يدموها على رأس هتلر .

لا أعرف كيف كانت ..

ولكن إذا نظرت إلى برلين الغربية وقد ظهرت فيها المطاعم الجميلة والفنادق والشوارع المضاعة .. لا كل برلين الغربية وإنما جانب منها .. أيقنت أن هناك مشاريع جبارة لإعادة كل شيء على ما كان عليه .. بل أعظم وأروع ..

ولكن إذا ذهبت إلى برلين الشرقية رأيت كيف كانت برلين الغربية قبل تجديدها .. فالشوارع خالية من الأشجار وأرضها من اللمعان .. فلا الشوارع مضاعة ولا الوجوه .. ولا المحلات .. بل إن المحلات هى الشوارع وقد اتخذت لها أبوابا .. فهى خالية عارية قبيحة .. والمحلات الكبرى عبارة عن ورش ليست مكيفة .. فهى دميعة اللون والرائحة .. والشعب الألمانى الشرقى يعيش حزينا فقيرا .. وهم يحسدونك على أنك جئت من برلين الغربية .. ولكن لا حيلة لهم ولا أمل .. انتهى . لقد آلت برلين الشرقية إلى الروس ومعها ١٥ مليوناً من الألمان .. كلهم دخلوا سجون الجوع والقهر .. انتهى إلى الأبد . وإذا أراد أحد أن يعيد ألمانيا الشرقية إلى الغربية فلا بد أن يستولى على موسكو أولا !!

وفى برلين الغربية نزلت فى فندق اسمه كمبىسكى . الفندق جميل جدا . ألمانى بمعنى الكلمة : النظام والنظافة والأناقة والأبهة والكبرياء ..

كنت واحدًا من وفد رسمى . . جلسنا معا . طلبنا طعامًا شهيقًا . جاءت مناضد لما عجالات وأجراس وتعلقت عليها أعلام مصر وألمانيا . . كنا سبعة . . وكنا عرضا مسرحيا يتفرج علينا الألمان فى دهشة وفى صمت وفى أدب . . فبعضنا طلب دجاجة كاملة مع البطاطس والمكرونه والصلصة والحلوى والفاكهة . . والناس ينظرون ولا يتكلمون . فلا أحد يطلب دجاجة كاملة . . ربع دجاجة أو نصف دجاجة . . ولا يطلب هذه الكميات الكبيرة من كل شىء . . وفى ذلك الوقت كان الألمان يحملون ما تبقى من الطعام معهم . . بقايا الخبز والزبد والسكر والفاكهة . . ويأخذون عظام الدجاج إلى كلابهم أو ققطهم . . وكان ذلك منظرًا مألوفًا .

وكانوا يندهشون لما نعمله . . بعضهم جلس يتفرج كيف يمكن لأى إنسان أن يأكل كل هذه المواد وإذا أكلها فكيف يعمل . وأدهشهم أكثر أننا أكلنا وتركنا وراءنا جانبًا كبيرًا من اللحوم والخضراوات والفواكه والحلويات - طبقًا يرون ذلك منتهى السفاهة . فهم بعد الحرب كانوا يحصلون على كل شىء بصعوبة . ولكنهم كانوا يعملون . حقيقة واحدة من المؤكد أنك سوف تجددها فى ألمانيا : إنهم يعملون . وإنهم مؤمنون بأنه فى الإمكان انتشال ألمانيا وإعادتها إلى سابق مجدها . ممكن .

بعض الألمان تقدم من مرأقنا وحمل ما تبقى من الطعام . وبعضهم وجدوها مؤلمة نفسيًا . فتمنى أن يفعل ، ولكن نفسه لم تطاوعه !

وكانت لنا فتاة ترافقنا . . فهمست فى أذنى . واعتذرت . ولكن وجدت حلا . سألت الجرسون : هل من الممكن أن آخذ معى صندوقا به بعض اللحوم والخضراوات والفواكه . فقبل لى : نعم ويكل سرور !

وأخذت الصندوق وأعطيته للفتاة التى ترافقنا !

وعندما ذهبت أتفرج على مصانع كروب - كبرى مصانع الحديد والصلب التى ساعدت هتلر فى بناء المدافع - وجدت خرابا يبابا . أين ذهبت ؟ الحلفاء ضربوها من الجو . . اقتسمها الحلفاء فكان على أمريكا أن تضرب جانبا وكذلك بريطانيا وفرنسا . . ثم إن الإنجليز فككوا هذه المصانع وحملوها إلى بلادهم !

قال مدير شركات كروب : إنهم أخذوا المصانع ، ولكن لم يأخذوا العقول القادرة على إقامتها فى نفس المكان مع تطويرها !

وقد أعادوا بناء هذه المصانع . . حتى خيل إلينا أن هذه المصانع كانوا قد أخفوها تحت الأنقاض . ثم جعلوا يرفعون عنها الحجارة والحديد ، فإذا هى قد استوت شاذجة ضخمة . . وتعالى مداخنها ، تؤذن لمستقبل جديد جبار !

وعندما ذهبت أتفرج على مدينة ديسلدورف وكان الحلفاء قد مسحوا بها الأرض . . فكنت إذا وقفت في أول المدينة أرى آخرها . . فلا شيء على وجه الأرض غير الانقراض . . ومن هذه الانقراض تخرج الشقراوات للعمل والعمل والعمل . . وكان شيئاً عجيباً أن يرى أحد سيجارة بين أصابعك . . أو يرى طفل قطعة شيكولاته في يدك . . إن أم الطفل لا تجد حرجاً في أن تطلب منك قطعة لابنها ، فهي تخشى أن يكبر دون أن يذوق طعم الشيكولاتة !

وآه لو رأى أحد معك رغيفاً كاملاً . . إنه شيء يلفت كل الناس . إن الرغيف الواحد تقسمه أسرة !

خراب بالمانيا . . هباب بالمانيا . . عذاب يا ألمان حاضركم وماضيكم . والأفلام التي تظهر على الشاشة تصوركم وحوشاً بشرية . . حيوانات كان يسوقها بالكرباج هتلر فلا يعترض أحد . . وجاء الحلفاء يحتلون ألمانيا . عقلها وإرادتها وحياتها . .

ولكن الألمان مضوا يعملون في صمت . . والحلفاء يتفرجون ويندهشون لهذا الشعب الذي لا يموت !

* * *

ورأيت برلين ليلة الوحدة . .

وقبل ذلك كان الألمان قد حطموا السور الذي أقامه الروس ليفصل بين الرأسمالية والشيوعية . . بين الماضي الأليم والحاضر الراض . . بين الفقر والخوان والقهر واليأس ، وبين الثراء والكرامة والحرية والآمال التي لا نهاية لها . . بين الألمان الحقيقيين والألمان المزيفين .

وكان الألمان يهربون من الشرق إلى الغرب . .

وقفزت الدنيا في أوروبا عندما خلعت الشيوعية من رأسها وقدميها . . وعندما أدرك الشيوعيون أنهم خدعوا أنفسهم والعالم سبعين عاماً . . يعدونهم بجنتات تجري من تحتها أنهار الراين والرون والفولجا . . فلا جاءت الجنة ، ولا جرت الأنهار . .

وجاء الرجل العظيم الذي اسمه جورباتشوف وأحس أنه لم يعرف إلا الفقر . . وأن آمال أي مواطن روسي هي أن يحصل بالضبط على ما يحصل عليه أي عاطل أمريكي : سيارة وتلفزيون وثلاجة وبوليصة تأمين ضد المرض والبطالة !

وتحررت الشعوب الشيوعية من أكذوبة المساواة المطلقة التي لا تتفق مع طبيعة الإنسان . . وانتظار الخراب الشامل الساحق لأمريكا . . فلم يصبها الفقر والانهيار الذي كان يتوقعه الشيوعيون . . بل ازدادت أمريكا وألمانيا واليابان وفرنسا وبريطانيا ثراء ورفاهية في ظل حرية

الفكر والعمل . . وكان من الطبيعي أن تفكر ألمانيا الشيوعية هي الأخرى في أن ينتهى عذابها
وحرمانها وأن تتحد مع ألمانيا الغربية التى شعبها هو الأكبر والأغنى . .

واتحدت الدولتان . . أو الدولة الواحدة . .

وذاب تحت الأقدام حائط الذل : حائط برلين . .

وتعالت هتافات الجماهير . .

وراحت تنشد معانשיدها القديم : ألمانيا . . ألمانيا . . فوق الجميع فى العالم . .

الحق والوحدة والحرية من أجل الوطن الألمانى . .

أغنيات ألمانيا . . كلهما من أجل الوطن .

أذهب وتفرج على برلين . . وكل المدن الألمانية . . أين ذهب الدمار والحرب والتراب
والهباب ؟ إنه ما يزال فى ألمانيا الشرقية . . وهذا عبء على ألمانيا الغربية . . فسوف تعيد ألمانيا
الشرقية إلى ما كانت عليه . . وسوف تفكك مصانعها القديمة التى تلوث البيئة بالهباب
والسموم وسوف ترصف الشوارع وسوف تدرب العمال كيف تكون المصانع الجديدة . . وسوف
يعلمونهم الذوق والأدب ، فهم شيوعيون أجلاف نسوا الذوق نصف قرن . . وسوف يدفع
الألمان الغربيون مزيدًا من الضرائب لإنقاذ الألمان الشرقيين . . إنها مشكلة عويصة جدًا . .
ولكن ألمانيا غربا وشرقا قادرة على أن تتخطاها - ففى ذلك إعجاب جديد من العالم كله للدولة
التي حققت المعجزة الاقتصادية مرتين . . مرة بإنقاذ نفسها ، ومرة بإنقاذ نصفها الآخر .

* * *

دخلت أحد مطاعم برلين . . المطعم قمة الفخامة والأبهة . . كل شيء يتألق . . الأدوات
والمناضد والجدران والأكواب والوجوه . .

. . جديد فى جديد . . سبحان الله . . نظرت إلى قائمة الطعام . . أصناف لا أول لها ولا
آخر . . نظرت إلى ثمن الوجبة . . غال جدا . . نظرت إلى الورد أمامى لمستها . . شممتها . .
ومن بعيد وجدت الوجوه الحلوة والابتسامة الأملى تسألنى من بعيد إن كنت قد قررت واخترت
ما أريد قبل أن تحب الوجوه الجميلة . . ولم أعرف ما الذى أختار . . فكل شيء كثير . .
وجاءت الجرسونة الثانية ووضعت إصبعى دون أن أنظر . فقالت : ماذا ؟ قلت : اخترت
ألمانيا .

فلم تفهم فقد كنت استكمل الحديث بينى وبين نفسى ا

فما الذى حدث فى هذه البلاد ؟

الألمان يقولون : ولا حاجة . . فقط عملنا !

وقبل ذلك كانوا يقولون عن سر العبقرية الألمانية إنهم قبل أن يدخلوا الجامعة يمرون على الجيش !

أى إنهم يتعلمون الانضباط والدقة والعمل الجماعى والتضحية قبل أن يدخلوا الجامعة . . .
التي هى تجنيد وتضحية أيضًا . . فالجيش جامعة ، والجامعة جيش ، والألمان جنود فى معركة التطور . . وقد كسبوها . . فالمانيا أغنى دولة فى العالم . . وأكبر دولة صناعية تجمى بعدها أمريكا واليابان . .

يعنى إيه ؟ يعنى منتهى العظمة !!

إنهم يضربون المصريين : حكاية مضحكة ؟!

احتشد المصريون الهاربون من العراق والكويت على الحدود الأردنية .. رجال بالجلاليب والطواقى .. ونساء حوامل وعلى صدورهن أطفال .. الإرهاق واضح على الجميع .. ويتقدم أحد المذيعين من رجل متوسط العمر .. وجده نظيفاً ضاحكاً .. ثم يضع الميكرفون عند فمه ويسأله :

المذيع : حمد الله على السلامة يا حاج ..

العائد : والله يا سعادة البية كان نفسى أحج ..

المذيع : المرة الجاية ؟ لا هو انت ناوى ترجع ؟

العائد : إن شاء الله يا بيه .. دى بلاد جنة .. سكرة .. ربنا يخلى لنا الرئيس مبارك .. وينصر الرئيس « صدام » ..

المذيع : ينصر الرئيس « صدام » على مين ؟ لقد انتصر على الكويت ووضعها فى بطنه ..

العائد : فى الحفظ والصون يا سعادة البيه .. الرجل بيعحب مصر قوى .. ويموت فى الشعب العربى .. قوى .. مفخرة لنا يا سعادة البيه .. الواحد لما يشوفه كل يوم يعرف أن كل مشاكل العرب وفلسطين سوف تنحل بجرة قلم .. والله كده يا بيه ..

المذيع : انت جاي مين ؟

العائد : من العراق يا بيه !

المذيع : ما حدش ضربك ولا عذبك ؟!

العائد : أنا ؟ أبدا يا بيه .. الناس فل .. والرئيس صدام ميت فل وعشرة .. ربنا يخلى الرئيس مبارك .. ييموتوا فيه هناك يا سعادة البيه .. (ضوضاء .. وأصوات تتعالى وتشتت هذا المصرى العائد) يقولون : كذاب .. حشاش .. جاسوس .. انظر إلى العلامات الزرقاء فى وجهه وفى أنفه .. انظر إلى ملابسه الممزقة .. كذاب .. كلب ..

العائد : الله . . الله . . ليه الغلط بس ياسيادنا . . نصيبى كده . . ما حدش لا ضربنى ولا عذبنى . . أكذب على الله . . دعاء الوالدين ياناس . . الجنة تحت أقدام الوالدين . . وأنا كنت فى الجنة . . شوفوا أنتم أهاليكم كانوا يقولوا عليكم ايه . .

المذيع : صحيح هدومك مقطعة . .

العائد : المشوار طويل يابيه . . والواحد من الزهق والتعب والشمس والعطش كان بيطلع من هدومه . .

المذيع : يعنى انت اللى قطعت هدومك ؟

العائد : بيحصل يابيه . .

المذيع : مش فاهم . . يعنى انت الوحيد اللى ما حدش قرب له . .

العائد : تمام !

المذيع : ليه ؟

العائد : فضل من ربنا يابيه . .

المذيع : وانت كنت بتشتغل ايه ؟

العائد : وشى فى الأرض . لا مؤاخذه كناس !

المذيع : كناس ؟

العائد : العمل شرف يابيه . .

(المصريون يتهمون على العائد . . ويمسكون بجلايته . . ويقولون : كلب ابن

كلب . . جاسوس . . خائن . . جيان) . .

المذيع : أنت خائف ؟

العائد : حقيقة رينا . . أنا خائف يابيه . .

المذيع : خائف من ايه ؟

العائد : أولاد الحرام كثير زى ما أنت شايف يابيه . .

(يقترب العائد من المذيع ويهمس فى أذنه)

المذيع : ياراجل ما تخفش . .

العائد : قل لى ياسعادة البيه بالأمانة . . والمصحف الشريف احنا فين دلوقت ؟ فى العراق

ولا فى الأردن . . اعذرني أنا متلخبط ياسعادة البيه . .

المذيع : يا أخى احنا فى الأردن . . احنا سبنا العراق .

العائد : بتتكلم جد يابيه ؟

المذيع : أى والله والمصحف الشريف !

العائد : الله يخرب بيتك . . الله يوجع قلبك على مراتك ويوجع قلب مراتك عليك ويوجع قلب أولادك عليك . . يا ابن الكلب . . يامصاص الدماء ياهاتك الأعراض .

المذيع : ايه ده انت بتشتمنى ياراجل ؟ !

العائد : انت ينقطع لسانى يابيه أنا باشتم الصدام الصدمان العدمان !

(وهتافات لمصر والرئيس مبارك والدعاء على صدام . . وزحام شديد . . والجنود الاردنيون ينهالون بالضرب على المتزاحمين) .

العائد : ضرب ثانى يابيه . . احنا فى الأردن ؟

المذيع : نعم . .

العائد : ضرب فى العراق وضرب فى الأردن ؟

المذيع : نعم . .

العائد : يعنى احنا سبنا الضرب فى العراق علشان الضرب فى الأردن ؟

المذيع : مؤقت ؟

العائد : الضرب مؤقت . . قالوا لنا كده .

والمصريون يحتشدون ويركبون السيارات التى تنقلهم إلى ميناء العقبة . . وهنا تقف العبارات الواحدة إلى جوار الأخرى . . زحام وخناقات . . العراق . . واستمر الضرب ست سنوات ومن هنا حانقعدكم سنة ١٩ ؟

المذيع : حالا سوف تتجه إلى المركب التى تنقلك إلى مصر . .

والمصريون عصبيون يمسكون بخناق بعضهم البعض . . وتسقط حقيبة العائد فى الماء . . وتتعالى الشتائم وتتردد أسماء الحمير والكلاب والخيانة وينهال المصريون بالكلام والشلاليات بعضهم على بعض .

العائد : الله ده هنا فيه ضرب برضه . . إيه الحكاياه يابيه . .

المذيع : احنا مع بعض . . زيتنا فى دقيقنا . . انت نسيت مصر والا إيه ؟

العائد : أنسى إزاي ؟ بس ايه الحكاية ياسعادة البيه . . المصريون ينضربوا فى كل

مكان . . ضرب العراق يوجع الظهر . . وضرب الأردن يوجع البطن . . وضرب مصر يوجع القلب . .

المذيع : ضرب المصريين فيه زمالة وأخوة . . يعنى أخوك هو الذى يضربك .

العائد : يساعد البية إذا كان أخويا يقطع عينى . . فهو بالشكل ده زى أى واحد ثانى قلع عينى . . ولا فرق بين الذى يقطعها بالدوق والى يقطعها بالقوة . . عينى انقلعت والسلام . . الله . . قل لى يساعد البية . . ما دام الضرب فى كل مكان . . يبقى احنا ايه الى رجعنا مصر . . ما دمنا مضروبين فى مصر وفى العراق . . يمكن ضرب العراق بالعملة الصعبة . . أحسن يعنى !

(المذيع لا يرد . . ولكن العائد المصرى لا يتركه) . .

العائد : قل لى يابيه . . هيه المركب دى مصرية ؟

المذيع : نعم .

العائد : والمياه دى مصرية ؟

المذيع : نعم !

العائد : والناس دول كلهم مصريون ؟

المذيع : إيوه ياسيدى . . كل الى انت شايفه مصرى فى مصرى والشاطئ الى هناك ده مصرى . .

العائد : الله . . آمال الناس قرفانه من بعض ومش طايقين بعض . . زى ما يكون رايحين سجن . . زى ما يكون معمول فيهم مقلب . . مش فاهم يابيه . . الله يخليك نورنى . . ايه الى حصل بالضبط . . سيادتك بتعيط يابيه . . هيه الرجال تعيط . . آمال احنا نعمل إيه احنا لازم نعيط بدل الدموع دم . . راحت فلوسى وماتت مراتى وأولادى تاهوا . . وقالوا لنا اهربوا . . هربنا . . انت بتعيط يابيه ؟ أنا مش عارف إيه جرى لى . . دموى من المصائب نشفت . . الدنيا كلها نشفت . . ريقى نشف . . دى نشف . . وإيدى نشفت مفيش فيها مليم واحد . . زى ما أكون أنا ميت . . زى ما أكون الناس دى كلها ماشيه فى جنازتى . . أى والله يابيه !

المذيع : أنا باعيط . . علشان الريكودر راح . .

العائد : سرقوه ؟

(العائد يخلع ملابسه ويلقى بها فى البحر . . الجاكتة . . والجزمة . . وشنطة كبيرة . .) .

المذيع : بتعمل كده ليه ؟
 العائد : أحسن ما حد يسرقها منى . . فأنا لسه عندي ثوية احترام لأولاد بلدنا . .
 المذيع : أنت بتعيط . . ليه ؟
 العائد : على خييتى . . قل لى والمصحف الشريف ياسعادة البيه . .
 المذيع : نعم . .
 العائد : المركب دى مصرية ؟
 المذيع : نعم .
 العائد : والمياه دى مصرية ؟
 المذيع : قلت لك ايوة يا أخى !
 العائد : والناس دول كلهم « مصريين » ؟
 المذيع : الله جرى لك إيه . . قلت لك إيه . .
 العائد : آمال ضربونى ليه ياسعادة البيه . . مفيش حد فى العراق ولا الأردن شتم أمى . .
 هنا بس !
 (نزلوا جميعا من المركب . . وقف « العائد » أمام رجل الجمارك .
 رجل الجمارك : بتعرف تقرأ ؟
 العائد : ياريت . . أهل ما علمونيش يابيه . . ملحقوش ياسعادة البيه أبويا مات وأنا
 عندي سنة وأمى ماتت وأنا عندي سنتين . .
 رجل الجمارك : عندك فكرة الميكروباس الى أنت جايه معاك ده يساوى كام !
 العائد : يساوى ربع مليون جنيه مصرى . . تعبى وشقاي . . تعبت أنا مع إخوتى وأولاد
 خالى . . كلهم ماتوا يابيه . . أبوس ايدك . . اهو ده كل الى فاضل من الدنيا . . عشر سنين
 دوخة ليل ونهار . .
 رجل الجمارك : معاك باسبور ؟
 العائد : أبداً .
 - معاك بطاقة ؟
 - أبداً . .

- امال معاك إيه ؟

- الستر . . والناس الحلوة دى كلها . . ورينا يخلى الرئيس مبارك ويخرب بيت الرئيس
صدام . .

- اسمع ياراجل انت . . خلى واحد يقرأ لك إيه المكتوب على الميكروباس . .

- مكتوب عليه إيه ياسعادة البيه . . سيادتك عارف الحاجات الحلوة اللى بنكتبها فى مصر
عين الحسود فيها عود . . الحلوة دى من بنها . .

- لا . . يا اخويا مكتوب عليه الحلوة انت ملك للسفارة المصرية ؟

- السفارة المصرية يانهار أسود . . بتاع مصر يعنى ؟ سرقوها وباعوها لى . . الله يخرب بيت
الرئيس صدام . . حلاقيها منين والامنين . . رجعونى العراق . . رجعونى ا

الناس يضحكون والرجل يبكى . . ولما لم يجد أحداً يشاركه هذه النكتة . . راح هو الآخر
يضحك . . ويقول : الله يخرب بيت أهلى لا دخلونى مدرسة ولا علمونى القراءة والكتابة . .
والراديو يذيع : حمد الله على السلامة ياجاى من السفر . . وحشانا الابتسامة . . وشك
ولا القمر .

العائد (يضحك ويبكى) ويقول : حمد الله على السلامة ياراجع للقرف . . وحشانا
الابتسامة . . جاك ستين قرف ا .

أرض مصر من السماء

عندك فكرة عن أول خريطة في العالم ؟ أنا أقول لك . . إنها موجودة في أسطنبول ومعروفة باسم خريطة بيرى ريس . . . وعمرها ثلاثون ألف سنة . ولكن الأعجب من ذلك أنها التقطت من الجو ! كيف ؟ هذه الخريطة لآستراليا ونيوزيلندا وتسمانيا وعشرات من الجزر الصغيرة في نصف الكرة الجنوبية . . وقد حدد العلماء عمر هذه الخريطة من الهيئة الجغرافية والجيولوجية لهذه الجزر . . . أى إنها كانت هكذا كما جاءت في الخريطة من ثلاثين ألف سنة فمن الذى التقطها وكيف ؟

والجواب التقليدى الآن هو : إن كائنات من كواكب أخرى هبطت إلى الأرض وفي ظروف غامضة جاءت ، وفي ظروف غامضة ذهبت . . وتركت لنا هذه الخريطة دليلا على ذلك !

ولم نكن نعرف بوضوح أن الإنسان إذا ارتفع في الفضاء فإن الدجلة والفرات والنيل تبدو خيوطا فضية على بساط سندسى . . . ولكن الذى قال لنا ذلك هو مؤلف (ملحمة قلقامش) البابلية . . . فهو عندما ارتفع في الفضاء - في إحدى سفن الفضاء (١٢) - بدأت الأرض تصغر والجبال والمساحة المزروعة والأنهار . . . ولو ظل يرتفع ويرتفع لتلاشت معالم الأرض كلها أخضرها في أصفرها في أزرقها !

وفي سفر (اخنوخ) ارتفع هو إلى ما فوق الأرض ورأى الدنيا صغيرة وتزداد تضاروا . . . ولكن الارتفاع هو الأسلوب الوحيد لكى ترى أشمل وأوسع وأدق !

ولكن هذه الحقيقة لم نعرف معناها الحقيقى إلا عندما أصبحنا قادرين على ذلك بالوقوف فوق الأسطح أو إطلاق البالونات في الفضاء أو ركوب الطائرات وأخيرا سفن الفضاء .

فقد كان من عاداتنا إذا أردنا أن نرسم للأرض خريطة أن نركب الجمال أو الخيول ونقيس انخفاضات الأرض وارتفاعاتها . . . ولما عرفنا البالونات وضعنا فيها الكاميرات لكى تلتقط صورة عامة شاملة للأرض المزروعة والصحارى والجبال . . .

ثم اهتدينا إلى الطائرات تلتقط الصور ونقوم نحن بالضرب والطرح والتحليل والتركيب حتى يكون لنا في النهاية نوع من الخرائط . . .

وتاريخ صناعة الخرائط هو تاريخ الصور من فوق . . . والتجميع والتحليل والتركيب تحت . . . وربما كانت آخر خريطة شاملة لمصر عمرها سبعون عاما . . .

ولكن كانت لمصر خرائط متنوعة وأول خريطة لتربة مصر رسمها الإنسان كانت من ٣٢ قرنا . . . فقد رسمت هذه الخريطة الجيولوجية في عهد الملك رمسيس الرابع . . . هذه الخريطة موجودة الآن في متحف « تورينو » بإيطاليا . . . وهي عبارة عن خريطة لصفات الأرض يستخدمها من يقطعون الأحجار لصناعة المقابر والتماثيل . . . والذي رسم هذه الخريطة هو الكاتب المصري أمنمحتت سنة ١١٥٠ قبل الميلاد . . . والخريطة مرسومة على ورق بردى . طولها ستة أقدام وعرضها ١٦ بوصة . وقد تمزقت بعض جوانبها . وعثر عليها العلماء في سنة ١٨٢٠ بين أنقاض دير المدينة بالقرب من وادي الملوك . . . والخريطة معروفة جيدًا لكل علماء المصريات في العالم .

وظلت كذلك في موقعها . . . ولكن أحدًا لم يحاول أن يتحقق مما ورد فيها من معلومات . . . حتى جاء اثنان من العلماء الأمريكيان هما جيمس هارل وماكس براون وأخذوا صورة لهذه الخريطة وجاء الاثنان إلى مصر وإلى الموقع نفسه من وادي الملوك . . . وتأكد لهما تمامًا أن الخريطة دقيقة جدًا . . . وأن هذه الخريطة لم يرسمها واحد وإنما كانت هناك بعثة رسمتها وعرضتها على الكاتب أمنمحتت الذي أدخل تعديلات عليها ! .

ولم يعرف الغرب رسم الخرائط الجيولوجية إلا في القرن الثامن عشر عندما ظهرت أول خريطة في سنة ١٧٤٠ - فكان الفراعنة قد سبقوا زمانهم بشائية وعشرين قرنا !

* * *

وفي سنة ١٩٧٢ أنشأ المهندس د. محمد عبد الهادي (مركز الاستشعار عن البعد) . . . وفي الوقت نفسه بدأت الأقمار الصناعية الأمريكية برسم خرائط للكرة الأرضية من فوق . . . وبدأنا نتلقى المعلومات من القمر الأمريكي (لاندسات) . . . وكذلك من أجيال مختلفة من هذا القمر . . . ولكن فيما بين ١٩٨٦ و ١٩٩٠ كانت المعلومات التي نتلقاها مع عدد من محطات المتابعة الأرضية هي المادة الأولية لرسم أول أطلس لمصر . . . ومصر هي الدولة الوحيدة - بعد أمريكا - التي عندها أطلس لكل أراضيها ووديانها وأنهارها ومجاريها وجبالها . . . إنه (الأطلس الفضائي الشامل لمصر) الأطلس يزن ٣٥ كيلو جرام وبه ٧٩ لوحة رائعة الألوان أنيقة الطبعة في غاية الدقة العلمية ، وهو نتيجة جهود عدد كبير من الخبراء المصريين يعملون ليلاً ونهارًا . . . يباع الأطلس بألفى جنيه ويبيع للمؤسسات العلمية

بألف وللخارج بألفى دولار. . . وظهور هذا الأطلس يعتبر حدثا علميا باهرا . . .

أما كيف تتلقى المعلومات من الفضاء الخارجى لأرض مصر ؟ فالأقمار الصناعية تدور حول الأرض على ارتفاع ٧٥٠ كيلو متر . . . وبسرعة ٣٨ ألف كيلو فى الساعة وتدور فى مداراتها فوق نقطة معينة من مصر كل ١٦ يوما . . . ومن فوق هذه النقطة المتفق عليها تبعث بها لديها من معلومات لمصر ولكل محطات المتابعة الأرضية فى مصر وفى أوروبا . . . أما هذه المعلومات فهى عبارة عن أرقام . هذه الأرقام تدل على الدرجة اللونية لسطح الأرض . . . فما الذى يخرج من سطح الأرض ؟ تخرج نبضات أو ومضات ضوئية . . . هذه الومضات تتلقاها أجهزة الكترونية ذات سبع موجات للدرجات اللونية المختلفة يصل عددها إلى ٣٢٠ درجة . . . فكل شىء على سطح الأرض له أشعة يعكسها . . . وهذا الانعكاس يصل إلى الأقمار الصناعية التى تبثه فوراً على شكل أرقام . . . هذه الأرقام يدخلونها أجهزة الكترونية شديدة التعقيد وتحولها إلى مساحات لونية . . . وكل نقطة مثل هذه النقطة التى على أى حرف هنا تعادل ٧٨ × ٧٨ متراً على سطح الأرض . . . وتتجاوز النقط أو تترام بعضها فوق بعض بحسابات علمية دقيقة جداً لكى تعطى فى النهاية مساحة الأرض المزروعة ونوع المزارع ومساحة الأرض البور والصحارى والمسطحات المائية والوديان والرمال المتحركة . . .

وكل ذلك لا تستطيع العين العادية أن تراه ، بل إننا نحتاج إلى عين صقر أو عين نمر لكى ندرك هذه الفوارق اللونية الهائلة . .

والأقمار الحديثة تدور على ارتفاع ٧٥٠ كيلو متر . . أما أقمار التجسس العسكرية فعلى ارتفاع ٣٠٠ كيلو متر. وهى لا تعتمد على الإشعاعات الضوئية ، وإنما على الإشعاعات الحرارية - تماماً مثل الثعابين التى تعتمد فى حركتها على الإشعاعات الحرارية من أى جسم حولها .

وإذا كانت الأقمار الحديثة لا تصور إلا كل ما يرتفع عن الأرض ثلاثين متراً . فإن الأقمار العسكرية تصور كل ما يرتفع عن الأرض ٣٠ ستيمتراً . . ولذلك فهى تصور الأشخاص والسيارات . . بعض الأقمار الأمريكية بلغت فى دقتها أنها تستطيع أن تصور رجلاً يطارده كلباً فى شوارع القاهرة ١٩

فكل جسم تصدر عنه حرارات على سطح الأرض تصوره الأقمار العسكرية . فالسيارات التى كانت تعمل وتوقفت تصدر عنها حرارة تلتقطها الأقمار . . ولو كان هناك مبنيان متجاوران متماثلان تماماً ، وفى أحدهما مصنع والآخر للتمويه لالتقطت الأقمار صورة المصنع الذى يعمل . . بل إن الأقمار تلتقط صوراً للأشياء التى كانت بها حرارة وغادرت مكانها . . وفى مركز الاستشعار عن البعد قمنا بهذه التجربة . فيجلس الواحد منا على مقعد بعض الوقت . . ثم ينهض من المقعد وإذا بالكاميرات تصور الحرارة المنبعثة فوق المقعد . . فنرى

صورة له في نفس المكان . . وهذا ما جعل بعض العلماء يقولون إنه سوف يجيء وقت يخترع فيه الإنسان أجهزة دقيقة تصور التاريخ القديم للإنسان . . فنرى من الفضاء الخارجى دخول القوات الفرنسية مصر أو معركة أبى قير . . كل ذلك موجود بصورة حرارية على الأرض أو فوقها بقليل . . فلا شيء يتبدد ، وإنما كل شيء يتحول إلى صورة أخرى ويبقى هناك !

وقد اعتمد الحلفاء في الحرب العالمية الثانية على التصوير الجوى في كل معاركهم . وعلى الرغم من أنه يعتبر تصويرًا بدائيًا إذا قورن بها وصلت إليه تكنولوجيا الفضاء ، فقد كان دوره حاسمًا في المعارك . . فلولا الاستطلاع الجوى لأرض معركة نورماندى ما كانت المعركة . . ولولا ما عرفه الألمان من الأحوال الجوية فوق المانش ما هرب أسطولهم في الضباب والمطر الغزير والعواصف العنيفة لكى يضرب الأسطول الفرنسى في مارسيليا مارا بمضيق جبل طارق . . ولم يكن التصوير الجوى قد بلغ درجة من الدقة والكمال ما بلغه الآن . . وكان هتلر وقادته العسكريون قبل أن يقدموا على أية خطوة عسكرية ينتظرون المسح الجوى الذى تأتى به طائرات الاستطلاع . .

وكان الطيارون يعتمدون على الطيران المنخفض لكى يروا بعينهم أيضًا . . أما الآن فالأشعة تحت الحمراء التى لا تراها العين مهما كانت قوية هى التى تلتقطها الأقمار فى دوراتها العالى والسريع حول الأرض . .

وقد رأيت فيلمًا أخرجته هيئة الأذاعة البريطانية عن الذى تراه عيون الإنسان والشعابين والصقور والحيتان والحشرات والعنكبوت والأخطبوط . . الفيلم أعجوبة علمية . فعيون هذه الحيوانات ترى دقائق لا يتصورها العقل . . ثم تجمعها من عيون مختلفة وتركبها فى المخ . . ألوانها ودرجاتها ومسافاتنا وحرارتها ورائحتها وهو ما لم يبلغه الإنسان حتى الآن . . ولكنه فى الطريق إلى ذلك !

وهذه الأقمار تدور حول الأرض لتسجل التغيرات التى تطرأ على الأرض . . إن كانت قد تغيرت المساحات المزروعة . . أو انقضت عليها الفيضانات أو أن الصحراء قد زحفت على الوادى . . وتصور ظهور الآفات الزراعية وقبل أن تراها عين الإنسان . . وتصور بشائر المحاصيل الزراعية وتقدم المعلومات الدقيقة عن مساحتها وتوقعاتها للمحصول الجديد وكل ذلك فى خدمة التخطيط والفلاح والتاجر . .

أما إن بعض الأقمار الصناعية التى تصور لنا ما تحت الأرض فلم يعرفها الإنسان بعد . . وإن كان المكوك الفضائى يستخدم الرادار الذى يرتد إلى الأرض ويخترق سطحها إلى متر أو مترين . . هذا كل ما وصلنا إليه . . أما الكلام عن الصور الفضائية التى تبين لنا ما تحت الأرض فليس تعبيرًا دقيقًا . وكل ما هناك أن الصور الفضائية تبين لنا حالة السطح الذى

نستنتج منه أن هناك صخوراً معدنية أو تجمعات للمياه تحت الوديان . . أى تصور لنا مظاهر السطح التى تدل على أن هناك شيئاً ما تحته : ماء . . أو معادن . .

ولم يحدث أن استخدم الإنسان كل قدرات التجسس من الجو ، كما حدث فى حرب الخليج . . فقد استخدمت أمريكا كل قدراتها التكنولوجية الفريدة فى رصد كل شىء يتحرك على سطح العراق . .

فمن المعروف أن سفن التجسس كانت ترصد كل صاروخ يخرج من العراق وتنقله إلى قاعدة لها فى جزر هاواى وتنقله إلى قاعدة لها فى واشنطن . . وفى ثانية أو اثنتين يصدر الأمر بالضرب فتعود الرسالة إلى السعودية فى ثانية واحدة . . وينطلق صاروخ أمريكى مضاد . . وهكذا فإن عملية رصد الصاروخ حجباً وسرعة تستغرق ثانية واحدة وإرساله هذه المعلومات فى ثانية وصدور قرار الضرب فى ثانية . ولكن الأقمار الجديدة تتولى الرصد والقرار ، وبذلك توفر ثانية تضيق بين السعودية وهاواى وواشنطن !

وقد استخدمت أمريكا أقمار التجسس ببراعة ودقة قبل الانقلاب ضد جورباتشوف . . فقد نقلت كل المكالمات التليفونية بين جورباتشوف والذين حوله والذين ضده . . وهذه المكالمات تلقتها السفارتان الأمريكية والبريطانية . . وعرف الرئيس بوش بأخبار الانقلاب قبل أن يعرفها جورباتشوف . ونقلوا إليه كل ذلك قبل أن يتحرك مساعدوه ومؤيدوه !

وإسرائيل قد أطلقت سلسلة من أقمار التجسس هى : أفق ١ ، أفق ٢ ، وأفق ٣ . . وهذه الأقمار لا تدور حول الأرض ، وإنما اتخذت لها مكاناً ثابتاً فوق الشرق الأوسط . والقمر لكى يثبت فى مكان حول الأرض لا بد أن تكون له سرعة الكرة الأرضية نفسها . .

والقمر العربى « عربسات » استقر على ارتفاع ٣٦ ألف كيلو متر من سطح الأرض وهو ثابت فوق خط الاستواء ليكون قادراً على البث جنوباً وشمالاً . . وعربسات ليس إلا مرآة عاكسة لما يتلقى من موجات أرضية . .

وأخيراً اتفق العرب على أن تكون هذه العملية التى تقوم بها الأقمار الصناعية اسمها « الاستشعار من البعد » . .

أما وزراء البحث العلمى العربى الذين اجتمعوا فى الرباط سنة ١٩٧٦ فقد اختلفوا اختلافاً لغوياً هائلاً . .

العراقيون اختاروا تعبير : الجس النائى . .

والسوريون اختاروا : التجسس من البعد . .

والتونسيون اختاروا : المركز الجهوى لتلقى المعلومات من الفضاء . .

ولا أظنهم جادين الذين أطلقوا على الاستشعار من البعد : البعبرة من البعد !

إلى مجهول يبعد ألف السنين الضوئية!

يوم هبط الإنسان على سطح القمر قلنا أيامها : هانت . . لقد اقتربنا ! ولم نتنبه إلى أن هذه العبارة مضحكة . فما الذى هان ؟ . . ومن أى شيء اقتربنا ؟ ! فالقمر يبعد عن الأرض ربع مليون كيلو متر . . وهذا القمر ليس إلا تابعاً للأرض التى هى كوكب يدور حول نجمة هى الشمس . . وهذه الشمس ليست إلا واحدة من ألف ألف مليون نجمة فى مجموعة غازية اسمها « المجرة » هذه « المجرة » تبعد عن الأرض مليونى سنة ضوئية . . أى تبعد عن الأرض واحدًا وأمامه ٢٦ صفراً من الكيلو مترات . وتتحرك بسرعة مليونى كيلو متر فى الساعة . . وفى الكون ألف مليون مجرة .

وكانت فرحتنا مثل فرحة طفل قطع أول خطوة صغيرة فى طريقه إلى القطب الشمالى !

أو فرحة البطل الزنجى لأوبرا « بورجى ويس » هذا البطل مقطوع الساقين تجره ماعز . يسأل أين ذهبت حبيبته ؟ فقالوا له : إلى نيويورك . وسأل : أين نيويورك ؟ فأشار الناس مشفقين عليه ، إنها فى الشرق . . وأسعده أن يعرف الاتجاه وجلس على العربة التى تجرها الماعز متجهاً إلى حيث حبيبته - وهو لا يعرف أنها تبعد عنه سبعة آلاف كيلو متر ! .

وانتقلنا بسفن الفضاء من القمر إلى الزهرة والمريخ . وفكر العلماء فى اختصار نفقات الرحلة . فقرروا بناء محطة مدارية تتوقف عندها السفن لتتزود بالوقود قبل انطلاقها إلى المريخ مثلاً . . وقد التقطت صور كثيرة للمريخ . . ولم نعرف هل كان المريخ عامراً بالحياة النباتية والحيوانية والعاقلة تماماً كالأرض . ولكن شيئاً ما حدث من ألف مليون سنة أدى إلى اختفاء الحياة تماماً . فبقيت الأنهار الجافة والعناصر الحيوية دليلاً على هذه الحياة . إن سفن الفضاء الأمريكية ، بعد تحليلها لتربة المريخ اكتشفت أنه لم تكن به حياة ! !

ولكن التكاليف فادحة . ولذلك رأى العلماء أن يتعاون الروس والأمريكان . ويكون هذا التعاون فى الفضاء نموذجاً لعصور من التعايش السلمى على الأرض ، وبدلاً من حشد

الرهوس النووية - ٤٠ ألفا عند الدولتين - حول الأرض تحفزاً لأية حرب جديدة فإن السلام فوق
سوف يؤدي إلى السلام تحت . .

ولكن ارتفاع الإنسان في الفضاء لا يدل على أن أخلاقيات الإنسان قد ارتفعت أيضًا .
فكما هي العادة في تطور الأدوات : تبدأ السفن للقتال ، ثم بعد ذلك تكون أدوات للحياة
كالطائرات والرادار . وكل الأجهزة الإلكترونية اخترعها الإنسان لتساعده على قهر خصمه ثم
سيطرته على العالم ، وبعد ذلك تحولت لخدمة الحياة . . وكذلك الطاقة الذرية استخدمها
الأمريكان في إنهاء الحرب مع اليابان . . وبعد ذلك أصبحت الطاقة الذرية في خدمة الزراعة
والصناعة والطب . . ثم ارتفعت إلى الدوران حول الأرض دفاعًا عن مكاسب الرحلات
الفضائية . فكانت سفن الفضاء استئنافاً للحرب ، ولكن على مستوى أعلى ! .

والتاريخ هو الصراع بين التعلم والكارثة - أي إن تاريخ الإنسان هو أن يتعلم الإنسان
كيف يتوقع المصائب وكيف يقاوم وقوعها ، ثم كيف يعالج نتائجها بعد أن تقع . وهذا ينطبق
على مغامرات الفضاء ، ورحلات الإنسان إلى الكواكب الأخرى القريبة لنا في مجموعتنا
الشمسية . وعندما يصل إليها سوف يجعلها نقطة للوثوب إلى أجرام أبعد . .

* * *

عجيب أمر الإنسان هذا . . فعلى الرغم من التقدم العلمي الهائل ، فإن الإنسان نفسه لم
يتطور . . الإنسان الذي كان يستخدم السكين المصنوع من الحجر ليذبح ويقتل ، هو نفسه
الذي يستخدم أشعة الليزر ليذبح ويقتل أيضًا . . وكما كان يذبح أخاه الإنسان ، فهو لا يزال
يفعل ذلك أيضًا .

وعندما اكتشف كولومبوس أمريكا وهبط إليها . . تحول إلى وحش كاسر . . ينهب
المعادن ويخطف الهنود الحمر ويقتل ويعذب . . حتى ثاروا عليه ، وثار عليه مواطنوه الأسباب
أيضًا . إنه هو الذي انتقل من عالم قديم إلى عالم جديد ، لم يغيره المحيط الذي عبره ، لم يغيره
الانتصار الذي حققه . .

وكذلك الرحالة البرتغالي فاسكو داجاما عندما هبط إلى الهند ، طغى وبغى وأراق الدماء
وأحرق وخرب . . وكاد يقتله البرتغاليون أيضًا . . إنه ارتد وانعكس وحشاً كاسراً .

وكذلك الرحالة الإنجليزي جيمس كوك ، لقد عبده سكان جزر هاواي ورأوا فيه إلهاً
طويلاً عريضاً جاء على جزيرة عائمة - سفينة - كما قالت الأساطير . . ولكنه قتل وذبح
وعذب وأذل ، فكان ذلك فوق احتمال الناس البدائيين . فأطلقوا عليه سهماً أرداه ونزف
دمه . . ولم يكن أحد منهم يتصور أن الإله الأشقر من الممكن أن يتزف أو يموت فانقضوا عليه
فقتلوه وكفروا به أيضًا .

وعندما استعمر الأوروبيون أفريقيا وآسيا وهم أبناء الحرية والكرامة الإنسانية والمساواة والعدل انقلبوا وحوشا لا رحمة فيها ولا إنسانية عندها . وإنما فضحوا أنفسهم فكانوا كذابين مخادعين منافقين . .

إذن فالإنسان المتحضر عندما انتقل إلى مجالات جديدة لم يتغير ، وإنما بقى كما هو وأسوأ . والإنسان الحديث الذى يتنافس فى وضع أعلامه على الكواكب دليلا على أنه أول من وصل إليها ثم ضمها إلى الأمبراطورية الأمريكية أو الروسية ، فقد اتخذ نفس أساليب الاستعمار فى القرنين التاسع عشر والعشرين على الأرض وفى القارات الخمس . . وكان أسلوبه : السباق المسلح من أجل ضم مساحة من الأرض بما عليها ومن عليها وما فى أعماقها بأى شكل وبأى أسلوب .

ولا تزال العبارة التى قالها أول رائد للفضاء الأمباشى جاجارين السوفيتى ، دليلا على سداجة هذا الإنسان وعلى غروره . . وغرورنا أيضًا . فهو قد ارتفع بسفينته مئات الكيلو مترات حول الأرض ثم عاد ليقول : ولكنى لم أجد الله .

يريد أن يقول : إنه لا إله لهذا الكون ، ولو كان لوجده هناك . أى كون هذا الذى يتحدث عنه هذا الجندى الساذج ؟ . إنه مثل نملة صعدت أحد أحجار الهرم ثم هبطت لتقول . ولكنى لم أجد الملك خوفو . .

فنحن مثله تماما فرحون بما حققه العلماء ، ولكن لا يزال الكون واسعا شاسعا عميقا مجهولا تماما ، وكل ما لدينا من معلومات هى قشور ورموز . . إنها معلومات مثل أصداف صغيرة على شاطئ المحيط . .

إن الذى عرفناه من أسرار هذا الكون بالقياس إلى الذى لا نعرفه مثل طابع بريد الصقناه على أحد أحجار الهرم الأكبر . . وطابع البريد هذا يساوى مساحة الذى نعلمه ونحن نجهل بقية الهرم .

ورائد الفضاء الأمريكى أرمسترونج الذى هبط على القمر ، لا يختلف كثيرا عن جاجارين ، فقد لف حول عنقه إشاريا هدية من زوجته ، حتى ينجو من الموت ، هذا الإشارب لفته حول عنقه وتنقلت به بين الكنائس حتى صار مباركا .

منتهى السداجة . . فالرائد الأمريكى يعمل على سلامته ألوف العلماء فى محطة إطلاق سفن الفضاء وتراقبه عشرات الألوف من العيون الالكترونية . . إنهم يرون قطرة العرق على وجهه . . إنهم يسجلون تفكك رباط حذائه . . يرصدون دقات قلبه . . يحسبون كمية استهلاك الأوكسجين .

لقد أنفقت أمريكا ألف ملايين الدولارات من أجل أن يهبط إنسان على القمر . .

إن تراب حذاء هذا الرائد أعلى من مجوهرات الأرض . . ثم يتصور مؤمنا أن الإيشارب طوق النجاة إذا ارتبكت الأجهزة أو تطوحت السفينة في الفضاء الخارجى أو تهشمت القمر أو على الأرض . ومعنى ذلك أنه فى سفينة الفضاء يوجد أول ما عرف الإنسان علوم . السحر والشعوذة والخرافات . . وآخر ما وصل إليه من علوم الفضاء والأليكترون .

وفى ٢ مارس سنة ١٩٧٢ أطلق الأمريكان سفينة الفضاء « بيونير ١٠ » ولم يكن هدف . . وإنما أطلقوها إلى ما وراء الشمس . . لعلها تقع فى أيدي كائنات أخرى آء منا . . لعلهم يعرفون أننا هنا على هذه الأرض . . وأنا هكذا متطورون ، وأنا نريد نعرفهم ، أو أنهم يعرفوننا . . فقد سجل العلماء من عشرين عاما موجات عالية التردد الفضاء الخارجى . . هذه الموجات اسمها الكازار والبلسار . . ورأى العلماء أن هذه الموجة هى مواصلات لاسلكية عاقلة من كائنات أو حضارات تبعد عنا ألف السنين الضوئية فليس معقولا أن نكون نحن سكان الأرض القلة العاقلة الوحيدة فى الكون . عمر هذا الة ١٥ أيونا - الأيون ألف مليون سنة ١ .

وأهم ما فى « بيونير ١٠ » لوحة رسمها العالم الفلكى كارل ساجان وزوجته وعلى اللوحة رسم رجل وامرأة - أى ذكر وأنثى . . وموقع الأرض من المجموعة الشمسية ، والغز من هذه اللوحة أنها إذا وقعت فى أيدي المجهول أن يعرف أننا كائنات عاقلة ، من يد لعلهم يساعدوننا فنختصر العقبات التى تواجهنا على الأرض . . والتى نجدها فى أنفسنا فنحن نعرف كل حجرة الآن على سطح القمر والزهرة والمريخ ، ولكننا لا نعرف فيروس الذى يجدد نفسه ويغير جسمه كما يريد . . ولذلك فنحن لا نعرفه حتى نقضى عليه ، يختلف فيروس الزكام عن فيروس الإيدز - فكلاهما مجهول .

ومن يدري ربما ساعدونا على اكتشاف مصادر الطاقة والحياة على أرضنا . . أو ساعا فى حل الغاز الأشعة الكونية ١ .

وإن كانت هناك نظرية تقول : إن كوكب الأرض ليس إلا حظيرة لتربية السلالات الحيو العاقلة . . وإن كائنات أعقل قد ألقت بنا على الأرض ، وإنها حاولت القضاء علينا أكثر مرة بالطوفان والزلازل ، وزحف الجليد مرة ، وأشعة الشمس مرة أخرى - ثم يثست مذ احتقرت شأننا فتركتنا . تماما كما نترك نحن النمل الأبيض يتكاثر فى بيوت مهجورة .

وإن الأطباق الطائرة التى نشاهدها فى جو الأرض من حين إلى حين ليست إلا كامير ضخمة جاءت تصور ما حدث على الأرض لتعود بها إلى أصحاب هذه الحيرة الع المتوحشة .

فالسفينة « بيونير ١٠ » ليست إلا رسالة بعثنا بها إلى مجهول يبعد ألف أو ملايين السنين الضوئية . فهل تستطيع هذه الرسالة أن تصل إلى الهدف عبر ملايين ملايين الكيلو مترات دون أن تحترق أو تتآكل أو يصطدم بها نيزك . . الأمل عظيم أن تصل سالمة . . إلى أين ؟ . . نحن لا نعرف .

وكان أجدادنا من البحارة عندما تصيبهم كارثة يكتبون رسالة ويضعونها في زجاجة فارغة ويسدوننها ويلقونها في البحر . لعل أحدًا يلتقطها فيخفف لمساعدتهم . . وفي كثير من الأحيان كان المروج يلعب بالزجاجة مئات السنين فإذا التقطها أحد ، كان بعد وقوع الكارثة . . فكأن الرسالة صرخة مدفونة في قبر من الزجاج . . تماما كصرختنا التي أطلقناها إلى الفضاء الخارجى بسرعة ٢٧ ألف ميل في الساعة . . لعل وعسى .

وكل ما جاء في اللوحة التي اتجهت إلى ما وراء المجموعة الشمسية صحيح إلا أننا نسينا شيئًا هامًا وهو ما نحتاج إلى أن يساعدنا أحد في القضاء عليه . . إن الأنبياء والكتب السماوية وغير السماوية لم تسجل نجاحًا مؤكدًا . . ففي اللوحة رجل وامرأة ، هذه حقيقة ، ولكن أهم من هذه اللوحة أن هذه المرأة تلد صغارًا تقتلهم عندما يكبرون على الأرض . أو غدا على الكواكب الأخرى ، فما اجتمع رجل وامرأة إلا كان الشيطان ثالثهما والشيطان هو الإنسان !

وكل التطورات العلمية ليست إلا أسماء جديدة للحقد الذى يؤدي إلى الحرب التى هى أعظم وسائل الموت على الأرض . وعلى أى كوكب آخر .

من هُنا كانت البداية !

الفيلسوف الألماني اشبنجلر هو الذى توقع أن المستقبل للشعوب الصفراء : الصين واليابان . وأن هذا العفريت الأصفر إذا نام وقام ، فالويل للشعوب الأخرى !
ومن المؤكد أن الشعوب الصفراء قد قامت وتقدمت الشعوب الغربية . ولا تزال تعمل على تهديدها وإزالتها من الأسواق العالمية . . اليابان مثلاً ، ثم النمر الأربعة : كوريا الجنوبية وهونج كونج وسنغافورة وتايوان . . وكوريا تتقدمها فى نهضتها الصناعية الكبرى ، وتايوان تتقدمها فى الثراء والاعتماد على الصناعات الصغيرة . وهونج كونج تتقدمها فى متوسط دخل الفرد إذ يصل إلى ثمانية آلاف دولار سنوياً . .
ولكى نعرف مدى السرعة فى التقدم والنهضة والقدرة على التطوير ، لابد أن نأخذ فترة زمنية محدودة ونضع فيها كل الشعوب ونرى أيها الذى تقدم أسرع وأعمق . والتقدم أساسه . تغيير وسائل العمل والحياة ورفاهية الفرد . .
فيقال مثلاً إن النهضة فى مصر بدأت بالحملة الفرنسية ، عندما جاء نابليون بالمطبعة والقوانين . ويقال أيام محمد على . . ويقال مع فتح قناة السويس . . ومعنى ذلك أن بداية التغيير والاستمرار فى ذلك بدأت بحادث أو بشخص . ومن الممكن بعد ذلك أن تمضى مصر فى تقدمها ، طالعة نازلة . . أو طالعة أحياناً ونازلة أحياناً . . ولكن يزداد حظها من التحرر . التحرر من الفقر والمرض والظلم والجهل . فالتاريخ هو مسرح الحريتين الفردية والجماعية . .
ويقال - مثلاً - إن حضارة الإنسان بدأت عندما اخترع النار . . فالنار هى التى أضاءت له الليل - أى أطالت ساعات النهار . . وهى التى أنضجت له الطعام ، وهى التى قامت بحمايته من البرد . . والنار هى مصدر الطاقة التى أطلقت القطارات والمصانع والسفن . . وفى أساطير الإغريق أن الآلهة عندما ضاقت بالإنسان أخفت عنه سر القوة . . ولكن «برومثيوس» هو الذى سرق النار من الشمس وأعطاه للإنسان ، فاستحق برومثيوس أقسى وأقصى درجات العذاب ! .

ويقول الأديب الفرنسي مالرو : إن الفراعنة قد اكتشفوا الخلود عندما اكتشفوا الحجارة !

أى إنهم عندما اكتشفوا أنه يمكن الكتابة والرسم على الحجر . فالحجر هو الصفحات والكتب التى عاشت ألوف السنين بعدهم . أى إن الكتابة هى بداية العمر الطويل للفكر والدين والفن . . ولذلك كانت « المطبعة » هى نقطة تحول هامة فى حضارتى الشرق والغرب . .

مثلا : دولة اليابان هى أقوى وأخطر وأكثر الدول الصغرى تطورا واندفاعا علميا إلى الأمام . هذه الدولة نموذج لمعرفة كيف تتطور الشعوب . وكيف يستمر تطورها وتزداد خطورتها . متى بدأت ؟ وكيف ؟ ولماذا ما تزال البداية متواصلة الحلقات ؟ . . ولماذا حلقاتها صاعدة فى كل مجالات الإبداع الإنسانى ؟

المؤرخون يقولون إن الشعب اليابانى مثل الشعب المصرى : كانت بدايته من ألوف السنين . والفرق الوحيد أن بداية المصريين مصرية . . ولكن بداية اليابان صينية . . ولكن كيف تقدمت اليابان على الصين ؟ . هناك ألوف الإجابات . وكلها مقنعة . . إلا قليلا . وقد صدر أخيرا كتاب بعنوان « الرحلة اليابانية (١٨٥٢ - ١٨٥٤) » لقائد الأسطول الأمريكى ماثيو بيرى يقول : إن البداية « بالضبط » كانت سنة ١٨٥٤ ، عندما وقف بقطع الأسطول الأمريكى على شاطئ اليابان . وجاء الناس يتفرجون على السفن الضخمة وعلى الناس الطوال البيض الشقر . وبسرعة تسللت الزوارق اليابانية تبيع الأسماك والفواكه والأرز ، وابتساماتهم عريضة على وجوههم وظهورهم قد انحنت وانكسرت من الذوق والأدب . .

أما البداية الحقيقية فيراها القائد الأمريكى عندما نزل جنوده إلى الشاطئ وراحوا يمدون أسلاك التليفون والبرق . . ويدقون الأعواد الخشبية فى الأرض . . ثم يشدون بعضها إلى بعض . وفى اليوم التالى وجد عددا من الأطفال قد تسلق الأعمدة . وعندما دعاه الأمباطور إلى العشاء لاحظ أن أحد الأمراء قد جلس على الأرض وراح ينصب أسلاك التليفون ويشدها بعضها إلى بعض . . ولم يكن يثبت الأعمدة فى الأرض وإنما فى أطباق الأرز . . ونهض القائد الأمريكى إلى الطعام وتركوا الأمير يلعب فى أطباق الأرز . . وجاءت مذكرات القائد الأمريكى تقول : إن هؤلاء اليابانيين « قروء » يتسلقون الأشجار وأعمدة التليفون ! .

غلط ! فالقائد الأمريكى لم يتنبه إلى أهم خصائص اليابانيين : إنهم يتعلمون بسرعة وإنهم يقلدون بسرعة . ويفكرون ويستوعبون . وبسرعة جدا يطورون هذا الذى تعلموه !

هذه هى البداية !

* * *

وبعدها بائة سنة ألقى الأمريكان القنبلة الذرية على مدينتى هيروشيما ونجاساكي .

وبعدها بأسبوع واحد استسلمت اليابان بلا قيد ولا شرط . . وانتهت الحرب العالمية الثانية بموت خمسين مليوناً ! .

وصفق العالم كله لأمريكا التي هزمت اليابان ومسحت بها الأرض ، وقتلت في ساعة واحدة مليوناً من البشر وجرححت مليوناً وشوهت عشرة ملايين ، وجعلت أولادهم يتوارثون أمراضهم وعاهاتهم أيضاً . .

ولم تنتبه إلى أن الشعب الياباني قد استسلم لأنه يريد أن يوفر شبابه لمعركة لا تنتهي ، وهي إحياء الشعب الياباني من أجل البناء والدخول في حرب اقتصادية ضد أمريكا وأوروبا . وأن يكون ميدان القتال هو أمريكا نفسها وأوروبا ! .

ولم ينتبه العالم إلى الصفة الثانية من العقلية اليابانية وهي : أن كل الحروب ليست نهائية . إنها مواقع ، وليست معارك . . ولذلك إذا خسروا موقعة ، فهم لم يخسروا حرباً . . فالحرب مستمرة ، ولكن بأسلحة أخرى في المصانع والبورصة والمعامل والحقول ! .

وبعد نهاية الحرب العالمية الثانية زار القادة الأمريكيان والعلماء المصانع اليابانية . . وخرجوا ليقولوا : إن أحداً لا يستطيع ذلك . فالعامل الياباني « آلة » . . ولا روح له . . ولا قيم . . ولا مبادئ . . لقد جعلوه عبداً ذليلاً يعمل ما يأمرونه به . . وإنه قد نسى الابتسام ، ونسى أيضاً أن يكون إنساناً ! .

غلط أيضاً . فالـياباني ليس كذلك . وإنما الياباني قد ربط حياته ومستقبله بالشركة التي يعمل بها . فهي أسرته . وهي دينه . ومن أجلها يعيش ويموت . . والشركة قد ضمنت له كل شيء . . فلا خوف عليه في أي وقت ، ولا خوف على أولاده من بعده . فالشركة هي البيت والمدرسة والمعبد والمستشفى والجنة في الدنيا والآخرة . ولذلك فالعمل حياة . والحياة عبادة ! .

* * *

وقد رأيت نهضة كوريا الجنوبية : صناعات كبرى وصغرى . والعالم كله لا يزال مبهوراً بالدورة الأولمبية : الجمال والنظام والكفاءة والضبط والربط . . وكوريا الجنوبية تستخدم نفس أساليب اليابان في الارتباط والانضباط والتفاني في العمل . ولا شيء يخيف اليابان إلا كوريا الجنوبية ، فهي أكثر شراسة في المنافسة وأكثر استيعاباً للتجربة اليابانية . .

ورأيت أخيراً التجربة الصينية في تايوان (٢٠ مليوناً) . إنها الدولة الوحيدة في العالم التي تقوم نهضتها الضخمة وثراؤها الفاحش على الملكيات الصغيرة . كل أسرة هامصنع . . ولذلك فيها ٧٠٠ ألف مصنع . . تعمل بكفاءة نادرة . . تنقل من أوروبا وأمريكا وتطور . .

بل الشركات الأوروبية الكبرى تقيم مصانعها ومعاملها في جزيرة تايوان لأن الأيدي العاملة أرخص والضرائب والجمارك أقل . . وهؤلاء الذين يعملون لحساب هذه الشركات . . يعملون لحساب شركات أخرى منافسة . . وامتلات الدنيا بمصنوعات مكتوب عليها عبارة : صنع في تايوان . . كل شيء . . من الأبرة للصاروخ مرورا بالبديل والفساتين والعطور والأساور والأقراط والأحذية . . والأحجار الكريمة . . ومالا نهاية له من الأحجار الملونة والنفاس الذي انخرست فيه الأحجار أيضا - كلوازونييه . . فامتلات الأرضفة والدكاكين والمحلات الكبرى والفنادق بكل السلع من كل لون وحجم وثمان . . وهذه الجزيرة الصغيرة لها أموال في البنوك يتراكم بعضها فوق بعض ولا نعرف ما الذي ستفعله بها . . هذا العام بلغت فلوسها ثمانين ألف مليون دولار . . والناس لا يلتقطون أنفاسهم ، وإنما يعملون بجنون ، ولا يعرفون كيف يتوقفون ولا أحد يجرؤ على أن يقول لهم ذلك . وإنما مهمة الدولة تصريف الإنتاج وتشغيل الأموال . . أما الشعب ، فلن يتوقف ! .

ولابد أن نسألهم : لماذا ؟ لماذا أنتم وليس نحن ؟ ما الذي عندكم وليس عندنا ؟ إن بلدكم صغير جدا . وشعبكم أقل من نص شعبنا . . وليست عندكم موارد طبيعية . . وديننا أعظم . وتاريخنا أقدم . واستقرارنا أعمق . . ونحن أطول وأعرض ونأكل أكثر وننام أطول . . ثم نعمل ٢٧ دقيقة من كل يوم - هذه معلومات رسمية اعتذرت عنها الحكومة لأنها فضيحة . . ولكنها حقيقة ! .

فاختلف العلماء في تفسير كل ذلك . .

أناس يقولون : إن ديننا يقول إن العمل حياة . قلت : إن ديننا يقول لنا : ان العمل دين . وسياستنا تقول : إن العمل شرف . .

وأناس يقولون : إن إيماننا بمذهب معلمنا الأعظم كونفوشيوس لا حد له . .

وكونفوشيوس هذا ليس نبيا . وإنما هو رجل حكيم عاش ومات من ٢٦ قرنا . ولم يعد أحدا لا بالجنة ولا بالنار . وإنما فقط طلب من الناس أن تعمل . وأن تتقن . وأن تتفوق وأن يحب بعضها البعض . وأنه لا داعى لاستخدام العطور ما دام الإنسان يستحم ثلاث مرات يوميا - إنهم يصنعون العطور ولا يضعونها - المتفرنجون فقط ! .

ومن أهم مبادئ كونفوشيوس : أن المعلم الذى يطلب من الناس أن يتراخوا ، لا يصح أن يكون معلما ! .

ويقول أيضا : يكون الإنسان عظيما إذا عمل قبل أن يتكلم . وإذا تكلم فعلى قدر علمه !

وكونفوشيوس يقول : الجهل ليل طويل ، لا يسطع فيه قمر ولا تطلع له شمس !
إلى آخر الكلمات الحكيمة البسيطة . وعندنا في القرآن وفي الأنجيل وفي دواوين الشعر ما
هو أعم وأجمل وأروع . ولكن المهم هو مدى تمسكنا بمثل هذه العبارات البليغة . . إنهم أكثر
تمسكا . وأشد تطبيقا لكل ذلك .

إذن فليس هو الدين العظيم ، ولا الكلمات البليغة العميقة ، ولكنه الإيمان التام بفكرة أو
قاعدة أو مبدأ . وهم يتفوقون علينا بعمق الإيمان وثباتهم على ذلك .
وهذه هي البداية . . ففي مذهب كونفوشيوس : إن الفلاح والمعلم هما أعظم الناس .
الفلاح يطعمنا والمعلم ينورنا .

فالمعلم هو الذي يلحق الفلاح أن يكون أكثر إخلاصا . وأكثر إنتاجا .

ومن كل كلمات كونفوشيوس آمنت الشعوب الصينية بهذه العبارة : مدرسة صغيرة يتعلم
فيها الأطفال أحسن من جامعة فيها ألوف الطلبة لا يتعلمون . . ألف مدرسة صغيرة أفضل
من ألف جامعة كبيرة ! .

ولذلك فكل أسرة لها مصنع . وكل مصنع هو مدرسة ومعمل ومعبد وسوق وحاضر
ومستقبل .

ويرى عن كونفوشيوس أنه وجد طفلا يحاول أن يصيد سمكة بيده . فلم يفلح . فما كان
من كونفوشيوس إلا أن صنع له سنارة صغيرة جدا . وعلمه كيف يضعها في الماء . وتركه .
فجاء تلامذة كونفوشيوس يقولون له : يا معلم . . إن هذه السنارة لا تصلح - فالأسماك هنا
كبيرة . ثم إن الثعالب والذئاب تحب أن تسبق الطفل إلى التهامها ! .

وكان رد كونفوشيوس : لو أعطيته سنارة كبيرة ، فليس هذا تعلما . وليس هذا هو العلم .
العلم هو أن أعطيه الأداة الصغيرة . . وأترك له أن يصنع الأداة الكبيرة . والعلم أن أضعه على
أول الطريق . . لا كل الطريق . . العلم أن أنير شمعة فيعرف معنى النور القليل ليفكر في
النور الكثير ! .

هذه هي البداية . .

فقد بدأت نهضة اليابان والدول الصينية الصناعية بأن ذهبوا وتعلموا . . أو استوردوا
المعلمين من كل الدول الأوروبية . . وحفظوا الدرس جيدا . ثم قاموا بتعليم مئات وألوف
غيرهم . . ومن هذه الألوف تولدت شرارة النهضة والتطور . .

هذا هو الفرق بيننا وبينهم . وهذه غلطتنا . ونحن نريد كل شيء أن يكون في ضخامة

المهرم وطول النيل واتساع الدلتا . . وأن تكون البداية مثل « مديرية التحرير » ومصانع « الحديد والصلب » . . وكانت محاولتنا الكثيرة الفاشلة . . ولم نبدأ بالمزارع الصغيرة للشبان . وأن نساعد الشبان في مزارعهم ومصانعهم ومعاملهم الصغيرة ، ماديا وأديبا . وأن نتأنى وألا يتعجلوا - كذلك فعلت اليابان وكوريا الجنوبية وتايوان . .

فقد آمنوا جميعًا بأن البداية الصغيرة الناجحة ، هي قاعدة الانطلاق إلى الخطوات الكبيرة الواسعة التي تدفعنا إلى الأمام والتي تشجعنا على قفزات أكبر وأعمق . .
ولكننا عكسنا كل شيء . .

ففتحنا - أولا - لا نحترم المعلم ، ولا صاحب التجربة . . ونستهين بالذى جاء يعلمنا من الخارج . ولذلك لا نتعلم ولا نستوعب . وإذا بدأنا فالبداية عملاقة ونحن أقزام تماما كالذى يتعلم قيادة الحنطور ثم نضعه أمام عجلة قيادة الطائرة - ولا تهم النتائج ! فنحن مستعجلون ! .

أما البداية الصحيحة فهي التي انتهينا إليها أخيرا : المزارع الصغيرة . . المصانع الصغيرة . وهذه المشروعات الصغيرة يجب أن يكون دعمنا لها كبيرا . لأن هذه هي البداية السليمة ، وهذا الدعم هو الواجب القومى . كذلك فعلت ولا تزال تفعل كل الدول المتطورة جدا في آسيا . . وليس من شأن الدولة أن تبيع اللحوم والأسماك والسندوتشات . انظروا ما الذى تفعله السيدة تاتشر رئيسة وزراء بريطانيا ، إنها تبيع كل ما تملكه الدولة للشعب ، لتتفرغ لوضع السياسة العامة لكل شيء .

وكذلك كل الدول التي « تتعملق » صناعيا واقتصاديا وماليا في الدنيا كلها . .

ولا أعرف ، ولا أحد ، ما الذى سيفعله الشباب المصرى في الأرض الجديدة ، إذا كان إحساسه أن الدولة قد ألقت به مع مظلة دعائية إعلامية ضخمة ثم تركته ينحت في الصحر . . فقط ! كأنها تخلصت منه . . تخفيفا لرحمة المرور والمقاهى والأندية في القاهرة والإسكندرية ! .

أتمنى أن تكون النتيجة بعد سنة أو خمس سنوات ، كالتي عرفناها وانبهرنا بها في الشعوب الآسيوية . . ولا أقول اليابان ، حتى لا أكون مبالغًا جدًا ، ولا أقول كوريا الجنوبية حتى لا أكون فشارًا جدًا ، وإنما أشير إلى تايوان لكى أكون لا معقولا !

قلبك بيوجعنى : عليك وعلينا !

لو تسألنى : عن أى شىء أنت نادم ؟

أقول لك : لأننى لم ألعب بدرجة كافية !

فلا عرفت المشى ولا الجرى ، ولا مارست السباحة .

وكل الذى تعلمته هو أن أقلد التماثيل فأجلس صامتا لا أتحرك ، وأن أجلس صامتا أستمع لما يقوله الآخرون فى كتبهم . . وأن أقلد الأشجار أكل وأعيش وأتنفس لكى أموت واقفاً فى مكانى . كأننى الأنبياء الذين يدفنون حيث يموتون !

ولو سألتنى عن الناس الذين أكرهم كالعمى ، لقلت لك هؤلاء المدرسون الطيبون الذين تركونى أقرأ ومنعونى من اللعب . ظنا منهم أن اللعب هو ، وليس رياضة وعلمنا وفنا ومشاركة جماعية وتضحية من أجل هدف عام . . وكنت كلما ارتديت ملابس اللعب ، تقدم المدرسون يقولون : لا أنت تلميذ جدع . . لا تضع وقتك فى الكلام الفارغ . . اقرأ شيئاً ينفعك وأبعد عن زملائك الى مش نافعين !

ضحكوا على . فكنت الأول فى جميع مراحل التعليم . وقالوا : إن السبب هو أنه لم يخلق كتاباً ولم يضرب كرة بيده أو برجله أو برأسه !؟

وأذكر أن الكاتب الروسى جوركى عندما سافر الى أمريكا حاول الأمريكان أن يبهروه فأخذوه الى الملاعب ورأى الناس تلعب بقوة وعنف والجماهير تصرخ والشباب جميل والبنات جميلات . . والكل يصرخ فى الملعب ، فى المدرجات . . وانتقلوا به الى حمام السباحة الى البلاج . والكل فى صحة وعافية وصراخ . سألوهم وهم يتوقعون منه أن ينظم مارآه شعرا فقال . لابد أنكم شعب حزين ؟

— لماذا ؟ —

— لأنكم تلعبون أكثر مما تعملون .

- ولكن هؤلاء يعملون بقية أيام الأسبوع .

- ولكن لا يصح أن تلعبوا يوماً واحداً . . ساعة تكفى . . وبعد ذلك يجب أن يذهبوا إلى الحقول والمصانع . . لهذا نحن لا نحب الحياة الأمريكية !

غلطان يا أستاذ . فأنت لا تعرف معنى الحياة ولا الراحة ولا المتعة ولا الشباب والجمال . . وأهم من كل ذلك أنت صاحب العبارة التى تقول : إن الحرية شىء نادر ولذلك يجب أن نوزعها بالبطاقات !

هذا فى روسيا الشيوعية أيها الكاتب العظيم . أما فى بلاد الحرية فمن حق الذى يعمل أن يلعب ومن حق الذى يلعب أن يتفوق . . وأن ينام سعيداً بعد ذلك !

إن اليابانيين نادمون جداً . فهم يصنعون جميع لعب الأطفال ولا يستهلكونها . . وهم الذين شغلوا كل الأطفال بالعابهم السحرية الالكترونية . . أما هم فلا يلعبون لماذا ؟ لأن الطفل اليابانى قد انتقل من الطفولة إلى الرجولة المبكرة دون أن يمر بمرحلة الطفولة الطويلة والشباب . ولذلك فاليابانيون يستدركون الآن ما فاتهم فيلعبون وهم كبار .

ولذلك لا يعرفون كيف يلعبون . وقد أدرك علماء النفس والتربية أن مشاكل الرجل اليابانى الآن أنه لم يكن طفلاً . ولذلك يعيدون إليه الطفولة واللعب الطويل . فمن غير اللعب لا طفولة ولا شباب ومن غير الشباب لا شىء إلا الشيخوخة المبكرة . . والشيخوخة سواء كانت مبكرة أو متأخرة فهى الشيخوخة . .

والمثل الآن يقول : قل لى متى لعبت وماذا لعبت أقل لك اسم المرض الذى سوف تصاب به فى الشيخوخة !

فنحن المفكرين الذين نشبه (الكاتب المصرى الجالس القرفصاء) ننصحنا الأطباء بأن نحرك أقدامنا وأيدينا وأصابعنا . . وهذا هو اللعب الوحيد الممكن الآن . فقد تأخرنا كثيراً . . وفاتنا أن نلعب فلم نلحق قطار الحياة والحياة والشباب والجمال وندمنا على الذى لم نفعل والذى فعلنا . .

فإن كنت تلعب يهمنى جداً أن أشجعك . . وألا تلعب يهمنى جداً أن أفرش لك الطرق وردا إلى الملاعب ذهاباً وإياباً ، فالملاعب هى مصنع الصحة والعافية وهى أم الديمقراطية حيث الفوارق تذوب . . وحيث لا مسافات بين المتفرجين . . وحيث العمل جماعى والفرجة جماعية ، والتعصب أبيض . . ويجب أن يظل أبيض . .

أذكر أن صديقاً أمريكياً طلب منى أن أعلمه عبارة واحدة إذا قالها فإن الناس يضحكون له ويرحبون به فقلت له : الأهل هديد . . الأهل هديد .

وقابلته بعد ذلك بأسبوع وسألته : كيف كان صدى العبارة ؟

فقال : أحيانا يضحك الناس . . وأحيانا يرفضون أن يساعدوني ويغضبون . . فما معنى هذه العبارة !

إن هؤلاء الناس قد جعلوا للتعصب لونا آخر غير اللون الأبيض ، فأفسدوا الرياضة وأضاعوا النكتة !

وأنا يهمنى مستقبل . . ولذلك يهمنى أن الشباب الذين هم حملة المشاعل من بعدنا .
والذين سوف يصححون أخطاءنا ، ويقومون انحرافنا ، ويترققون بعثراتنا . . وأهم من كل ذلك : سوف يبنون مصر . .

إن عقلك يشغل عقلى ، وقلبك يوجع قلبى . . وبدايتك آخرتى ، وحاضرك مستقبلى .
ومستقبلك هو مجد هذا البلد !

ما الذي يُقال عند منتصف الليل؟

ما الذي تقوله للأطفال عند منتصف الليل ؟ لابد أن الكثيرين من أبناء الجزيرة العربية قد شاهدوا برنامج صدام حسين مع الأطفال العراقيين . والعالم كله لن ينسى لقاءه مع أطفال الرهائن الأوربيين . . . ومع طفل واحد بالذات حاول أن يكون لطيفاً معه ولكن نظرة الطفل لصدام حسين هي التي نشرتها كل الصحف والشبكات أياما طويلة . . . فالطفل قد جمع في نظراته : الخوف والكراهية والتحدى . . .

أما نظرة صدام ففيها القسوة والوحشية والكذب !

أما لقاءه بأطفال العراق فكان من نوع خاص . . إنه جلس إلى مستقبل العراق يتحدثهم عن ماضيه القريب وحاضره . . . ويسأل ويرد هو معظم الأحيان ، والأطفال يردون أحيانا سؤال ، هو الذي يسأل : من الذي ضرب العراق ودمرها على رؤوس أطفالها . . . على رؤوسكم ورؤوس إخوتكم الصغار وأمهاتكم وآبائكم ومدارسكم وهدم مصانع الحليب وحطم الجسور ؟ ويرد الأطفال : بوش . . .

ويعود يشتم جميع الدول العربية واحدة واحدة . . . ويتهمها جميعا بأنهم عملاء الأمريكان لأنهم استعانوا بقوى الدنيا لوقف المذابح والانتهاكات الوحشية لأبرياء الكويت . . .

ويقول لهم صدام : المصريون مثلاً . . . والسعوديون . . . جميعا مع بغداد . . . الشارع العربي كله مع العراق . . . ولكن حكام هذه الدول هم الذين أرغموا الشعوب على كراهية العراق وعلى استدعاء ٣٣ دولة لتحطيم القوة العسكرية العراقية . . . حتى لا يكون عراق . . . وحتى لا يكون لكم مستقبل !

هؤلاء الأطفال لا يعرفون أن العراق بفضل الله من أغنى دول العالم ، أغنى دول العرب ففيها البترول وفيها الأنهار وفيها الشعب وفيها الأرض الخصبة . . . كل ذلك لم يقتنع به صدام

حسين . . . وإنما جشعه وطمعه جعلاه ينسى ما في يده وينظر إلى ما في يد الآخرين . . .
ولذلك قرر أن يبتز بترول الكويت وينهب بترول السعودية . . .

وقال للأطفال : هل تعرفون مصر ؟ طبعاً تعرفونها . . . بلد الحضارة والأهرامات وسوف
ترونها قريباً إن شاء الله عندما نستعيد قوتنا وجيشنا ونكمل بناء مصانعنا الحربية . . . !!

يقصد أنهم سوف يدخلون مصر غزاة ومنتصرين على الجيش المصرى ؟ . تصور !!!

أما مصر . يقول صدام حسين . فالشارع المصرى كله مع بغداد . . . كله . . . ولكن
الرئيس حسنى مبارك ضد بغداد ومع واشنطن . . . وكذلك الحكومة والجيش المصرى لأنه
موظف لدى الحكومة يأتمر بأمر حسنى مبارك . . . ولو ترك الجيش المصرى لضميره فسوف
ينضم إلى العراق فى تطهيرها لجزيرة العرب والأرض المقدسة من الكويتيين والسعوديين ؟ !

هذا ما يقوله صدام حسين للأطفال عند منتصف الليل . . . أى إن الأطفال يجب أن
يسهرُوا وألا يناموا وألا يذهبوا إلى مدارسهم قبل أن يسمعوا هذه الأكاذيب والأوهام . كأنَّ
صدام حسين لم يكفه ما فعله بأبائهم وأمهاتهم فاتجه إلى إفسادهم هم أيضاً . . .

هو طبعاً يتحدث إلى آباء وأمهات هؤلاء الأطفال ، وإلى الشعوب العربية ولحسن حظ
صدام حسين وقتها أنه لم ير ولم يقرأ الاحتقار والاستنكار والشهامة فى وجوه الملايين الذين رأوه .

بداية النخاسة وعودة الغائبين

إذا كان للكويت ألفان من الأسرى والرهائن في العراق . . فإن لأهل العراق ١٥ مليوناً هم سكان العراق الذين لا يعرفون كيف يهربون . . لهم أيضاً ألوف الأسرى في السعودية يأكلون ويشربون ويندمون على مهل . . ويوسون القدم ويبدون الندم على أنهم مشوا عمياناً وراء صدام حسين . . . ويستحلفون كل سعودي وكويتي ألا يعيدوهم إلى بلادهم ، فالنار هي العراق وجهنم هي بغداد ، وعزرائيل هو صدام . . إذا كانت الحرب قد انتهت في الكويت وإذا كانت النار والدخان المتصاعد من الآبار قد خمدتا وإذا كان الهواء أصبح نقياً ، وإذا كانت الأسماك في الخليج قد استعادت صحتها ، وأعيدت في شباب وعافية على الأطباق في مطاعم الموليداي . فإن البسمة لم تعد بعد إلى وجوه أهل الكويت . . ولكنهم يجدون في محلاتهم السوبر ماركت كل ما يحتاجه أي إنسان . . . ولو كنت كويتياً لانحنيت على الأرض التقط ذرات التراب واضعها كحلاً في عيني سعيداً بهذا البلد الذي وفر لي الطعام والشراب والمستقبل والأمان واحترام العالم لشجاعة أبنائه وإعجاب العالم برجال المال والبنوك والاقتصاد الكويتيين ، فهم على أعلى مستويات القدرة والاقتدار والبراعة والعلمية . ثم هذه النهضة الصحفية في الكويت . . فقد عادت صحفها كما كانت . . . بل أضيفت لها صحف جديدة في ظروف مستحيلة . .

وكان ذلك تحدياً لليأس ، وانتصاراً للموت . . . وتأكيداً للروح الوطنية . . . إن بيوتا كويتية لا تستطيع أن تقيم حفلاً عائلياً ، حزناً على أبنائها الأسرى حزناً على الغائبين . . إنهم أحياء في العراق ، ولكنها حياة كالموت أما الشعب العراقي إلى جانب أنه يائس خائف فهو جائع والسبب هو صدام الذي تسلطن عليه عشرين عاماً بالحديد والنار وحبال السحل والشقاق . مهما حاول أهل الكويت أن يبدوا سعداء بالحرية فإن في أعماقهم حزناً وبأساً وقلقاً وخوفاً . . صحيح أنه لا معنى للخوف الآن . . ولكن سوء الظن والشك وعدم الثقة بالصديق والشقيق هو الذي يحكم العلاقات الإنسانية في الكويت .

ولا ينكر أهل الكويت كيف تجلت الأخوة العربية الصادقة في السعودية
واحده عنده قصة عن المعاملة الكريمة التي لقوها في السعودية وكيف أيقنوا أن
لهم . . . وأن السعوديين هم أهل النخوة والكرم . . . وكيف أنهم في مصر قد و
وأشقاء . . . وأن الذي وجدوه في مصر ومن مصر قد هوّن عليهم أهوال الغربة ،
وعندما التقى المسلمون من كل الدول الإسلامية في الكويت تعالت أصواتهم تن
معاملة الأسرى . . . وإن إعادتهم إلى أهليهم هي قمة الرحمة ومن أهم تعاليم الإسلام
يعودون . . . وسوف يكتمل الشملان العائلي والوطني . . . لا محالة إنها مسألة وقت
بدأت ، وكذلك العد التنازلي في بغداد والليل الأسود قد انقشع ، فقد أضاء
والقنابل . . . ولم يبق إلا طلوع الفجر . . . وسوف يطلع على العائدين إلى زوج
وأمهاتهم . . . وسوف تكون حكايات وذكريات . . . وسوف يندمج الجميع في
شكراً لله أن عادوا وأنهم أحياء في بلد قد وفر ودبر لهم كل ضرورات الحياة الرضوية

نسيت كأس العالم وذهبت إلى المسرح!

كنت كلنا رأيت الكاتب محمد لطيف أقول له : أنا تلميذك ..

ولست مبالغاً في ذلك . فأنا لم أعرف مبادئ كرة القدم إلا من تعليقاته على المباريات .. وكان يسعده ذلك .. فيحدثني عن آخر أخبار وأسرار كرة القدم . واعترف أنني لم أكن أفهم الكثير مما يقول . فهو تصور أنني تلميذ متفوق في مدرسته .. ولذلك فهو قد كافأني على ذلك بأن نقلني إلى الجامعة دون أن أحصل على الإعدادية أو الثانوية العامة !

ولما قابلته في يوليو ١٩٦٦ في لندن أمام مبنى الإذاعة البريطانية راح يحدثني عن كأس العالم وعن القنابل التي سوف تنفجر .. وإنه حزين على إصابة « بيليه » .. فقد كسره لاعب برتغالي متوحش ..

وأقسم بيليه بالله العظيم ثلاثاً ألا يشترك في كأس العالم .. وحدثني عن حكايات لم أستطع فهمها أو متابعتها .. فهو يصر على أنني طالب في الجامعة الكروية وأنا مصر أن أظل في رياض الأطفال !

قال لي : عندي لك هدية .

قلت : شكرًا .

قال : ثلاث تذاكر في المقصورة .. واليوم نهائي الكأس بين ألمانيا وإنجلترا .. فرجة .. أهم حدث في الدنيا هذا العام .. وإليك التذاكر .. أنت طبعًا حارف الطريق إلى الملعب سوف أكون في انتظارك .. وإلى جوارنا فلان .. وأمامك فلان .. ووراءك فلان .. وسوف تكون على مسافة متر واحد من الملكة والأسرة المالكة .. أنا عندي اعتقاد أن ألمانيا سوف تغلب .. وإن كان الفريق الإنجليزي بمدربه الجديد قد استعد لهذا اليوم من ثلاث سنوات على الأقل !

وذكر عددًا من الأسماء وتعليقات الصحف . لا أعتقد أنني أستطيع الآن أن أستعيد منها

اسما واحداً . . ولكن الكابتن لطيف كان حسن الظن بى جداً . . وهو يرى اهتمامى بما يقول دليلاً على حبى وفهمى لكرة القدم . . ولو عرف الحقيقة لأحزنه ذلك كثيراً . . فأنا أحسن الاستماع . . ولكن استماعى إليه لا يدل على أننى أتابع ما يقول . . ولا أننى أفهم ما يقول . . ولكنى سرحان جداً ومشغول بأشياء أخرى فى دماغى لا تقل أهمية عن الذى يقول !

وسكت كابتن لطيف ثم قال : أقول لك . . تيجى معايا تسلم على الإخوان هنا . . أخذوا شقة قريبة جداً . . ما رأيك ؟

ولم يكن لى رأى . فأنا أريد أن أستمع إلى حكايات الكابتن لطيف . .

ولم أكن فى حاجة إلى أن أعرف أننا ذاهبان إلى شقة فيها شبان مصريون . . فالرائحة صارخة أمام الباب . . وعلى الباب وعلى السلم . . إنما خليط من التقلية والملوخية والفسيفشا والملوحة والمش . . وأحياناً تهب رائحة الفتيك . . وأحياناً رائحة يسمونها فى الريف « العتر » وهى خليط من النعناع والشيخ البابونى . . ولا بد أن تضع يدك على معدتك حتى لا تقفز إلى فمك . . ثم من فمك . . أعوذ بالله . . وانفتح باب الشقة . . لا . . لم يفتح . . بل كان مفتوحاً . . ودفعناه ودخلنا . . كأننا دخلنا « حوش » فى مقابر الإمام الشافعى . . وأحسست أن أنصاف العراة الذين رأيتهم ليسوا إلا مجموعة من الخانوتية ضبطتهم الشرطة وهم يستخرجون جثث الموتى ليبيعوها لطلبة كلية الطب . . صحيح لم نر أحداً من الموتى . . ولكن الروائح تدل على أن الجثث كانت هناك . . ثم تخلصوا منها !

وقدم لى الكابتن لطيف المواطنين أنصاف وأرباع العراة : كابتن حسن . . كابتن شوقى . . كابتن بيومى . . أكبر المشجعين بسطويسى . . أمال فىن فهمى عمر . .

قالوا : ذهب يشتري كبده !

وهذه أول كذبة 11 فالكبد لا تباع هنا فى لندن . . فلا أحد يأكل الكبد فى أوروبا كلها . . لأن الكبد عبارة عن (مصفاة) الجسم وفيها كل السموم . . ولذلك يرمونها للكلاب . . وأحياناً يشفقون على الكلاب . .

ولذلك فأى إنسان يستطيع أن يذهب إلى المذابح ويحمل مئات الكيلوجرامات وله الشكر وسألت : من الذى يطهو الكبده ؟

فأشاروا إلى الحاج عبده أستاذ الكبده والكوارع ولحم الرأس والعكاوى . . وكلها موجودة . . وفى طريقى إلى دورة المياه وجدت أشكالاً سريالية من اللحم والعظم وسيقان الملوخية . . ويقايا الصلصة . . وليست هذه صفيحة زبالة . . وإنما هى صفيحة ملوحة أتوا بها من الصعيد . . وهذا الذى وضعوه فى بنطلون إحدى البيجمات هو خبز رقاق . . وخبز

بتاو .. وكشك اشتروه من بقال يونانى .. وهذه العلبة ليس بها ورنيش أحمر .. وإنما هو شطة ليبية يسمونها « الهريسة » أى التى هرسى فى الزيت حتى صارت عجينة !

وراء الباب حقنة شرجية معلقة مع فوطه باهتة الألوان .. ياخبر أسود .. وهذه أمواس حلاقة على الأرض .. وهذا موس وحزام من الجلد لكى يشعلوا عليه الموس .. إذن لقد أتوا بحلاق القرية .. والحنفية مفتوحة .. والسيقون له صوت .. والدش يشرب .. فهم الذين أفسدوا هذه الأدوات بسرعة غريبة .. وفوجئت بأن الباب قد انفتح .. فالحمام ليس له تراس ولا مفتاح !!

ولم أجد مقعدًا واحدًا .. فالمقاعد قد أدخلوها المطبخ ليضعوا فوقها الحلال .. ولم ألاحظ وجود سرير .. فهم ينامون على الأرض ..

وإذا كانت الروائح زاعفة .. فهى كالأصوات .. فالجميع يتكلمون فى وقت واحد ويصرخون وتنطلق منهم أسماء غريبة انجليزية والمانية ومن البرازيل ومن الأرجنتين .. وهم جميعًا سوف يتناولون غذاءهم مع الشاي الى هو .. والقهوة الى هى .. ويحبسون بالشطة والليمون مع واحد كوكا ..

والخروج من هذه الشقة الى الشارع هو الانتقال من القبر الى غرفة الإنعاش .. من تحت الأرض الى وجه الدنيا !

فهل الرائحة موجودة حتى آخر الشارع أو إن الرائحة قد اعتصمت بالأنف والملابس فلن تتركها إلا فى القاهرة .. ولذلك كان لابد أن أعود الى البيت لأخذ دشا وأغير ملابسى .. أو ألقى عليها زجاجة كولونيا .. بعد الاعتذار لسائق التاكسى وعامل الأسانسير اللذين رأيتهما يهرشان فى أنفيهما .. وأنا أعرف السبب حتى اضطرت عندما تضايق الناس أن أتبرع لهما بالقول بأننى طبيب عائد لتوه من إحدى العمليات .. قالت لى سيدة : طبيب يطرى طبعا !

- نعم .. كنت أعالج كلاب وخيول جلالة الملكة !

فبرقت العيون احتراما لكلاب وخيول الملكة وعفوا عن رائحتى مهما كانت كريهة ! أوع تنسى - قالها الكابتن لطيف !

وذهبت الى المسرح ..

وكانت مسرحية « الشعر » إحدى المسرحيات الحديثة .. الممثلون عراة ملط .. منظر قبيح .. منظر .. وتمنيت لو أننى ذهبت الى مشاهدة كرة القدم .. وتضايقت من رائحة العرق .. ومن الكلام الذى يسد نفسك أكثر من رائحة العرق .. وفى أنفى رائحة الملوخية

كانها عطر الشانيل والأربيج إذا ما قورنت بالألفاظ العريانة والممثلين الأكثر عريا . . ولكن من الضروري أن أقف على الاتجاهات الحديثة في المسرح !

وما زالت عبارة الكاتب السويسرى ديونيات فى أذنى ؟ المسرحية التى لا تعرض فى مسارح بريطانيا ، فكأنها لم تولد !

فلندن هى أم المسرح . . وملعب المواهب ، وكعبة العبقرىات الأدبية .

وقال كابتن لطيف : صديقك على قنديل هنا أنت عارف أنه حكم دولى وعنده حكايات لذيذة . . سوف نلتقى غدا ونسمعها منه !

ولابد أن الكابتن لطيف قد تضايق لأننى لم أذهب . . فكأس العالم هى أهم حدث فى الدنيا - هذا رأيه !؟

فلا أحد يتحدث عن دييجول الذى اختير للمرة الثانية رئيسًا لفرنسا . . وعبد الرحمن عارف الذى اختير رئيسًا للعراق .

وأنديرا غاندى التى اختيرت رئيسة لوزراء الهند . .

ولا المعركة بين إسرائيل والأردن بالقرب من الخليل . . .

ولا أحد يتحدث عن الأدبية فرانسواز ساجان التى أصدرت كتابا جديدا بعنوان . الحصان أغمى عليه !

ولا عن مسرحية « زهرة الصبار » تأليف أبى بروز .

ولا أحد يتكلم عن الإنجاز العالمى لشركات المانيا (هوخ - تيف) التى نقلت آثار أبى سمبل من تحت إلى فوق حتى لا تفرقها بحيرة السد العالمى . .

ومن الذى يهमे أن يعرف أن المايسترو الروسى شاستاكوفيتش قد عزف السمفونية الأولى لوالده فى موسكو . . ولا أن حفيد الموسيقار الألمانى فاخنر قد مات . .

ولا أن الطبيب العالمى ديبكى قد أجرى عمليات فى القلب وأنه أدخل فى القلب صمامات من البلاستيك - أعظم إنجاز طبى فى العالم الآن . . وهذا الطبيب ديبكى هو الذى جاء لانقاذ شاه إيران فى مستشفى القوات المسلحة فى مصر بعد ذلك . .

الكابتن لطيف يرى أن انتصار ألمانيا وانجلترا فى الكأس هو أعظم حدث فى عام ١٩٦٦ . . بينما فى نفس الوقت أطلق الروس المركبة الفضائية لونا ٩ فهبطت بهدوء على سطح القمر !

وأطلق الروس كلبتين تدوران حول الأرض . .

وخرج من المركبة الفضائية الأمريكية جينى ١٢ رائد الفضاء الدرين ليمشى فى خارجها
١٢٦ دقيقة !

وفى الرياضة انتصر كلاى مرتين على خصمه كوبر . .
وبطل العالم فى الشطرنج اسباسكى انتصر على مواظنه تال . . وفى لبنان أعلن بنك انقرا
إفلاسه التام . .

ومات فنان الكارتون العالمى والت دزنى . .
وأهم خبر صحفى هو أن صحيفة التايمز البريطانية كانت تضع الإعلانات فى صفحتها
الأولى . . وقررت أخيراً أن تكون الأخبار فى الصفحة الأولى !
ويرى الكابتن لطيف أن هذه الأحداث العالمية لا هم أحدا !

لقد تعلمت من كابتن لطيف معنى « التسلسل » . . وأنا قد ضببطت الكابتن لطيف أكثر
من مرة يتسلسل . . وإنه يشوط فى الأوت . . فقد انتشرت موضة « المينى » فى لندن ومنها إلى
كل الدنيا . . وهذه الموضة اخترعتها واحدة انجليزية اسمها مارى كوانت ومعها الحق فى
اختراعها . . فالفتاة الإنجليزية تتميز بجمال الوجه وحلاوة الساقين . . وقد ضببطت الكابتن
لطيف يسرح ويتسلسل . . ولم تكن معى صفارة لأوقف اللعب . . وفى إحدى المرات طلبت
إليه أن يجلس فعندى صدام . . وكان الهدف أن يسكت عن الكلام وأنا أيضاً . . ونتفجع
ونتحسر فى صمت .

قال لى : مالك ؟

قلت له : كما ترى !

قال : ما الذى أرى ؟

قلت له : اطلع من دول يانمس . . ترى هذا الذى أرى . . والذى جاء السياح من أركان
الدنيا لكى يتفجعوا عليه .

- مش واخذ بالى !

- غلط . . لازم تأخذ بالك . . خد بالك . . وخذ نفسك . . وخذ راحتك . . ما حدث
واخذ منها حاجة . .

- على رأيك !

- الله !

- الله . . جول . . كل خطوة جول . .

- فين ؟

- في عيني . . في قلبي !

....

* * *

وفي اليوم التالي قابلت الكابتن لطيف . . وقال لي : إن الناس كانت عيونها ستخرج منها
كلما رأوا هذه المقاعد الخالية . . وكنت أشير إليهم بأن أصحابها سوف يعودون حالا . . وفي
منتصف الهاف تايم الأول . . جاءت ثلاث فتيات واستأذن في الجلوس . . طبعاً جلسن . .

وسألته : وماذا دار بينكم ؟

- ولا حاجة . . فكلنا وراء الكرة في الملعب ! ولكن .

- ماذا ؟

- في نهاية الماتش . . تعانق كل الناس فرحاً بانتصار انجلترا . .

- وكان نصيبك كم قبلة ؟

- اللي فيه القسمة !

ودخلنا معاً هيئة الإذاعة البريطانية هو يتحدث عن الكأس وأنا أتحدث عن المسرحية . .
هو سعيد بما رأى وأنا سعيد بما رأيت . . وما عرفت . . ولكن كنت مثل الذي نقلوه إلى أحد
المستشفيات وكان لابد أن يقول ويصف . . لم أكن سعيداً بما رأيت . ولكن كان لابد أن
أعرف فعرفت . وقررت . .

وفي مطعم صغير بميدان « الطرف الآخر » جلست مع الكابتن لطيف . . هو يتكلم . .
ويتكلم . . ودخل جماعة طوال شقر الألوان والشعور ذهبية . . قلت : ألمان !

وكانوا من الألمان . . والتعاسة على وجوههم . .

واقتربوا منا والتصقت المناضد . . ولاحظوا أنني أتابع ما يقولون . فسألوني : إن كنت
أعرف الألمانية فقلت : نعم . .

وسألوني : رأيت الماتش ؟

- أبداً .

- كنت تتوقع أن ينتصر الإنجليز ؟

- أيوه مع الأسف !

وأسعدهم أسفى على أن الألمان لم ينتصروا . .

قال أحدهم : وأنا لم أذهب لهذا السبب . .

وقالت واحدة : وأنا لم أذهب . . فأنا لا أستطيع أن التحمل النصر أو الهزيمة . . لا انتصارنا ولا هزيمتنا . . لأننى فى مثل هذه الحالات أفقد أعصابى تماما . . فأخى واحد من اللاعبين . .

ثم ذكرت اسمه . . وراح الكابتن لطيف يتحدث عنه وعن أسلوبه فى اللعب وعن عيوبه واندھشت الفتاة أن أخاها هكذا معروف ومشهور فى العالم . .

وقدمت لها الكابتن « لطيف » . .

وقلت لها : ماشق لألمانيا ولكل ما هو ألماني . . ولا ينقصه إلا .

— ماذا ؟

— العروسة . .

قالت : أنا !

قال لها : أنت ماذا ؟

قالت : أتزوجك فوراً ما دمت تحب أخى لهذه الدرجة !

دعنى أصف لك عروسة الكابتن لطيف : طويلة شقراء زرقاء العينين . . شعرها خيوط من ذهب . . شفثاها . . عنقها . . فى العشرين من عمرها . .

ولما وضع الكابتن لطيف يده على رأسه . . ظنت أنه يريد أن يلفت نظرها إلى أنه أصلع . فقالت له بسرعة : بابا كان أصلع وأنا أحب والدى !

ولما رآته يحدثنى بما معناه أنه كبير فى السن . . وأنه وأنه . . قالت بسرعة : وأنا لا أحب الشبان . . وليست عندى مشكلة . . البيت . . والفلوس . . ولا مانع أن أعيش فى إيران !

فقلت لها : إننا من مصر !

فقالت : وأنا أعبد الفراعنة . . رمسيس الثانى . . وإخناتون وتوت عنخ آمون . . وخنوبيت !

ولم يعرف من هو خنوبيت هذا . . ولم نشأ أن نسألها عن هذا الملك الفرعونى . . فليس هذا وقته . .

ولما نهض الكابتن لطيف هرباً من الموقف . قالت : وأنا أحب الرجل الحاسم الذى يتخذ قراره بسرعة ! فهل أنتم ذاهبون إلى السفارة لتوثيق الزواج !

وأصر الكاتب لطيف على أن يتكلم باللغة العربية . وكلامه كان معناه : في عرضك
طلعتني من الورطة دى . . إنها فتاة صغيرة جميلة متهورة . . وأنا كما تعرف . .

فقلت هي بسرعة : لا مانع . . سوف انتظر . . لابد أن لك ظروفًا تجعلك تتأني في اتخاذ
قرارك . . هذا تليفونى في لندن حتى منتصف أغسطس وهذا تليفونى في ميونخ . . سعيدة في
انتظار قرارك . .

ولما أخفى الكاتب لطيف رأسه في يديها القويتين لم تجد هي إلا قمة رأسه فقبلته فيها !
قال : هل يصدقنى أحد لو قلت لهم ما حدث ؟ ياخبر . . إنا في مصر لا سعر لنا . .
تراب . . وأقل من التراب !

ونحن في الشارع قال لى : نعود إلى كأس العالم . .

قلت : أنت الذى تعود . . أما أنا فدعنى أفكر في هذه الفتاة . . وكل الفتيات . .
انظر . . انظر . . الله . . سبحانه الله . . ولا إله إلا الله . . قال الشاعر القديم وهو يتحدث
إلى الله صانع الجمال ولا يزال كلامه صحيحًا إلى يوم القيامة .

خلقت الجمال لنا فتنة

وقلت : يا عبادى اتقون

وأنت جميل تحب الجمال

فكيف عبادك لا يعشقون ؟

مات الذى أضحكنا عاش الذى أسعدنا

الشخص يموت . .

الشخصية لا تموت . .

محمد عبد الوهاب عيسى الشعرانى قد توفى إلى رحمة الله . . ولكن الموسيقىار الملحن المطرب عبد الوهاب لا يموت . . فنحن هذه الأيام نحتفل بمرور قرنين من الزمان على وفاة معجزة الموسيقى موتسارت . . لأننا نحتفل بعيد ميلاده ، فهو لم يمت . . ولكن فولفانج أماديوس موتسارت بن ليوبولد قد مات يوم ٥ ديسمبر ١٧٩١ . وكذلك سيد درويش وأم كلثوم وعبد الحليم حافظ وفايزة أحمد والسنباطى وفريد الأطرش وكل الذين ماتوا فى العشرين عاما الماضية طه حسين والعقاد والحكيم ويوسف السباعى وإحسان عبد القدوس ويوسف وهبى . .

فالذى لا يموت محمد عبد الوهاب الرجل الجاد فى حياته الفنية . . المجتهد المجدد . . ولكن محمد عبد الوهاب الذى كان يخاف من أنفه على حنجرتة قد مات . . محمد عبد الوهاب الذى عاش بالعقل فمات بالقلب . . عبد الوهاب الذى عشنا على موسيقاه وألحانه أكثر من سبعين عاما ، سوف يعيش سبعين عاما أخرى سبعين مرة . .

فقد كنا نعيش فى عصر محمد عبد الوهاب . .

وسوف يقال كلام كثير عنه . . فنيا وماديا وتاريخيا . . وسوف تقال ألوف القصص والحكايات ، فقد كان على صلة بألوف الناس ألوف الأيام . .

كنت أقول عن محمد عبد الوهاب إنه كالعملة الفضية . . فيها فضة لكى تلمع وفيها نحاس حتى لا تتآكل . . فعبد الوهاب الفنان اللامع هو الفضة . . وعبد الوهاب التاجر الشاطر هو النحاس . . فلولا النحاس لتآكل وتلاشى عبد الوهاب ، ولولا الفضة لصدئ عبد الوهاب . .

وعندى عشرات الحكايات والنوادر عن علاقة أكثر من أربعين عاما . . كثير منها لا يقال ، فهي شخصية جدًا عنا وعن غيرنا من أهل الفن والسياسة . .

(١)

طلب منى الرئيس السادات أن أستمع معه إلى موسيقى النشيد الوطنى المأخوذ من أغنية «بلادى بلادى» لسيد درويش . . وجاء محمد عبد الوهاب وكان يمشى ببطء . . ويرى بصعوبة . وقد وقف الرئيس السادات يندهش لهذا الذى يراه . . فالرجل الذى أضاء الليالى وأسعد القلوب وأبكاه عشرات السنين لا يرى شبرا واحدا أمامه . . ولكن العقل فضى والقلب حديد . . قال محمد عبد الوهاب : يافخامة الرئيس لقد عملنا لحنا واحدا ثلاث سرعات . . والأمر لك فى تقرير ما الذى تراه مناسبًا !

وبدأنا نسمع اللحن السريع . . ثم اللحن الأبطأ . . وأخيرًا اللحن البطيء . . وقال السادات لعبد الوهاب . أيها تفضل يا محمد . .

قال عبد الوهاب : أنت صاحب القرار يافخامة الرئيس !

قال السادات : ما رأيك أنت يا أنيس ؟

قلت : اللحن المتوسط . .

قال السادات : لا . . بل اللحن البطيء . . فنحن نريد الهدوء والسلام . . لا نريد دعوة للحرب . . تعبنا والله يا محمد . . الناس تعبت يا محمد . . نريد أن نهدئ اللعب لتتفرغ للجد . . أسمعنى اللحن البطيء . .

وسمعنا اللحن البطيء مرة ، ، وثلاثة . . ورابعة . فقال السادات : أيوه كده تمام . . كده كويس يا محمد . . خلاص على بركة الله !

وضحك محمد عبد الوهاب وهو يخرج ورقة من جيبه : لقد كسبت الرهان يافخامة الرئيس . . فقد تراهنت مع زوجتى . . أنا قلت إن فخامتكم سوف تختار اللحن البطيء . . وقالت هى : أبدًا سوف يختار اللحن السريع . .

وضحك السادات وهو يقول : طبعًا لو كانت الستات يتحارب لاخترن البطيء . . ولكنهن لا يحاربن . . إنهن يردن نحن أن نحارب لكى يتخلصن منا . . هاها . . هاها !

(٢)

التقيت مع محمد عبد الوهاب فى فندق بلودان بسوريا . . متعة وسعادة أن ألتقى بمحمد عبد الوهاب . . فالحديث لا ينتهى والنكتة والقفشة والجديد فى الألحان والموسيقى . . طلبته بالتليفون فقال : تعال فورًا . .

وذهبت إليه وبسرعة أعطاني صينية ألومنيوم . . وهو أخذ صينية . وقال لي : تعال نرف
نهلة . .

نهلة القدسي هي عروسة . .

وتقدمتنا نهلة القدسي . . ونحن وراءها . . عبد الوهاب يغنى ويطنل ويقول : واتمخطري
يا حلوة يا زينة . . يا وردة من جوه جنينة . .

وأنا أردد وأطنل . . وعبد الوهاب يرفع يديه بالصينية ويطنل ويغنى وأستمع طبعاً . .

ونظرت إلينا نهلة القدسي وقالت : زفة فقايري !

قلت : زفة من عبد الوهاب لا تقدر بهال . . وزفة يكون فيها العريس والأوركسترا والمطرب
محمد عبد الوهاب . . ومحمد عبد الوهاب يقول : وأنيس منصور الكورس ! إيه أكثر من
كده ؟

وضحكت نهلة القدسي وهي تقول : زلة لسان . . عروس وغلطت . . آسفة ! دستوركم
يا أسياد !

واقترب مني محمد عبد الوهاب وهو يقول : ساذجة نهلة . . وضحكنا عليها . . وعملنا
لها زفة مجانا !

(٣)

قال لي محمد عبد الوهاب : إن الزمن في خدمة الفنان . . فالفنان لا يموت . . والأعمال
الفنية أطول عمراً من الفنان . .

ولذلك فعبد الوهاب لا يستعجل مطلقاً في التأليف والتلحين . . كل شيء على مهله
جداً . .

وفي إحدى السنوات كان محمد عبد الوهاب في باريس . . وسافر من باريس إلى ميناء
مرسيليا بالقطار . . وتوقف في أحد الفنادق قبل السفر . . ولكن محمد عبد الوهاب دخل
الحمام . . وغاب وغاب . . حتى أبحرت السفينة . . ولم يجرؤ أحد أن ينبهه إلى ذلك . . فهو
لا يحب أن يوقظه أحد إذا نام ، ولا أن يدق عليه الباب وهو في الحمام ، ولا أن يقاطعه وهو
يلحن أو يدندن . .

وكان يتحدث في بساطة في الحمام بالتفصيل ومستخدم الكلمات التي لا يطبق أحد
الاستماع إليها . . وكذلك كان الموسيقار موتسارت . .

قال محمد عبد الوهاب : هناك كل يوم باخرة . . ولكن لا أضمن الراحة في الحمام . .
ولذلك فالحمام أهم من الباخرة مهما استغرق ذلك من وقت ! .

(٤)

في يوم طلب منى محمد عبد الوهاب أن أجيء إليه فوراً لأمر هام . . وذهبت ووجدته قد
ارتدى ملابسه . . ولف كوفية حول رقبته ورأسه . . وقال : سيارتك فيها بنزين ؟

قلت : طبعاً . لماذا ؟

قال : عندنا مشوار بايخ . . كم الساعة الآن . .

قلت : منتصف الليل إلا قليلاً .

وجلس محمد عبد الوهاب إلى جوارى وأغلقتنا نوافذ السيارة تماماً . وطلب منى أن نذهب
إلى العجوزة . . وكان شتاء مظلماً بارداً . وهناك بعض الريح . . وطلب أن نقرب من
مستشفى الجمعية الخيرية وأن ندور حوله . . ثم أن نتجه مباشرة إلى حيث مديرية أمن
الجزيرة . . وكانت الشوارع مظلمة تماماً . سألتنى : أنت شايف ؟

قلت : لا . .

قال : ولا أنا طبعاً . . ما تعرفش عنوان أى واحد مفتح يدلنا على الطريق . . هاها . .
هاها . .

سألت : بيت من ؟

قال : واحدة أنت عارفها « . . . » .

فقلت : يا أستاذ . . إنها تسكن فى المهندسين . . مسافة بعيدة جداً من هنا . .

وانجبهنا إلى حى المهندسين . . ولكن الدنيا قد تغيرت . . فأنا لم أرها منذ وقت طويل . .
ظهرت عمارات وفيلات وانفتحت شوارع وانشقت ميادين وبرزت من تحت الأرض أشجار
وأزهار ومواسير مياه وأعمدة نور . .

قلت : يا أستاذ إن أى بيت تدخله سوف يحتفى بك حفاوة عظيمة . .

فصرخ عبد الوهاب : مغامرات لا . . هل تذكر رقم تليفونها . .

قلت : أبداً . . ولكن أعتقد أن هذا هو البيت . . الدور الخامس . . إنه هذا البيت !

الآن الساعة الواحدة إلا قليلاً . . البواب نائم والكلاب تنبح . . وضوء خافت عند
مدخل العمارة . الأسانسير يعمل لحسن الحظ . . ووجدنا اسم زوجها مكتوباً على الباب .

وانطلق صوت الجرس رفيفاً نحيلاً ومعه صوت كلب صغير .. ولكن لا حركة في البيت .. وهاد صغير الجرس والكلب .. وانفتحت شراعة الباب ومعه : يا خبر .. الأستاذ عبد الوهاب .. يادين النبی .. إيه السعادة دى .. يادكتور .. يادكتور الأستاذ عبد الوهاب عندنا .. اصبح بسرعة ..

والسيدة كانت نائمة ، وهذا واضح من إحمرار عينيها وشعرها المنكوش .. ووجهها الذى غسلته من الأحمر والأبيض .. وجاء الدكتور هو الآخر بالروب فوق البيجاما وأصلح شعره بيده .. أهلا يا أستاذ .. أهلا يا أنيس .. أهلا أهلا .. خطوة عزيزة ..

وكان عبد الوهاب قد تضايق من رائحة البيت المكتومة - طبعاً مكتومة .. فقال : أنا مش حاقعد كثير .. أنا عاوز علبة (عسل أسود) .. إلخ ..

لا يهم الكلام الذى قيل بعد ذلك .. ولا يهم كم من الوقت جلسنا حتى تدخل سيدة البيت وتأتى بعلبة العسل الأسود التى كان من الممكن أن يطلبها محمد عبد الوهاب بالتليفون .. لا من هذه السيدة وإنما من محافظ قنا ، فيبحث له بمركب قد امتلأ ببلاليص العسل !

وأخذ عبد الوهاب العلبة ملفوفة في جريدة . ونزلنا . وقد تجههم عبد الوهاب . وجلس في السيارة . ثم قال : مالك واقف ليه ؟

قلت : ما معنى هذا ؟

قال ؟ مالوش معنى يا أخى .. نزوة فنان . عندك مانع ؟ !

....

(٥)

قال لى : ما رأيك ؟

قلت : موافق . ويسعدنى ذلك ..

طبعاً يسعدنى أن أستمع إلى فائزة أحمد « تغنى لمحمد عبد الوهاب : ست الحبايب .. أجمل لحن وأروع موسيقى وأجمل صوت .. وكان من الضروري أن أذهب فى الصباح المبكر إلى الاستديو .. الدنيا برد .. وارتديت البالطو ووضعت منديلاً على أنفى .. ووجدت محمد عبد الوهاب قد سبقنى إلى الاستديو .. والفرقة الموسيقية كلها .. وفائزة أحمد .. وطلب محمد عبد الوهاب من الفرقة كلها : قراءة الفاتحة ..

وقرأنا الفاتحة .. ولا صوت ولا نفس .. وأشار عبد الوهاب إلى الفرقة أن تبدأ فى موسيقى

ست الحبايب .. الله .. الله .. على الموسيقى .. الله على صوت فائزة أحمد ..
الدموع فى عينى .. ومن الذى لا يبكى ست الحبايب حتى الموت وعلى موسيقى عبد الوهاب
وصوت فائزة .. وفجأة صرخ محمد عبد الوهاب : يا بنت الـ .. يلعن .. يا بنت ستين ..
يلعن أبو .. يا .. يا .. يا ..

ما هذا .. نحن قد فرغنا توا من قراءة الفاتحة .. وهو قد فرغ من تلاوة بعض الآيات
القرآنية .

- إيه يا أستاذ .. ماذا حدث ؟

- الزفته دى .. أنا قلت لها .. ما تاكليش حاجة بالليل .. يلعن .. ويلعن أبو ..
واليوم الأسود الى شفتك فيه .. امشى بره يا بنت الـ ..

- مش فاهم يا أستاذ إيه الى حصل ؟

قال : أنا قلت لها تيجى هنا على لحم بطنها .. لا أكل ولا شرب ولا سجائر .. ولا رقص
ولا لعب .. تتخمد فى السرير بدرى وتظل حتى الصباح .. ولكنها أكلت وشربت بنت
الـ .. بنت الـ .. ولذلك فصوتها أضعف ..

وانجهت إلى فائزة أحمد أسألها : إيه يا فائزة .. إيه الى جرى .

قالت : غضب عنى .. أكلت .. وشريت .. لم أكن أتصور أن الأستاذ سوف يكتشف
ذلك !

وقد تعبت فى إقناع عبد الوهاب بأن يسامح فائزة أحمد .. أبدا .. دماغه وألف سيف إنه
لن يجعلها تغنى « ست الحبايب » .. فى عرضك يا أستاذ .. فى طولك .. رأسك أبوسها ..
علشان خاطرى .

قالت فائزة : سوف أصوم من اليوم .. سأموت من الجوع .. قل للأستاذ يربطنى بحبل
ويضعنى تحت السرير .. ويرمى لى كل يوم لقمة عيش موافقة .. حقك على يا أستاذ ..
اضربنى .. حقك على .. إيدك أبوسها !

وبعد شهر وافق عبد الوهاب وقرأنا الفاتحة .. الله على الموسيقى الله على صوت فائزة
أحمد .. لا نهاية للدموع على ست الحبايب يرحمها الله .

(٦)

اتصل بى السفرجى من بيت محمد عبد الوهاب وقال لى : البقية فى حياتك .
- خيراً .

- أم الأستاذ تعيش أنت .

- وأين هو ؟

- هو طلب منى الاتصال بك . . لقد ذهب إلى القرافة .

وبسرعة ذهبت إلى بيت عبد الوهاب . . إلى غرفة نوم الأستاذ .

لوجدت الغرفة مكركة . . الصحف على السرير . . وصورة والدته . . وبطرمان غسل النحل والزبادى . . والمصحف . . وكتابى « حول العالم فى ٢٠٠ يوم » وقصاصة من مقال باللغة الإيطالية عن شخصية محمد عبد الوهاب . المقال الإيطالى يقول : رجل وامرأة يحكيان الدوق العام فى العالم العربى . محمد عبد الوهاب وأم كلثوم . . وعبد الوهاب هو المبدع . . هو الضوء وأم كلثوم هى الصوت . . فأم كلثوم صوتها ينتشر على ضوء محمد عبد الوهاب ! ومع هذه القصاصة هذه العبارة : عزيزى أنيس . . احتفظت لك بهذه المقالة القصيرة . . إن الكاتب الإيطالى يقلدك فى الكتابة !

وواضح أن محمد عبد الوهاب قد قام بإخراج الجو العام فى غرفته بعد حادث الوفاة .

(٧)

كنا نتعشى فى بيت فائق حمامة . . وكان عبد الوهاب بلا سيارة فطلب منى أن أخذه فى سيارتى . وكانت الساعة قد اقتربت من الثانية وأنا سوف أموت من التعب . . فأنا أنام فى الساعة الحادية عشرة والنصف . . وفى نفس الوقت لا أعرف كيف أقاوم النوم . . وبين لحظة وأخرى أدخل الحمام وأرش الماء على وجهى . . لقد انصرف الضيوف جميعا ولم يبق إلا عبد الوهاب وأنا . . وكان عبد الوهاب يتكلم فى التليفون . .

لقد كان عبد الوهاب يحاول أن يعثر على أحد من الأصدقاء لكى يوصله إلى البيت بدلا منى . . فقد قيل له إننى مزكوم !

ولم يجد عبد الوهاب أحدا .

فقال لى : اسمع . . أنت تنزل قبلى وتنتظرنى أمام الأسانسير فى الدور الأرضى . . فانت مزكوم .

قلت : أبدا . . لو كنت مزكوما ما نزلت من البيت أبدا . فأنا موسوس مثلك تماما . . ولو كنت أنت مزكوما ما وقفت معك ولا ثانية !

ونزلنا نحن الاثنين ووقفنا أمام باب الأسانسير . . وطلب منى أن أقرب وأن ألصق ظهري

بظهره وأن أردد وراءه هذه العبارة التى يستخدمها عبد الوهاب لاكتشاف الزكام . قال : قل ورائى . . من منكم محمد محمود .

فقلت . قال : أعد مرة أخرى وبصوت مرتفع قليلا .

وقلت . فقال هو : حرف الميم مضبوط تمامًا . . هيا بنا .

(٨)

من عادة محمد عبد الوهاب أن يدعو الأصدقاء لسماع ألحانه الجديدة أو مقطوعاته الموسيقية . . ويعرف رد الفعل ومدى تأثيرها فى الناس .

دعانى لكى استمع إلى أغنيتين لعبد الحليم حافظ : أغنية ظلموه . . وأغنية يا قلبى يا خالى . . وأعجبتنى أغنية : يا قلبى يا خالى .

فقال عبد الوهاب : أنت ذوقك مثل ذوق أولادى . .

ولكن الأغنية التى سوف تكتسح هى : ظلموه . وهى التى اكتسحت فعلا لما فيها من حزن وشجن يتفقان مع المزاج الشرقى والمصرى بصفة خاصة . .

ثم استدعانى عبد الوهاب وكذلك نهلة القدسى وكان لابد أن أحضر فوراً لكى أسمع أغنية من غير ليه !

واستمعت إلى الأغنية الرائعة . . الأغنية التحفة . . قمة الأداء الغنائى . . واللياقة الموسيقية . . والتضج الفنى . .

وكان محمد عبد الوهاب يؤدى امتحاناً صعباً . . كأنه يغنى لأول مرة . . أو يواجه الناس لأول مرة . . وقدمت لى السيدة نهلة القدسى كعك العيد .

فقلت : بل هذه الأغنية هى كعك العيد . . أو هى العيد . . وبعد العيد لا كعك !

وضحك عبد الوهاب وهو يقول إنها مجموعة أغنيات وليست أغنية واحدة !

إنها تحفة واحدة أو عشرون تحفة معا !

وقال لى الأمير عبد المجيد أمير المدينة المنورة إن لديه هذه الأغنية بصوت عبد الحليم حافظ . . ولكن عبد الحليم حافظ لم يغنها .

وطبيعى خشى عبد الوهاب أن يموت اللحن مع عبد الحليم حافظ . . فقام بتركيب اللحن مع الكلام وتعشيق كلام الأغنية مع اللحن .

وقال بعض السخفاء كيف يغنى رجل في التسعين عن الحب ؟
ولم يقل لنا هؤلاء السخفاء : ما هى السن المناسبة للغناء عن الحب . . وما هى السن
المناسبة لسماع مثل هذه الأغاني !
الحب ليست له سن ، كما إن الإبداع ليست له سن . . والفن لا عمر له . . وإنما العمر
للفنان الذى يولد ويموت . . ولكن الفن يعيش إلى الأبد . . فالفن له شهادة ميلاد وليس له
تصريح بالدفن !

(٩)

لحظة تاريخية لم يسعد بها إلا قليلون جدًا . . أن تسمع إلى محمد عبد الوهاب على العود
يقول : إنت عمرى . . وأم كلثوم تردد وراءه . . وهو يقول لها : الله ياسومة . . الله .
وتغنى هى : اللى شفته .
ويقول : الله ياسومة . . تانى ياسومة . . اللى شفته قبل ما تشوفك عنيه . . عمر ضايع
بحسبوه ازاي على . . اللى شفته .
لا أعرف كيف أصف ولا كيف أحكى . . ولا كانت معى كاميرا تصورنا معا . . وأنا
أقول : الله يا أستاذ . . الله ياست . . الله الله !
وبعد ساعتين من الأبدية . . من السعادة والهناء والنقاء والبهاء . . قال لى عبد الوهاب .
يا الله بينا .
- على فين .
- أنا ميت من الجوع .
- أنا شبع .
- يا نهار أسود . . وأنا اللى حا كل الأكل الخسران لوحدى .
- خسران ؟
- طبعاً . . أنت فكرك حد حيرضى يأكل الرقاق العجين خيك . . معمول لك مخصوص !
أنت الوحيد اللى بتأكل العجين والمظلل فى مصر كلها !
فأنا لا أكل أى طعام ناشف أو مقرمش . . أفضل الطعام العجين الذى ليس له صوت
بين الأسنان . . ولذلك فكثير من الأصدقاء يداعبوننى بأن يرسلوا الحلويات المعجزة . . لأن
أحدنا لن يأكلها غيرى !

وعندما جلست إلى المائدة كان الطعام كله ناشفا محمرا مقرمشا . . وقمت إلى الخفية
وبللت الخبز وأتوا بالشوربة ووضعتها فوق الرقاق . . وفي اليوم التالي جاءنى السكرتير يقول .
سفرجى الأستاذ عبد الوهاب عاوزك . .

قلت : يتفضل .

وجاء السفرجى فى مكتبى وفتح صندوقا وقال لى : الأستاذ بيقول آدى الشوربه وآدى
الرقاق تفضل حضرتك ضع كمية الشوربة اللى أنت عاوزها ١١ .

(١٠)

وأنا طفل كنت أغنى لمحمد عبد الوهاب . . فى الحفلات المدرسية . . وفى المناسبات
الاجتماعية أغنى متطوعا . وطلعت فى دماغى أن أكون مطربا . . ولم أكن أغنى إلا لمحمد عبد
الوهاب : خائف أقول اللى فى قلبى . . ياجارة الوادى . . ياابور قل لى . . ياورد . . أنت
وعزولى وزمانى . . الصبا والجمال .

وأنا طفل كان عندنا خادم وكنت أجد صوته جميلا فكنت أجلس فى البلكونة وهو يجلس
على الأرض ويغنى وكنت ألقى له بقوالب السكر والبرتقال والفطير . . كل يوم حتى منعتنى
أمى من الجلوس فوق والمطرب تحت . . فكنت أجلس إلى المطرب وأغنى له . . وكنت
أستعين لتكبير صوتى باستخدام غطاء ماكينة الخياطة وكان أسطوانيا خشبيًا فأضع رأسى فيه
وأغنى . .

وخائف أقول اللى فى قلبى من أحب الأغنيات وأعمقها أثرا لحلاوة اللحن والموسيقى
والكلام . .

وفجأة ظهرت بيننا اسطوانة صغيرة لأغنية خائف أقول اللى فى قلبى وياجارة الوادى . .
وأسهار بعد أسهار من الحان محمد عبد الوهاب وصوت فيروز . . وكان صوت محمد عبد
الوهاب واضحا بين الكورس . . كانت قبله سنة ١٩٦٣ . . وسمعتها مائة مرة . . ونقلتها
وتنقلت بها بين البيوت لئسمع الناس صوت عبد الوهاب وهو يردد وراء فيروز . . تصور عبد
الوهاب وراء فيروز .

وضاعت الأسطوانة . . أو ادعى أحد الأصدقاء أنه وضعها على مكتبى فى غيابى .
فسرقوها . ومعهم حق . . ولم يصدقنى عبد الوهاب . . فأقسمت له . وكنت صادقا فقد استولى
عليها المرحوم كامل الشناوى وراح يداولها بين الناس . . واختفت الأسطوانة . . وادعى كامل
الشناوى أننى « اقتبست » الأسطوانة - أى سرقتها . . وأقسمت . وغضبت : فما كان من

محمد عبد الوهاب إلا أن قال لي : ولا يهمك . . عندي أسطوانة أخرى أحسن وأجمل . صوت فقط ومن غير موسيقى . . وإذا سمعتها فسوف تطير في السماء . . اسمعها الآن .

ووضعت الساعة على أذني : الله يا أستاذ . . الله . . يا عظمة . . الله . . الله . . وبسرعة ذهبت إلى محمد عبد الوهاب وقلت له : تتصور أني وجدت الأسطوانة في تابلوه السيارة . . إنه مقلب !

فضحك عبد الوهاب وهو يقول : وهذا مقلب أيضًا . . فأنا كنت أغني لك بالقرب من التليفون . . فقلت مقلب ومقلب . . خالصين . . هاها . . هاها .

* * *

يرحمه الله لقد أسعدنا عشرات السنين . . أسعد مئات الملايين . . وسوف تظل سعادتنا ما دام فنه الجميل حيا بيننا !

إلا الكلام عن الموت !

كان محمد عبد الوهاب يكره الكلام في موضوعين : الفلوس والصحة - فلوسه هو وصحته هو ..

أى كم عنده من الفلوس ؟ وهو رجل بخيل ، وله أصدقاء من الملوك والأمراء يتفقون على رحلاته وجلساته .. وكم يكسب من وراء ألحانه واسطواناته ؟ وكيف احتفظ بصحته هذه ؟ البشرة وردية والذاكرة قوية .. هل هو الطعام المسلوق ؟ هل هو النوم الهادئ ؟ هل هو نقص الهموم ؟

ولذلك كان إذا تحدث أحد عن الفلوس والصحة ، فإن محمد عبد الوهاب بسرعة يغير مسار الحديث حتى لا يدور حوله ويخفقه .. ولذلك يهرب من المكان لأى سبب أو يدفع أحدًا لأن يحكى حكاية أو يثير قضية ، حتى لا يكون محمد عبد الوهاب موضوعًا للبحث وإن كان يجب أن يكون مدارًا للإعجاب وعظيم الاحترام .. أو هو يسرح بعيدًا ..

وأنا أشارك محمد عبد الوهاب فى خاصية (السرحان) .. فأنا أيضًا أسرح ، ويكون السرحان نوعًا من الهرب من سخافة الكلام أو انشغالًا بها فى داخل من الكلام .. فهو نصف مستمع أو ربع منتبه أو ليس هنا على الإطلاق .. والسرحان نعمة وإن كان بعض الناس يتضايقون من ذلك ويرونه نوعًا من اللامبالاة أو الإهمال . ولذلك تعلمت شيئًا آخر هو التظاهر بالاهتمام الشديد .. مع أننى لا أعى شيئًا مما يقال ، ولولا ذلك لنفدت طاقتى ولم يبق منها شىء أقرأ أو أفكر به ..

وكان محمد عبد الوهاب أستاذًا فى ذلك .. فهو « يدندن » .. وتكون الدندنة هى القدر المقبول عند الناس جميعا ..

وتزداد الدندنة علوا إذا دار الكلام حول الموضوعات التى يكرهها ، ولا يعرف كيف يدلعها بعيدا عنه ..

وأم كلثوم ومحمد عبد الوهاب وعبد الحليم حافظ يؤمنون بالحسد .. أم كلثوم بنت بلد ريفية تقول في سرها : الآيات القرآنية : « سلام قولا من رب رحيم » .. « فأغشيناهم فهم لا يبصرون » .. « ومن شر حاسد إذا حسد » ..

وكان محمد عبد الوهاب إذا أحس بأنه هدف للحسد فإنه يدندن .. أو يتمتم .. ثم يختفى في غرفته ليقرأ القرآن الكريم .. أو يردد دعاء قد حفظه عن شوقي أمير الشعراء ..

أما عبد الحليم حافظ فكان يضع الأحذية في جيبه .. وأحيانا حول رقبته .. وقد أعطاه حاخام فرنسي حجابا من جلد الغزال عليه كلمات عبرية .. والحاخام هو الذي قال لعبد الحليم حافظ : احترس من واحدة اسمها أم أمين ..

ونقلت هذه الحكاية عن عبد الحليم حافظ وأنا لا أعرف من هي « أم أمين » .. ثم اكتشفت لسوء الحظ أنها السيدة الفاضلة حرم الأستاذ محمد الموجي . وقد طلب عبد الحليم حافظ من أخته أن تغير مفارش السرير وكل غرفة النوم ، خوفا من أم أمين - وكلها نصائح الحاخام الإسرائيلي الذي قدمه بليغ حمدي لعبد الحليم حافظ أيام كان مريضا في باريس ؟!

وفي ذلك الوقت كان الخلاف شديدا بين بليغ حمدي ومحمد الموجي !

وكان محمد عبد الوهاب يتضايق من الإخوة اللبنانيين إذا رأوه يأكل بشهية مفتوحة أن يقولوا له : صحتين !

ولم يكن قصدهم من هذه التحية الشعبية أن محمد عبد الوهاب يأكل كما يأكل رجلان ، أو ليس في صحة جيدة واحدة وإنما في صحتين .. لا شيء من ذلك .. وإنما هي عادة عندهم كأن يقولوا : مرحبتين .. أهلين .. صحتين !

ولكن بسبب إحساس محمد عبد الوهاب أن الناس يحسدونه على صحته ، كان يضيق بمثل هذه التعبيرات التي ظهرت على أهل سوريا ولبنان من مئات السنين !

وأذكر أنني قلت لمحمد عبد الوهاب ولم أكن حاسدا : أنا أقول لك يا أستاذ .. أنت لست مريضا بالبرد .. وإنما أدوية الوقاية من البرد هي التي ترهقك .. إنها الوقاية وليس المرض .. تماما كما يحمل إنسان شمسية كبيرة وثقيلة ويمشي بها في الشارع للوقاية من الشمس : فالعرق الذي على وجهه ليس سببه الشمس .. وإنما المجهود الذي يبذله في حمل المظلة التي تقيه من الشمس !

وبدا محمد عبد الوهاب يدندن فعرفت أنه ظن أنني أحسده .. مع أنني لم أكن مشغولا بصحته ، وإنما بتفسير الذي يصيب محمد عبد الوهاب عند قدوم الشتاء من كل عام .. وهو ما يصيبني أيضا .. وقد ظلمت المريض النموذجي للدكتور محمد عبد الوهاب .. هو الذي

يعالجنى من البرد . . أو من الخوف من البرد . . وهو الذى يبعث لى بالحبوب والحقن الحديثة التى استخدمها قبل . . ويريدنى أن استخدمها وأن أصف له تماما ما الذى أصابنى بسببها حتى يستفيد من تجربتى !

وفى يوم قلت لمحمد عبد الوهاب إننى لم أعد فى حاجة إلى هذه العقاقير للوقاية من البرد فقد وجدت مشروبا ألمانيا أفضل . . ولكنى أعطيت العقاقير للشاعر كامل الشناوى فظهرت عليه أعراض الأنفلونزا . . وكان محمد عبد الوهاب فى بيروت . . فلم ينم له جفن . . وظل يطلب جميع أصدقاء كامل الشناوى فى التليفون ويسألهم عن صحته . . ولم يسأله هو . . واختلعت الحكايات عن سبب إصابة كامل الشناوى بالأنفلونزا إلى أن قالت له أم كلثوم . يظهر واحد دكتور حمار أعطاه دواء لمنع الحمل . . هاها . . هاها !

ولم يجرؤ محمد عبد الوهاب أن يسأل كامل الشناوى عن الذى أصابه . . وإنما راح يشيع أنه كلما طلب كامل الشناوى انقطع الخط . . إلى أن طلبته أم كلثوم وقالت له : كامل الشناوى عندى ويريد أن يسلم عليك . .

ودار هذا الحديث بينهما :

كامل الشناوى : أزيك يا محمد . . الأنفلونزا عاملة معاك إيه ؟
- ليس عندى أنفلونزا . .

- ولكن الدواء الذى بعثت به لأنيس منصور مكتوب عليه أنه يصيب بالأنفلونزا لمدة ثلاثة أيام وبعد ذلك لا يصاب الإنسان بالأنفلونزا لمدة ثلاث سنوات . . آه . . مكتوب عليه كده . . ألم تأخذ هذا الدواء بعد ؟ . .
محمد عبد الوهاب :

كامل الشناوى : آلو . . يا محمد . . جرى إيه ؟ مالك ؟ خلاص ما دمت لم تصب بالأنفلونزا فهى لن تصيبك إلا بعد ثلاث سنوات . . آلو 11

ولكن محمد عبد الوهاب أصابه الفزع ولم يعد قادرا على الكلام . ولم يفلح كامل الشناوى فى إقناعه بأنها مداعبة !

أما خوفه من الحرب فلا نهاية للحكايات التى تروى عن محمد عبد الوهاب . . فقد حدث فى حرب ١٩٦٧ أن فكر محمد عبد الوهاب فى أن يهرب إلى أى مكان فى الدنيا . . ولكنه لم يجرؤ على ذلك . . وفى يوم اتفق كامل الشناوى مع المذيع الشهير جلال معوض أن يسجل شريطا بصوته فيه نشرة الأخبار . . وفى هذه النشرة أن قوات من المظلات مجهولة نزلت من الطائرات فوق الزمالك . . وبالقرب من بيت الموسيقار محمد عبد الوهاب . . وفى يوم كان محمد عبد

الوهاب يركب سيارة عبد الحلیم، وأدار عبد الحلیم حافظ الشریط . . وفى الموعد المحدد لنشرة الأخبار كان جلال معوض بصوته القوى الرهیب يعلن آخر الأنباء . . وفقد محمد عبد الوهاب صوته . . وأشار إلى عبد الحلیم حافظ أن يتوقف بسيارته وأن يعود إلى أى مكان خارج القاهرة . . وذهب لون محمد عبد الوهاب . . وكنا نحن فى سيارات متعددة وراء سيارة عبد الحلیم حافظ . . ولما وجدنا نضحك لهذا المقلب . . تضايق . . ولم نفلح فى تهدئة محمد عبد الوهاب !

* * *

أما أخبار الموت فمن الصعب أن يستمع إليها محمد عبد الوهاب . . وإذا أراد أحد أن ينقلها إليه فيجب أن يعمل لذلك ألف حساب .

وفى يوم دعانا محمد عبد الوهاب إلى العشاء عنده . . وكنا نعلم أنه ليس لديه طعام كاف . . فاتفقنا - كامل الشناوى وكمال الطویل وعبد الحلیم حافظ وكمال الملاح وأحمد رجب وأنا - على أن نهرب من هذه الولیمة الوهمیة وأن ندعوه لتناول العشاء فى أى مكان آخر . . أو نحمل إليه طعاما وندعوه لتناول العشاء معنا .

وكان المفروض أن نؤكد له جميعاً أننا قادمون . . ولم نتصل به . . فقام هو واتصل بنا ، ولم يجد أحداً . . وأخيراً وجدنى وسألنى إن كنا ستجىء فى الموعد المحدد ليلاً فقلت له . طبعاً . . والله يا أستاذ اليوم كان يوماً فظیعا . . فقد سرنا فى ثلاث جنازات وسرنا وراء ثلاثة نعوش . . وأعصابنا . . وحالتنا النفسیة . . آلو . . آلو . .

لقد ترك محمد عبد الوهاب السیاحة إلى جوار التلیفون . وأسعدنى ذلك . واتصلت ببقیة الأصدقاء وقلت لهم : لا عشاء فى بیت محمد عبد الوهاب !

وأخذنا طعامنا معنا . . وذهبنا فى الوقت المتفق علیه إلى بیت عبد الوهاب . . وهناك قال لنا الخادم : ولكن الأستاذ سافر إلى الإسكندریة !

* * *

ولما ماتت أم كلثوم كانت الحالة النفسیة لمحمد عبد الوهاب سیئة جداً . . ففى الصبح الباكر قال له أحد الأصدقاء : حیاتك الباقیة يا أستاذ . . لقد ذهب العظماء جميعاً . . فلم یبق إلا أنت . . ربنا یعطیک طولة العمر ! وكان هذا الدعاء كافياً لأن یعتكف محمد عبد الوهاب فلا یرى ولا یسمع أحداً من الناس !

ولكن كان لابد أن یقول وأن یعلق وأن یریدى حزنه على عظیمة الغناء العربى . وقال كلاماً جمیلاً . . إلى أن قال له زمیل صحفى : أظن يا أستاذ أنت برضه مبسوط ولو قليلاً !

-إزاي ؟-

-يعنى أم كلثوم كانت منافسة قوية لك على عرش الطرب !
- هذا صحيح .. كما أن العبط منافس لك على عرش الصحافة !

* * *

ولما مات عبد الحليم حافظ كان حزن محمد عبد الوهاب عظيما . فقد كان عبد الحليم حافظ أجمل الأصوات العربية وأرقها وأعمقها وأكثر حزنا وأسى .. قال لى محمد عبد الوهاب : هذه خسارة قومية .. وخسارة شخصية .. هل تعرف كم عدد الذين ماتوا بالبلهارسيا ؟ لا أحد يعرف .. ولكن أشهر المصابين عبد الحليم حافظ .. لو عرفت هذه الدودة الحقيرة أى جوهرة أكلت من الداخل .. لو عرفت مدى فداحة الفن ، لترفت بنا وتركت لنا عبد الحليم حافظ الذى لن تعوضه مصر بعد مائة سنة !

وكنا عشرة نجلس حوله .. وتبارى الجميع فى وصف أخلاقيات وذكاء عبد الحليم حافظ .. وفجأة قال واحد منا : ولكن عبد الحليم حافظ تعلم منك الكثير .. حب العمل والتفانى فيه . ولكن لم يتعلم منك الحرص على صحته .. فهو يسهر كثيرا وينام قليلا .. لقد كان وجهه فى الأيام الأخيرة .. لقد كانت عيناه .. يده .. نظراته .. لفتاته ..

وهنا أحس محمد عبد الوهاب أن المقارنة بين صحته وصحة عبد الحليم حافظ ، فبدأ يندندن ويقرأ : « قل أعوذ برب الناس » .. « ومن شر حاسد إذا حسد » .. ثم أوى إلى غرفته وبعث لنا بمن يعتذر عنه بسبب وعكة مفاجئة .. ولم نكن قد أكملنا نصف الساعة فى جلوسنا معه !

ولما توفيت فائزة أحمد طلبت محمد عبد الوهاب فى فندق الانتركونتيننتال فى باريس : آلو .
- أنا نهلة .. إزيك ..

-إزيك انت .. أين الأستاذ ؟

- سوف أوقفه حالا .. إنه يبحث عنك منذ أمس .. وسأل إن كنت ستمر علينا فى باريس .. إنه ينتظرك .. وقد حجز لك الغرفة المجاورة لنا .. لحظة واحدة ..

محمد عبد الوهاب بصوته المتميز يقول : هالو ..

- أهلا يا أستاذ ..

- حبيبى .. أهلا يا حبيبى .. أنت زعلان من باريس وإلا إيه ؟

- أنا أقدر !؟ إن سحر الدنيا كله فى باريس !

- إذن فأنا في انتظارك . . حجزت لك الغرفة المجاورة . . وإذا كنت عاوز جناح أحجز

لك . . بس قل لى إمتى حتيجى . .

- أنا مسافر إلى لندن ، وبعد ذلك سوف اتصل بك من هناك . . وأقول لك على الموعد . .
يا أستاذ ماتت فائزة أحمد تعيش أنت ! وكنا نتوقع ذلك . وأنا أعرف أنك كنت على اتصال
يومي بها . . هيه قالت لى امبارح وأول امبارح . . ولابد أنك كنت تتوقع ذلك . . الأعمار بيد
الله . . الله يرحمها . . خسارة فادحة . . وقد تعذبت فى الأيام الأخيرة . . وكنت أراها وأزداد
حزنا عليها . . فهمى لا تعلم بالضبط ما الذى تشكو منه ؟ ولا ما هو مرضها ؟ وحتى عندما
بدأ شعرها يتساقط بسبب العلاج الكيميائى اقتنعت بأن شعرها يسقط لكى ينبت شعر جديد
أسود وسوف يكون أطول وأجمل . . كانت تروى ذلك وهى على يقين تماما . . الله يرحمها . .

وسكت محمد عبد الوهاب ولم يرد . . ولكنه قد تدرب على الحديث مع الصحفيين من كل
لون وحجم . . ويعلم أن كل كلمة سوف يقوها فهمى للنشر . . ولذلك ظل يفكر فى كل
الذى يقول . . وقال لى : إن فائزة أحمد هى إحدى محطات إطلاق الصواريخ . . انطلقت
منها إلى السماء والدوران حول الطرب العربى . . إنها فتاة فيها صدق الفنان وكبرياؤه
وجنونه . .

وبعد أن انتهى تأييد محمد عبد الوهاب لفائزة أحمد فى التليفون تغيرت نبرة صوته تماما وقال
لى : هه . . متى تحبىء إلى باريس ؟ سوف نجد هنا عددا من أصدقائك . . ومحببك . . وهنا
المكتبات والاسطوانات وهنا الفن والجمال والحضارة . . ما رأيك ؟ . . إلخ . .

وكانت تجلس أمامى المذيعة المشهورة نادية صالح . . وكانت قد جاءت لتجربى حديثا
معى عن فائزة أحمد . . ولكنى لم أكن قادرا نفسيا على أن أقول لها شيئا . . فأنا أحببت صوت
فائزة أحمد ، ولا أزال أرى أنه أجمل صوت بعد أم كلثوم . . وكذلك كان رأى أم كلثوم . .

وقلت لنادية صالح : عندك سبق صحفى . . سبق إذاعى عالمى . . إليك التسجيل
الكامل لحديثى مع عبد الوهاب عن فائزة أحمد !

فمحمد عبد الوهاب خبير بمثل هذه الأحاديث . . فبعد أن قال ما يعلم علم اليقين أنه
سوف ينشر فى الصحف ، تكلم عن الموضوعات التى لن تنشر . . ولكن بصوت آخر ونبرة
أخرى . .

* * *

محمد عبد الوهاب مثل توفيق الحكيم لا يحب أن يقول : إنه يقرأ لفلان من الأدباء أو
الشعراء ، حتى لا يتهمة أحد بالسرقة . .

وعبد الوهاب لا يذكر موسيقارًا عالميا واحدا ، حتى لا تشير الأصابع إلى أن محمد عبد الوهاب قد أخذ عبارة من بيتهوفن في أغنية أحب عيشة الحرية . . أو عبارة من أوفنباخ أو موتسارت أو فردى أو غيرهم في كثير من أغانيه . .

ولم ينقذ توفيق الحكيم من الهجوم العنيف عليه واتهامه بالسرقة إلا الرئيس جمال عبد الناصر . فعندما ذهب إلى روسيا وجد أن الروس ينسبون كل الاختراعات التي في الدنيا إلى علماء روس . . مع أنها اختراعات ألمانية وفرنسية وأمريكية . . فلما عاد من روسيا وجد الحملة ضارية على توفيق الحكيم ، فأمر بوقفها فوراً قائلاً : إن الروس يضيفون إلى حسابهم كل ما اخترعه العالم ، ونحن نجرد توفيق الحكيم من كل شيء . . ونضيفه هو إلى العالم ، ونحذفه من تراث مصر . . فالروس يزعمون أنهم الذين اخترعوا الطائرة والراديو والتليفون والقطار والصواريخ ونحن نعلم أنهم الأمريكيان والإنجليز والألمان !!

وكان على حق !

ولكن الرئيس عبد الناصر لم يتحرك لحماية محمد عبد الوهاب من الحملة الضارية الظالمة للأستاذ الكبير محمد التابعى . . سلسلة من المقالات الطويلة بعنوان « فن حرامية » . . يعنى محمد عبد الوهاب هو الحرامى الذى سرق كل أغانيه وموسيقاه من الشرق والغرب . . وقد نقل الأستاذ التابعى ومن ورائه صحف أخبار اليوم ، كل ما يقوله الملحنون الشبان والحاقدون على محمد عبد الوهاب . . وكانت حملة الأستاذ التابعى معناها : أن محمد عبد الوهاب لص . . وأنه يقتبس بعنف . . ودارت المناقشات حول حدود الاقتباس المشروع ، والاقتباس غير المشروع ، أو ما هى حدود الاقتباس ؟ وما هى حدود السرقة ؟

ويقال إن حملة التابعى ضد محمد عبد الوهاب كانت شخصية . . وقيلت أسباب تافهة جدا !

وكتبت مقالا أَدافع فيه عن محمد عبد الوهاب . واتهمت الأستاذ التابعى بالظلم . . وإن محمد عبد الوهاب رجل مثقف ورجل مؤرخ أيضًا وكذلك توفيق الحكيم . . وإنه يتأثر بالموسيقى حوله . . وينقل ما يعجبه ويربطنا بالغرب في عبارة سهلة جميلة . . وإن محمد عبد الوهاب يمثل مرحلة الترجمة في الموسيقى العربية كلها . . وإنه ليس من الطبيعى أن يظهر في مصر بيتهوفن ما دام لم يظهر فيها فلاسفة من مثل كنت ونييتشه وشوبنهاور ، ولم يظهر فيها ساسة من طراز بسمارك وهتلر ، وعلماء من طراز همبولت وإينشتين . . ولذلك يجب ألا نطلب من محمد عبد الوهاب أن يكون بيتهوفن . . فهذا غير طبيعى . . تماما . . كما نلقى بدور الصنوبر والبلوط في صحارى مصر ونتوقع منها أن تثبت وتزهر وتثمر !!

وكانت حملة عنيفة جدا . . وكان محمد عبد الوهاب في غاية الضيق . . ولكنه قال : إن ما

يكتبه محمد التابعى بهم بعض القراء ، أما الذين يتذوقون الغناء والطرب فعندهم طلب واحد : هو أن يقدم لهم التابعى ألحانا بصوته لا تتأثر بالشرق أو الغرب !!

وماتت الحملة ضد محمد عبد الوهاب ، وعاشت ألحان محمد عبد الوهاب . . مرحلة غنية حية من مراحل الغناء والموسيقى المصرية .

وفى ذلك الوقت نشط أساتذة ومؤرخو الموسيقى الغربية . وقالوا إن محمد عبد الوهاب مطرب وليس موسيقيا . بل ليس فى مصر موسيقار واحد . . فأساس الموسيقى عندنا هى الألحان . . أما الموسيقى الغربية فهى بناء هندسى معمارى فخيم ، وذلك ما لم نعرفه فى مصر . وإنما الأوروبيون فقط !

وذهبت ضوضاء المؤرخين وبقي محمد عبد الوهاب : الموسيقار المطرب الملحن الفنان الشامل !

* * *

ومحمد عبد الوهاب مثل أم كلثوم . . يعتمد فى ثقافته على السماع . . أى على الذى يقال حوله فى الصالونات . . ولأن محمد عبد الوهاب ضعيف النظر ، فهو يعيش بأذنيه . . وهو يحب أن يعرف . . ولذلك فهو يسأل رجال الدين ورجال السياسة والأدب والفن والفلسفة . . فهو يكلم رجال الدين عن السياسة ورجال السياسة عن الدين ورجال الفن عن الفلسفة . . وهو حريص على أن يبدو مختلفا . .

ولكن محمد عبد الوهاب ينظر إلى كل معلوماته التى يتلقاها على أنها كلام قابل للتلحين . . فهو يسمع ما يقال ثم يديره فى رأسه ويقلبه ويبدله ويغير فيه . . ويضيف إليه من عنده ويكرر ذلك كثيرا . . ولأنه يكرر ذلك فإنه ينسى من قال هذه المعلومات المختلفة . .

وكان محمد عبد الوهاب يطلبنى فى ساعات متأخرة من الليل ليقول لى رأيا فى إحدى النظريات الفلسفية . . وكنت أندهش لذلك . . فمحمد عبد الوهاب ليس فى حاجة إلى معلومات فلسفية . . وإذا لم يقرأ عن الفلسفة فلا ضرر من ذلك . . ولن يقلل من قيمته أنه لا يفهمها . . كما أننى لا أشعر بأننى دون خلق الله إذا لم أفهم نظرية النسبية أو نظريات نشأة الكون ؛ فالعلوم محيطات واسعة ومن المستحيل الإلمام بها . . ولا أحب لمحمد عبد الوهاب أن يحشر نفسه فى نظريات الفلسفة . . أنا أعرف وهو يعرف أنه محدود المعلومات . . وأن الذى يعجبنا فى محمد عبد الوهاب هو صوته وذوقه الموسيقى . . وليس أى شىء آخر . .

وفى يوم ضايقتنى جدًا وتحيرت ما الذى أقوله له ، وأخيرًا قلت له : هذا موضوع صعب ومتخصص جدًا . . وأنا أحتاج إلى مجهود كبير لكى أجعله سهلا مثل عباراتك الموسيقية . .

وضحك محمد عبد الوهاب وقال : ياسيدى افرض أنتى حمار .. هاها .. هاها !

وتضايقت أكثر .. وقررت أن أشرح له .. وأنا أعلم أن هذا الكلام سيجعله بلا نوم حتى الصباح : اسمع يا أستاذ .. إذا نحن وقفنا إلى جوار طفل بعد ولادته بلحظات .. فلا أحد يستطيع أن يتنبأ بأنه سيكون محمد عبد الوهاب أو العقاد أو شوقي .. طويل العمر أو قصير العمر .. سليماً أو مريضاً .. غنياً أو فقيراً .. لا أحد يستطيع أن يقطع بذلك .. ولكن شيئاً واحداً يمكن أن نقوله ونحن على يقين من ذلك وهو : أن هذا الطفل سوف يموت .. فالموت هو الحقيقة الوحيدة المؤكدة في حياتنا .. وأنا وأنت سوف نموت بعد يوم .. بعد سنة .. الآن .. أو بعد دقائق .. فالموت هو الحقيقة .. آلو .. آلو .. يا أستاذ !

ووضع محمد عبد الوهاب الساعة إلى جوار التليفون وذهب يتلو القرآن حتى الصباح !

* * *

وفي إحدى المرات ذهبنا لتناول الغذاء ومعى صديق سفير لمصر في إحدى الدول الآسيوية .. وأسمعنا محمد عبد الوهاب لحناً جديداً .. وأسعدنا ذلك .. وفجأة فتح محمد عبد الوهاب موضوعاً غريباً عن سرعة الضوء في الكون .. وأن الضوء هو أسرع شيء في الكون .. وأن هناك علماء يرون أن الضوء ليس أسرع شيء في الكون .. وإنما هناك نشاط إشعاعى أسرع .. وإن في القرآن الكريم آيات تدل على ذلك .. وإن هذه الآيات لا يتذكرها الآن .. وإن الإنسان أصله قرد .. وهناك نظريات أفضل من نظريات دارون في علاقة الإنسان بالقرد .. وإن هذه النظرية لا تخالف الأديان كلها ..

وكلها موضوعات من الصعب أن يقطع فيها الإنسان برأى .. فلا هو من علماء الفيزياء والرياضيات ولا هو من علماء السلالات الإنسانية .. ولا أحد يريد أن يسمع محمد عبد الوهاب المفكر المثقف الذى يعرض علناً قضايا خلافية حادة بين علماء الدنيا ..

وأخيراً اهتديت إلى الحيل التقليدية التى تجعل محمد عبد الوهاب يسكت بسرعة .. قلت له : تعرف يا أستاذ .. أنا نسيت أن أقدم لك السفير حمدى المنشاوى سفيرنا فى أندونيسا .. وهو من أسرة دينية وعنده شفافية روحية عجيبة .. فقد همس فى أذنى فى الدقائق التى جلسنا فيها وحدنا هنا فى الصالون فى انتظار حضورك أن فى البيت ٥٦ عفريتاً .. نصفهم من الإناث .. وهم جميعاً - الآن - يرددون أغانيك .. ومن العجيب أنهم كانوا يرددون عند دخولنا أغنية : النيل نجاشى .. حليوه أسمر .. عجبنى لونه .. ذهب ومرمر .. أرغوله فى إيدىه يسبح لسيده .. وأن السفير قد عرف المقعد الذى تجلس عليه .. لأنه رأى تسعة من العفاريات يجلسون حوله .. ثمانية على الكرسي .. وواحدة تجلس عند قدميك .. ومن

الغريب أن العفاريت قد عادوا من دفن واحد منهم . . وصديقي يسألني إن كنت تحب أن ترى واحدا منهم الآن ؟

أما الصورة التي كان عليها محمد عبد الوهاب فدعني أصفها لك : لقد ارتدى محمد عبد الوهاب قميصًا وينطونًا وكان مشرق الوجه . . ولكن بدأت الخلايا المضيئة في وجهه تنطفئ واحدة واحدة . . حتى شحب الوجه كله . . وظهرت قطرات من العرق . . وارتد إلى الوراء ومدد رجله إلى الأمام ونظر ناحيتنا كأنه يتساءل لماذا جئنا ؟ ومتى سننهض إلى غير رجعة ؟ وإن كان الذي يقوله السفير صحيحًا ؟ وإذا كان صحيحًا فكيف يأخذ معه كل هذه العفاريت إلى خارج البيت . . فليس في حاجة إلى المعجيين من العفاريت !

وبعد لحظات طويلة قال محمد عبد الوهاب كأنه يتكلم من تحت الماء : كيف تموت العفاريت . . إن الشيخ المراغي شيخ الجامع الأزهر قال لي مرة : إن العفاريت لا تموت . . لأن حياتهم الطويلة هي سلسلة من العذاب الذي لا ينتهي إلا يوم القيامة !

قلت : يا أستاذ لقد جاء صديقي السفير لأنه من أشد الناس حبا لك . . لقد جاء ليخلص البيت من كل هذه العفاريت . . أما حكاية العفريت الذي مات هنا ودفن في إحدى الغرف . .

ونفض عبد الوهاب واقفًا : يا نهار أسود ومظين . . عفريت ميت هنا ؟ ألم يجد مكانًا آخر ؟ وطبعًا سوف يجيء ملايين العفاريت من كل الدنيا لزيارة قبره وقراءة الفاتحة على روحه المهيبة !

. . ولم ينس محمد عبد الوهاب هذا المقلب !

يرحمه الله . . أما فنه فباق . . ما دام هناك طرب وموسيقى وذوق . . أما الإنسان الظريف اللطيف ابن البلد الصديق الودود والطبيب المتطوع لعلاج كل أوهام البرد والزكام ، فهو الذي لن نسمع له بعد اليوم كلمة : هالو . . يقولها بطريقة خاصة متميزة . . فقد كان محمد عبد الوهاب حريصًا على أن يختلف عن كل خلق الله . . قولاً ووهماً وفعلًا ولحناً !

فريدريش ديرنمات : فى البدء كانت النكتة !

فى يوم جاءنا الأديب العظيم مالرو وكان وزيراً للثقافة الفرنسية وأقام له د. عبد القادر حاتم حفل غداء . وألقى كلمة قال فيها : إنه من محاسن الصدف أن ظهرت الترجمة العربية اليوم لرواية « المشوار الطويل » من ترجمة الأديب فؤاد كامل عبد العزيز وهى من أروع أعمال مالرو عن ثورة الصين . .

فقلت للدكتور حاتم : أنت أعلنت عن عمل عظيم لمالرو ، وعن غلطة عظيمة لك . .
فسألنى ما هى ؟ قلت : إنك لم تستأذن فى الترجمة ولم تعطه حق الأداء العلنى !

* * *

وفى أول لقاء لصديقى الأديب الإيطالى البرتومورافيا قلت له : من محاسن الصدف أن تظهر اليوم بعض قصصك بالعربية من ترجمة الأديب حلمى مراد .
فأخرج مورافيا قلماً وورقة ليكتب اسم المترجم ودار النشر . فسألته : ولماذا ؟ قال : لكى أحصل على حقى كمؤلف !

ثم أخذ القلم كأنه سيجارة رديئة لها رائحة كريهة عندما قلت له : ولكننا لم نوقع يعد على اتفاقية برن التى تعطيك أى حق . . فنحن أحرار نترجم . نفتبس . . نسرق ولا ينطبق علينا أى قانون . . تماماً مثل روسيا وأمريكا ! .

ولما قابلت صديقى الأديب السويسرى فريدريش ديرنمات فى الفيلا الجميلة التى يسكنها على سفح جبل فى مدينة نيوشاتل قلت له : إن مسرحيتك « علماء الطبيعة » قد ظهرت على المسرح . وهى من ترجمة د. عبد الرحمن بدوى .

. كان سعيداً جداً . وكتب اسم المترجم واسم المسرح الذى ظهرت عليه . .

ولما وصلت إلى القاهرة وجدت الناشر السويسرى قد بعث بخطاب طويل إلى وزير الثقافة

المصري يطالب بحق الأداء . . ولكن المسرحية عادت علينا بخسارة مادية . . فالمسرحية فلسفية جادة ، ولم تلق ترحيبًا ولا إقبالًا في مصر . .

ولم تشأ وزارة الثقافة المصرية أن تقول هذه الإهانة . والتزمت الصمت . وكان الصمت إهانة له . . بينها خسارة المسرحية إهانة لنا ! .

ودخل اسم ديرنيات في عالم الثقافة المصرية كشئ غريب . . وقد تصوره بعض المثقفين أدبيًا لا معقولًا . . مثل يونسكو وبيكت وغيرهما . ولكن اسم ديرنيات انتشر ، دون أن تكون لدى أحد أية معلومات كافية عنه . .

حتى إن الكاتب الساخر أحمد رجب قد « فبرك » مسرحية من فصل واحد باسم « الهواء الأسود » وراح يعرضها على المثقفين المصريين لإبداء الرأي فيها . فكان إعجابهم بها شديدًا جدًا . وعلى الرغم من أنها نكتة . . فإن المسرح القومي في بغداد قد عرضها على أنها أحدث أعمال الأديب السويسري ديرنيات . .

وترجمت أنا لديرنيات مسرحيات ، رومولوس العظيم بطولة صلاح منصور وزوز نبيل . . وزيارة السيدة العجوز . . وهبط الملاك في بابل . . وزواج السيد مسيسى . . وفرائك الخامس . . والشهاب بطولة د. إبراهيم سكر وظهرت على مسرح الجيب . . ثم ظهر تمصير لمسرحية هبط الملاك في بابل بعنوان « سلطان زمانه » بطولة عبد الله غيث . .

وترجمت له عددًا من الروايات أيضًا ، يوناني يتزوج يونانية . . والمحاجر . . والجلاد . . وأصدرت عنه دراسة ظهرت في مجلة « الاتجاهات الأدبية » في سويسرا موضوعها . « ديرنيات عربيًا » . .



كان الطريق إلى بيت ديرنيات ثعبانيًا . ولا يمكن إلا أن نكون في حالة من الرعب . . فالطريق صاعد والأتوبيس - لا شئ غير الأتوبيس - سريع جدًا ويتلوى وينكسر والأتوبيسات القادمة يكاد يصطدم بعضها ببعض . ولكن لم يقع حادث واحد من خمسين عامًا . . والوادي سحيق . . وكان الخيار أمامي : إما أن أتوقع صدمة من الأتوبيس القادم . . وإما أن أتوقع دحرجة هذا الأتوبيس إلى مئات الأمتار بين الغابات . . فاخترت أن أرى الأتوبيسات التي لها شكل القذيفة وسرعتها . .

ولم نجد أحدًا نسأله : أين يسكن فريدريش ديرنيات (٦٩ عامًا) . . ومضينا على أقدامنا في طريق محفوف بالغابات . . والصمت بارد . . والبرودة منعشة . . وأخيرًا وجدنا سيدة قالت : ديرنيات ينتظرك ! .

وكان يرافقنى سفيرنا فى سويسرا صديقى المرحوم توفيق عبد الفتاح . . الذى شاء تواضعه العظيم أن يقوم بدور المصور لنا . .

فريدريش ديرنيات . قصير القامة . دماغه كبير مستدير مثل كرشه تماما . . وصوته منخفض غليظ . . قبيح ؟ نعم . . ومنظاره كبير . . وكأنه طفل قادننا إلى الغرفة التى يكتب فيها . . فهو رسام أيضًا . . ولذلك فالمنضدة التى يكتب عليها هى منضدة رسم . . وهو يرسم شخصياته بالفرشاه قبل أن يكتب عنها . . ولذلك فكل مسرحياته قد امتلأت بالرسوم الكاريكاتورية . . والغرفة لها نافذة زجاجية واحدة . . الحائط كله من الزجاج يطل على الغابات وعلى المنحدرات الجبلية . . وليس فى الغرفة إلا عشرات الأقلام والفرش . . لقد رأيت مثل هذا المنظر من قبل فى بيت الأديب الأمريكى همنجواى فى مدينة هافانا بكوبا . فقد أدهشتنى الأقلام الرصاصية الكثيرة جدا . والأحذية الكثيرة جدا على الأرض . . تماما كالأساذ العقاد الذى تغطت غرفة نومه بالأحذية الواسعة لأنه يضيق بالأحذية الضيقة . .

ثم قال لنا إن هذه الفيلا الصغيرة قد أعدها للقراءة والكتابة . . وأشار إلى الطابق العلوى فقال : إنه للكتب والقواميس . . أما فى غرفة الكتابة فلا يوجد كتاب واحد . . ثم قال إن هناك فيلا أخرى للأسرة . . للزوجة والأولاد والضيوف . . وبين فيلا الكتابة وفيلا النوم يوجد حمام سباحة صغير . . وكأنه يتحدث إلى نفسه فقال : إنه عندما يكون مشغولا بفكرة مستعصية عليه ، فإنه يستحم . وبمجرد نزوله إلى الماء ، فإن الفكرة تتولد . . كأن أفكاره نوع من السمك لا يعيش إلا فى الماء . . وحتى لا يخرج من الماء ليسجل هذه الفكرة فإنه قد ابتدع لنفسه منضدة عائمة . وعلى المنضدة توجد ألواح من البلاستيك يسجل عليها أفكاره وهو فى الماء . . وقد اخترع له أحد أصدقائه أقلاما يمكن أن تكتب فى الماء . . وقد اخترع له حبرا إذا تبلل بالماء فإنه يثبت على أى سطح حتى لو كان معدنيا . .

أما زوجته الأولى فهى ممثلة . وقد توقفت عن التمثيل واكتفت بقراءة مسرحياته وإبداء الملاحظات عليها . ومتابعة ظهورها على المسرح واتفاقها مع الممثلين والمخرجين .

وقال لى ديرنيات فى حسرة : تصور أن عدد النقاد الأجانب الذين يحرصون على لقائى أضعاف أضعاف النقاد السويسريين . . وإننى لم ألق احتراما عظيما فى بلدى إلا بعد أن ظهرت مسرحياتى فى لندن . . وإلا بعد أن نقلت الصحف السويسرية رأى الإنجليز . . وقد أيقنت فعلا أن كل نبى فى وطنه مهان . . وأن زمار الحى لا يطرب أهل الحى ، وإنما أهل الأحياء الأخرى . . وأن الدخان القريب يعمى . . يعمى لأنه قريب . . ولابد أن يكون الدخان بعيدا نهارا كما كان يفعل النبى موسى عليه السلام فى سنوات النية . . فقد كان يطلق الدخان نهارا ، ويشعل النار ليلا حتى يبتدى إليه بنو إسرائيل ويمشوا وراءه أربعين عاما . .

بهذه السهولة وجدت نفسى بين أسرته . وهم يسألوننى عن الأدب والفن فى مصر . .
وسألته : إن كان قد قرأ أدبا مصرىيا معاصرا ؟

قال : أبدا . .

سألت : ألم يسمع عن الحكيم ؟

- أبدا .

- ولا طه حسين ؟

- أبدا . قرأت فقط بعض أجزاء . . ألف ليلة وليلة .

وخشيت أن أسأله إن كان قد سمع عن أستاذنا العقاد - رغم أن العقاد قد مات . فقد
غضب منى الأستاذ العقاد عندما سألت عنه سومرست موم ، وكان فى فندق سميراميس
القديم . فقال : إنه لم يقرأ إلا ألف ليلة وليلة .

وكتب العقاد مقالا غمزنى فيه وضايقنى وقال : لو أن أحدا لم ير الشمس ، فليس عيبا فى
الشمس ، ولكن الرجل أعمى أو أعمش . . أو محرر فى أخبار اليوم !

فقلت للأستاذ العقاد : أو هو سومرست موم !

* * *

وفريدريش ديرنمات ابن نكتة . . رغم أن شكله أو صوته لا يدل على ذلك . . وهو
يبحث عن النكت فى التاريخ ويجعلها « عقدة » أعماله المسرحية :

مثلا : حكاية الفنان اليونانى الذى أحرق بيته وقتل أبويه وظل يبكى لأنه أصبح يتيمًا فقيرًا .
هذه هى « عقدة » مسرحية « رومولوس العظيم » . آخر ملوك الأمبراطورية الرومانية
الغريبة الذى دخل حروبا لا مبرر لها لكى يضعف روما ويجعلها على البلاطة . . ويصفىها
قبل أن تصفيه ويحاكمها ويدينها قبل أن تدينه وتقضى عليه . .

وقال النقاد الفرنسيون عنها : إنه يقصد الجنرال دييجول . .

وقيل جمال عبد الناصر .

ومن الممكن أن يقال الآن إنه كان يتنبأ بصدام حسين أيضًا !

وكذلك نكتة الرجل العاقل المحكوم عليه بالإعدام وفى حاجة إلى بعض المال فراح يشارك
فى حفر قبره . . وهى « عقدة » مسرحية (زيارة السيدة العجوز) عن السيدة الغنية التى
جاءت تنتقم من حبيبها الخائن . . فقررت المدينة إعدام هذا الرجل . . فكان كل يوم يمر على
أهل المدينة ، وهم يحفرون قبره !

ونكتة الشحاذ الهاوى والشحاذ المحترف .. فالشحاذ المحترف أربع . ولكن الشحاذ الهاوى لا يعرف فنون التسول فكان أكثر فقرا فاستحق جائزة السماء .. وهذه « عقدة » (هبط الملاك فى بابل) ..

ونكتة القضاة المحالين إلى المعاش جلسوا يتسلون فى بيت فى قمة جبل .. فهم يقلبون فى دفاترهم القديمة وينصبون المحاكمة كل يوم فيقوم بعضهم بدور القضاة والمحامين ووكلاء النيابة والمتهمين .. حتى جاءهم رجل يدق بابهم يسأل المساعدة لسيارته التى توقفت فجأة .. فانتهزوا هذه الفرصة وظلوا يستدرجونهم حتى عرفوا أنه قاتل هارب .. واستدرجوه أكثر حتى اعترف بأنه قاتل مع سبق الإصرار والترصد .. وأدانوه ونفذوا فيه حكم الإعدام !!

والرجل الذى استأجر حمارًا . ثم جلس فى ظله . فجاءه صاحب الحمار يقول : لم نتفق على الجلوس فى ظل الحمار .. فأنا أجرت لك الحمار فقط أما الجلوس فى ظله ، فيجب أن تدفع عليه أجرًا إضافيًا . قصة . ونكتة . وتمثيلية إذاعية جميلة ..

* * *

ديرنيات كانت زوجته الأولى ممثلة والثانية مخرجة للتلفزيون الألمانى .. تغيب عنه أربعة أيام كل أسبوع ثم تجئ إلى جوار فراشه فى نهاية الأسبوع . فعلت ذلك أيضًا عندما كان ديرنيات فى أسوان فقد غابت ليلة مع أحد أبناء النوبة !

ومات ديرنيات قبل حضورها بيومين . مات وحيداً - دون أن يدري به أحد .. فقد كان مصاباً بالسكر .. وكان قد تعاطى حبوباً فنام وجاءت إغماءة السكر .. فنام ومات دون أن يدري أنه مات !

وألبرتو مورافيا كانت زوجته الأولى ألزه مورانته أديبة .. وزوجته الثانية أديبة . داتشاماريانى .. وزوجته الثالثة راقصة .. ومات هو الآخر فى الحمام .. وبعد يوم طويل عرفت الزوجة أنه مات !

* * *

سألت ديرنيات : ولماذا الكوميديا ؟

قال : لأنها أنسب شئ لهذا العصر الذى نعيش فيه .. ففى زماننا الكثير من القلق والخوف .. ولا بد أن نخفف عن الناس بالضحك عليهم والسخرية منهم ..

فقلت : لابد أن نزرع الناس بسكين ..

فوقف يقول : بشرط ألا نجرح ونسيل دماً . فالدماء كثيرة أيضاً !

سألته : هل أنت في صحة جيدة ؟

قال : لا .

قلت : سويسرى ليس في صحة جيدة ؟

قال : والسويسريون يموتون أيضًا !

ثم اعتدل في جلسته ليقول : عندى إحساس أننى من الناحية الأدبية قد أوثكت على النهاية . . فلم يعد عندى شيء أقوله . . ولست آسفا على ذلك . . فالذى قلته كثير . . وسوف يعيش طويلا . . ولست أستطيع أن أكون في صحة جيدة . . فليس من الممكن أن تصعد جبلا عاليا ولا تلهث . . هل أنت وجودى ؟

قلت : نعم . . ولكن أدخلت تعديلات كثيرة على فهمى للفلسفة الوجودية التى أنتمى إليها . .

قال : وكيف ترانى ؟

قلت : أنت نفسك شخصية وجودية في مسرحية اشترك في تأليفها الأدباء شكسبير وموليير وبرخت والفلاسفة هيدجر وياسرز وسارتر .

قال : . . وأنا !

الفرعنة اكتشفوا استراليا واكتشف العرب أمريكا؟

الرحالة البرتغالى فاسكو داجاما (١٤٦٩ - ١٥٢٥) قد اختاره الملك أمانويل السعيد ليدور حول أفريقيا . . فوصل رأس الرجاء الصالح سنة ١٤٨٨ بمجموعة من السفن بها ١٦٠ بحارًا .

ثم واصل سيره فى المحيط الهندى حتى وصل إلى مدينة كلكتا . وفى هذه المدينة استقر البرتغاليون . تركوا عددًا من البحارة اغتالهم الهنود . وحاول داجاما أن يعود إلى كلكتا . فتكاثر الهنود عليه . وعاد إلى بلاده ليستعد بسفن وبحارة أكثر وأسلحة أكثر فتكا . . وعاد داجاما بعد عشرين عاما ليكون نائبًا للملك البرتغالى على شرق الهند . ومات بعدها بأسابيع .

فمتى ظهر الرحالة العماني ابن ماجد ؟

الحكايات كثيرة . وبعضها خرافى أيضًا . فيقال إن ابن ماجد كان فى زورق صغير . وكادت الأمواج تقضى عليه . ولكن داجاما هو الذى أنقذه . وقرر ابن ماجد ، امتنانا لهذا القبطان أن يساعده فى اكتشاف السواحل الأفريقية والآسيوية أيضًا . ويقال أيضًا إن ابن ماجد كان مرحًا . وكان جميل الصوت يغنى ويرقص . وعندما ظهر ابن ماجد وسط البحارة البرتغاليين عرفوا المرح . . وكان يطهو لهم الأطعمة الشرقية . وفى نفس الوقت كان على دراية بفن الملاحة ومواقع النجوم . ونظر داجاما إلى ابن ماجد على أنه ساحر شرقى متعدد المواهب . فجعله مساعده الخاص !

ويقال إن ابن ماجد هذا عندما وصل إلى الهند وقعت مشادة بينه وبين داجاما . هذه المشادة انتصر فيها على الرحالة البرتغالى الكبير . . لدرجة أن البحارة الذين كانوا يكرهونه قد أودعوه السجن . واختاروا ابن ماجد قائدًا لهم !

وهذه الحكاية غير معقولة . ولكن المعقول هو أن رجلاً آخر اسمه داجاما ظهر فجأة على

مسرح العمليات البحرية . فعندما نزل داجاما إلى الساحل الهندى فوجئ برجل أبيض له لحية . هذا الرجل وقف لتحيته على الشاطئ ، ومعه ورد وزهور وهدايا من حاكم الإقليم الهندى . ونزل فى أثره البرتغاليون واعتقلوه . من هو ؟

إنه يهودى جاء من بولندا . اعتقلوه وباعوه فى سوق العبيد .

وانتقل من سيد إلى سيد حتى وصل إلى الهند . كيف ؟ هذه قصة أخرى . ولا أحد يعرف الاسم الأصلى لهذا البولندى . ولكن داجاما أعطاه اسمه بعد أن تحول إلى الديانة المسيحية . اسمه الجديد جاسبر داجاما .

ولا نجد لهذا الشخص الغرب أى أثر إلا فى دوائر المعارف اليهودية فقط . فالموسوعات اليهودية تتحدث عن جاسبر هذا فتقول إنه ساعد داجاما . كما أنه ساعد الرحالة الإيطالى أمريكو فسبوتشى الذى اكتشف أمريكا . واتخذت أمريكا اسمها منه . . . ويقال إنه هو الذى ساعد على اكتشاف أمريكا . وإن لم يساعد أمريكو - وهى عادة يهودية أن يجدوا شخصا يهوديا وراء كل حدث وقع فى التاريخ ، فإن لم يكونوا هم الذين اكتشفوا أمريكا ، فقد كانوا هناك أو ساعدوا على ذلك !

وجاسبر هذا هو الذى اصطدم بابن ماجد ، ويقال تشاجرا ، ويقال تقاتلا بالسلاح . وجاسبر هو الذى اعتدى على ابن ماجد دون سبب واضح إلا الحقد عليه . وانتصر الرحالة الكبير للبحار العربى ابن ماجد ، وحبس جاسبر بعد أن جلدته وحرمه من الطعام والشراب أياما !

* * *

وفى رواية « الشطة ووجع القلب » للأديب الإيطالى أرنولدو باريزى ، التى يتحدث فيها عن الرحلات البحرية واكتشاف آسيا والتوابل والحرير ، نجده فى الفصل السادس يتحدث عن ذلك الفتى الأسمر العربى ذى الشعر الكثيف والأنف الكبير والعينين الواسعتين ، الذى لا يكف عن الضحك والغناء والصلاة أيضا . ويصوره رجلاً متساعفا لطيفا . حتى إذا اعتدت عليه زوجته بالضرب كان يضحك ويقول لها : ولكنك تموتين جوعاً إذا قتلتنى . ثم ينهض يضاحكها ويقبل رأسها ويديها ويدعو لها بالصلاح والتقوى ، ويطلب إليها أن تؤدى الصلاة ولكنها ترفض . ويظمن هذا الشاب العربى الأسمر طويل البال حين يقول لها . ولكن الله هداك إلى الإسلام . . . وسوف يهديك إلى الصلاة والصوم والحج إن شاء الله ! وأخيراً اتفقا : أن يطلق زوجته الثانية الهندية . وطلقها . ولكنه رأى أن تعيش هى وأولادها معه . فى خدمة زوجته الأولى .

وفي هذه الرواية أن الزوجة الأولى هي ابنة جاسبر داجاما ، اليهودية التي أسلمت ١٩
وعندما طلق زوجته الهندية المسلمة ، عادت زوجته « زليخة » - وهذا هو اسمها العربي
ولا يعرف اسمها البولندي - إلى الصلاة والصوم ، ويقال إنها ذهبت مع إختوتها المسلمين إلى
الحج (١٩)

ولكن هذه الرواية لم تذكر اسم ابن ماجد . . ولعل المؤلف الإيطالي قد فضل أن يسميه
داماجيو ، لأنه أقرب إلى الأذن الإيطالية من ابن ماجد العربية . فهو - إذن - البحار العماني
ابن ماجد . .

وربما كان هذا هو أساس الخلاف بينه وبين جاسبر داجاما - أي الخلافات التي كانت بين
ابن ماجد وزوجته .

ويقال أيضًا في كتاب « قصص بحرية » للمؤرخ جوريس دي ملجا : إن ابن ماجد قد
اشترط في رحلته مع داجاما أن يصحب معه زوجته . ولما قيل له إنه لا مكان للمرأة بين ١٢٠
رجلاً . كان رد ابن ماجد أنه يخاف الفتنة . وأنه لا يريد أن يرتكب معصية . . ثم إن زوجته
هي الأنحري خبيرة في شئون الطهى والصيد والملاحة والسياسة والقتال . . ويقال إنه أراد أن
يدلل على شجاعة زوجته ، وكانت في العشرين من عمرها ، فانزلوها إلى البر . . وبعد ساعة
عادت تجر أسدًا قتيلاً . .

والقصة تبدو غير معقولة . ولكن المؤلف يقول إنه سمعها بأذنه من بعض القبائل العربية
في حضرموت بعد وفاة ابن ماجد بتسعين عاما . .

* * *

وليس صحيحًا ما قيل من أن ابن ماجد سافر إلى البرتغال والتقى بالملك . وعرض عليه
الملك أن يكون برتغاليا وأن يكون قائدًا لأسطول كبير ، وأن يزوجه إحدى الأميرات بشرط . .
أن يتحول إلى الكاثوليكية !

أرجو قراءة كتاب « مغامرات هندية » تأليف خوسيه دياث داباربا . .

ولابد أن يستشعر الإنسان الحزن على إهمالنا لتاريخنا . فلا نجد أبطالنا ، ولا نرد على
أكاذيب الحاقدين علينا . وما أكثرهم وما أكثر إهمالنا وبلادتنا أيضًا .

وسوف أنقل لك هنا حوارًا ، حتى لو لم يكن صحيحًا فقد أعجبني ، وهو بين ابن ماجد
وداجاما في إحدى الليالي القمرية ، وقد لعبت برأسيهما الموسيقى وغيرها . . ودارت عيونهما
مع الرقصات الهنديات السمرات الرشيقات العاريات . .

والآن أصف لك المكان ، كما جاء في الفصل السابع من رواية « الشطة ووجع القلب » .
على الشاطئ تحت أشجار جوز الهند ، والناس يتحركون في الظلام والظلال . وأصوات القروود
والطيور الجارحة تتردد أصداؤها وتضيق مع موجات البحر . . . وروائح الزيت والبخور
والعفونة في كل مكان . والرحالة البرتغالي ، كما هي عادته ، يروى مغامراته ، وما الذي رآه في
نومه وكيف أن مريم العذراء قد ظهرت له أكثر من مرة تؤكد على اقتراب الشاطئ . وأنها هي
التي هدته وسط الظلمات . وأنها هي التي أكدت له أنه سوف يكون الملك .

ويعد أن فرغ من حكاية هذه الملحمة التي ضاق بها البحارة . بعد أن سمعوها ألفوف
المرات ، التفت داجاما إلى ابن ماجد وقال له .

وأنت لم تقل لي شيئا عن رحلاتك . . .

أ.م : رحلات محدودة . فليست عندي هذه السفن الضخمة التي تستطيع أن تعبر
المحيط . . .

د.ج : ولم يكن عندك طموح .

أ.م : عندي ولكن لا أستطيع أن أحققه . . . وفي الكتب التي معي أن الطريق الذي
سلكناه هو الصحيح . وأعتقد أن هناك طريقا إلى الجانب الآخر من الكون إذا اتجهت إلى
الصين . . . ومنها شرقا . . . إلى أقصى الشرق . . .

وتقدمت الهنديات يحملن المشروبات المخمرة ، فأخذ داجاما وعاء كبيرا وشرب منه .
والثاني ألقاه على رأسه وجسمه . ويقال إن ابن ماجد فعل نفس الشيء (١٩) .

وجاءت فتاة هندية جميلة ووضعت قدميها في وعاء من الخمر . . . وراح داجاما يغسل
قدميها . . . ثم يقبل القدمين ويمتص أصابع قدميها ويديها . . . ويدعو ابن ماجد أن يفعل
ذلك حتى لا يغضب الهنود . ولكنه لم يفعل مشيرا إلى أن دينه يمنعه من ذلك .

ووقف ابن ماجد يصلي . . . أو يؤذن للصلاة ، وكان الليل قد انتصف (١٩) ثم أشار إلى
بعض الهنود أن يقفوا وراءه . . . وتقدمت فتاتان فقط . إحداهما زوجته والأخرى أختها .
وركعوا وسجدوا (١٩) .

* * *

وإن لم يكن هذا الحوار صحيحا .

فإن المؤلف يصف ابن ماجد ، ولكنه لا يدري أن الخمر حرام عند المسلمين . ولا يعرف
بالضبط متى يكون الأذان والصلاة . . .

ولكن أهم ما جاء فى هذا الحوار هو أن ابن ماجد قد أشار إلى أن الجانب الآخر من الكون - أمريكا الآن - يمكن اكتشافه إذا سارت السفن فى اتجاه الصين شرقا ، وعبر المحيط الهادى .
أى اكتشاف السواحل الغربية لأمريكا ، وليست السواحل الشرقية التى اكتشفها كولومبوس وأمريكو فسبوتشى .

هذا هو أخطر ما جاء فى هذه الرواية التى بها بعض الواقع ، والكثير من الأخطاء والخيال . . من يدرى ، لو أن أحدا تعمق ما جاء فى هذه الرواية ، وراح يبحث عن المصادر التاريخية للمؤلف ، فربما كشف لنا أن العرب هم أول من عرف الطريق إلى أمريكا . . من يدرى ربما يكشف لنا أنهم وصلوا إليها قبل الإيطاليين .

إننى شخصا قد لاحظت أن البحارة والصيادين فى جنوب الهند فى مدينة كوتشين التى مات فيها داجاما ، ومدينة ترانفتكور ، ينطقون بكلمات فرعونية قديمة .
من يدرى ربما وصل الفراعنة إلى هذه المنطقة .

وقد وجدت فى استراليا وفى مدينة برث غربى استراليا بعض النقوش الفرعونية . . وبعض الكلمات الهيروغليفية . . وقد لاحظ المؤرخون الإنجليز أن الفراعنة وصلوا إلى استراليا . .

سيادة الرئيس عبد القیوم : عفوك عن هذه السيدة !

كنت في جزيرة سيلان سنة ١٩٥٩ عندما وقع انقلاب في جزر المالديف . . . وهي حوالي ألفي جزيرة إلى الشمال الغربي من سيلان . وقبل هذا الانقلاب كنت أعتقد أن « مالديف » هو اسم الرجل الذي رسم خريطة العالم . . . وأنه وقع باسمه على جانب من الخريطة . ولكن عندما نشرت الصحف أنباء الانقلاب عرفت أن مالديف . دولة . . وأن الشعب يعيش على مائتي جزيرة فقط . وأن دينها الإسلام . ولغتها خليط من السنهالية والعربية . وأن البرتغاليين والهولنديين والإنجليز قد تناوبوا حكم هذه المواقع البحرية الهامة . . . وأنها استقلت تمامًا سنة ١٩٦٥ . وأصبحت دولة من دول العالم الثالث . .

وكان الإنجليز قد اتخذوا من إحدى جزرها قاعدة عسكرية . ثم عدلوا عنها . وطلب الروس أن يستفيدوا من هذه القاعدة ، ولكن الحكومة اعتذرت . ورفضت أيضًا الانضمام إلى الكومنولث . وكان نظام الحكم في المالديف ملكيًا . . فقد حكمها عدد كبير من السلاطين . وتحولت إلى جمهورية لمدة سنة فيما بين ٥٣ و ١٩٥٤ . . ثم عادت سلطنة . . وتحولت إلى النظام الجمهوري نهائيًا . وكان الرئيس إبراهيم ناصر أول رئيس لها سنة ١٩٦٨ . .

والرئيس مأمون عبد القیوم هو الرئيس الثاني منذ سنة ١٩٧٨ . .

والجزيرة العاصمة ثلاثة أمثال مساحة طابا ، أي كيلو مترين ونصف . . وعدد سكانها في مثل عدد موظفي الإذاعة والتلفزيون أي حوالي ثلاثين ألفًا . . وهي جزر استوائية تعيش على الأسماك وجوز الهند . والسياحة من أهم مواردها . وروادها من الرومانسيين الألمان الذين يختارون كل سنة جزيرة مهجورة ويقيمون عليها الخيام ، ويعيشون حياة الإنسان الأول حرًا عاريًا . .

وقد زارها الرحالة العربي ابن بطوطة وأقام فيها وكان قاضيا بين الناس . وأسعدته الحياة البسيطة الهادئة . واستراح إلى صفاء قلوب الناس وعميق إيمانهم .

وجزر مالديف هي إحدى الدول الصغيرة جدا في العالم . .

مثلها جمهورية « أندورا » الواقعة بين أسبانيا وفرنسا وعدد سكانها ٣٥ ألفا من الأسبان .
ولكن لغتهم الكاتلان . . وهي دولة قديمة . يرأسها رجلان : كبير الأساقفة وهو أسباني
ورئيس جمهورية فرنسا . وتنص المعاهدات المبرمة بين الدولتين على أن تدفع إمارة أندورا مبلغ
دولارين كل سنتين للحكومة الفرنسية ١٩

وعندما اعتذرت للأسقف الأعظم عن لغتي الأسبانية قال : الفرنسية تكفى . . أنت هنا
تتكلم الكاتلان ؟

أى إنهم لا يتكلمون الأسبانية ولا يريدون ولا يحبون ! ويتردد عليها مليون سائح سنويا .
ومثلها أيضا إمارة ليختنشتين الواقعة بين سويسرا والنمسا . . يحكمها أمير ألماني وعدد
سكانها خمسة وعشرون ألفا . أذكر أننى جلست فى أحد مطاعمها . وكان جارى دائم
الاعتذار ولا أعرف لماذا ؟ . ولاحظت أن فى يده جنزير بسكلت . . وأنه ينظفه ويحدث بعض
الأصوات . وهمس الجرسون فى أذنى : إنه الأمير . .
أى ملك هذه الإمارة الصغيرة !

* * *

ومثلها أيضا جمهورية « سان مارينو » وهي إمارة تقع فى شمال إيطاليا وعدد سكانها ١٥
ألفا . ولغتهم ومعاملاتهم إيطالية . وكانت تعيش على كازينو قمار . أغلقوه . وتعيش الآن
على السياحة . وتجري فيها انتخابات نصف سنوية لاختيار واحد من الأميرين اللذين
يحكماها بالتناوب ١١ .

قلت لأحد بائعى الكتب : وأى فرق بينكم وبين إيطاليا . . إنكم تتكلمون الإيطالية . .
فقال مستنكرا : من قال ؟ ! إننا نتكلم اللسان مارينيز .
أى اللغة الخاصة بسان مارينو . . ولا بد أن تضحك . . تماما كما تقول لواحد من سوهاج
: ولكنكم تتكلمون العربية مثلنا !
فيرد غاضبا : بل الصعيدية !

ولكن هذا الاعتداد والاعتزاز بالنفس هما اللذان جعلاهم يقيمون لأنفسهم إمارة مستقلة
عن إيطاليا من مئات السنين ١ .

ولم أندعش عندما زارنى بعد عودتى من رحلتى حول العالم فى يناير سنة ١٩٦٠ اثنان من
الشبان . طالبان أزهريان . آسيويان . دخلا على استحياء . وتكلميا عن رحلتى وعن الذى

رأيت . . ووجدتني أتكلم وأقول وأعيد . . وأتمنى لو أقوم بهذه الرحلة مرة أخرى وعلى مهل . . وكررت لهما ما تمناه طه حسين ، وجاء في مقدمة كتابي « حول العالم في ٢٠٠ يوم » فقد تمنى لي أن أقوم بمثل هذه الرحلة في الدول الأفريقية والعربية . . وتمنيت أنا أن أظل ساكنا سنة أخرى . . أحاول أن أهضم كل هذا الذي ابتلعت في القارات الخمس . . ولكن لم تمض سوى أيام حتى سافرت إلى الكونغو مع قوات الطوارئ المصرية بقيادة اللواء سعد الدين الشاذلي . .

وتساءلا : إن كنت أشعر بممل إذا سافرت إلى نفس البلاد . .

قلت : أبداً . . بل أستطيع أن أرى المكان مائة مرة ولا أزهق . . وأسمع اللحن والأغنية والقصيدة ولا ملل . . وأكل الطعام الواحد عشرات المرات ولا أقول له : أف . . فليس من السهل أن أمل . . وإنما أنا انشغل تماما بالنظر إليه والاستماع والتذوق وأجد جديداً . . بل إنني أستطيع أن أجلس على المقعد الواحد ساعات دون أن أتحرك . . فأنا كسول الحركة . . نشيط الفكر . .

فوجدتهما يضحكان كأنهما يخفیان شيئاً . أو يريدان شيئاً ولكن يترددان . فسألتهما : ماذا؟
قالا : جئنا ندعوك لزيارة بلادنا . . إنها صغيرة . . ولكنها بلادنا . . وشعبنا خليط من الهنود والزنج والعرب . . مسلمون سنيون . . صغار ولكن لنا تاريخ . . وتاريخنا فيه الكثير من المواقف الكريمة . . والبطولة أيضاً . . ولكن لأننا بعيدون جداً عن العين وعن الأذن . . فإن أحداً لا يدري بنا . . ولكننا ندرى بكم . . وبك . . ولذلك جئنا ندعوك . .

قلت : وأنا أقبل الدعوة فوراً . .

قالا : ألا تريد أن تعرف بلادنا ؟

قلت : . . ما دامت بهذه الصفات . . وما دمت لم أرها ، فأنا مستعد تماماً للسفر اليوم أو غداً . . وبملابسى هذه وبلا حقائق . أين ؟

قالا : جزر المالديف ! .

واعترضت لهما عن جهلى السابق بهذه البلاد . . وإن كنت أعرف أصدقاء لي من بورسعيد ومن السويس من عائلة السلطان الديدي . . والذي أضحكهما هو أنني تصورت أن النقط التي جاءت تحت كلمة « مالديف » في الخريطة قد ظننتها بقعا وقعت من ريشة الرسام .
مالديف !

أحد هذين الشابين هو مأمون عبد القيوم - الرئيس الحالي لجمهورية المالديف !

ولما جاء الرئيس مأمون عبد القيوم إلى مصر بادرت إلى زيارته في قصر الضيافة مع الصديق المرحوم كمال الملاخ . وعانقت الطالب الشاب ولكن لم أجد إلا رئيس الدولة . . لقد اتخذ شكلاً آخر . أطلت النظر إليه . . ذهبت الابتسامة ومعها الشباب . والتفتت البدلة حوله إطاراً من القماش الصلب . . وظهرت النظارة الزجاجية حائلاً شفافاً بينه وبين الناس . . ونظرت إلى الكرسي ، إنه يحاول بصفة مستمرة أن يملأه . . وقد ملأه بالفعل . . ووجدته يتحدث عن الإصلاح في التعليم والتربية الإسلامية . . وإنه سوف يستعين بالخبرة المصرية في كل شيء . . فقد عاش في مصر وتعلم فيها . . وآمن برسالة الأزهر . . وإنه سوف ينقل كل ذلك إلى بلاده لتبقى لؤلؤة مضيئة وسط المحيط البوذي والكونفوشي والماركسي في آسيا . . فالحضارة - أبناء حضرموت - قد نقلوا إلى بلاده الإسلام في القرن التاسع الميلادي . وأصبحت الآن هي الديانة الوحيدة . .

ولاحظت أنه استضاف عدداً كبيراً من الناس . ونسى أن يدهوني . . فالدعوة التي وجهها لي عندما لم يكن يملك ، نسيها عندما أصبح المالك الوحيد . وفهمت المعنى . ولم أندش .

ومددت يدا أصافح الرئيس مأمون عبد القيوم التلميذ المخلص لمصر ، والرئيس العاشق لشعبه ، ويدي الأخرى قدمت له مظروفاً به شكوى . وقلت : سيادة الرئيس عندما يتسع وقتك أرجو ألا يضيق صدرك بهذه الشكوى ، إنها مواطنة من المالديف حسنة الظن بي . وعظيمة الأمل فيك . والسلام عليكم ورحمة الله . .

أما الشكوى فهي من طالبة من بنات المالديف مات أبوها وأمها وإخوتها . . ولم يبق لها أحد . ولذلك قررت أن تبقى في مصر . وقد حولت إحدى الهيئات الخيرية مبلغاً من المال إلى بنك العاصمة مالى . . وهي ترجو الرئيس عبد القيوم أن يعيد لها هذه الأموال لتستأنف بها حياتها في مصر بعد أن وافقت على أن تكون الزوجة الثالثة لأحد الوزراء . حتى هذا الوزير مات . .

هذه الفتاة اسمها فاطمة مالديف قد هاجرت إلى أمريكا مع زوجها وزميلها في الأزهر . وانجبت منه ثلاثة من الأولاد . . أحدهم رأيته معها في حفلة أوبرا عايدة عند الهرم . .

وقد كتبنا جميعاً خطاباً إلى الرئيس مأمون عبد القيوم نطلب الصفح عنها ، فقد اشتاقت لبلادها وتريد أن تبنى بأموالها مسجداً ومدرسة . . وكان خطاب الاستعطاف بامضاء : توفيق الحكيم وصلاح طاهر وكمال الملاخ وأنا .

شكراً للرئيس عبد القيوم فقد أذن لها . . وحدا لله على سلامته وسلامة بلاده من هؤلاء المرتزقة الذين حاولوا قلب نظام هذه الجوهرة الإسلامية المستنيرة في غياهب المحيط الهندي !

الحب الأبوى أنفذ الملايين !

في سنة ١٩٤٢ عند العلمين وقعت أحداث غيرت مجرى الحرب العالمية الثانية . . فعند العلمين أصبح واضحاً تماماً أن قوات مونتجمري أضعاف قوات روميل . . فالإنجليز جمعوا قوات جديدة وأسلحة كثيرة . . ولذلك كان النشاط واضحاً على الجبهة البريطانية . . أما الجبهة الألمانية فهي نحيلة جداً . . عبارة عن خط مقاومة منفرج . . فالفيلق الأفريقي بقيادة الجنرال فون توما لم يعد قادراً على الصمد والرد والتقدم . والقوات الإيطالية تقاوم بشجاعة وبسالة نادرة . وهي تقع إلى جنوب القوات الألمانية . . ولكن في مواجهة الحشود الإنجليزية ففئيت القوات الإيطالية . . واحتترقت دباباتها تماماً . أما كبار القادة الإيطاليين فقد كانوا جميعاً في المواقع الأمامية . . وكانت روحهم القتالية عالية جداً . .

وعلى الرغم من الإرهاق الذي أصاب قوات الفيلق الأفريقي الألماني فلإنهم يحاربون بشجاعة وقدرة فائقة . ولم يكن يعلم منهم إلا القليلون أن هتلر لن يمددهم بمؤن جديدة . . وأن روميل قد طلب مزيداً من الذخائر ، ولكن أحداً لا يستجيب له . كأنهم يقولون له . تصرف أنت !

ولكن التفسير الحقيقي هو الحقد على روميل ثعلب الصحراء الذي أصبح أسطورة العالم كله . . إذن فالقادة حول هتلر يريدون القضاء عليه . . ولم يكن ذلك واضحاً . . وإنما صرحوا بهذا الحقد فيما بعد . .

وفي هذا اليوم جمع الجنرال فون توما قائد الفيلق الأفريقي أركان حربه ، تحت إحدى الخيام . وطلب من الطاهي أن يعد طعاماً جيداً . . ومزيداً من البيرة والنبيل . ثم استدعى الحلاق وجلس أمامه . وحلق لحيته وهذب شعره . . وأمسك قطعة من القماش مسح بها حذائه والحزام . . وقام بتلميع الزراير في الجاكت . . ثم استأذن من قواده أن يأخذ دشاً بارداً . . وجلس القادة يأكلون ويشربون والقنابل والرصاص ينهال من كل الاتجاهات . . والدبابات تزجر والانفجارات تتعالى . . ويخرجون من الخيمة بالمناظير المعظمة يعدون

الدبابات التي احترقت . وكانت سحب الدخان والرمال متداخلة . . حتى أصبح الأفق أسود أزرق أحمر أصفر . . موت . . نار . . وموت وأشباح في كل مكان . . وجلس القادة يتكلمون في كل شيء . . ولكنهم لا يريدون أن يتكلموا في موضوع واحد يخافون أو يفزعون من الاقتراب منه . . وبعضهم يحاول أن ينسى أو يجعل الآخرين ينسون أن قائدهم قد غاب كثيرا . . ماذا جرى بعد أن حلق ذقنه ورأسه . . وبعد أن كوى ملابسه ومسح حذاءه . . . وقبل أن يصل أى واحد منهم إلى نتيجة سريعة ، وجدوا الجنرال فون توما قائد الفيلق الأفريقي قد ارتدى ملابسه كاملة . . في غاية الأناقة والوجاهة . . ووضع النياشين والرتب على صدره وعلى كتفيه . . وهو مالا يحدث أثناء الحرب إلا نادرا . . ولم يشأ أن يشاركهم طعاما أو شرابا وإنما نظر الأكواب والأوعية أمامهم وقال : الآن . . جاء وقت العمل . . أنت تذهب إلى منطقة الضبعة . . وأنت تعود إلى المؤخرة وتشكل قيادة . . وأنت جهاز الإرسال لست في حاجة إليك . . اذهب إلى الغرب .

ثم أشار إليهم جميعا أن يتوقفوا لحظة وطلب أن يقتربوا . . أن يقتربوا أكثر وقال . . لقد أصدر هتلر قرارا مجنوننا بعدم الانسحاب !!

ثم أشار إليهم جميعا أن يذهب كل واحد في طريق . . وأسرع القادة . . هذا بسيارته وهذا سيرا على قدميه . . والثالث يجرى إلى مكان بعيد . . ووقف الجنرال فون توما . . وأخرج صورة من جيبه ونظر إليها ثم قبلها . . ومزق بعض الأوراق . واحتفظ بهذه الصورة بين بطاقاته الشخصية . وأشار إلى سائقه . . ثم ركب السيارة واختفى وسط عواصف من الرمال والدخان والشفطايا والصرخات في كل مكان .

* * *

وعند الفجر ذهب أحد القادة يبحث عن الجنرال فون توما . . ولكن أحدا لم يقل له شيئا مفيدا . . فمن عادة الجنرال فون توما أن يكون في المقدمة . . وأنه في كثير من الأحيان كان يضع من العلامات ما يدل على رتبته . . لأنه كثيرا ما كان يساعد الجنود الصغار على الحركة وعلى التقدم . . وحين يفقدون الاتجاه كان ينظر في البوصلة ويشير إليهم . . وفي هذه الحالة الجنونية كان الجنود في حاجة إلى أن يعرفوا من الذي يأمر ومن الذي يوجه . . وأهم من ذلك أنهم ليسوا وحدهم . . وأن قادتهم معهم على الرمال وسط التراب والهباب . . وكان ذلك يرفع معنويات الجنود وصف الضابط والضباط . . فقد عودهم روميل أن يفعل ذلك . . وقبله كان نابليون أيضا . .

وعند شروق الشمس رأى الجنرال باير لاين ، أحد أركان حرب قائد الفيلق الأفريقي دبابة تحترق ولا تزال النار تتدفق منها . . ولحق إلى جوارها واحدا طويلا ممشوق القوام كأنه

عمود من الملح . . وقد ارتدى البالطو الثقيل وأمسك في يده حقيبة من القماش الخشن . . .
وكان جامداً لا يتحرك . . إنه الجنرال الألماني رتر فون توما . . واقترب منه جندي بريطاني
ومعه مدفع رشاش . . وجندي ثان وثالث . .

وذهب هذا الضابط مسرعا بسيارته إلى الغرب والرصاص كالطرر حوله والشفطاي تتطاير
فتصيب سيارته . . ولكنه لم يتوقف رغم كل ذلك . . واتجه مباشرة إلى مركز قيادة الفيلد
مارشال روميل . وروى ما حدث . وماذا فعل الجنرال فون توما . . لم يظهر شيء على وجه
روميل . فقد كان وجهه صارما . مع أنه كان يسمع هذه المعلومات لأول مرة . . ولم ينطق
بكلمة واحدة . عندما دخل أحد الجنود وقدم له برقية . . البرقية إنجليزية قد التقطتها القوات
الألمانية وأفلحت في فك رموزها . . البرقية تقول : لقد استسلم لنا جنرال ألماني اسمه رتر فون
توما !

وترك روميل البرقية تسقط من يده . . وأدار وجهه إلى الناحية الأخرى . . أما القادة فلم
يجروا واحد أن ينظر إليه وتمنوا أن يأمرهم بالخروج لأنهم يخشون أن يقول لهم شيئا أكثر إيلافا
في ذلك اليوم استطاع القائد الإنجليزي مونجمرى أن يقول : إن الفيلق الأفريقي قد
انتهى !

واعترف الألمان بذلك أيضا !

وفي ذلك الوقت كان الألمان يطلقون على لندن صواريخ من بعد . . الصواريخ تهبط
عليهم نارا ودمارا . . ولا يعرفون من أين تأتي ولا كيف يتوقعونها . . ولا كيف يواجهونها . .
إنهم يجدونها فوق رؤوسهم . . ثم زلزالا على الأرض . .
ثم قام العلماء الألمان بتطوير هذه الصواريخ فجعلوها تطلق أصواتا مروعة عند هبوطها . .
وقبل انفجارها . .

ثم أدخلوا عليها تعديلا آخر جعلوها لها أجنحة وذيل . . ثم جعلوها أطول وأعرض وأكثر
امتلاء بالمواد الناسفة المدمرة . .

وقبل ذلك نشر الألمان الألغام على كل الشواطئ البريطانية وبالقرب منها . . وفي المياه
الضحلة . . ثم نشروا قنابل الأعماق . . ثم اخترعوا الألغام الممغنطة التي إذا اقتربت منها
سفينة قفزت إليها وأصابتها . . وغرقت عشرات من السفن ومئات الألوف من أطنان الطعام
والذخيرة . وكان هدف هتلر هو أن يحطم معنويات الإنجليز في كل مكان . . فلم يكن هتلر
يتصور أن في الإمكان احتلال الجزر البريطانية . . لا بحرا ولا برا ولا جوا !

وعقد تشرشل اجتماعا طارئا لمجلس الوزراء . وقبل أن يفتح الجلسة أعلن في غضب

وضرب المائدة بيده وقال كلاما عنيفا معناه : إذا لم يخرج علينا العلماء الإنجليز بحل هذه الأسلحة السرية بحرا وجوا وبرأ فلنستعد جميعا للهزيمة .

وانتشر العلماء الإنجليز في كل المواقع أملا في العثور على لغم لم ينفجر . . أو العثور على شظايا الصواريخ . . أو العثور على الصواريخ التي سقطت في البحر ولم تنفجر . . لا بد من حل . . أما الألغام فقد عثروا على واحد منها على سواحل اسكتلندا . . وكان البحر قد ألقى به إلى الشاطئ . . ثم انحسر الجزر وبقي اللغم وحده . . ودارت حوله أيدي الخبراء وعرفوا سره . . انتهى هذا السلاح الخطير . . فاخترع الإنجليز أسلحة مضادة . . ووضعوا الصفائح المغنطة على جوانب السفن وعند قاعها . . ثم اهتموا إلى شبكات ممغنطة . . واهتموا إلى عمل مجالات مغناطيسية حول السفن . . فيكون التناثر بين الألغام والسفن . . فلا تنفجر . .

وعاد الألمان إلى حيل أخرى . . فكانوا يسقطون الألغام بالمظلات من الجو . . فينزل اللغم فوق السفينة أو إلى جوارها أو في انتظارها أو تحتها . . وكان من الصعب إصابة هذه الألغام في الجو . . طيار واحد حاول وقد وصفوه بأنه أعظم متفائل في الحرب العالمية الثانية . . هذا الطيار ظل يخلق في الجو حتى رأى صاروخا ألمانيا يقترب فراح يطلق عليه النار . . طبعا لم يصبه . . وتشاء الصدفة مرة أخرى أن يصادف لغما هابطا بالمظلة فحاول اعتراضه . . فإذا به يفاجا بأن اللغم يستدير هابطا وفي اتجاهه . . فهرب الطيار . . ولم نعرف حتى الآن مانوعية هذا اللغم . . هل هونوع جديد قد جربه العلماء الألمان ثم أبطلوه . . لا أحد قد كشف هذا اللغزا

وفي اجتماع مجلس الوزراء البريطاني دخل تشرشل متهللا سعيدا . وكان لابد أن يفسر لهم سر هذه البهجة . قال : لقد وقع في الأسر جنرال ألماني في منطقة العلمين . . اسمه الجنرال فون توما . وهو الذي كشف لنا عن قاعدة إطلاق الصواريخ الألمانية . . القاعدة على بحر البلطيق . .

وبسرعة تشكلت لجان . . وبسرعة تبادلوا البرقيات مع ايزنهاور قائد قوات الحلفاء . وذهبت الطائرات تستكشف القاعدة . وعادت بصور القاعدة السرية . .

وفي اليوم التالي قامت ٦٠٠ طائرة قاذفة قنابل متجهة إلى قاعدة الصواريخ وكانت عندها أهداف محددة . .

أولا : ضرب أماكن سكنى العلماء الألمان . . وهم فون براون ورجاله . . وهو الذي اخترع الصاروخ . وعندما سلم نفسه بعد ذلك للقوات الأمريكية نقلوه ومعه كل العلماء إلى هيئة القضاء الأمريكية ، وهو الذي أطلق أول قمر أمريكي وهو الذي اخترع الصواريخ التي حملت الرواد الأمريكان إلى القمر . .

ثانيا : ضرب مصانع الصواريخ وتحطيمها تماما .

ثالثا : ضرب قواعد إطلاق الصواريخ . .

ولكن الألمان كانوا قد احتاطوا لذلك فأقاموا مصانع في أماكن أخرى . . في أعماق المدن البلجيكية والهولندية . . وعادوا يطلقون الصواريخ أعنف وأقوى . ولكن الحلفاء قد اتخذوا قرارا بالإبادة . . فأزالوا وأبادوا العلماء والفنيين . .

وبعض هؤلاء العلماء سقطوا أسرى عند الروس وساعدوهم على سباق الأقمار الصناعية حول الأرض وإلى الكواكب الأخرى . .

وعندما بدأ السباق بين الأمريكان والألمان ظهرت نكتة تقول : إن قمرين أحدهما روسي والآخر أمريكي التقيا في الفضاء . . فتكلم الروسي باللغة الروسية وتكلم الأمريكي بالإنجليزية . . فلم يفهم أحدهما الآخر . . فقال أحدهما للثاني : إذن لتكلم الألمانية !

* * *

بقى لغز واحد لم ينكشف إلا أخيرا جدا وهو : لماذا لم ينتحر الجنرال رتر فون توما . . أو لماذا لم يرفض تنفيذ أمر هتلر بعدم الانسحاب ؟

وقيل في تفسير ذلك اجتهادات كثيرة . من بينها أن روميل طلب إليه أن يبقى في موقعه . . وقيل أيضا إن روميل هدهد بأنه إذا لم ينفذ الأمر فإنه سوف يعدمه في الجبهة . . ولكن الذين عرفوا ما أصاب روميل بعد ذلك . . عندما خيره هتلر بين إعدامه وانتحاره ، فاختر الانتحار، يستبعدون أن يكون هذا سلوك روميل مع قائد من أبرع مساعديه في معركة العلمين وقبلها . .

إن ابنة الجنرال فون توما هي التي كشفت السر . فقد كان بينها وبين والدها اتفاق سري . ألا ينتحر إذا هزم . ولكن أن يستسلم إذا كان هذا هو الحل الوحيد الشريف . لأنها قررت ألا تعقد زفافها في غيابه . . وأنه إذا مات فلن تتزوج . وكانت ابنته هذه هي كل من تبقى له في دنياه . . فالكل ماتوا في الحرب وبلا حرب . . ولم يبق من كل أسرته إلا هذه الفتاة التي تركها وهي في السادسة عشرة من عمرها . .

ولو كان الجنرال فون توما قد انتحر ، لتأخرت معرفة أسرار قاعدة الصواريخ سنة أو سنتين . . ولكن استسلامه أنهى الفيلق الأفريقي وأنهى السلاح السري الذي أطلقه فون براون على بريطانيا ! .

وعندما زفت ابنته كان من بين الواقفين وراء العروسين شخص غريب . . سألوه : من

أنت ؟ قال : أنا أحد الذين يكتنون لها عظيم الامتنان فلولاها لانهدمت لندن على الملايين من سكانها . . ولكن حب والدها لها ، هو الذى جعله يعيش ويكشف سر الصواريخ ف ٢ . .
ثم أعطاها ورقة فى يدها . الورقة تقول : كان أبوك من أعظم القادة الألمان . ولم يكن خائناً لبلاده . . وإنما هو لم يكن يعرف أن العلماء الألمان قد استخدموا هذه الصواريخ بعد . .
لقد اعتقد أنهم يجربونها فقط . . وكل المعلومات التى أدلى بها كانت عن المصانع والمعامل وأسماء بعض العلماء . أبوك كان خصباً شريفاً وجندياً نبيلاً ، مبروك يا عروسة !
أما الجنرال فون توما فلم يتمكن من حضور الزفاف ، فقد كان مشغولاً فى البيت !

صدّقنى يا أمير : لن تدخل الجنة !

أحدى الإذاعات العالمية سألتنى منذ أيام عن الرحلة التى لا أنساها . فكل رحلة لا تنسى . لأنها اكتشاف جديد . وكل رحلة لها طعم ولون وأثر . . . والرحلات كالفتيات الجميلات . والشاعر القديم يقول : كل مليحة بمذاق . .

أطول رحلاتى كانت ٢٢٨ يوما سنة ١٩٥٩ حول العالم . وأقصرها كانت ٢٤ ساعة من القاهرة إلى الكونغو سنة ١٩٥٠ . .

وفى عام ١٩٨٣ قمت بدورة حول العالم استغرقت ٢٠ يوما . .

وهناك نوعان من الرحلات : الرحلات التى تقوم بها ، والرحلات التى تقرأ عنها . .

وفى كل الرحلات لا أحب أن أشعر « بالآفة » . . لا أحب أن أشعر بأننى اعتدت على الذى أراه وأسمعه . . لا أحب أن أشعر كأننى فى بلدى وبين أهلى . . فهذا الشعور يفقدنى القدرة على الملاحظة ، ويضيع منى الكلام ويطفئ شوقى إلى أن أعرف . . وينزع ريشى فلا أطيّر ، ويكسر رجلى فلا أتحرك . . ثم إنه يجعل رأسى أقرب إلى المعدة فأنام وأحلم بأننى رأيت وأحببت وعشت - مع أننى لم أنقل جسما عن سرير ، أو قدما عن قدم . .

ثم إن الذى أشعر معه بالآفة هو الذى أشعر معه بالملل ، فأهرب منه ، وأهرب من نفسى أكثر . . لأن معنى الملل أننى تعبت وأننى زهقت وأننى أريد أن أرجع . . وأنا لا أريد أن أرجع ولا أريد أن أعتاد على الذى أراه ، أو أستريح إلى الذى أسمع أو أننى أحتضن كل الناس . . فالمسافر يجب أن يتعرض دائما لإشعاعات جديدة ، لكى يملأ بطارياته العقلية والوجدانية . . فتجدد طاقته وتفتح شهيته ، ويحمل متاعه ويرحل ، أو يرحل بلا متاع .
فهذا أمتع !

* * *

ربما كانت الرحلة التى لا أنساها عندما كان د . عبد العزيز حجازى رئيسا للوزراء فسافرت

معه إلى دول الخليج . وفي واحدة من هذه الدول ذهبت معه إلى أحد المستشفيات . المستشفى جميل . نظيف . أنيق . سابق التجهيز . معقم لا يدخله الذباب . . لا يقوى . لا يدخله الهواء الملوث . يستحيل . يدخله المريض من باب فيخرج سليماً من الباب الآخر .

وقف د . عبد العزيز حجازي يسأل الأطباء المصريين : هه . . يا أولاد هاويزين حاجة ؟
قالوا : نعم .

- ماذا ؟

- مرضى . . ليس عندنا مرضى !

فالأطباء يدعون الله كل صباح أن تدوس السيارات نصف المشاة في الشوارع . . أو يغمد واحد منهم خنجره الذهبي في بطنه . . أو يتهور ويشرب مسحوق البلاطين - فهو أكثر السموم شعبية . ولا يعادله عندنا إلا أن يسف الواحد منا تراب جزمته . . أما يوم الهنا والمنى فهو عندما يحمل إليهم رجال الأمن غريقاً إيرانياً . . بين الحياة في إيران والموت في أية دولة عربية . . وينقلونه إلى المستشفى مفتوح البطن . . ما يزال فيه النبض . . وقد أكلت أسماك الخليج لحم ساقيه وفخديه ومقدمة بطنه . . هنا يشعر الدكاترة بالوليمة الطبية الفخمة !

لأن عندهم مستشفيات وليس عندهم مرضى ، وعندهم خمسة أطباء لكل مريض . . أربعة من هؤلاء الأطباء تعلموا في أمريكا !

وجلست إلى جوار أحد الأمراء العليين . فقد اختار مكاناً له يسند ظهره إلى صورة عظيمة له . وراحت عيني تنتقل بين الأصل والصورة . ووجدت الأصل قد ارتدى « زنوبة » . . ووجدت عود كبريت في أصابعه يسلك به أذنيه . ووجدت أصابع يديه توقيظ أصابع قدميه . . ثم انتقل عود الكبريت إلى ما بين أسنانه . . بقايا لحم من الأمس . . أما الهواء الذي هب على أنفي فجأة فهو بسبب محاولة الأمير أن يضغط العبادة على جسمه . . أما الرائحة فهي خليط من البخور والتمر حنة وصدأ الحديد والجبن القديم وعرق العافية . .

ولم أطلق . فقلت له : ياسمو الأمير أحب أن أؤكد لك . . أنك لن تدخل الجنة . . فالله لا يدخل عباده الجنة مرتين . ولا يشويهم في النار مرتين . . مرة في الدنيا ومرة في الآخرة . . يعنى أنا سوف أدخل الجنة إن شاء الله ، وقد شاء ألا تدخلها أنت . تكفيك هذه الجنة التي أنت فيها ولا تدري . . كيف ترتدى زنوبة وأنت تملك ألوف الملايين . . نعم ألوف الملايين . . لماذا لا تطلب إلى الشركات اليابانية أن تصنع لك زنوبة موسيقية تقلب عخطاتها بأصابعك . . وفي نفس الوقت تمهرش أصابعك ؟ . . ثم بدلا من عود الكبريت حائراً بين أنفك وأسنانك وأذنك ، يستطيع الألمان أن يخترعوا لك فرشاة أسنان تنقلب إلى عود من المطاط الناعم يدخل

أذنك ، ثم يتحول إلى بخاخة عطرية في أنفك . . أو لماذا لا تطلب من السيرك القومى الروسى أن يبعث لك بعصافيرالجنة تقوم بتسليك أسنانك . . كما تفعل طيور النورس بتسليك أسنان التمساح ؟ . . ممكن . . ثم هذا الجلباب ، ياطويل العمر ، تستطيع مؤسسة « ناسا » للفضاء أن تصنع جلبابا مكيف الهواء والضوء والضغط . . وفى استطاعة هذا الجلباب أن يطير بك فى الفضاء فترى شعبك من فوق . . ثم تهبط عليه . . وفى ذلك تأكيد لعظمتك . . قدرة الدولار على أن يصنع المعجزات ، وقدرة العلم على أن ينجز أعظم التزوات . . ففى جلبابك يتعانق المال والعلم . . يتعانق العقل والجنون . . اعملها يارجل لا تضيع وقتك فى التفكير فى الآخرة . . فلا أمل لك فى الجنة . . ادخل جنتك هذه ، واترك لنا جنتنا . . ما الذى أرغمك على أن تعيش نار الفقراء يا غنى ؟ وإن كنت مهتما بالفقراء فلنقتسم وندخل النار معا ! .

أما الابتسامة على وجهه فتساوى مليون دولار . . ابتسامة هادئة بريئة - كأنه طفل قد وجد ثدى أمه أخيرا . . أما اللمعان فى عينيه وفى أسنانه ، فالشباب فى العشرين ، أما ذراعه التى التفت حولى فقد أذابت الفوارق بينى وبينه . . بين صاحب الدولار الواحد وصاحب الألف مليون . . ثم أشار إلى فيلا أنيقة فجاءت نحونا . . إنها سيارة كاديلاك ورولز روزيس معا . . واسم الدلع : كاد - رويس ، وانفتح الباب لأدخل أولا . ودخلت . وتبعنى هو . فسقط منديله على الأرض وشدده بقوة حتى لا يمد يده فيلتقطه . .

وصرخت فيه : أين الدولفين ؟

- ماذا تقصد ؟

- كان يجب أن يمشى وراءك سرب من حيوان الدولفين يلتقط لك المناذيل ويمد رأسه ويلقى بالمنديل على أنفك . . ثم يمسح لك أنفك وشفتيك . . ودموعى . . ويساعده دولفين آخر فيأتيك بمنديل ثان وثالث . . ولا مانع من دولفين على يسارى يقوم بنفس العمل .

- لا دولفين . .

- إذن لابد من استيراد عشرين أو ثلاثين . . فورا . اعملها يارجل . النار مشواك . . صدقنى ! .

- يا أخى أنتم المصريين تحبون الضحك .

- لا أضحك وإنما أنا جاد تماما كما إنك أغنى منى ألف مليون مرة !

وتوقفت السيارة ومرت أمامنا بنت حلوة . . طويلة سمراء واسعة العينين مضمومة الشفتين

كأنها تقبل الهواء بيننا أو تقبل واحدا منا . . والعنق ملفوف طويل ثم إنها هندية الملامح بعد ذلك . . أما الابتسامة فمصرية . .

قلت : ياسمو الأمير أعجبتك هذه الصبية ١٩

قال : أستغفر الله . .

قلت : إذن لقد انطبق عليك الحديث النبوى الشريف : لك النظرة الأولى وعليك الثانية لقد أخطأت ولذلك تستغفر الله . وتنطبق عليك كلمات السيد المسيح : من نظر إلى امرأة فاشتهاها فكأنما زنا بها . . فكان لابد أن تستغفر . أليس كذلك ؟
- ياراجل اتق الله . .

- بل كان يجب أن تتقيه أنت يا طويل العمر . . ومع ذلك ففي بريطانيا أجمل الوجوه ، وفي إيطاليا أجمل العيون ، وفي فرنسا أجمل الشفاة ، وفي أسبانيا أجمل السيقان ، وفي ألمانيا أجمل الأكتاف ، وفي روسيا أجمل بشرة ، وفي السويد أجمل صدور . . والله يقول : مثني وثلاث ورباع وما ملكت أيما نكم . . فإن خفتهم ألا تعدلوا فواحدة . . يجب أن تتخذ قرارا اليوم ، فلم يبق لك في هذه اللجنة التى لا تدري بها إلا سنوات معدودة . . اسمعها منى . . لا تضيع وقتك في النظر إلى زنوبة . . بين الشباشب أو بين النساء ! .

وفي الليل دعانى إلى العشاء . . البيت فخم واللمبات في السقف : سماوات من النور . . وجنات من العصافير والطيور . . وصور هذه الطيور قد انتقشت على السجاجيد العجمية التى تغوص فيها الأقدام . . بل - والله العظيم ثلاثا - وجدت مصبطة أمامى . . ولاحظت أن هذه المصبطة عبارة عن عشرين سجادة واحدة منها فى مصر لأقيمت لها الحفلات ولاستقبلوها بالطبل والزمر وأم كلثوم فى مقدمة المستقبلين تغنى : افرح يا قلبى . .

وبعد ذلك يعلقونها على الحائط ، تحية وإعظاما لهذا النوع من السجاجيد الفارسية النادرة . .

ثم جاء من يصب الماء على يدى قبل تناول الطعام بأصابعى . . الإبريق من الذهب الخالص والطست . . واندھشت كيف يغسل الناس أيديهم التى اختلطت بالذهب . . وسألت فى أى شئ يشرب الناس . . أو يشرب سمو الأمير نفسه ؟ . .

وسألت الخادم الهندى : ألا توجد لحوم أخرى غير الخراف ؟

فسألنى : ماذا ؟

قلت : أريد أن أكل لحم الخنزير محشوا بالجوز واللوز والبندق والفستق !

وضحكت . ولكنه لم يضحك . وإنما سحب الخروف الراقد أمامى ونقله بعيدا . .

ولم أمد يدي إلى أى نوع من أنواع اللحوم . ولم يشأ سمو الأمير أن يقترح طعاما أو شرابا أو لحما . . وتنوعت الأطباق وتكسرت بعضها فى بعض . . فقد وضع الخدم الهنود أطباقا كثيرة . . ولما ضاقت بها الصوانى كدسوها الواحد فوق الآخر . . الله أعلم إن كان هذا الذى أمامى أرزا بالبهارات . . أو شطة بالأرز والأناس أو الموز أو جوز الهند . . المهم أن كل هذه الأطعمة قد اختلطت معا . . تماما كاختلاط كل الأجناس البشرية فى قصر الأمير وأمام القصر أيضا . . فالناس هنا بيض شقر . . وسود غطيس . . وصفر وسمر . . وكلهم فى الخدمة . ولا أحد يعرف بالضبط ما الذى يعملونه فى هذا القصر . . ولا أدرى كيف يميزون الخادم من الحارس من الطاهى من السكرتير ومن الابن والأخ . . ومن الضيوف ، وكنت الوحيد الذى يرتدى الجاكطة والقميص والبنطلون وفى حالة ارتباك يؤكد أنى ضيف لا يعرف كيف يكون ضيفا يأكل وهو ساكت . . ويجلس وهو ساكت ، ويسمع وهو ساكت . . ويحمد ربنا أنه جلس إلى جوار هذا الأمير بالذات . .

الحمد لله . . لقد امتلأت تماما . . وأريد أن أجلس على الأرض وأرجع بظهري إلى الوراء لكى أعطى للكرش فرصة أن يأخذ راحته مقوسا منفوخا . هنا عرفت لماذا امتلأت كتب الأدب العربى بالأمير الذى يضحك . . فإذا ضحك انقلب على قفاه . . لأنه لا يستطيع أن ينقلب على وجهه ، فكرشه يضغط على رتيه فيموت . . ليقال فى الكتب العربية : وظل يضحك ويضحك حتى استلقى على قفاه !

وسمعت هرجا ومرجا حولي . . ووجدت الخادم الهندى يحمل صينية عليها خنزير خنزير ؟ نعم خنزير مصنوع من الجلد وأتى به لكى أكل ما أستطيع منه . . وكانت زلومة الفيل هى التى يجب أن أرفع عنها السدادة ليتساقط اللوز والجوز فى يدي - وضحكت كثيرا واستلقيت على قفائى . .

وفى الطائرة سألتنى د . عبد العزيز حجازى عن أشياء كثيرة وعن هذا الأمير . . ود . حجازى هو رجل لطيف رقيق ، ولكنه يخفى وراء واجهة لها لون الذهب وبرودة البلاتين . . وإذا جلست إلى جواره فإنك تسمع صليل الأرقام فى دماغه . . ولكن أؤكد لك أن له قلبا . فأننا أعرفه منذ سافرنا إلى أوروبا ، شبابا صغارا سنة ١٩٥٠ . . ثم عاد فسألتنى عن حقيقة ما حدث مع الأمير . .

سألته : ماذا قال لك ؟

قال : إنك جننت الأمير . . ووجعت بطنه من الضحك .

قلت : لم أكن أقصد إضحাকে إنما قصدت أن أوجع بطنه وقلبه على حالته التى تبعث على اليأس . . فهو رجل « مكوش » على الدنيا ، ويريد أن يكوش على الآخرة . . هل هذا معقول ؟

وعاد د. عبد العزيز حجازى يسألنى : هل صحيح أنت طلبت إليه أن يلقي زوجته فى البحر ويتزوج من جيلات أوروبا ؟

قلت : هذا أجمل ما سمعت . أشكرك فأنا لم أطلب إليه أن يفعل ذلك . ولا أستطيع أن أقول . ولكن هذا يدل على رغبة عميقة عنده فى أن يجد سبباً وجيهاً للزواج من أربع أوروبيات فى وقت واحد . . هانت . . إذن فسوف يفعلها ! إنه لن ينام الليل سيظل كلامى يكوى دماغه وبطنه ، ولن يستريح حتى يعدد زوجاته . . إنها خطوة حضارية نحو الاستمتاع بالدنيا ، ياساً من الجنة فى الآخرة . وهذا بالضبط ما قصدت !

ثم جاءت المضيضة توقظنى وتهمس : الكابتن مجدى يريد أن يتحدث إليك !

وذهبت إلى الكابينة للقاء الكابتن . إنه شاب أسمر لطيف - يرحمه الله . . جلست إليه أشكره على الوليمة الفخمة التى دعانى إليها بالأمس . . فقد قامت المضيفات الخمس بدور ستات البيوت وقدمن لنا لحم الغزال والأرز بالجوز واللوز والبندق والصنوبر وقدمن السمك المدخن . . ثم فرقعن زجاجات الشمبانيا الفرنسية الذهبية . . وكانت الموسيقى والرقص . . وجاءت جبال التفاح الأمريكى والأناناس والكريز والآيس كريم فى قلب جوز الهند . . وشكرته من كل قلبى ومعدتى على هذه الوليمة التى لم أر لها نظيراً فى حياتى . . وكان الكابتن مجدى يذوب رقة وخجلاً سعيداً . . وكان مساعده وكذلك المضيفات . . وتمنيت أن أراه فى مصر لنتقى ونقضى ليلة أخرى ، سعيدة المشاعر ، وإن لم تكن بها كل هذه الأطايب النادرة . .

وعدت إلى مكانى من الطائرة . وأعلنت المضيضة ضرورة ربط حزام المقعد لأننا على مدى دقائق من مطار القاهرة الدولى .

وفجأة ظهر الكابتن مجدى . وقال لى : إنما جئت لأشكرك باسم طاقم الطائرة ، مضيفات ومهندسين وملاحين . . أشكرك على هذه الوليمة التى لم نر لها نظيراً فى حياتنا . .

قلت : بل الشكر لك . . لكم .

قال : بل لك وحدك !

وكانت المفاجأة قال لي الكابتن مجدى : أنت تعرف أنك كنت ضيفا على الدولة . . أما نحن فلا . .

قلت : لا أفهم .

قال : لقد طلبنا كل هذه المأكولات الفاخرة والفواكه النادرة والحلوى اللبنانية والشمبانيا الفرنسية والسيجار الهافانى على حسابك أنت . . فأنت صاحب الوليمة !!

وارتطمت الطائرة بالأرض . . وأحسست أنه رأسى قد دشدشته المفاجأة . . وضحكنا . فقد وصلنا مصر . وكان الذى لا أنساه : كيف أنسى أنتى تعيشت مرة واحدة بعشرة آلاف جنيه استرليني !!؟

فريدة .. وملكات أخرى!

(١)

قرأت في الصحف الإيطالية أن جلالة الملكة ميمي ماتت .. نظرت في الصورة .. إنها مستديرة الوجه سوداء الشعر والعينين .. الحاجبان غليظان والشفتان .. وبسرعة أحسست كأننى أعرفها .. طبعاً لا أعرفها .. ولكن شيئاً ما فى داخلى انجبه إليها .. تعمقتها بعينى ثم اتجهت جميعاً إليها .. وركبت القطار لكى أمشى فى جنازتها .. وفى ذلك الوقت من الخمسينيات كنت غارقاً فى الفلسفة الوجودية .. وكنت قد أصدرت أول كتاب عن «الوجودية» باللغة العربية .. إنها ميمي ملكة الغجر ..

وفى ذلك الوقت كنت أرى - ولا أزال - أن الإنسان غجرى بطبعه .. يعيش وحده .. ويتمنى العزلة .. ويرى فيها حريته .. حرته من الارتباط بالناس والضيق بهم .. وإن كل المفكرين يعيشون على حافة المجتمع .. فى مواجهة المجتمع وضده وخوفاً منه وتحدياً له .. ولم تفارقنى هذه المعانى حتى أصدرت كتاباً بعنوان «نحن أولاد الغجر» ..

وبعد ساعتين وصلت إلى مدينة سورنتو الإيطالية الجميلة .. وعنوان الملكة فى يدى .. وأدركت طابوراً طويلاً يمر أمام جثمانها ويلقى عليها نظرة ووردة .. وفعلت .. وكانت دموعى فى عينى ، دموعى على وليس عليها .. فكل الأحرار ملوك بلا عروش ، فإذا ماتوا فالذين يعزونهم ، يعزون أنفسهم أولاً وفى غيرهم بعد ذلك !

(٢)

أما الملكة المتألقة من لحم ودم فهى الإمبراطورة ثريا .. فقد أوفدتنى « أخبار اليوم » لأحضر طلاقها من إمبراطور إيران .. وكان ذلك فى مدينة كولونيا بألمانيا .. بينما ذهبت الزميلة خيرية خيرى زوجة المرحوم على أمين لتشهد هذا الطلاق فى طهران ..

وعندما ذهبت إلى السفارة الإيرانية أطلقوا علينا الكلاب وخرطوم المياه . . وتفرق الصحفيون من كل الدنيا . وسمعنا همسات تقول : إنها في فندق كذا . . لا . . في مطعم كذا . .

وجاءت صحفية إيطالية تقول : إنها في صالون كذا . .

وذهبت إلى الصالون . . ورأيت الإمبراطورة ثريا اسفنديارى لحما وشحما ودما ولعانا في عينيها وشعرا كستنائيا مسترسلا ، وساقين رفعتهما إلى ما فوق المرأة تكشف وتكشف ما لم أتمكن من رؤيته بوضوح . . وكأن الطلاق لا يهمها ، ولذلك رفعت ذراعا وساقا وقالت لنا ما معناه . العاقبة عندكم جميعا .

ثم أغلقوا باب الصالون !

(٣)

ولما زرت الملكة نازلى فى هوليوود . لا أحببتها ملكة ولا ملكة سابقة . وكانت قد تقدمت بها السن . . وبدت سيدة ارستقراطية تلفت النظر إلى جمال ساقها . . فلم أر إلا أظافرها المكسرة . . لعله نقص فى الكالسيوم . . ووعدتها بألا أكتب شيئا مما دار بيننا . . وقد وفيت بالوعد !

(٤)

أما الإمبراطورة فرح ديبا فقد رأيتها هنا فى القاهرة مرتين : المرة الأولى عندما خرجت مع زوجها الإمبراطور من بلادها لأخر مرة وهبطا فى مطار أسوان ليجدا الرئيس السادات فى انتظارهما . . وكانت الشمس المخنوقة تنعكس على طائرة الإمبراطورة ووجه الإمبراطور والحاشية . . فى ذلك اليوم كان غروب لكل شيء . . فلا كان الإمبراطور ملكا ، ولا كانت الملكة إمبراطورة . . كانت نهاية يوم ومرحلة وأبهة !

ثم ذهبت لأقابل الإمبراطورة فرح ديبا بعد وفاة الشاه ، وكنت آخر من رآها وجلس إليها . تغير كل شيء ، الفستان أسود والوجه أصفر ، وتجردت يدها وأذناها وعنقها من كل ما يلزم ويتألق . . حتى نور عينيها قد انطفأ هو أيضا . . وكذلك كان الحوار بيننا : جملا قصيرة . تنتهى قبل أن تبدأ . . وكانت تسعل . . فكان سعالها المتقطع مثل نقط بغير حروف . . انتهى كل شيء . . فلا معنى ولا أمل . وعندما جاءت القهوة . لم أمد يدي . . فلا أعرف إن كانت لها أو كانت لى . . فالجرسون الضخم قد وضع الفنجان على منضدة أقرب إليها . . ولذلك لم أمد يدي ولا هى . وكنا نجلس متقاربين فصوتها خفيض . وكان الدخان بيننا .

فلم أحرف إن كنت أنا الذى أدخن أو هى . . أو إن الدخان كلام فى الهواء . وكان كلاما فى الهواء . فقد رجتنى ألا أكتب سطرًا واحدًا مما قالت ، فهى لا تريد أن تسمى إلى المخلصين من أتباع الشاه فى إيران . ولا تريد أن تستعدى الإيرانيين على أولادها ! .

(٥)

ولم أكن أحرف الملكة فريدة . . ولكنها أرسلت فى طلب بعض كتبى . وأهديتها بعض هذه الكتب . . والبعض قدمته لها ، وقيل لى إنها تمننت أن يكون الإهداء إلى جلالة الملكة فريدة . لا مانع فقد كانت ملكة لمصر . وكانت محبوبة من كل الناس ولا أزال أذكر صورة زفافها الجميلة على غلاف مجلة « سمر التلميذ » التى كان يصدرها بابا صادق . . وكنا أطفالا . وكنا نحبها ونحب الملك الشاب « فاروق » .

ثم رأيت أحد معارضها . .

ولاشك أنها فنانة . وأنها تحاول . وأنها صادقة . ولوحاتها كانت تكتسب قيمة أكبر لأنها من رسم ملكة مصر . وكانت هى تعلم ذلك ، فكانت لا توقع على لوحاتها إلا بعد بيعها . .

وكانت بيننا مكالمات تليفونية طويلة . ولم يكن يضايقها فى مصر إلا قذارة الشوارع والمحلات . ولم تنته دهشتها ولا دهشتى ، من كيف أن عجزا تاما قد أصابنا عن نظافة بلدنا ونظافة كل مكان . . وتندهش أكثر كيف يخرج أى إنسان بينطلون ليس مكويا . لا يهم أن يكون جديدا . المهم أن يكون مغسولا . وفى استطاعة أى إنسان أن يضع بنطلونه بين المراتب ليجده فى الصباح مكويا . ثم كيف لا يكون حذاءه ولا تكون أظافره نظيفة ؟

وكانت تعيش على معاش شهرى قدره مائتا جنيه - هو أجر ترفض أن تأخذه أية خادمة الآن إذا جلست عندك طوال النهار ، أما إذا باتت فهى تتقاضى ٣٠٠ جنيه . . هذا إذا لم يكن فى البيت أطفال . فإذا كان طفل واحد فهى تعمل نصف يوم . . وعلى آباء الطفل أن يبحثوا له عن « داه » .

أما شقتها فى المعادى ، فلا أحب أن أصفها . . ولا السلام التى تفضى إليها ولا البيت ولا الشارع .

ولقد نقلت إلى الرئيس حسنى مبارك حالتها السيئة ومطلبها المتواضع فى أن تكون لها شقة صغيرة . ومعاش أكبر . ورأيت لوحاتها الأخيرة . . وقد تم إعدادها للعرض . . كل ألوانها ومادية حاملة ، وكانت حريصة جدا على الإضاءة التى سوف تسقط على اللوحات . . أو تسبح فيها اللوحات . قلت لها : هذه أرواح هائمة فى النور والظلال !

فقلت : إذا كان هذا شعورك فأنا قد نجحت . فهذا بالضبط ما أردت أن أقوله !
واعتبرت هذا التعليق نجاحا لها ، أو حفلة تكريم تلقائية . واكتفت بهذا التكريم .
وقررت ألا تعمل شيئا في ذلك اليوم على أن تستأنف الاستعداد لإقامة المعرض في اليوم التالي !
ولم أكن عرف أنها تغالب المرض . .

فلا شيء يبدو عليها . فما تزال ممشوقة القوام . عالية الكتفين والرأس . . مشدودة
الساقين . . ولا تزال ملكية الخطوات والعبارات والنظرات . . تمشي كأنها في موكب ملكي .
وتصعد السلالم كما كانت تصعد سلالم قصر عابدين . فإذا التفتت إليك وأنت تتحدث
معهما ، كانت بهية الطلعة . ملكة . كانت وما تزال .

وفي يوم شكت لي من أن أحد البوابين قال لها : يامدام .
فغضبت وقالت له : اسمع ياتقول لي جلالتك . . ياتقول لي أفندم . . لكن يامدام لا . .
لقد سمعتك تقول لبواب آخر : ياباشا . . فكيف يكون هو باشا وأكون أنا مدام ؟
فقال لها : حاضر ياهانم .

قالت : ولا هانم . . قول لي : أفندم !
فرد عليها : حاضر يا جلالتك .

وسافرت إلى فرنسا للعلاج . . وحددوا مرضها بأنه سرطان في الدم . وأن العلاج ممكن .
هم قالوا . وهي آمنت . . وظلت تقاوم المرض . وهي على يقين من الشفاء . ولم يكن يبدو
عليها أى أثر لهذا المرض . إلا بعض الشحوب . فإذا أضيف إلى مرضها مرض اثنتين من
بناتها ، وإنه مرض لا شفاء له أيضًا ، فإنها ولا شك في غاية الشجاعة وقادرة على احتمال الهوان
النفسي والجسمي . . ولكنها لا تشكو .

وثقل عليها المرض . فاعهارت تحته . ودخلت أحد المستشفيات . ثم سافرت بعد ذلك إلى
أمريكا . وفي أمريكا صارحوها بأن الدم الذي أدخلوه في جسمها في مصر كان ملوثًا .

وكتبت في « الأهرام » أقول إن مرض الكبد الوبائي الذي أصيبت به إلى جانب سرطان الدم
كان بسبب هذا الدم الملوث الذي نقلوه إليها في أحد المستشفيات !

وسألني د . راجب دويدار وزير الصحة ، فذكرت له اسم المستشفى الكبير ، وأزعجه
ذلك .

وسألت د . دويدار : هل معقول أن تتولى إحدى السفارات العربية علاج الملكة فريدة
على نفقتها ؟

ونقلت للرئيس حسنى مبارك أنها لا تعالج على نفقة الدولة .
وكلمنى د . راغب دويدار ليقول لى إنها عولجت بعد ذلك على نفقة الدولة . وإنها الآن
تحت الرعاية الكاملة . وإن الشفاء من عند الله .

وتضاربت الأقوال حول صحتها . وسألت شقيقها الزميل المصور الفنان شريف ذو
الفقار . فأكد لى أنها تتحسن . وأنه رآها . وأنه على يقين من شفائها . وذهبت ورأيته . ورفع
الأطباء أيديهم ، كما فعلوا قبل ذلك عند موت أبى وأمى وأختى وعلى أمين وإحسان عبد
القدوس وتوفيق الحكيم قائلين : إنها زى الفل !

وفريدة كملكة انتهت منذ زمن طويل . ولكن الذى بقى هو لوحاتها . . فريدة الفنانة
أطول عمرا من فريدة الملكة . . ومن يزور المتاحف سوف يجد صور الملوك والملكات . . لقد
عاشوا على الجدران وماتوا فى الواقع . . ماتوا جميعا أشخاصا وعاشوا لوحات . . فالفن هو
الذى أطال عمرى الملك والمملكة . . وإذا كان الفنان هو الملكة فقد طال عمرها مرات : طال
عمرها لوحة وطال عمرها فنانة !

فالمملكة ماتت أولا . .

والإنسان ماتت ثانيا . .

والفنانة لم تمت . .

والناس يعاملون الملوك والملكات كأنهم مؤسسات . . أو كأنهم تماثيل أو أهرامات
فيقولون : جلالتك . . وعظمتك . . جلالتك أمرت . . جلالتك شئت . . كأن صاحب
الجلالة غائب . . فلأنه غائب لا ينطق ولا يشارك فى الحديث .

ولكن لاحظت أن الملكة فريدة كان وجهها يحمر إذا قيل لها : الفستان بسيط وجميل . . أو
أنت غيرت لون أحمر الشفاه هذه المرة . . والحلاق أضاف بعض الشعرات البيضاء هنا وهناك
فهى فى غاية الجمال !

كل ذلك ذهب وبقيت هذه الصورة الرمزية من حب الناس ومشاعرهم الطيبة . فسار فى
جنازتها من لا يعرفها . . فهى أول ملكة مصرية تموت فى القاهرة - الملكة نازلى ماتت فى
أمريكا . وزوجها الملك فؤاد مات سنة ١٩٣٦ عن ٦٥ عاما ، ولا أحد يذكر كيف كانت
جنازته . . والملك فاروق مات فى روما عن ٤٥ عاما ، ودفن فى القاهرة بلا جنازة سنة
١٩٦٥ . يرحمها الله : فقد عاشت محبوبة وبقيت فنانة !

مع أجمل تحيات أخبار اليوم!

حصلت على كل الجوائز . . إلا واحدة !

جائزة الدولة التشجيعية عن كتابي حول العالم في ٢٠٠ يوم سنة ١٩٦٣ .

وجائزة الدولة التقديرية سنة ١٩٨٢ .

وجائزة الإبداع الفكرى لدول العالم الثالث سنة ١٩٨٣ من البرلمان الهندى . كنت العربى الوحيد الذى فاز بها . تسلمها نيابة عنى السفير عمرو موسى والأديب حمدى الكنىسى مستشارنا الإعلامى فى ذلك الوقت .

وعندما كنت طالبا جاء ترتيبى الأول فى الابتدائية وفى الثقافة العامة وفى التوجيهية وفى اللىسانس . . وفى اللىسانس حصلت على جائزة مصطفى عبد الرازق فى الفلسفة الإسلامية . وجائزة لطفى السيد فى الميتافيزيقا وجائزة لامونت فى الفلسفة الإنجليزية . . ولم أحصل على مقابلها المادى إلا عندما كتب الأستاذ أحمد الصاوى عمدا مقالا فى الأهرام يلفت النظر إلى أننى تخرجت وعملت صحفيا ولم أحصل على هذه الجوائز بعد !

ولما عملت محررا فى الأهرام سنة ١٩٥٠ ترجمت « مذكرات روميل » . ومذكرات (ثلاثة ضد روميل) . . وكوفئت على ذلك بمبلغ مائة وخمسين جنيها سافرت بها إلى أوروبا ، لأول مرة فى حياتى . . إلى اليونان وإيطاليا وسويسرا وألمانيا وفرنسا وإنجلترا والسويد . . وقد رأيت مدينة الإسكندرية من الطائرة . ولم أكن قد رأيتها قبل ذلك .

وكان مثل هذا المبلغ يكفى للسفر والإقامة وشراء الهدايا وبعض الفكة تبقى فى جييك للذكرى !!

ولا توجد « وصفة سحرية » لكل هذا الاجتهاد إلا أننى كنت أشعر دائما بأننى تلميذ صغير ولا يزال هذا شعورى !

وعندما عملت في « أخبار اليوم » توالى الجوائز التشجيعية . . بل لم أجد إلا التشجيع المستمر . . ولحسن حظى كنت أكثر ارتباطا بعلى أمين ، لا بمصطفى أمين . فعلى أمين أكثر تشجيعا وأسهل في التعامل معه . . وفى ذلك الوقت ترجمت مذكرات « دوقه وندسور » والمكافأة كانت ثمن سيارة فيات . . ثم ترجمت العدد الأول من مجلة « المختار » كل العدد وحدى ، فلم يكن للمجلة فى ذلك الوقت محررون أو مترجمون . . وكانت المكافأة ٢٥٠ جنيها سنة ١٩٥٣ وليست بالمبلغ القليل .

وكان أمل كل محررى أخبار اليوم أن يلقوا تقديرا من مصطفى أمين . فهو الصحفي مائة فى المائة . ولذلك فالذى يرضيه صعب جدا . والذى يعجبه لا بد أن يكون أقرب إلى المعجزة . ولذلك فتقدير مصطفى أمين صعب المنال .

وجاءتنى الفرصة . فقد قرر شاه إيران طلاق زوجته ثريا اسفندبارى . وسافرت إلى ألمانيا لأحضر الطلاق . واستطعت أن أحصل على نص المكاملة التليفونية بين الشاه وزوجته الإمبراطورة . والمصادفة التى كان لها الفضل الأول ، فقد كنت أسكن فى فندق صغير . وكانت جارتى تعمل فى صالون الحلاقة الذى تردد عليه الإمبراطورة ثريا . ونقلت لى كل ما دار بينها وبين الإمبراطور .

وبعثت بنص المكاملة . ونشرها مصطفى أمين فى الصفحة الأولى من أخبار اليوم . وكانت لى مكافأة مالية : خمسون جنيها فى سنة ١٩٥٦ .

أما المرة الثانية فهى عندما كتبت مقالا صفحة « ونص » عن نشاط بعثة الشباب المصرى فى مهرجان الشباب فى موسكو . . وكيف أن عددا من الفتيات نزلن بقمصان النوم يرقصن فى محطات السكك الحديدية . . وكان المقال قبلة تفجرت شظايا فى كل بيت . وقد غضب وزير التربية والتعليم فى ذلك الوقت كمال الدين حسين . وهدد بالعقاب والفصل والسجن . . وعندما وصلت البعثة إلى ميناء الإسكندرية كان الصحفيون فى انتظارهم . . والتقطت الصور للراقصات . . وطلب منى مصطفى أمين أن أوقع على هذا الموضوع الخطير . ولكنى اعتذرت ، فأنا جمعت معلومات فقط . . ولم أكن فى موسكو . . وكانت المكافأة الأكبر مائة وخمسين جنيها !

أى تقدير مضاعف : أدبى ومادى .

ولم يعرف صديقى عادل طاهر إلا أخيرا أننى أنا الذى كتبت هذا الموضوع . . ولذلك أصر على أن يجلسنى فى مكتبه وأن نتناول غداء معا ونرى الفيلم الذى يعرض انضباط الشباب المصرى فى موسكو . . وكيف أنه أقام محاكمة ميدانية لمعاقبة كل من يخطئ أو يخرج عن الصف لأى سبب !

وقد كتبت مقالات مسلسلة . ونشرت قضايا مثيرة . . وعالجتها مشاكل حساسة جدا
بجرأة وتمنيت أن تلقى إعجابا من مصطفى أمين . ولكن باعدتنا هموم الدنيا وازدحمت الطرق
بيننا ذهابا وإيابا . . وكنت حريصا على أن أفتح أذنى لأصداء ما كتب في « أخبار اليوم » ومن
الزملاء هناك وأتساءل : وماذا قال مصطفى أمين ؟

وأخيرا جاءت جائزة « أخبار اليوم » لا عن مقالات ولا عن دراسات ولا عن قضايا مثيرة
تعرضت لها وواجهت بها وأثرت وأقلقت فالتفتت الملايين إلى الذى كتبت . . ولكن جاءت
عن كل كتبى . . ووجدت الأخوين حافظ صاحبه جريدة الشرق الأوسط ومجلة سيدتى
ومجلة المجلة من الفائزين . إذن مصطفى أمين لم يعاملنى ككاتب وإنما كمؤسسة أدبية .
شكرا !

* * *

ولا توجد « وصفة سحرية » وإنما شعورى كان دائما أننى أديب صغير - ولا يزال هذا هو
إحساسى العميق حتى الآن !

وعندى تعليقات مكتوبة بخط الرئيس السادات على كثير مما كتبت . . وعندى تسجيل
صوتى للرئيس السادات على مقالاتى « فى صالون العقاد - كانت لنا أيام » التى نشرتها فى مجلة
« أكتوبر » وقد أسمعت هذا التسجيل الصوتى لعدد من النقاد الكبار ، وسوف يجرى وقت
أضع فيه هذا التسجيل مع « صالون العقاد » إن شاء الله .

وعندى خطابات بخط يد توفيق الحكيم ونجيب محفوظ وخطابات أرسلها طه حسين ود.
عبد الرحمن بدوى أستاذ أساتذة الفلسفة فى مصر والعالم العربى . والذى أطلق عليه طه
حسين لقب : أول فيلسوف مصرى .

ولكن

ولكن كنت أتمنى أن يقرأنى الأستاذ عباس العقاد . فأول كتاب صدر لى سنة ١٩٥١ كان
بعنوان « وحدى . . ومع الآخرين » . . ولم أقدمه للعقاد ولا قرأه . فلم يكن إلا محاولات فى
التأملات النفسية والفلسفية والأدبية . وبعد ذلك صدر لى كتاب « الوجودية » ونفذ فى يوم
واحد ، وأعيد طبعه ثلاث مرات فى أسبوع واحد . ولم يقرأه العقاد . ولو قرأه لاختلف
معى . . وقد اختلفنا كثيرا حول الفلسفة الوجودية . وكان العقاد يرى فيها انحرافا عن المنطق
والذوق السليم . ويرى أن بها تضخيبا للحرية الفردية . خصبا من احترام المجتمع والدين
والقيم الأخلاقية . فلم يقرأ هذا الكتاب .

وكنت قد قررت فيما بينى وبين نفسى ألا أقدم للعقاد كل كتبى التى صدرت حتى بداية

الستينيات . فنحن مختلفان ، وليس من الممكن أن يقدر العقاد ما أكتب . ثم إننى لا أنسى كيف أن العقاد قد صدمنى بعنف فى يوم من أيام سنة ١٩٤٩ . عندما نشرت مقالا فى جريدة « الأساس » عن : معنى الفن عند تولستوى . وفى صالونه الأدبى يوم الجمعة قال لى . يامولانا مقالك عن تولستوى أعجبني جدا . . أعجبني أسلوبه !

وتحيت أن تبلعنى الأرض . ولكنها لفظتنى إلى الشارع إلى البيت ، دون أن أمر على مكتبى ، حزينا . فالعقاد أعجبه أسلوبى . أى إن إعجابه كان بالأسلوب الذى يشبه أسلوبه . ومعنى ذلك أن أسلوبى جاف خشن كأنه من الأسمت المسلح . كأسلوبه هو تماما . وتضايقت وحزنت على نفسى . كيف أننى لم أخلص من المصطلحات الفلسفية التى يصعب فهمها عند عامة الناس . ورويت هذه الحادثة كثيرا وخاصة فى كتابى « فى صالون العقاد - كانت لنا أيام » وأمسكت المقال وجعلت أعدل وأبدل وأحذف وأختصر وأوضح فيه . أكثر من عشرين مرة . وفى فترة التعديل هذه لم أذهب إلى مكتبى ولا كتبت سطرا واحدا ولا قرأت . . . وبعد أن غيرت مقالى تماما . . كنت أعرض المقال الأصيل والمقال المعدل على الزملاء . . وكانوا يندهشون لهذا الفارق الهائل . وكان الوضوح والجمال والنعموة فى مقالى المعدل !

وكنت أرى الأستاذ العقاد عنيقا فى نقده كل الناس وكل الأشياء وكل مخلوقات الله وآله الأساطير . . وكان ذلك يعجبني ولكنه يخيفنى .

وفى يوم أجرت معه الزميلة « مديحة عزت » حديثا وسألته عنى . فإذا بالعقاد يقول : من هذا الأنيس منصور ؟

من هذا ؟ أنا أحد العشاق لك وفكرك عشرين عاما لم أتخلف يوما عن صالون الجمعة . ولكنه العقاد . . ووجدت أن الحق معه . . فهو يعرفنى جالسا مستمعا متكليا أحيانا . ولكن لم يعرفنى بعد كاتباً أو مؤلفا . فأنا لم أقدم له كتابا واحدا ولا سألته رأيه . بينما بعض الزملاء يفعلون . وقد ضايقه ذلك . . ولكننى لم أشأ أن أكون فى مهبط الطوب والسهام والرصاص الذى يطلقه فى كل الاتجاهات .

وعاتبت الأستاذ العقاد ، فننى أن يكون قد قال كلاما من مثل ذلك ؟

وكتبت مقالا فى « روز اليوسف » بعنوان « عباس محمود العضاض » وقلت فيه إن الأستاذ العقاد مثل كل الأجهزة الضخمة لها مواسير عادم كبيرة . ولا بد أن يكون هذا الكلام قد خرج منها ! وغضب الأستاذ العقاد واعتذرت له ونفيت أن أكون قد قلت مثل هذا الكلام ولكنها الزميلة : مديحة عزت ! .

وفى يوم نشر « المصور » حديثا للأستاذ العقاد عن رأيه فى أساليب : التابعى ومصطفى

أمين وعلى أمين وكامل الشناوى ومحمد حسنين هيكمل وأنا . وقد جاملهم جميعا ، فيما عدا الاثنين الأخيرين . . . فقد كان حادًا وعنيفا . . . وكان رأيہ فى أسلوبى انطبعا عن المقالات الصغيرة التى كنت أنشرها فى باب « أخبار الأدب » فى صحيفة « الأخبار » ومعنى ذلك أنه لم يقرأ لى مقالاتى فى « أخبار اليوم » و « يوميات الأخبار » وآخر ساعة والجميل . وتضايقت أكثرًا فمن الممكن إذن أن يكون الإنسان قريبا جدا من الأستاذ ، وبعيدا جدا أيضا . . . نحن نراه بوضوح وهو لا يكاد يرانا .

وفى يوم حاولت أن ألفت نظر الأستاذ العقاد ، فقد نشرت عرضا لكتاب له عن أبى نواس فى مجلة « كتابى » التى يصدرها الأستاذ حلمى مراد . . . وقد أعجبه العرض . ثم قال : كأتنى الذى كتبت ذلك يامولانا ! كأتنى هو ؟ أى إننى فقط قد أعجبته لأننى ظله . . . صداه . . . صورة منه . . . وأتعسنى ذلك كثيرا !

وأتعسنى أكثر أن توفيق الحكيم طلب منى أن أقوم بتلخيص بقية كتب العقاد وأعرضها . قائلا . إنهم فى بريطانيا يفعلون ذلك بكل مسرحيات شيكسبير وروايات دكتور وغيرهما . وانزعجت جدا . . . فأى دور هذا ؟ أن أكون مدرسا فى مدرسة العقاد . . . أن أحذف من عمرى وأضيف لعمر العقاد ؟ لا يمكن .

وفى ذلك الوقت سمعت من كامل الشناوى ، أنهم كانوا يطلبون إليه فى شبابه أن يلقى قصائد شوقى . . . فكان يفعل أحيانا . وأكثر الأحيان يرفض أن يكون « مقرئا » فى كل صوان يقام لشوقى . . . فكامل الشناوى شاعر أيضا !!

ومات العقاد سنة ١٩٦٤ ولم يقرأ لى إلا قليلا . . . والقليل الذى قرأه لا يعجبه ؟ لأننى اختلفت معه فلسفيا ، هو يدعو إلى المنطقية التحليلية وأنا أدعو إلى الوجودية . . . والعقاد لا يعرف الحل الوسط : إما أن يكون هو أو ظله ، أو لا تكون . وهكذا لم أكن ! وكنت أتمنى أن يعرفنى كاتباً مفكراً مجتهدا . . . معبرا عن جيل آخر وزمان مختلف .

* * *

وفى يوم كنت أروى كل ذلك للدكتور زكى نجيب محمود وهو أحد أصدقاء العقاد ، وقد ترجم له بعض كتبه وخصوصا كتاب « فى بيتى » فإذا بزكى نجيب محمود له شكوى . وفى أعماقه حزن يعاوده من حين إلى حين .

فزكى نجيب محمود يرى أنه من أحسن كتاب « المقال » فى الأدب العربى الحديث . وإنه قد تعلم فى إنجلترا ، وأهم ما تعلمه من الإنجليزية هو فن كتابة المقال . وهو يعتقد أن المقال بالمواصفات العالمية هو الذى كتبه ونشره فى عدد من كتبه فى ذلك الوقت وخاصة كتابه « جنة

العبيط » وزكى نجيب محمود شديد الأسف ، لأن الأستاذ العقاد لم يلتفت إلى هذا الجديد الذى أدخله على المقال . سواء فيما كان ينشره فى مجلة « الثقافة » أو فى كتبه !!

ولأن العقاد هو الذى كان يهمنى أكثر من أى أحد ، فقد أحسست كأننى لم أكتب . أو أننى كتبت ولكن قارئاً عظيماً لم يعرفنى . أو لم أقع تحت عينيه . إما لأننى تهيبت ذلك ، وإما لأنه مشغول هو الآخر بنفسه ومجده ومشغول بانشغال الناس به .

هنا فقط اكتشفت عظيماً آخر . وقد حزنت كثيراً أننى لم أعرفه من قبل : طه حسين . فعندما كتبت أضيق بالأستاذ العقاد ، كنت أذهب إلى طه حسين . . والله ما أطفه ما أرقه ما أكثر حنانه ما أعمق أبوته . . ولكن استغراقى فى فكر العقاد وشخصيته قد صرفنى وأحيانى عن غيره من المعاصرين . . ولذلك أقبلت على طه حسين . وكان تعويضاً عظيماً عن خسارتنا فى العقاد وبالعقاد . وهو الذى طلب أن يكتب مقدمة لكتابه « حول العالم فى ٢٠٠ يوم » فيما أجهل وأعظم وأروع الذى قال . . ومن المؤكد أننى لم أكسب العقاد ، ولم أخسر طه حسين . . فخسارتى فى العقاد كبيرة . ومكسبى بطه حسين قليل . . ولكنه القليل الذى يساوى الكثير العميق الباقى .

* * *

وعلى الرغم من كل هذه الجوائز ، وكل هذه الكتب ، والعظماء فى حياتى أعرفهم وأقاهم وأقرأ عنهم وأقرأ لهم . فما يزال فى داخلى كاتب صغير . أما هذا الكاتب الصغير فهو الذى يصحو فى الرابعة من فجر كل يوم يقرأ ويكتب ويحار ويتعذب ، كأنه ما كتب ولا قرأ ولا نشر . وإنما هو فى امتحان يومى . . بل فى مباراة ليس لها كأس ولا دورى . . ولأننى هذا المفكر الصغير فقد أسعدتنى جائزة مصطفى أمين .

شكراً لعميد الصحافة الحديثة . . .

بنت ١٤

عندما نقول بنت ١٤ نقصد أية فتاة شابة جميلة . . آخر جمال ونحن بذلك نتصور شكل القمر عندما يكون عمره ١٤ يوما فهو البدر في تمامه . . أى أقصى ما بلغه القمر من الكمال والاستدارة .

والضوء . . وبنت ١٤ هى البدر . . .

هى بنت ١٤ . أى جميلة شابة ومجلىة « الشباب » قد ولدت لمؤسسة الأهرام على الكبر . فيوم مولدها كان الأهرام قد أكمل المائة سنة . . وما دامت قد ولدت للأهرام وهو فى هذه السن ، فلا بد أن تكون الفتاة الدلوعة الى شايقة كيفها فى الأكل والشرب والفساتين والسفر . . . إنها التى على الحجر .

ولكن بنت ١٤ هذه لم تكن دلوعة فى أى وقت . فأبوها قد أضاف عمره الى عمرها فهى بنت ١١٤ عاما : وقورة جادة لا تكشف عن ساق ولا عن صدر ولا تمشى تنقصع وتتعرج . . ولا هى ترقص وتستعرض وتشرى وتلدخن وتكون مجنونة وتنكش شعرها وتكشف صدرها وتعزى ساقها . .

شابة . . حلوة . . تفعل ما بداها . . وعندما تكبر فإن والدها ينهبها الى ضرورة أن تلايمها شوية . .

حتى الذين يتولون تعليمها وتدريبها وتقدم الدنيا لها وتقدمها للدنيا كلهم من العواجيز . . أصغرهم عنده خمسون أو ستون سنة ا

وعلى الرغم من أن الحب والهيام والعشق والخيال والسرطان هى طعامها اليومى - أو يجب أن يكون طعامها كل ليل فإن شيئا من ذلك لا نجده أمامها . . كأنها عرفت كل ذلك قبل أن تولد . وهذا يكفى .

والحقيقة أنها لم تعرف ذلك . . ولكن الذين يدرّبونها على الحياة والحب قد زهقوا من الحياة

والحب والزواج والحرية .. ملوا .. قرفوا .. ولذلك فهم لا يحدثونها .. لا يكررون أنفسهم .. وكل هؤلاء قد نسوا أن الذى عرفوه وقرفوا منه . هى لم تعرفه .. ولكنهم فرضوا عليها مزاجهم .. هم أكلوا وشبعوا .. فلم يقدموا لها طعاما .. هم شربوا وانتفخوا وأحبوا وكفروا .. وزهقوا .. ولذلك اكتفوا بتجارهم وحرموها من تجارها .. كأنهم عاشوا نيابة عنها ، وضاقوا نيابة عنها .. وأكلوا عمرها وآمالها وخيالها .. إنهم ينظرون إلى أنفسهم فى المرأة فيجدون أنهم كبوا ثم يخفون عنها المرأة حتى لا تنظر فيها لترى أنها لا تزال صغيرة !

والإغريق عندما جعلوا إله الحب طفلا صغيرا كانوا فى غاية الحكمة .. فالحب عيل .. يغضب بسرعة ويفرح بسرعة .. تسعده ظلطة ملونة فى الأرض أكثر من قصر .. فلا تضحك من الفتاة التى تقول لك : أفضل سندوتش فول وأتمشى على الكورنيش مع شاب فى مثل سنى ، على ديك رومى فى سميراميس مع رجل غنى جدا لا أحبه .. مجنونة ؟ نعم . هل تصدقها ؟ نعم .. هل تسخر منها ؟ لا .. ما هذا ؟ هذا هو سنها .. منطقها .. عقلها فى قلبها ، وقلبها فى عقلها .. إنها بنت $10 + 4 = 14$ ربيعا .. وأنت ابن الخمسين خريفا أو ستين شتاء .

وزوجة معاوية بن أبى سفيان ضربت المثل الرفيع لكل فتاة ، بعد ذلك تزوجها ولكنها لم تحبه يوما واحدا .. ثم طلقها عندما سمعها تتغنى بالرجل الذى أحبته .. ابن عمها .. هذه الفتاة اسمها ميسون :

واكل كسيرة فى كسر بيتى	أحب إلى من أكل الرغيف
وكلب ينبج الطراق دونى	أحب إلى من نقر الدفوف
وبيت تخفق الأرواح فيه	أحب إلى من قصر منيف

أى أن « فتفوتة » من رغيف أفضل من الرغيف نفسه مع معاوية .. والكلب الذى ينبج الناس وهى فى خيمة حبيبها أحب إليها من الطبل والزمير فى قصر الملك الذى لا تحبه !

وفى التوراة سفر اسمه « نشيد الإنشاد » هذا السفر فيه مجموعة الأغانى الشعبية التى كانوا يرددونها فى الأفراح .. بطللة هذه الأناشيد فتاة اسمها شولا ميت .. ضمها الملك سليمان بالقوة إلى حريمه . فغنت وتغنت بحبيبها الراعى الأسمر ذى الشعر المجعد : طعم حبيبى شفتا حبيبى .. شعر حبيبى .. فهى بنت ١٤ وهو ابن العشرين .. وهو حبيبها . قل عنها مجنونة . فليكن . ولكن هذه هى سنها وشبابها ومنطقها ..

إنك تمر على الأطفال فى الشوارع تجدهم فى غاية السعادة يتخائفون على غطاء زجاجة كوكا .. تندهش كيف أنهم يتقاتلون على شىء تافه .. فعلا تافه عندنا نحن الكبار ، ولكنه كنز عند الصغار !

كثير من الناس كانوا يعترضون على سلوكيات الأميرة البريطانية ديانا . . إنها صغيرة . . تنزل الأسواق تشتري ما تريد . . وهي ملكة المستقبل . ولكنها شابة تريد أن ترى الناس وأن يراها الناس وأن تكون على حريتها . . إنهم يريدون أن يضعوها في قفص من ذهب . ولكنها لا تريد لا القفص ولا الذهب . . كيف يكون فستانها مفتوح الصدر ؟ عيب ! كيف عارى الظهر ؟ عيب ! كيف عندما يبكى طفلها وسط أمراء الأسرة المالكة لم تجد طريقة لإسكاته إلا أن تضع إصبعها في فمه ؟ فيسكت . وهو ما تفعله كل أم . وهو سلوك سريع تلقائي . . لا تفعله إلا أم بسيطة . ولكنهم يستنكرون ذلك . فليستنكروا . . ولكنها أم تريد أن تسكت طفلها . فنجحت في ذلك !

والكاتب الأمريكي أمرسون له حكاية طريفة . كانت عنده حظيرة للمواشى . ومن بين الأبقار عجل صغير ويريده أن يخرج من الحظيرة ، ولكنه لم يستطع . فطلب إلى أولاده أن يساعده فحاولوا فكان العجل أقوى ونادى الخادمة . فتقدمت الخادمة ، وفعلت بالضبط ما فعلته الأميرة ديانا مع طفلها . وضعت الخادمة أصابعها في فم العجل فراح يرضع أصابعها . . وخرج معها !

واندهش أمرسون وقال : كل هذه الكتب التي قرأتها في الفلسفة وفي الأدب وفي الطب لم تساعدني . . واستطاعت هذه الفتاة بالتجربة والفطرة والبساطة أن تحقق هذه المعجزة !

ومن ٢٥ قرنا قال أستاذا سقراط يشكو الشباب في زمانه فقال : شباب هذه الأيام لا يحترمون الكبير . ويستخفون بالسلطة . ويضعون ساقا على ساق . . ثم يتكلمون بصوت مرتفع . إنهم شباب ولا بد من وضع الضوابط لهم !

أى لابد أن يكونوا وأن يعيشوا شبابهم وبعد ذلك نبصرهم بعواقب الانفلات . .

والفيلسوف الوجودي سارتر قال : الشباب هو مرض الطبقة البورجوازية . .

يعتقد أن تقليد الشباب ، من أعراض انحلال الطبقة الغنية في أوروبا . .

أو بعبارة أخرى : التصابي هو المرض . . أما أن يكون الإنسان شابا فليس مرضا . . وأن يتصرف كالشباب ليس مرضا . . ولكن أن يكون شيخا يتصابي ، هذا هو المرض .

وقد استطاع الشباب أن يفرض على الدنيا موسيقاه وأغانيه وأزياءه وجنون السرعة وإدمان السجائر . . والتحلل من قيود الماضي والحاضر والانطلاق إلى المستقبل . .

ولو عاش كثير من الشباب حياتهم لتغيرت الدنيا . .

يقول علماء النفس لو أن هتلر تركته أمه يمص أصابع قدميه ما أحرق الدنيا كلها . . أى لو

تركته أمه يفعل كما يفعل الطفل عندما يستلقى على ظهره ويشد إحدى ساقيه حتى يضعها في فمه . . ولكن هتلر لم يتمكن من هذه اللعبة . . أو لم يعيش هذه الطفولة . فقد حرم من الأمومة . فقد كانت أمه تعمل في بيوت الأغنياء في فيينا . . وكان أبوه في السكة الحديد . . فتهلتر قد حرم الأم ومن الأمومة . . فنقل هذا الحرمان إلى عشرات الملايين من الأطفال ! وكثير من الفنانين أيضا وهم في الرابعة عشرة وجدوا أنفسهم يعملون في الورش والمصانع كالكبار تماما . .

الفيلسوف الفرنسي روسو ذهب ليعمل في الرابعة عشرة في ورشة للنجارة . . ومن تجربته كطفل أو كشاب صغير محروم من الشباب ولذات الشباب كتب روايته الشهيرة ، في تربية الطفل والشاب ، وقد نشر هذا الكتاب وهو في الخمسين من عمره . وكان روسو قد أنجب أطفالا كثيرين ولكنه هجرهم عندما ولدوا . . وكان يقول : إننى أرسلتهم إلى بيوت اللقطاء . .

ومن رأيه : أننا يجب أن نترك الطفل بلا مدرسة . يعيش على حريته وعلى طبيعته حتى سن الخامسة عشرة . . وبعد ذلك نضبط غرائزه ونحدد طاقاته ، لكن المهم أن يكون ابن الطبيعة أولا . . وبعد ذلك ابن المجتمع أو ابن الدولة والنظام . . فالإنسان يولد سليما ، ولكن المجتمع هو الذى يصيبه بالأمراض . .

ويقول : لا تضغط على الطفل . . لا تفرض عليه عقابا . ويكفيه عقابا إذا أخطأ أن يحمر وجهه خجلا !

ومن رأيه : أن الحياة في الريف أفضل من الحياة في المدن . . والحياة في الغابة أفضل من الحياة في الريف . المهم أن يكون على طبيعته على فطرته . .

وفي الرابعة عشرة حقق عدد من الشبان الناهيين معجزات علمية . . فالفيلسوف الإنجليزي بنتام دخل الجامعة في الثانية عشرة من عمره .

والفيلسوف هوبز دخل الجامعة في الثالثة عشرة .

وميكل انجلو الرسام الإيطالى العظيم عمل صبيا لفنان آخر وهو في الرابعة عشرة . .

والفنان الفرنسي رنوار بدأ يرسم وهو ابن ١٤ .

والرسام الفرنسي تولوز لو تريك سافر كثيرا فانكسرت ساقه . . وبعد علاج ساقه انكسرت الأخرى . وكان ابن ١٤ . وظل طوال حياته متوقف النمو . . ولكن بدأت معجزته الفنية في سن مبكرة جدا . .

والموسيقار النمساوى العظيم موتسارت كتب ٧٤٠ صفحة موسيقية وهو في الرابعة عشرة . . وألف سيمفونيتين ومنحه البابا وسام الفارس الذهبى . .

والموسيقار الألماني شومان كتب أول سيمفونية وهو ابن ١٤ .

والأديب الإنجليزي هـ . ح . ولز عمل صبيًا عند ترزي وهو ابن ١٤ وبدأ الصفحات الأولى من أول عمل أدبي له . .

وأدينا الكبير خليل جبران وضع مشروع كتابه الشهير « النبی » وهو ابن ١٤ .

وشوقي أمير الشعراء كان دائم النظر إلى فوق . . ولكن الخديو نصح والديه أن يلقيا جنيهاً الذهب تحت قدميه . . حتى يبيط بصره إلى الأرض . . ففعلها مرة وكان في الرابعة عشرة من عمره . . . ولكن ظل يبحث عن ذهب وماس المعاني في السماء . .

والحب والجمال والحرية ونمو الشخصية والأحلام والانطلاق وملايين الآمال وكنوز المستقبل كلها في سن ١٤ . .

وليس صدفة أن تكون جوليت في الرابعة عشرة عندما أحبها روميو وهو في السادسة عشرة . . وعندما ولدت جوليت كانت أمها في الرابعة عشرة أيضا . .

ولا يهم ما الذي فعلته جوليت في مواجهة المجتمع العجوز . . إنها لم تستطع أن تتزوج حبيبها . . فالمجتمع أقوى والخلافات العائلية والطبقية والمذهبية أقوى ، فكان انتحارها إهانة للمجتمع وعارًا تاريخيًا . ولكن هذا بالضبط ما يفعله ابن وبنات ١٤ فالحب قوى والخيال جامع . ولكن المجتمع أقوى وأعنف وأقسى !

روميو وجوليت . .

ليلي والمجنون . .

وقيس ولبنى . .

وكثير وعزة

والقديس ابيلاز وهلويزة

والشاعر دانتى وبياتريتشه

والشاعر بتراركة ولورا

والفيلسوف كيركجورد ورجينيا

والوف من الشبان النابهين والفتيات الصغيرات الجميلات كتبوا تاريخ الحب والخيال والفطرة . وعاشت قصصهم مئات السنين بعدهم . .

قال أمير الشعراء شوقي :

أنا أنطونيرو وأنطونيرو أنا	ما لقلينا عن الحب غنى
غننا بالحب أو غن بنا	نحن في الحب حديث بعدنا

وقد جاء موسيقيون عباقرة وخلدوا حب روميو وجولييت . . فكتبوا الأوبرات الرائعة . .
منهم : برليوز وجونو ودليوس وبرنشتين وتشابلوفسكى وبروكوفيف . . كأنهم جميعا يعتذرون
لبنات ١٤ عما أصابهن من عذاب وهوان . . وهذه الأوبرات والباليهات هى أبداع ما صنع
الإنسان . إنها اعتذار الشيخوخة للشباب . . اعتذار الواقع المرير ، للخيال الحرير . .

ولم تكن شهر زاد إلا طفلة صغيرة أيضا فى الرابعة عشرة من عمرها . . واستطاعت
بموهبتها وسحرها أن تنقذ كل الفتيات من جنون الملك الذى خائنه زوجته فقرّر أن يقتل كل
زوجاته . . وكان يقتل واحدة كل ليلة . . حتى جاءت بنت ١٤ وأنقذت الألوف من بنات
جنسها وفى مثل سنّها ، وأكبر وأصغر . .

ففى كل يوم تحتفل واحدة أو واحد بعيد ميلاده الرابع عشر . يقول الشاعر القديم . .

ألا ليت الشباب يعود يوما فأخبره بما فعل المشيب !

ويجب ألا نصدق الفتيات الصغيرات عندما يذهبن إلى الحلاق ويصبغن بعض الشعيرات
باللون الأبيض . . إنهن لا يردن الشيخوخة المبكرة . . إنهن فقط يتلاعبن باللون . . ويجب
ألا تصدقنا الفتيات عندما نصبغ شعورنا باللون الأسود أو البنى - فنحن لا نتلاعب بالشباب
وإنما نحن نتمناه ونتوهمه ونبكى عليه . .

يجب ألا نجعل الشباب يأسف على شبابه وهو يعيش فيه . .

يجب ألا نجعله يشعر بأن الشباب مرض يستوجب العلاج ، أو غلطة تستحق العقاب . .

الملك والمكة .. وأنا

كان لابد أن نذهب إلى محطة حديد (أبو حصص) لكي نقف تحية للأمير فاروق العائد بعد وفاة أبيه الملك فؤاد . . وفي ذلك الوقت لم أكن أعرف معنى كلمة ملك . . ولكن لابد أنه أكبر واحد في مصر . . وكنت قد انتقلت من مرحلة أن والدي هو أكبر رجل في الدنيا إلى مرحلة أن شيخ الخفر أكبر من والدي . . مع أن والدي في ذلك الوقت كان مأمور تفاتيش زراعة عدلى باشا يكن . . ولكن كنت أرى أن شيخ الخفر أكبر وأقوى . . .

هل لأن له زيا خاصا وشاربا طويلاً . . وأن عددًا من الخفراء يمشون وراءه . . أو يقفون عندما يجيء أو أنه دائم الشخبط والنظر . . إذن فالملك أقوى من الجميع . .

وجاءت قطارات كثيرة من هذه الناحية ومن الناحية الأخرى . . وأنا أحب شكل القطار وصوته . . وصوت العجلات على القضبان واللمعان في زجاجه . . وإنه يجيء من المجهول ويذهب إلى المجهول . . ولا أضيق برائحة الفحم الذي ينبعث من القطار . . وأكثر شيء يبهرنى في القطار هو منظره وهو واقف في المحطة وصوته وهو يستعد للرحيل . . فهو يبذل مجهودًا قويًا لكي يمشى . . ويجرى وينطلق ويختفى . . ومنذ ذلك الوقت وأنا أجد متعة الكبرى في السفر بالقطارات بين العواصم الأوروبية . . متعة أن أركب القطار بين الغابات فوق الجبال في داخل الأنفاق وتحت الجسور وفوقها . . وأن أنظر من نافذة القطار أراه شعبانا يتلوى وينسحب وينفذ كالسهم ناعما سحريا . . وكم نمت في القطار بين باريس وفيينا وبين براغ وروما . . وبين برلين وكوبنهاجن . . إنه أروع وسيلة للمواصلات اخترعها الإنسان . . لقد وجدت للموسيقار الروسى برودين ألف عذر . . فقد كان يحفظ جداول القطارات . . وكان يقف بين ضيوفه ويصرخ : لقد تأخر ثلاث دقائق . . لقد تأخر . . شيء عجيب ! ويندهش الضيوف ويسألونه ويكون الرد مفاجأة لهم . . فهو يعرف مواعيد القطارات كلها . .

مواعيد القطارات المتجهة إلى موسكو والخارجة منها إلى كل المدن الروسية !

وقد استقر هذا الانبهار فى أعماقى منذ الطفولة . . ولذلك كان شعورى غامراً فى انتظار القطار الذى ينقل أقوى شاب فى مصر . كان يدرس فى بريطانيا ، ولما مات أبوه الملك فؤاد جاء ليجلس على عرش مصر . . يا ترى كيف يكون شكل القطار . . لابد أن يكون مختلفاً أكثر لمعاناً وأسرع . ولم يخطر على بالى فى ذلك الوقت إن كان سيقف أو ينزل منه الملك الجديد ويصافح تلاميذ المدارس . . لقد انشغلت عنه باكتشاف هام جداً . . فقد وجدتني أمسك يد طفلة صغيرة شقراء . . وشعرها ذهبى وعيناها زرقاوان . . أول طفلة بهذه المواصفات . . وظللت أضغط على يدها . . وأرفعها أتأملها . . وتخيلت أنني أستطيع أن أرى الأشياء وراء يدها كأنها زجاج . . ونظرت إلى وجهها إنه جميل . . وعيناها عميقتان . . هل ابتسمت هى . هل ابتسمت أنا . . هل كان فى نيتى أن أشاركها السميطة التى فى فمها . . وعندما اقتربت منها لم يكن فى نيتى أن أقبلها . . ولكنى قبلتها . . طفل يقبل طفلة . . وفجأة وجدت قلماً على وجهى . . وتركت يدى الطفلة . . والطفلة هى الأخرى تركت يدى . . ووجدتني ملتهب الوجه وحدى . . هل وسط هذا الحريق الذى اشتعل فى رأسى جاء قطار الملك . . وهل رآه الأطفال . . وهل رأهم . . وهل نزل الملك فاروق ليصافح الأطفال ؟ لا أعرف . ولكنى وجدت نفسى فى الطريق وحدى إلى البيت . . لأقول لأمى إننى اصطدمت بأحد الأطفال فاحمر وجهى . .

ولا أذكر أنني تحدثت عن الملك الذى مات والذي جاء يجلس على مقعده حاكماً لمصر . . ولكن ظللت سنوات طويلة ، كلما ذكر اسم الملك فاروق تسحبت يدى لتغطى خدى . . أو تلمسه كأن خدى قد التهب فجأة ، وخشيت أن يراه الناس فحاولت إخفاءه !

إذن لابد أن تقبيل طفلة من طفل فى مثل سنها عيب . . أو غلطة . . هل لأن ذلك حدث أمام الناس . . هل لأن القبلة لم تكن بريئة . . لا أعرف وهل العقاب جاء لأننى قمت بعمل إرادى وإع تماماً ؟ على كل حال إن القلم على خدى كان عقاباً لوعى جنسى مبكر . . ولكن علماء النفس يرون تصرفات الإنسان منذ الرضاعة حتى التدخين كلها جنسية . . فليست هذه القبلة فقط . . وإنما وضع يدها فى يدى . . والاقتراب منها بسبب وبغير سبب . . ثم إن الطفلة لم تكن تأكل سميطة وإنما هى تمسح فمها بيدها من حين إلى حين . . وتخيلت وأنا طفل أنها تأكل شيئاً ، وأنى أريد أن أشاركها هذا الشيء !

وبعد ذلك ظهرت صور الملك فاروق على أغلفة المجلات المدرسية . . ومجلات الأطفال . . ثم صورة الملكة فريدة . . وكانت جميلة . . ولها ابتسامة حلوة . . وهى شديدة الاحتشام . .

والملك الجديد جميل الصورة واقفاً إلى جوارها . . واقفاً وهى جالسة . . على عكس العادة

الفرعونية القديمة . . أن يجلس الملك وتقف الملكة وتضع يدها على كتفه . . تماما مثل تمثال نهضة مصر . . فالفلاحة المصرية وضعت ذراعها على كتفه . . والذراع الأخرى رفعت بها ثوبها . . ومنظر تمثال نهضة مصر لا يدل على أن الفلاحة تريد أن توظف أبا الهول . . وإنما هي تطلب عليه كأنها تقول له : خليك نايم ياخويا . . يعنى الى قاموا خدوا إيه . . صحتك بالدنيا يا ضنايا ! .

ولا أظننى رأيت الملك « فاروق » قط . . وإنما فى السينما فقط . . وفى المجلات . . وكذلك أميرات الأسرة المالكة . .

ثم الصور والحكايات المثيرة التى تنشرها (أخبار اليوم) عن الملك فاروق . . وكلها حكايات غريبة عجيبة . .

وهى تحكى أن الملك الشاب مستهتر . . ذئب . . وأنه يطارد الراقصات فى كل مكان . . وكل مكان فيه باب سرى لدخول وخروج الملك دون أن يدري به أحد . . وإن الملك يلعب القمار وإنه يسرق اللواحات الذهبية التى تعتمد الناس أن يتركوها له . . فهو من الناحية النفسية مصاب بمرض اسمه العلمى (كليبتومانيا) - أى جنون السرقة !

وفى ذلك الوقت كنت غارقا فى دراسة الفلسفة - والفلسفة الوجودية بصفة خاصة . . وفجأة أطلق الملك (الصالح) لحيته . . وقيل إنه من سلالة رسول الله عليه الصلاة والسلام . . كيف؟ فى ذلك الوقت لم أستطع أن أعرف فقد كنت مشغولا بالفلاسفة سارتر وهيدجر والشيخ حسن البنا . . وكنت واقعا فى قوة جاذبية الأستاذ العقاد . .

وفجأة قرأنا أن الملك قد طلق زوجته الملكة فريدة . . ولها حكايات وحكايات . . وإنه عندما قرر الطلاق جاء فى بيان القصر الملكى . . لقد شاءت إرادة الله - أى شاءت إرادة الله أن يكون طلاق . . وأن يكون زواج جديد لتلميذة فى المدرسة السنية اسمها ناريان وهى التى أنجبت له الولد الوحيد ليكون وليا لعهد مصر . . فالملوك يحتاجون إلى الولد الذى يرث العرش . . وأعطته الولد الذى تمت ولادته قبل حريق القاهرة بأيام . . ذلك الولد هو الأمير أحمد فؤاد الذى جعلته ثورة يوليو ملكا على مصر . . ثم عينت وصيا عليه ضابطا هو رشاد مهنا . . وهذا الولد جعلوه ملكا سابقا وهو رضيع أيضا !

وخرج الملك الرضيع من مصر ولم يعد إليها إلا لكى يمشى فى جنازة والده الملك فاروق (٤٥ سنة) - وكان الرئيس السادات هو الذى وافق على نقل جثمانه بالطائرة وأن تقام له جنازة ويدفن فى وطنه مصر . . وإن من حق كل مصرى يموت فى الخارج أن ينقل جثمانه على نفقة الدولة إذا لم يكن قادرا على أن يعود على نفقته . . فقد تأثر السادات بها حدث للزعيم المصرى

محمد فريد الذى مات ولم يجد أحداً ينقل جثمانه بعد أن ضحى بكل ما يملك من أب
وفى سنة ١٩٥٢ قررت أن أترك العمل فى جريدة (الأهرام) وأن ألتحق بأخبار الـ
فى جريدة الأخبار الجديدة . . وأول شيء فعلناه هو أن أقوم بإجازتى السنوية . .

وسافرت إلى أوروبا على ظهر الباخرة اسبريا ضمن مجموعة تضم د . عبد العزيز
رئيس الوزراء السابق ود . عبد المنعم البنا رئيس البنك المركزى ود . حسن عثمان عا
الذى ترجم (الكوميديا الإلهية) للشاعر الإيطالى دانتى والذى توفى يوم مات طه .
يدر به أحد سنة ١٩٧٣ . . وعددا من ضباط البوليس أذكر منهم اللواء حسنى
الذى نظم لنا هذه الرحلة فهو د . مراد كامل أستاذ أساتذة اللغات الشرقية . . و
١٧ لغة قديمة وحديثة بلهجة مصرية صميمة ١٩

وفى الباخرة سمعنا أخبارا تقول إن ثورة وقعت فى مصر . . ولم أعرف معنى ثو
مثل الثورة الفرنسية ؟ مظاهرات . . مذابح وإعدام للملك والأسرة المالكة . . ثورة !
وكل من على الباخرة يتحدث عن الثورة الفرنسية . . ولكن ليست لدينا أية معا
الذى حدث فى مصر وكيف حدث . . حتى وصلنا إلى الشاطئ الإيطالى
الصحف . . ورأيت صورة لواحد اسمه محمد نجيب . . شكله سودانى هو
بالثورة . . يعنى ماذا عمل ؟ لا أعرف . . والصحف الإيطالية تقول كلاما عاما .
وجدنا الجانب الفكاهى للثورة فمعنا اللواء حسنى نجيب . . وقدمناه للناس عا
زعيم الثورة المصرية . . وقد انفتحت لنا أبواب كان يجب أن تظل مغلقة بسبب أد
لقائد الثورة المصرية . . وكنا نتلقى التهانى على قيام الثورة . . ولم نكن نعرف ما ا
لمن يهتثنا بالثورة . . هل نقول له : عقبال عندكم . . هل نقول له كنا نعرف أن
قادمة لا محالة . .

سمعت بعض الزملاء يقولون إنهم كانوا يتوقعونها . . وكل واحد عنده حكاية
ولكن ظللت طوال الوقت لا أعرف بالضبط ماذا حدث . . وفى الأيام التالية و
للدبابات فى الشوارع وضباطا وجنودا . .

أما أشهر رجال الثورة فهو أنور السادات . . فقد كان مشغلا بالسياسة ومتو
الوزير أمين عثمان . . وكان هاريا من البوليس . . أما بقية الأسماء التى ظهرت فى
فلم يكن من بينها واحد يعرفه الناس . . فجبال عبد الناصر كان مجهولا من كل
وظل مجهولا إلى سنوات من الثورة ، عندما أسفر عن وجهه وعن دوره فى الإعداد
والقيادة . . فهو قائد الثورة الحقيقى !

وانشغلت تماما عن الذى حدث فى مصر .. فما حدث قد حدث .. وليس لى دور ..
ولا أعرف كيف أفكر .. وسوف تظهر المعالم أوضح فيما بعد .. وانشغلت بكل ما أحب فى
إيطاليا والنمسا وألمانيا .. ورحت أتمسح بعقلى وقلبى فى كل رموز الحضارة الأوروبية ..
هنا .. فى هذا البيت .. وفى هذا الشارع وفى هذا المتحف وفى تلك المكتبة .. وعلى المقهى
وفى مواجهته وعند النافورة وحولها .. وجعلت قلبى كرة فى شوارع روما تتدحرج مع شارع
ناسيونالى وتتخبط فى شارع دلكوريسو .. وتستحم فى نافورة الطرق الثلاثة .. وتنزل قطرة
قطرة من نافورة ايسدرا .. ما هذا الذى فى روما .. ما هذا الذى يتولانى .. ما هذا الذى
يذيقنى ويجعلنى ماء ويجعلنى نبيذا .. وينفخنى نسيئا ويشيرنى عطرا .. ويطلقنى شعاعا
تائها ضائعا .. ويتمنى أن يظل كذلك إلى الأبد !

وفى يوم قابلنى الصديق الصحفى الفريد عبد السيد ودون مناقشة اتجهنا إلى حدائق بور
جيزى فى روما .. فى مكان قريب من سفارتنا الجميلة .. ودون اتفاق دخلنا كباريه (فيلا
فرايكا) ..

الكباريه صغير غامض المعالم .. هامس الألوان .. ساحر الموسيقى ، قلت له : ما
رأيك ؟

قال جميل ..

ودخلنا .. ولم يكن فى الكباريه الصغير أحد سوانا .. هل لأن الساعة مبكرة .. هل
لأننا هربنا من المطر الغزير فدخلنا أقرب مكان .. هل تعبنا من المشى . هل الكلام بيننا
طويل ونريد أن نكملة جالسين ..

وفجأة وجدت الفريد عبد السيد قد نقل مقعده فى مواجهتى .. وظهر عليه اضطراب
شديد .. مالك ؟ قلت له فقال : الملك ؟

قلت : مش فاهم !

قال : الملك أمامك !

قلت : من هو الملك ؟

قال : فاروق يا أخى ؟

ونظرت .. ووجدت الملك « فاروق » .. ومن حين إلى حين أنظر إليه .. فالمسافة بيننا
حوالى مترين .. الملك جالس مع عدد من الرجال .. ومن بينهم سيدة سمراء .. وهذا
الذى يجلس ناحيتنا هو سكرتيره أمين فهيم .. والذين جلسوا فى المنضدة التى وراءه هم من
الحرس الإيطالى .. وكان الملك منهمكا فى الكلام .. يشرح ماذا حدث فى مصر . وكانت

هذه أول رواية عن ثورة مصر أسمعها من ملك مصر . . وكان صوته مرتفعًا وهو يتحدث الإيطالية بطلاقة مع استخدام بعض الكلمات الإنجليزية والفرنسية . . وكان يضحك عاليًا .

وقال الفريد : تفتكر ايه الى يقدر يعمله فينا الملك ؟

قلت : ولكن الحراس حوله قد يتخيلون أننا جئنا من مصر لنقتله !!

وفجأة جاءت إحدى الفتيات وجلست تقول لنا : أنا وواحدة زميلتي قد تراهنا . . هي تقول إنك أنت مصري (وأشارت بيدها ناحيتي) وأنت يوناني (وأشارت إلى الفريد) . .

أما إن الفريد شكله يوناني أو أسباني فهو صحيح . . وأما إنني أبدو مصريًا فهو صحيح أيضا ، ولكننا بسرعة أنكرنا ذلك وأنا قلت لها : إنني من أصل إيطالي . . ولذلك أتكلم الإيطالية بطلاقة . . ولكني من الأرجنتين . .

فقلت للأسبانية : أنا أتكلم الأسبانية . . فقلت بسرعة : ولكني أفضل الإيطالية ! ثم تكلمت بالعربية مع الفريد : ويعدين في المصيبة دي ؟

فقلت الفتاة : هذه لغة عربية . . فأنا لي أصدقاء من السعودية ومن لبنان . . وأعرف بعض الكلمات . .

ثم نهضت وفي هذه اللحظة فكرنا أن نهرب من المكان . . فقد تخيلت أشياء كثيرة . . من بينها أن الملك عرف أو تأكد أننا مصريان . . أو أن الفتاة أخبرت أحدًا بأننا نتكلم العربية . . وسبعنا الملك « فاروق » يقول بالإيطالية : طبعًا لا يهمنى . . وماذا يريدون أكثر من ذلك . . هؤلاء الأولاد . . لقد أخذوا كل شيء . . وسوف يهربون مصر . .

فقلت لزميلي : إنه متأكد أننا مصريان . . وأنا جئنا وراءه هنا . . وأنا موفدان لاغتياله . . وكلما نظرت إلى حراسه والسلاح الذي في أيديهم شعرت بالفرح . . ما رأيك ؟

ولم تكن قد طلبنا طعامًا بعد . . وبسرعة نهضنا . . وخرجنا ليغرقنا بمطر غزير . . لقد كنا نحتاج إلى هذا المطر فالذي في رأسي وساوس ومخاوف ولا نعرف ماذا يمكن أن يحدث لنا ؟

ومشينا بسرعة والمجهنا يمينا ويسارا ويمينا . . وكانت الدنيا مظلمة تمامًا . . والسيارات سريعة مجنونة . . وكانت تطلق علينا كراييج من المياه التي تجمعت في الشوارع . . فالمطر من فوق ومن تحت . . . وكان المطر باردًا . . وتوقفنا لنعرف أين نحن من وسط المدينة . . ومن فندق (سانتا كيارا) الذي نزلنا به . .

قلت : أنا معى عنوان فتاة كانت معنا على ظهر الباخرة . . إنها موظفة في أحد المستشفيات . . واعتقد أنها قريبة من هذا المكان . . ما رأيك ؟

ولم ينطق بكلمة وتوغلنا في الظلام . . الشوارع نوع من الظلام الملتوى . . أو إنها صور وأشكال وألوان من الغموض الذى تظهر فيه أضواء خافتة . . كأنها بوارق الأمل . . أو نوع من اليقين . . وأخرجت الورقة من جيبى . . وقرأت العنوان . .

أما الذى سوف نقوله لها فهو أننا كنا قريبين من البيت ولم يخطر على البال أن أمطاراً غزيرة سوف تسقط . . ولأننى مسافر غدا إلى النمسا . رأيت من الواجب أن أمر عليها للسلام والتحية . . أو إن ملابسنا قد تبللت ولم نستطع أن نجد « تاكسى » وأملنا أن تساعدنا فى استدعاء تاكسى . . وبعد دقائق نصافحها ونعود إلى الفندق . .

وانفتح باب شقتها وظهر رجل طويل عريض . . قدمت له نفسى وقلت إنها جئت لتحية الأنسة سيلفانا ماريللى وقد التقيت بها على ظهر الباخرة قادمة من قبرص وهى إيطالية فرنسية الأصل . . فضحك الرجل الذى اندهش لرؤيتنا وقال : تفضلوا . . إن زوجتى سوف تحضر حالا . .

زوجته ؟ إنها لم تقل لنا إنها متزوجة . . وليس معقولا أن تكون قد تزوجت فى الأيام الثلاثة الماضية . . وجاءت سيلفانا . . لقد كانت أكثر جمالا . . ورشاقة وسعادة وقدمتى لزوجها . . وقالت : صحفى وأديب وفيلسوف وعنده حكايات لا أول لها ولا آخر . . وقد كاد يقتلنى من الضحك فكل الذى كان يحكيه من التاريخين الإيطالى والفرعونى . .

وقدمت لها صديقى ثم كانت المفاجأة التى جعلتنى أذوب فى مقعدى . . واقترب منا زوجها واسمه نائينو أو نلليينو . . كارولينو . . وقال : شىء عجيب جداً . . ومصادفة لا يتصورها العقل . . لقد رأيتكما فى كباريه (فيلا فرانكا) فأنا أعمل حارسا للملك فاروق !

أما الذى قاله حتى مددت يدى مصافحا مودعا شاكرًا ، فلا أذكر منه شيئًا . فالرجل مهذب ولكن كرجل أمن ، كلامه غليظ وأكثره يحمل لهجة الشك وسوء الظن . .

ولم نشأ أن نطلب مساعدة فى استدعاء تاكسى . . ومشينا ومشينا وكان المطر قد تضاعف . . ولكن ملابسنا مبللة . . ودخلنا أحد المطاعم ننفض عنا المطر ونشعر بالدفء . . ونحمد ربنا على سلامتنا ونجاتنا . . من أى شىء ؟ نجاتنا من أيدي البوليس الذى يحرس الملك « فاروق » ؟

وقد أدعى ضباط مصريون كثيرون بعد ذلك أنهم الذين وضعوا السم للملك فاروق فى طعامه !

وتشاء المصادفة أن أسافر إلى جزيرة كابرى . . وأن أركب الحنطورية إلى أعلى مكان فيها . . حيث توجد مطاعم كثيرة . . واخترت واحدا وكانت صاحبتها سيدة عجوزًا . . ومعها

ابنتها . . ويقولون حفيدتها . . أما الابنة فهي نموذج للفتاة الإيطالية . . طويلة سمراء ممتلئة من كل مكان من جسمها . . الساقان ملفوفتان مستديرتان . . وقد تعرى أكثرهما . . فهي ترتدى بنطلونا قصيرا كالذى كانت ترتديه الممثلة سلفانا مانجاو في فيلم « مرارة الأرز » وكذلك النهدان بارزان . . متمردان . . وبينهما يتدلى عقد له حبات كبيرة . . كأنها حبات الشمس وبين الحين والحين تمد يدها لتخرج إحدى الحبات من بين نهديها . . كأنها تتعمد ذلك . . وعنقها الطويل قد تغطي بعقد ملفوف عدة مرات . . ومن أذنيها تدلى قرط كبير يلامس كتفين عاريتين . . أما البلوزة فهي مفتوحة من الظهر . . وعيناها واسعتان عسليتان تنظران إلى عينيك . . وشعرها كستنائي منكوش . . وهي تطل بوجهها الجميل الوحشى من وسط هذه الغابة من الشعر والورد تعلقت على جانبي الوجه . . وسألت الفتاة الجميلة : ماذا تريدین ؟

- ماذا تقصد ؟

- عندما تستخدمين كل هذه الأسلحة الفتاكة . . ماذا تريدین من الناس ؟

وتعالى صوت جدتها وهي تقول : أجيبي عن هذه الأسئلة . . قولى . . أنت كل يوم تجلسين أمام المرأة ساعة ترين وجهك وظهرك . . وتقفين على المقاعد لكى ترى ساقيك من الأمام ومن الخلف . . ثم تنظرين بعينيك إلى المرأة كأنك تريدین إغراءها . . أجيبي عن هذه الأسئلة . . ماذا تريدین . . أنت لا تريدین الزواج ! إذن لماذا كل هذه الألوان في كل مكان من جسمك ؟! أجيبي .

قالت : أبدا . . ولا حاجة . . لأننى أجد متعة في النظر إلى نفسى في المرأة وسعيدة بأننى جميلة . . أن أحدا لا يقاوم النظر ناحيتى . . لا أحد . . حتى الذى يتظاهر بأنه يتجاهلنى إذا نظرت إليه فجأة وجدته يتفحصنى من فوق لتحت . .

قلت : أنت مجرمة !

- وأنت جريء !

- أنت جمالک يغیظ أى إنسان !

- وأنت ماذا تريد ؟

- من واحدة مثلك .

- نعم .

- مجرد النظر إلى هذه الألوان البديعة . . إلى هذه الخطوط الناعمة الموسيقية في كل ملامحك . . أنت عجيبة . . أنت مجنونة الجمال . . أو جمالک يدفع إلى الجنون . .

- كفى . . لا تقل . . فأنا أعرف ما سوف تقوله بعد ذلك أنتم جميعا تقولون عبارات واحدة . . . إن الرجل إنسان محتل . . منذ يومين قابلت ملكا مطرودا من بلده . . قابلته تحت الماء . . كان يتفرج على جسمى تحت الماء واستخدم منظارا كبيرا . . ولما خرج من الماء قال لى لو رأيتك قبل الزواج لجعلتك ملكة على مصر ! وأنت ماذا تريد أن تقول ؟ !
- ولا حاجة . . ليس عندي ما أقوله لك . . إلا أننى لو كنت غنيا لأقمت لك فندقا على النيل فى مصر .

- فى مصر أيضا ؟

- نعم . . لأننى مصرى . .

- أنت تعرف هذا الملك إذن ؟ . . إنه يتوقف كل يوم ويبحث لى بتحيته . . ويشترى أى شىء ثم يدفع أضعاف أضعاف الثمن . . وقد طلبت جدتى أن أذهب إليه وأن أقبله شاكرة .
- وفعلت ذلك ؟

- لا . . إن جدتى تحب الفلوس . . ولا مانع عندها أن أفعل أى شىء مقابل مبلغ من المال . . ولذلك فأنا أحب نفسى وأحترمها وأحتقر جدتى . . ولولا أنها تحبنى وأنها التى ريتنى بعد موت أمى لتركته منذ وقت طويل ! هل أنت غنى ؟
- جدًا . . .

- وما هى مشاريعك ؟

- أن أعيش سعيدا بها عندي من المال . .

- ما دمت قد ذكرت السعادة فأنت من المؤكد فقير جدًا . . لأن الأغنياء يريدون أن يكونوا أكثر ثراء وذلك بالعمل واستخدام أموالهم . . أما الفقراء أمثالنا فهم الذين يدفعهم اليأس لى الكلام عن السعادة بإنفاق ما فى الجيب لأنهم لا يضمنون ما فى الغيب . .

- أنت فقير قطعاً !

- نعم . . .

- الآن أستطيع أن أحبك . .

- تحبين فقيراً لا تعرفينه ؟ !

- وأنت ألا تريد أن تحبنى . . مع أنك لا تعرفنى ؟ !

- أنا أحب أن أتفرج عليك . . تحفة . . فنية . . ولكن لا أستطيع أن أحملك لى بلدى . .

أخشى أن تأكلك الذئاب . . أخشى ألا تصلى سليمة إلى مصر . . فإذا وصلت فسوف أنحول
إلى خفير يجرسك . . أنت جميلة زيادة عن اللازم . . وجمالك سوف يدعو للصمص . .
سوف يجذبهم . . وهم معذورون إذا سرقوك أو حتى قتلوك .

- يعنى إيه ؟

- ربنا يحميك . . .

- من إيه ؟

- ربنا يحميك ويخلصك !

- تأكل إيه ؟

- أى حاجة من أيديك وعلى مرمى من عينيك . . أى حاجة !

- انتظر قليلا وسوف يجرىء الملك . . إنه يستحم هناك (وأشارت إلى مكان بعيد في
البحر) . . ماذا تريد الآن ؟

- أريد أن أساعدك . .

وبسرعة ألقت فوطة وقطعة من الإسفنج . . لا أعرف من أين أتت بهما . . وأشارت إلى
الأكواب والأطباق . . ثم رمت بمقشة إلى الفريد عبد السيد . . ودخلت المطعم الصغير . .
وأشارت إلى ما يجب أن يعمل كل واحد . .

وفجأة ظهر الملك فاروق .

وقال لها بالإيطالية : أنت وجدت عددًا من المساعدين ؟

قالت : أنا سعيدة بذلك . . تفضل جلالتك . . هات يا انيسينو (تقصدينى أنا) مقعدًا
هنا . . ومنضدة هناك . . وبسرعة . . وبسرعة . .

والآن أرى ملك مصر بوضوح شديد . . ليس طويلا كما كنت أتصور . . وإنما هو
متوسط القامة وله كرش عظيم . . وكرشه يتحرك يمينا وشمالا . . ثم إنه غير قادر على أن
يضع ساقا على ساق . .

وساقاه نحيفتان جدا مثل ساقى جمال عبد الناصر . والشعر كثيف فى صدره . وليس
كذلك فى ذراعيه أو ساقيه . . وهو أصلع تماما . . وله شارب صغير خفيف . . وعلى شفته
السفلى علامة . . لعلها « عضة » أو هى بالفعل . . وهو يلمسها بأصابعه من حين إلى
حين . . وتظهر على وجهه آثار السعادة بذلك . . وهو يحاول أن يلفت النظر إليها . . وقال
للفتاة واسمها سيلفانا : إن واحدة فى مثل جمالك هى التى حاولت أن تجعلنى بغير شفتين . .

فقالت : وجلالتك ماذا فعلت لها . . ما الذى أكلته منها . . أو إنك لم تجد فيها شيئاً يستحق الأكل ؟

فقال : ولكن الرجل المهذب لا يأكل المرأة . .

- فعلا . . لا يأكلها ولكنه يقتلها . . هاها . . هاها !

- إذا كانت فى مثل جمالك . (وأشار ناحيتنا وبرقت عيناه وقال) من أى البلاد هما - من أى البلاد ؟ من مصر !

وقفز الملك من مقعده . . وأحس كأنه انفضح . . أو كأنه تحول فجأة إلى واحد من الناس . . واحد مثل بقية الناس . . يعاكس الجميلات . . ويتباهى بأنه يعرف غيرها . . ويدعوها إلى أن تكون مثل الأخريات . . ولم يشأ هذه المرة أن يشتري شيئاً أو يدفع شيئاً كما اعتاد فى كل مرة . .

ولم يشأ الملك فاروق أن ينظر ناحيتنا أو يعلق بشيء . . وإنما وضع قبعته الضخمة ومنظاره الأسود ومضى بالمايوه المشجر ووراءه الحراس ، ونحن ننظر إليه بشجاعة ولا مبالاة . . ورأينا فتاة شقراء تلحق به . . وتضع يدها على كتفيه ويلف ذراعه حولها . . ويختفى وسط الألوف لا يدري به أحد !

وكانت هذه هى المرة الوحيدة التى أرى فيها الملك « فاروق » الأول . . والآخر !

. . وصملت محرراً فى (روز اليوسف) إلى جانب اشتغالى محرراً بجريدة الأخبار ومدرسا للفلسفة بالجامعة . . ولم تنقطع صلتى بسيلفانا . . ولا انقطعت خطاباتنا . . ولا أحلامنا . . وأحلامنا المشتركة . . ثم إننا سافرنا معا إلى برلين وإلى موسكو . . وكانت تحلم بأننا التقينا بالبابا وقلت له وقال لنا . . وأننا التقينا بسقراط . . وقالت له وقلت له . . كل ذلك فى خطابات جميلة بديعة تحفة من الأدب الإيطالى الحديث .

وطلبت إلى سيلفانا أن تبعث لى كل يوم بأخبار الملك فاروق وكنت أنا الوحيد الذى فى روز اليوسف ينشر أخبار الملك فاروق وسامية جمال وكانوا يسمونها راقصة مصر الرسمية . . وكانوا يضعون العلم المصرى فوق الفندق الذى تنزل به فى مدينة دوفيل الفرنسية . . وكنت أنشر كل ما تبعث به سيلفانا . هكذا : باريس من سيلفانا ماريللى . . روما من سيلفانا ماريللى . .

. وفى ذلك الوقت كنت أتقاضى ثلاثة جنيهاً فى الأسبوع من روز اليوسف . . ووجدت من حقى أن أطلب بمكافأة أكبر . . فذهبت إلى صديقى إحسان عبد القدوس ورئيس تحرير روز اليوسف . .

فقال : إن ماما هى وحدها التى لها هذا الحق !

أى السيدة روز اليوسف وحدها التى تملك رفع المكافأة . وبعد مناقشة طويلة وشاقة رفعت المكافأة إلى أربعة جنيهات فى الأسبوع . وكان ذلك حدثا كبيرا لم يستطع أحد أن يصدقه فى روز اليوسف . . لدرجة أن المرحوم العقيد عبد المنعم السباعى الذى كان يتقاضى عشرة جنيهات فى الشهر عن بابيه المشهور « جراح قلب » وقف بملابسه العسكرية على المقعد وراح يرقص طربا واحتفالا بهذه العلاوة الضخمة !!

والفضل يرجع إلى سيلفانا ماريللى وحدها . .

ولما خشيت أن يستخدم أحد اسم سيلفانا ماريللى كتبت مقالا فى (أخبار اليوم) أتحدث فيه عن مصرع سيلفانا ماريللى فى حادث سيارة !

وكانت السيدة ناريان مدعوة لتناول الشاي عندنا ، فلم تحضر ولم تعتذر . وعرفت أنها لا تزال تضيق بمثل هذه الأخبار التى نشرتها فى نفس اليوم فى مجلة (أكتوبر) . ومن الطبيعى أن تكون حزينة على الرجل الذى أحبه وجعلها ملكة على مصر وابنها ملكا .

وكانت قد أرسلت ناريان صادق أحد ابنيها لترتيب لقاء بيننا لأعاونها على كتابة مذكراتها . . وقد أدى هذا الخبر إلى إلغاء هذا المشروع !

ولم يكن اسم سيلفانا ماريللى إلا واحدا من الأسماء المستعارة التى اتخذتها فى حياتى الصحفية . . فقد كتبت تحت أسماء كثيرة : شريف شريف . . وهالة أحمد . . وعلا جعفر . . وصلاح الدين محمد وسيلفانا ماريللى . .

وظللت أتابع أخبار الملك فاروق ومذكرات عشيقاته الإيطاليات والاسبانيات والأمريكيات . . والمذكرات المفبركة عن الحياة مع الملك فاروق . .

ولكن الملكة فريدة قد وعدتني بأن تفضى إلى بأسرار كثيرة لم تنشر . . وتهيات لذلك تماما . . فأنا احترم الملكة فريدة وأجد متعة فى الحديث إليها . . وهى أيضا واتفقنا على موعد . . وكان المرض أسبق إليها . . واستأنفنا الحديث وهى على فراش المرض . . فكان الموت أسبق إليها . . فماتت وأسرارها معها . .

كان الملك فاروق قد قرر أن يموت مظلوما مجهولا للشعب الذى حكمه ستة عشر عاما . . كان شابا محبوبا ورجلا بشوشا . . تغلب عليه الذين حولوه حتى أفسدوه ومصر كلها . . فكان لابد من ثورة . . هذه الثورة قد أنت لمصر بأكثر من ملك ، لم يكونوا أحسن حالا من فاروق . . ولا كانت مصر أسعد حالا وقد رأينا من رجال ثورة يوليو العجب العجائب . . فكأننا نخلصنا من ملك واحد لنأتى بعشرين ملكا أكثر بطشا وعداء للشعب الذى أتى بهم إلى الحكم !

وفي يوم كنت في باريس . وقال لي صديقي : تحب تشوف ملك مصر ؟

- تقصد الأمير أحمد فؤاد ؟ طبعاً إنه فصل غامض من تاريخ مصر . . لقد قرأت عنه ولكن لم أره . . وكان من الممكن ألا أراه لو كان ملكاً لمصر . . اللهم إلا إذا كنت رئيساً للوزراء أو رئيساً للديون الملكي أو خادماً شخصياً له . . فعلاً أريد أن أراه وأن أتحدث معه . .

وكانت السيارة قد وقفت فعلاً أمام عمارة . . والآن عندما أسترجع ما حدث فإنني لا أعرف كيف أصف لك هذه العمارة ولا بابها ولا مدخلها ولا إن كانت جديدة أو قديمة . . ولا إن كان بها أسانسير . . الآن لا أستطيع أن أتبين شيئاً من ذلك . ولكن وقفنا أمام باب شقة . . ولا حتى شكل الباب أستطيع أن أصفه لك . . فقد كنت في مهب الرياح التاريخية وفي دوامة الأحداث . .

وانفتح الباب وكان الملك أحمد فؤاد الملك السابق لمصر . . والأمير الحالي . . في اللحظة الأولى نجد أن بينه وبين والدته الملكة ناريان شبيهاً في الوجه ولون البشرة وربما في العينين أيضاً . . فإذا استدار فأنت ترى والده الملك « فاروق » . . عريض الكتفين متوسط القامة . . يكاد يكون أصلع . . أما لهجته فعربية مصرية واضحة .

وكنت أظن أنه قد نسي اللغة العربية . . فأكثر أفراد الأسرة المالكة في مصر كانوا يتكلمون العربية بصعوبة ، ولكن اللغات الأخرى يتكلمونها بطلاقة . . بما يؤكد أنهم منفصلون عن الشعب . . أو أنهم ليسوا من الشعب ولا يريدون . .

والشقة صغيرة . . والجدران عليها صور محمد علي والخديو إسماعيل وجده الملك فؤاد ووالده الملك فاروق . . وصور أخرى صغيرة لوالدته . . وله أيضاً . بعض هذه الصور ليست واضحة . . ولعلها مأخوذة من المجلات . وهذا يدل على أن الأمير أحمد فؤاد منفصل عن مصر وأنه غير قادر على أن يحصل على صور أو لوحات أو وثائق تجعله يعلقها على الجدران . .

ومن أول لحظة تشعر أن الأمير أحمد فؤاد يريد أن تكون صلته بمصر أكبر . . أو يكون هو نفسه في مصر . . فهو مصري ومن حقه أن يعيش فيها . . ولا ذنب له فيها حدث . . ثم إنه ليس الملك السابق الوحيد في أوروبا . . فهناك ملوك كثيرون وأمراء . . وبعضهم له قوة ويطلب بالعرش . . ولكن الملك السابق - أي ملك سابق - لكي يعود إلى بلاده لابد أن تكون له قاعدة شعبية ضخمة . . قاعدة حزبية تأتي به حلاً لمشاكلها . . كما حدث في أسبانيا . . أعادوا الملكية بعد الرئيس فرانكو . وكان من الممكن إسقاط فرانكو وإعادة الملكية . . لولا أنهم انتظروا فرانكو حتى يموت . . ولكن الأمير أحمد فؤاد ليس عنده أي أمل ولا عنده إمكانية أن يعود إلى عرش مصر . . انتهى . وهو يريد أن يعيش في مصر بعض الوقت أو معظم الوقت . وهذا حق له .

وكأنه أراد أن يؤكد لي أنه لا يزال في مصر أو قريباً منها لأنه مصرى ، فراح يستعرض آخر الأحداث في مصر . . . وجه لمصر ، وقلقه عليها . . . كأي مواطن مصري . . . ثم عرفت منه أنه يريد أن يسمع صوت والده . . . أى يحصل على تسجيل صوتي له . . . ووعدت أن أحقق له هذه الرغبة . . . وإن كنت على يقين من أننا لن نجد في أرشيف الإذاعة صوت والده وهو يتحدث إلى الشعب ويبدأ حديثه هكذا عادة : شعبي العزيز . . . بينما جمال عبد الناصر كان يقول : أيها الأخوة المواطنون - تماماً كما يفعل رجال الثورة الفرنسية .

ففي العصر الملكي : نحن شعب الملك . . . وفي عصر الثورة : نحن أخوة مواطنون . . . والسادات كان يبدأ أحاديثه إلى الشعب هكذا : باسم الله . . . وسألت عن تسجيلات بصوت الملك فاروق ، فلم أجد . وليس غريباً فالإذاعة والتلفزيون قد مسحنا الكثير جداً من التسجيلات التاريخية - حلاً لأزمة نقص الأشرطة الصوتية والضوئية . فقد مسحنا الأحاديث النادرة مع طه حسين والعقاد - وقد استطعت أن أحصل على هذين التسجيلين من التلفزيونات العربية . . . ومسحتنا الحديث النادر مع توفيق الحكيم وعزيز أباظة والتسجيل الوحيد للمؤرخ عبد الرحمن الرافعي . . . وكذلك حسين فوزي . . . وغيرها من التسجيلات البديعة . . . ولا أعرف إن كنا نحتفظ بتسجيلات الملك فاروق . . . إنها موجودة في التلفزيون الفرنسي والبريطاني والأمريكي . . . ولا أظن شيئاً من ذلك في مصر - فنحن بلد حريص على أن يمسح ذاكرته بيده وبمنتهى الإخلاص ! وجاءت الأميرة فضيلة زوجة الأمير أحمد فؤاد . . . جميلة متوسطة القامة . . . فرنسية متحشمة . . . ولكن من الممكن أن تجد بين المصريات شبيهات لها . . . فهي تميل إلى الامتلاء . . . وهي (هانم) في حركاتها . . . من الممكن أن تجد واحدة شبيهة بها بين العائلات الأرستقراطية في مصر . . . وهي تتكلم الفرنسية فقط . . . ربما بعض الكلمات العربية . . . ولكنها أوروبية تماماً . . .

وكان من الممكن أن تكون ملكة لمصر . . .

وليس في البيت خادماً أو خادمة . . . هو الذي يأتي لك بما تريد . . . أو هي ، والشاى قدمته الأميرة . . . والأمير قدم الفناجين . . . ولم يتوقف الأمير عن الكلام عن مصر . . . وكانت شكواه المعقولة هي أنه ليس لديه جواز سفر دبلوماسي . . . وليس في ذلك أى ضرر وخوف أو حتى مجاملة لو أنه حصل على ذلك . . . إننا نعطي جواز السفر لبوابي السفارات المصرية في الخارج . . . وهو يريد أن يكون له بيت . . . شقة . . . فيلا في مصر وهذا حق ، فإن كثيراً من الأجانب يملكون ما هو أكثر من ذلك !

ولم نتمكن من رؤية ولديه الصغيرين فقد قالت لنا الأميرة فضيلة إنها نائمان . . ومعنى ذلك أنه لا يصبح لنا أن نوقظهما من النوم . ولو كان ذلك في أسرة مصرية لذهبت الأم وقالت لكل منهما : انهض . . قم . . سلم على عمك . . قم . . اغسل وجهك . . قم !
ومن الممكن أن ينهض الطفل وهو في ضيق شديد ويسلم على عمه . . وهو لا يعرف من هو هذا العم . . ولا معنى لإيقاظه من أحلى نومة . . وبعد أن يتم السلام على المجهول يذهب الطفل ويستأنف النوم فإن تذكر ما حدث وسأل : من هذا الرجل ؟

- رجل مين ؟

- ألم يكن هناك رجل جاء من مصر وأنتم ايقظتموني لكى أسلم عليه . .

- آه . كان فيه واحد من مصر . . من شعب مصر . . أراد أن يراك . .

- بس كده !

- آه بس كده

- وهل سيجىء مرة أخرى ؟

- لا . . مرة واحدة وخلاص !

والصحف الفرنسية تنشر صور الأميرة فضيلة مع زوجة الرئيس فرانسوا ميتران . . وتصفها الصحف بأنها ملكة مصر السابقة !

وتغضب الأميرات المصريات الأخريات من هذا اللقب . فلم تكن ملكة فى أى وقت ولكن هذا اللقب تضعه الصحف الفرنسية كنوع من المجاملة لبنت بلدهم . . وحدثت خناقات كثيرة بين الأمير أحمد وأخواته وعيالاته بسبب ما تنشره الصحف الفرنسية . . بل إن والدته الملكة السابقة ناريان كانت تقول : أنا الوحيدة التى من حقى أن أوصف بأننى الملكة السابقة لمصر . . أما زوجتك فلا كانت ملكة سابقة ولا هى ملكة لاحقة . . إنها أميرة والسلام !

وكثيراً ما غضبت الملكة ناريان وعدلت عن السفر لرؤية ابنها بسبب ما تفعله الأميرة فضيلة . . أو تظن أنها تفعله بالاتفاق مع الصحف الفرنسية !

ما رأيك لو تناولنا الغداء معا ؟ - سألتى الأمير أحمد فؤاد . .

وأسعدنى ذلك . وكان هو الذى يقود سيارته . ووجد صعوبة فى أن يركن السيارة تحت المطر . ثم ركنها وأغلق الباب وتقدمنى إلى مطعم صغير جميل هادئ . وسألتى ماذا أكل . لم نختلف كثيراً فأنا لا أأكل اللحوم ، وهو ليس حريصاً عليها وأنا أفضل الصلطة على أى طعام آخر . وهو أيضاً . وأنا لا أشرب القهوة ولا شايًا بعد الأكل . وهو حريص عليهما !

واكتشفت كذب ما قيل عن هذا الشاب من أن له طموحا أن يصبح ملكا لمصر . غير صحيح . وقالوا إن أحد الفلسطينيين قد استولى على دماغه وخياله . . . وأقنعه بأن العودة إلى عرش مصر ممكنة . لا شيء من ذلك قد حدث فهو شاب ذكى وهو عاقل . وهو على يقين من أن مرحلة تاريخية قد انتهت تمامًا . وإن التاريخ لا يمشى بظهره !

وقالوا إن والده الملك « فاروق » قد أوصى له بعدة ملايين من الدولارات وإن الوصية قد تركها عند أمير موناكو . . . واشترط أبوه أن تسلم له الثروة عندما يبلغ كذا وثلاثين عاما . وإنه رجل غنى جدا الآن . . . وإن كان لا يساعد أخواته غير الشقيقات وكلام كثير قيل عن ثروة الأمير أحمد فؤاد وعن الملوك والأمراء العرب الذين يساعدونه ماديا ، وكل ذلك وغيره من الحكايات لا يمكن التأكد من صحتها . . . ما دام الأمير أحمد فؤاد يهز رأسه ولا يقول شيئا إذا سئل عن شيء من ذلك . . .

والأمير أحمد فؤاد لأنه مصرى لم يعيش في مصر فهو لا يعرف البيروقراطية المصرية التقليدية ، ويندهش كيف أنه طلب من السفارة أن تبلغ الرئيس « مبارك » عن حاجاته إلى جواز سفر دبلوماسى ثم لا يتلقى ردا لعدة سنوات . . . ومن المؤكد أن السفارة المصرية قد أبلغت هذه الرغبة إلى وزارة الخارجية في مصر . . . ووزارة الخارجية قد نقلت أو لم تنقل هذه الرغبة إلى رئيس الوزراء . . . ورئيس الوزراء . . . قد نقلها إلى الرئيس . . . إنها مسألة طويلة جدًا ولها محطات عديدة . . . ولا أحد يعرف كم من الوقت قد توقفت هذه الرغبة في كل محطة . . . ولا أحد يعرف عدد المحطات والعقبات التى تتولد من تلقاء نفسها أمام مثل هذه الرغبة المتواضعة . . . ويعاود الأمير طلبه وتعاود السفارة التذكير بما سبق أن بعثت به قبل ذلك عشرين مرة . وليس هذا الموقف من البيروقراطية المصرية خاصا بالأمير ، وإنما هو موقف ثابت تكرر عليه بالنسبة للستين مليون مصرى وعشرات الملايين من الأجانب ! ولا بد أن هذه البيروقراطية الفرعونية هى التى دفعت الأمير إلى أن تلد زوجته مولودها الثالث في المغرب ، وليس في مصر ؟

* * *

الصدفة هى التى جعلتنى التقى بواحدة نشرت مذكرات تقول : إن الملك « فاروق » قد وعدنا بأن تكون ملكة على مصر - هذا الوعد جاء بعد خروج فاروق من مصر . ومن الغريب أن مجلات إيطالية قد نشرت لها هذه المذكرات .

الفتاة اسمها روزانا اميليو فاركى وهى إيطالية الوجه والصدر والساقين والعينين وفرنسية المرح والخفة وإنجليزية البشرة وألمانية المعلومات . . . ولم يطل عمر الملك فاروق لكى تتحقق أحلامها المصرية . . .

فقد كنت أزور مدينة السينما فى روما . . ووجدت فتاة قد جلست تحت الشمسية وحولها كاميرات ورجال كثيرون . . وأمامها تمثال فرعونى . وحاولت أن أفهم دون أن أسأل أحدا من الناس . . ولكنى لم أستطع .

وسألت فقالوا لى : أنت لا تعرفها . كيف ؟

- لا أعرفها . .

- كان من الممكن أن تجلس على عرش مصر . .

- من هى ؟

- واحدة وعدها الملك فاروق بالزواج وأن يجعل منها ملكة لبلادك . .

- لقد وعد كثيرات . . وكثيرات ادعين الصداقة والعشق والحب والأولاد من الملك فاروق . . ولا أستبعد أن تكون هذه واحدة منهن . . .

ويبدو أنها لمحتنى من بعيد فاقتربت منى وقالت : السلام عليكم . .

قالتها بلهجة خواجات . . ولكن تريد أن تفهمنى أنها استعدت للعرش ، ولذلك بدأت تتكلم لغة الشعب المصرى ابتداء من السلام عليكم لى « خليتك بافية » - خليتك بعافية . قالتها عندما لم تجد أثرا طيبا لمحاولتها أن تنطق بكم كلمة عربية باعتبارى ممثلا للشعب الذى سوف تكون ملكة عليه .

ويبدو أن سائقا مصريا . . أو بوابا فى السفارة المصرية حاول أن يعلمها اللغة العربية لتدخل فى الدور وطلبت من المخرج أن أجلس إليها . وجلست إليها وقلت : إن العرش الذى تجلسين عليه الآن أعظم وأجمل وأروع .

قالت : أى عرش .

قلت : الجمال والدلال والرشاقة .

- أنت ترى ذلك ؟

- الدنيا كلها ترى ذلك . . لو كان هناك استفتاء شعبى . .

- يعنى لا أمل ؟

- فى ماذا ؟

- فى أن أكون ملكة على مصر ؟

- طبعا لا أمل ! ولكن ممكن فقط فى أحد الأفلام !

وضحكت ورفعت طرف ثوبها للتحية كما كان يفعل الملوك الفراعنة . . وجلست تحت الشمسية ووضعت على رأسها تاج الملك مينا الذى وحد الوجهين البحرى والقبلى . .

وسألت صديقا يعمل في مدينة السينما الإيطالية : إيه الحكاية ؟

- أبدا . . زوجة المنتج . . وهى تتخيل أشياء كثيرة . . وكان يحبها ولا يزال يشفق عليها . . وهو يخشى أن يتركها وحدها فى البيت . . فهو يأتى بها كل يوم إلى مدينة السينما ويصورونها فى الدور الذى تحبه . . وهى اليوم تحب أن تكون ملكة لمصر . . فقد رأت الملك «فاروق» مرة واحدة . . وأظنه قد ابتسم لها وقبل يدها . . ومن يومها وهى تنتقل بين عروش العالم . . ولكن طال حلمها بمصر ، ولذلك لم تغير التاج الذى تضعه . . ونحن وراءها داتخون كما ترى !

ولما صافحته مودعا جلدبنى قائلا : فى عرضك ؟

قلت : ماذا ؟

- كيف تعود إلى مصر دون أن تستأذن من ملكة مصر . . فى عرضك . . إننى جاد . . فإذا لم تفعل فسوف تهدم الدنيا فوق دماغنا . .
وذهبت إليها أقول : السلام عليكم . . خيلتك بعافية . . أريد أن استأذن فى العودة إلى مصر . .

فظهر الامتعاض على وجهها . . وأدارت عنقها الجميل ناحية أخرى لكى أنظر إلى جسمها الفاتن . . أى والله . . وأمز رأسى أسفا على الساكن المريض فى هذا القصر البديع الوجه والشعر والعينين والشفيتين والكتفين والنهدين والساقين واليدين . .

ثم تفضلت مشكورة ونظرت ناحيتى بعد أن فكرت طويلا . . وقالت : السلام عليكم نحن نوافق على عودتك إلى مصر . .

- شكرا لجلالتك !

بل يجب أن تطفئ الشمس!

تنبيه : هذا الكلام لا يهم الدين لا يعملون وليس في نيتهم أن يعملوا . فالإحصائيات الرسمية تقول إن دقائق عمل أى مصرى هى ٢٦ دقيقة فى اليوم الواحد . ولذلك فهم فى راحة . . أو بطلالة مستمرة لا تحتاج إلى راحة ، لأنهم لا يتعبون . ولكن كلامى أتجه به إلى الذين يعملون أو فى نيتهم أن يفعلوا ذلك . ففى الراحة كل يوم أو كل أسبوع أو كل سنة . إنعاش للجسم والعقل لاستئناف العمل بصورة أخرى .

* * *

بعض الشعوب القديمة رأت الراحة واجباً مقدساً . فمن يعمل يجب أن يستريح . فإذا استراح أرضى ربه وملائكته . . اليهود قالوا إن ربهم خلق العالم فى ستة أيام واستراح فى اليوم السابع . . وعلى المؤمنين أن يفعلوا ذلك أيضاً !

وأكبر الكبائر عندهم من يعمل يوم السبت . من غروب الجمعة إلى غروب السبت - حتى الدجاجة إذا باضت يوم السبت فيبضها حرام !

والصينيون لهم قصة معروفة عند بناء سور الصين العظيم (٥٠ ألف كيلو متر) أقيم من ٢٣ قرناً فى حجم هرمنا الأكبر ثلاثين مرة ، وإذا تحولت أحجار السور العظيم إلى حائط فإنه يلتف حول الأرض بارتفاع خمسة أمتار وعرض متر واحد . وكان الصينيون يعملون ليلاً ونهاراً . . أو على الأصح نهاراً ونهاراً . فالشمس لم تكن تغرب عليهم . . وإنما كانت عندهم تسع شمس إذا غربت واحدة أشرقت أخرى بسرعة . وهكذا يقيمون حائط الصين بلا توقف . فإذا سقط أحد العمال فإنهم يدفنونه فى داخل السور . . وكان العمل شاقاً وعذاباً متصلاً . فالناس لا وقت عندهم للأكل ، وإذا كان وقت للأكل فلا وقت للهضم . . والحدائق حولهم جافة بسبب الشمس المشرقة أبداً ، والأشجار جفت بسبب حرارة الشمس . . وقد نظر الإله « إيرلانج » من سمائه فتضايق لهذه الوحشية الإنسانية ، وقرر أن يعلم هؤلاء البشر مبادئ الرحمة . . فعول نفسه رجلاً له لحية بيضاء واقترب من رئيس العمال وقال له : ألا

توجد رحمة في قلبك . . كيف تستعبد الناس وتهدمهم وتبنى سوراً . . كيف تهدم إنساناً وتقيم حجراً . . اعطهم وقتاً للنوم . . اعطهم وقتاً للراحة . . استرح أنت أيضًا !
فقال رئيس العمال : أيها العجوز اذهب بعيدًا وإلا أدميت ظهرك . . ثم دفنتك معهم في داخل السور . . امش !

ولكن الإله « إيرلانج » قفز فوق أحد الأحجار وقال للعمال : أيها العمال . . حان وقت الراحة . . لا عمل . . استريحوا . . اشربوا . . كلوا . . ناموا . . لا تخافوا . . أنتم كثيرون ورئيسكم واحد فقط . . أنتم الأقوى . . أنتم تعملون . . هو لا يعمل . . إنه يتفلسف . . إنه يغافلكم ويأكل ويشرب وينام !

وتوقف العمال ومدوا أيديهم إلى الماء . وإلى الطعام . . ثم ناموا . .
وأثناء نومهم حمل الإله جبلاً في يده اليمنى وواحدًا آخر في اليد اليسرى . وكلما ظهرت شمس ضربها فسقطت وانطقات حتى بقيت شمس واحدة . . إذا غربت كان الظلام وكان النوم وكانت الراحة .

لقد أطفأ كل الشموس حتى بقيت واحدة . . حتى هذه الواحدة يجب أن تنطفئ لينام الناس ! ولما عرف العمال الراحة في النوم ، كانت أجسامهم أقوى ودمهم أخف وكان إنتاجهم أعظم ، وفراغهم من السور أسرع !
لقد عرفوا الراحة ، لأنهم عرفوا التعب ! ولأنهم أطفئوا الشمس !

* * *

وعندما كنت في جزيرة تايوان الصينية قالوا لي : إن كلمة « إجازة » ليست موجودة في اللغة الصينية . . فهم يعملون فقط . . والراحة تكون أثناء العمل . ولكن عندما عرفوا الحضارتين الغربية والأمريكية دخلت هذه الكلمة لغتهم بشكلها . . أى كلمة « ويك إند » أى نهاية الأسبوع . وأصبح يوم الإجازة هو أروع أيام الأسبوع !

* * *

وكان الإغريق يجعلون للعمالقة من طراز « سيكلوب » عينا واحدة في منتصف الرأس . وكان هؤلاء العمالقة يعملون في صناعة أسلحة الحرب من الحديد يضعونه في النار . . وكانوا لذلك لا يعرفون النوم . . وإنما لا يتوقفون عن الحديد والنار . . يضعون الحديد في النار فيلين . . ويعملون له أشكالا وأحجاما . .

ورأت الآلهة أن هؤلاء العمالقة فيهم قسوة وغلظة . . فخلقوا لهم عينا أخرى . . واحدة يعملون بها والثانية ينامون بها . . نصف يوم . . ونصف يقظة . .

وبعد ذلك اهتدى آلهة الإغريق إلى خلق العيون الإنسانية بلا أجفان . . ولذلك كان البشر لا يعرفون كيف ينامون فخلقوا الأجفان - فالأجفان كأنها ستائر على نوافذنا تحجب الضوء حتى ننام . .

تحول دون النوم والعين . . وكانت الأجفان أغطية على إنسان العين لينام . . ليعرف النوم بعد اليقظة . . والراحة بعد التعب . . فلا ليل دائم ولا نهار أبدا . . فالإنسانية عرفت الإبداع عندما عرفت الراحة . . ويوم كانت لا تنام كانت لا تعرف إلا الحديد والنار !

* * *

ولكن مع تنظيم ساعات العمل ، وساعات الراحة أيضًا ، أصبحت الإجازة واجبة . . سواء كان الإنسان قادرًا على الاستفادة منها ، أو اكتفى بالجلوس في البيت والنظر من النافذة أو إلى التلفزيون أو « اللطعة » على المقهى أو « الصعلكة » في الشوارع . . إنها حق وهو حر في استغلال هذا الحق . .

وظهرت شركات ووكالات لاستغلال الإجازة في الرحلات أو السياحة أو الرياضة . . في داخل البلاد أو خارجها . . وإذا كان الإنسان صاحب الحق لا يعرف كيف يستغله ، فإن خبراء آخرين قد تخصصوا وتفننوا في الاستفادة منه ومنك . .

ونفس الشركات هي التي قامت عليها الفنادق وكل صناعة السياحة . . لأنها علم وفن استغلال الإجازتين الأسبوعية والسنوية . .

ونحن نندهش جدا كيف أن الأجانب يحجزون مقدما - سنة أو سنتين - رحلاتهم إلى مصر . . ووجه الدهشة أننا لا نعرف لماذا هم يفعلون ذلك . . هم يفعلون ذلك لأن حياتهم كلها منظمة . . منضبطة . . ولأن كل شيء يجب أن يكون معروفا : المكان والزمان والميزانية . . لأن هذه الرحلة ليست هي النشاط الوحيد في حياتهم . . هناك أنشطة أخرى مرتبطة ومنضبطة . . وهناك أقساط يجب دفعها لكل أدوات البيت . . أو ثمن السيارة . . أو مجوهرات الزوجة . . أو رويشتات الدواء . . ولذلك فهم يخططون لسنة والخمسة أعوام . . هذا سلوكهم في الحياة . . والحياة الأمريكية أو الأوروبية كلها خطط وميزانيات . . يضعونها ويتأكدون من ذلك وينصرفون إلى اهتمامات أخرى . . وليس عندهم مثل هذه العبارات : خليها على الله . . أو بالبركة . . فالله موجود عندهم كما هو عندنا . . ولكن الله أعطاهم عقولا علمية . . لا تترك أي شيء للمصادفة . . فليس في الكون كله مصادفة . . فكل شيء له أول وله آخر . . وكل شيء أرقام وحسابات . . معروفة البداية والنهاية . . وليس هناك أي مكان لمعجزة . . كثرة تهبط من غير مقدمات ومن غير سبب . لا شيء من هذا . ولذلك فتحن نندهش لما يفعلون ، وهم يندهشون لدهشتنا هذه . . لأنهم لا يتصورون أي أسلوب آخر للحياة والعمل والراحة !

وفي كل اللغات الأوربية تعبيران لا معنى لهما عندنا . . عبارة : ماشى . . أى
يمشى وفقاً للخطوة . . وسوف يمشى . ويجب ألا نشغل بالنا . .

وعبارة أخرى : لا مشكلة . . أى أنه لا توجد مشكلة ليس لها حل . أو كل
وضعت ولا خوف من أية مشكلة . وهم يعنون ذلك . . فعلا لا مشكلة من أى نوع
كل شيء قد جربوه وأتقنوه وإذا تعثر شيء وجدوا له حلا . . فلا قلق ولا خوف . .
للسائح : سوف تجد لك مكانا في الطائرة على اليسار في منطقة ممنوع التدخين فيها و
تأكل اللحوم سوف تجد سمكا . . وفعلا يجد كل هذا . . وهو متأكد تماما من كل
ويقولون له : سوف تجد واحدا في انتظارك ومعه جدول الرحلة وأرقام الغرف التي ينزل
وفعلا يجد كل ذلك بمجرد وصوله . وهو متأكد من ذلك . . فلا ينبغي أن يفكر .
يصح أن يشغل باله . وفعلا لا يشغل باله ، لأن أناسا كثيرين قد انشغلوا واشتغلوا نية
وبفلوسه . وهذا هو علم وفن الراحة في كل الدنيا !

ولا أريد أن أقارن لك بين ما يحدث عندنا وما هو حادث عندهم . فأنت تعرف و
لأن أقول لك ما أنت قرآن منه . . وأنا أيضًا !

* * *

يحكى لنا عميد المؤرخين في العالم ارنولد توينبي الذى ولد مع مؤرخنا عبد الرحمن
في سنة واحدة أن حادثاً صغيراً قد وقع في نيويورك قلعة الرأسمالية الأمريكية والعالمية
الحادث كان في سنة ١٩٤٩ مضى ولم يلتفت إليه أحد . . ولكنه من أهم الأحداث
دلالة على تطورات العالم الغربى . . الحادث هو أن رجال الأعمال وجدوا أن الإجازة الأ
طويلة أكثر مما يجب وأنهم يريدونها أن تقصر بضع ساعات . أما الإغراء فهو دفع أجر
للسكرتيرات . فليس في استطاعة رجال الأعمال أن يعملوا دون سكرتيرة تكتب علم
وتحتزل وتبعث بالبرقيات عبر العقول الالكترونية إلى كل الدنيا . فعرض رجال الأعمال
السكرتيرات مضاعفة الأجر يوم السبت . . لا كل يوم السبت ولكن بعض يوم الس
وكانت المفاجأة الكبرى . اعترضت السكرتيرات . ورفضن رفضاً باتاً !

فما هو المعنى ؟ المعنى أن السكرتيرات يفضلن الراحة على العمل . يفضلن الراحة
الفلوس . . عندما وضعت الفلوس في كفة والإجازة في كفة ، رجحت الإجازة . . وعلى الز
أن الفلوس هي إضافة إلى رصيدهن ، فإنها خصب من حياتهن . من الراحة من المتعة . . م
تقرير المصير . . من الاستقلال . . من الحكم الذاتى لحياتهن الخاصة . . انها استهانة به
أصحاب رؤوس الأموال . . ورفض تام لعملية تحويل السكرتيرة إلى إنسان آلى يعمل ليلاً
في خدمة الصنم الذى اسمه الفلوس . . والإله الجديد الذى اسمه صاحب رأس المال !

ولما حاول أصحاب رموس الأموال أن يضاعفوا الأجر الإضافي ، كان الرفض تدعيماً لهزيمة
الفلوس أمام الراحة . . أو حق الإنسان في الراحة . .

أكثر من ذلك قررتة السكرتيرات . . لقد تظاهرن في يوم الإجازة ورحن يدرن حول
المؤسسات . أى إنهن لا يفعلن في الإجازة أى شىء . . وإنما يرفضن الفلوس ويرفضن
الاستعباد ويتظاهرن احتقاراً لذلك !

* * *

وهناك قصة شهيرة يرويها المفكر السياسى الإغريقى ديموستين ، وهى أن رجلاً استأجر
حملاً ليسافر به من مدينة أثينا إلى مدينة ميغاراً . . وكان صيفاً حاراً . وفى الطريق أوقف الرجل
الحمار ونام فى ظله . عندها وقف صاحب الحمار يصرخ قائلاً : لم نتفق على ذلك !
أى لم يتفق الاثنان على أن ينام الرجل فى ظل الحمار ، فإذا فعل فلا بد من دفع مبلغ
إضافى . وتشاجر الرجلان . عندها انطلق الحمار هارباً !

وهكذا أصبح لدينا ثلاثة حمير . . اثنان يتشاجران تحت الشمس المحرقة حول معنى
استئجار (الحمار) دون الاستفادة من (ظل) الحمار . . وطبيعى أن يكون للحمار ظل ، ما
دامت هناك شمس فى السماء . . وما دامت هناك شمس فلا بد أن يستظل الإنسان بأى
شىء . . أى يستريح بعض الوقت من ويلات الطريق . . حتى ولو كان فى ظل حمار !

بمتهى الصراحة نحن ذهبنا إلى الغداء مع الرئيس السوفيتى جورباتشوف ، لم أر أحدا غيره . . لا زوجته رئيسا . . ولا وزير خارجيته - حيثئذ - الضاحك أبدا . . شيفرنادزه . . فما الذى رأينا ؟

إنه كما تراه فى التليفزيون متوسط القامة والوزن . . ولونه وردى وبشرته ناعمة كفتاة بنت ١٤ . . وعينه لامعتان . . وهو كثير الحركة . . فهل هناك أى مظهر من مظاهر العظمة ؟ لا شئ . .

وفى جبهته « وحة » ولا أحد يعرف ما الذى توهمت عليه السيدة والدته . . لعلها توهمت على البرق . . أو على النيازك فى السماء . . ويقولون : على الفراولة التى رأيتها فى أحد الأفلام الأمريكية . . ويقولون على حزام لإحدى راقصات الباليه فى مسرح البولشوى الرائع . .

ولكن أحدا لا يعرف بالضبط . . من هذا الرجل ؟ ولا من أين جاء ؟ ولا كيف صعد من المجهول إلى قمة القمم . . إلى أن يكون من أعظم الرجال فى تاريخ الإنسانية . . ولا أحد قد عرف من السيدة مرجريت تاتشر كيف رأت فيه نجما ساطعا . . وكيف نصحت صديقها الرئيس ريغان أن يضع عينيه على هذا الزعيم السوفيتى وأن يمد له يده بسرعة . . وكانت مرجريت تاتشر بعيدة النظر . . ولا يزال جورباتشوف يذكر لها ذلك مع عظيم الامتنان . . وكذلك الرئيس ريغان يدين لها بهذا الفضل . . فقد وفرت عليه وعلى العالم كله الكثير من الجهد فى معرفة المدخل الصحيح للكرملين ومستقبل أوروبا .

جورباتشوف قد أكمل الدور الذى بدأه الزعيم الفلاح خروتشيف الذى هاجم ستالين فى المؤتمر العشرين للحزب الشيوعى . . جبروت ستالين وإرهاب ستالين وجهود الفكر الشيوعى فى عهد ستالين وبعد موته أيضا . . واقتلع تماثيله من كل مكان . . ومسح اسمه من الكتب ومن الجدران كما كان يفعل ملوك مصر الفرعونية . . وتكاثر الخصوم حول خروتشيف حتى أقالوه وتركوه يموت على مقعد فى إحدى الحدائق العامة . . ولم يدفنه مع العظماء فى الكرملين

وجاء من بعده ثلاثة - تريوكا - حكموا الإمبراطورية السوفيتية حكما جماعيا . ثم انفرد برجنيف بالسلطة فكان أسوأ من ستالين . .

ولكن تحت الجليد وبعيدًا عن موسكو ، كان هناك فكر يتجمع ويتصاعد وينتظم . وكان هذا الفكر قائمًا على أنه كفى خداعا وكذبا على الشعوب السوفيتية . . وكفى بلطجة من الدول الأوروبية الشرقية ودول العالم الثالث التي تعيش حالة على الاتحاد السوفيتي الجائع والمتخلف عن أوروبا الغربية وعن أمريكا طبعًا . . وإذا كانت روسيا قد سبقت في عالم الفضاء . . فإن رواد الفضاء سعداء بارتفاعهم إلى السماء لكي يرفعوا أصواتهم بالشكوى إلى الله أنهم جوع على أرفع المستويات !

وأعظم نكتة قيلت في روسيا وضايقت القيادة السوفيتية ما قالها أحد الفلاحين عندما رأى سفينة الفضاء السوفيتية تدور حول الأرض وفي داخلها جاجارين أول إنسان في الفضاء . قال الفلاح : يابخته إنه يعيش وحده في غرفة بعيدًا عن روسيا !

فهذا الفلاح لم ير في هذه العظيمة العلمية والاقتدار التكنولوجي إلا أن واحدًا يسكن وحده في غرفة . . فهذه حالة نادرة في روسيا . . فمن الممكن أن يتم الطلاق بين رجل وامرأة ولكن يظنان ينامان في غرفة واحدة وعلى سرير واحد . . وإذا أراد أحد أن يستضيف صديقًا بعض الوقت فهو يستأذن الآخر . . وإذا كان عندهما أولاد ، ناموا تحت السرير أو على الأرض !

حتى جاء جورباتشوف وأعلن أن الاتحاد السوفيتي قد مات . ولا أمل في إحيائه إلا . .

إذا اعترف الشعب بالفساد والرشوة والتسيب .

وإلا إذا خلع كوادر الحزب الجاهلة المرتشية . .

وإلا إذا اعترف بانحراف الشباب وانتشار المخدرات . .

وإلا إذا أفاق الشعب السوفيتي الذي أدمن الخمر فلم يعد قادرًا على العمل . .

وإلا إذا خلع الخداء الشيوعي الذي لبسه في دماغه . . فالشيوعية لم تحقق للناس أي مكسب . . فالشعب السوفيتي وكل الشعوب التي تدور حوله والمرتبطة بذيله هم مجموعة من الفلاسفة الجوع . . شطار في الكلام ، وعاجزون في الحصول على الطعام . فما حاجة الاتحاد السوفيتي إلى كل هذه الدول التي تعيش على معدته الخاوية . . إن هذه الشعوب كالأطفال لا تريد أن تنفطم أبدًا . . لقد كبرت وشاخت ويجب أن تبحث لها عن « مرضعة » أخرى . . كفى . . فهذه الشعوب لا شبع ولا الاتحاد السوفيتي شبع . .

ولذلك قرر جورباتشوف أن يطلق سراح هؤلاء الأطفال أو هؤلاء التنايلة قائلًا : كفى . . ابحثوا لكم عن أم . . أخرى . . أمريكية . . ألمانية . . إلى هنا وكفى !

ويسرعة ثمرت الشعوب الشيوعية على الماركسية وعلى حكامها الطغاة . . وتحررت من كل صور ستالين . . واتجهت إلى حيث النور والطعام والحرية والتقدم . .

وهدم الألمان حائط برلين الذى يفصل بين الثراء الغربى والفقر الشرقى . . وانفتحت ألمانيا على ألمانيا . . أعظم حادث سياسى فى أوروبا . . بلا دماء . . واتحدت ألمانيا . . وأمامها طريق ليس طويلا لتضييق الهوة الاقتصادية والسياسية والتربوية بين أولاد القهر الألمان الشرقيين وبين أولاد الحرية والإبداع والثراء . .

وتساقطت الدول الشيوعية الواحدة بعد الأخرى . . واستقلت عن روسيا وانفصلت واختارت بحريتها زعماءها الجدد . . انتهى !

وكوبا التى كانت تنظر لها روسيا على أنها كوكب آخر . . وخازوق لمجلس عليه أمريكا الرأسمالية . . كانت تنفق عليها ثلاثة ملايين دولار يوميا . . ولكن لم تستطع كوبا أن تحقق رفاهية للشعب الكوبى . . ولا أن تكون نموذجا تحتذى دول أمريكا اللاتينية . . فهى دولة قصب السكر ، ولكنها لا تذوقه . . كأنها مصابة بالسكر ! والشعب الكوبى ينتج البن ولا يشرب القهوة ، وينتج أعظم الطباقي ، ولا يدخنه !

وبعد أن تخلى السوفيت عنها ، فلم يعودوا يقدمون لها بترولاً ، أعلن كاسترو أنه سوف يشجع على تربية الحمير لتجر العربات . والخبثاء يقولون : وأين كانت هذه الحمير التى ظهرت بهذه السرعة !

وانتهى جورباتشوف من الجهاد الأصفر - جهاد الشيوعية خارج روسيا - ليواجه الجهاد الأكبر ضد الشيوعيين السوفييت .

أولا : لا شيوعية . .

تصور الزعيم الشيوعى يلغى الشيوعية فى روسيا . . تماما كما نحرّم قراءة القرآن الكريم فى الكعبة !

والحرية فى تشكيل الأحزاب من كل لون . . والتخلص من القيادات الفاشلة . . وتحويل القطاع العام إلى قطاع خاص - يعنى الذين اخترعوا القطاع العام قد تخلصوا منه . .

ولا أزال أنادى فى مصر بأن إكرام الميت هو دفن القطاع العام . . ولكننا لم نقرأ جيداً تلك الصفحات الخالدة التى كتبها جورباتشوف بمنتهى الحكمة والعظمة !

وقرر التخفيف من أعباء المركزية . . فعلى الجمهوريات السوفيتية أن تدبر نفسها إلا فى الحرب والسياسة الخارجية . . ويلقى جورباتشوف مقاومة فى بلاده . . طبيعى . فالرجل مفاجأة كبرى للشعوب الشيوعية .

والعالم كله ينظر إلى جورباتشوف ويصفق إعجابا به . . فلم يحدث في تاريخ الإنسانية أن استطاع رجل واحد أن يغير التاريخ وأن يدفعه إلى الأمام دون قطرة دم . ولكن استطاع ذلك جورباتشوف . .

والغرب كله كان يتشكك في هذا الرجل أول الأمر . . وقالوا : إنه شيوعى يريد أن يقفز قفزة كبيرة . . لتصبح روسيا بلا أعباء خارجية دولة عظمى !

ولكن جورباتشوف عبقرية فذة يستحق التشجيع . والتشجيع هو إعطاؤه المال والقروض ومعونات الغذاء . .

ثم هذه الحرية الهائلة في الصحف وفي التلفزيون وفي البرلمان . . هل كان في استطاعة أحد قبل جورباتشوف أن يقول : إنه جائع ! أبدا . . ولكنه الآن يقول ويطالب بخلع جورباتشوف . . وتنشر الصحف ذلك . . وتنشر الجرائم والحوادث وجلسات البرلمان التي يتلقى فيها جورباتشوف النقد العنيف - تصور !

لقد وقعت جميع الأحزاب الشيوعية خارج الاتحاد السوفيتى في حيرة شديدة . إلى من يتجهون ؟ وماذا يقولون عن أنفسهم ؟ وهل روسيا لم تعد تهتم بالشيوعية ؟

كثير من الأحزاب الشيوعية هاجمت جورباتشوف واتهمته بالخيانة . . بخيانة الشيوعية ! تصور !

وفي رواية (الإخوة كرامازوف) للكاتب الروسى العظيم دوستوفيسكى حكاية بديعة . . وهى أن المسيح عليه السلام هبط مدينة أشبيلية في يوم أحد . وأحس به الناس فتركوا الصلاة وساروا وراء المسيح - هذا طبعى - مبهورين بالحدث الجليل . وفوجئ كبير القساوسة بأن الناس انصرفوا عن الصلاة . فذهب إلى السيد المسيح الذى كان يرتدى الجلباب عارى الصدر حافى القدمين . . وكان القس قد ارتدى ملابسه القرمزية وقد تدلى الصليب الذهبى من عنقه ، واقترب من السيد المسيح وقال له : ياسيدى إن الدنيا تغيرت . . وأنت الآن تصرف الناس عن الصلاة . . ولم يعد أحد يصدق عبارتك الشهيرة : بأنه لن يدخل السماء غنى إلا إذا دخل الجمل من خرم الإبرة . . إن الأغنياء هم الذين أقاموا لك الكنائس . . ثم إننى لا أستطيع أن أمشى هاريا . حافيا مثلك . . فإما أن تخرج الآن من هذه البلدة . وإما أن أحبسك في السجن بتهمة الخروج عن المسيحية !

وهم الآن يتهمون جورباتشوف بالخروج عن الشيوعية !!

العالم كله يقف وراء جورباتشوف الذى فتح المعابد لكل المؤمنين من كل الأديان في بلاده . . إن هواء منعشا يهب على الدنيا كلها . . والذى أشار إلى الهواء أن يتحرك وإلى

الأوكسجين أن يتخلل الهواء في كل الاتجاهات هو رجل واحد هو « جوربي » أعظم رجل في العالم . . . وقد حصل على جائزة نوبل للسلام في سنة ١٩٩٠ ومن حقه أن يحصل عليها في سنة ١٩٩١ أيضًا وبمتهى الجدارة ومع عظيم الاحترام والامتنان !

* * *

لقد استمعت مع الصديقين جمال بدوى رئيس تحرير (الوفد) وفيليب جلاب رئيس تحرير (الأهل) إلى محاضرة في موسكو موضوعها أن نظرية البرسترويكا التى نادى بها جورباتشوف قد سبقه إليها أنور السادات . فالسادات هو الذى أشار ، وهو الذى فتح الطريق . . . وجاء جورباتشوف ليفتح الميادين ويسقط الحوائط ويزيل العوائق وأشاع النور في عواصم الدنيا وفي الجمهوريات السوفيتية أيضًا !

وفي عيد الثورة السوفيتية الماضية انطلق الرصاص على جورباتشوف . . . كأنهم يريدون أن يلقي مصير السادات . . . لولا أن منصة جورباتشوف كانت عالية جدًا ، والقائل غشيم . .

حنى مبارك: نائب رئيساً..

(١)

بدأ الحكم الجمهورى فى مصر بداية مسرحية ..

فقد وصف جمال عبد الناصر حاله هو وزملائه الثوار بأنهم مثل (ست شخصيات تبحث عن مؤلف) - وهى مسرحية للأديب الإيطالى بيراندللو .. أى أن لديهم أفكاراً وغضباً وأملًا فى الإصلاح ، ولكنهم لا يعرفون كيف ينظمون أفكارهم ويجعلونها برنامجاً للعمل .. أى إنهم (ثورة خام) تحتاج إلى تصنيع وتسويق بعد ذلك !

ثم اختار عبد الناصر اللواء محمد نجيب ليكون أول رئيس لمصر .. لأنه أكبر سناً . وكان المفروض أن يقوم محمد نجيب « بدور » الرئيس المصرى ، لا أن يكون الرئيس المصرى .. وعندما اندمج محمد نجيب فى دور الرئيس واعتقد أنه الرئيس كان لابد من ضربه على دماغه حتى يفيق .. ولن يفيق .. ولذلك تمت تنحيته عن خشبة المسرح وإسداد الستار ليظهر الرئيس الحقيقى وليس الرئيس المسرحى ..

ومحمد نجيب مثل البطل فى إحدى المسرحيات كان يقوم بدور الإمبراطور .. وعليه تاج الملك والصولجان والملابس الذهبية .. وهو إمبراطور ما دام على المسرح .. ولكن إذا نزل إلى الشارع وطلب من الناس أن ينحنوا له كأى إمبراطور فإن الناس يسخرون منه ويقولون : العبيط أهوه ..

لماذا ؟ لأنه اندمج فى الدور جدًا حتى توهم أنه إمبراطور بالفعل .. والحقيقة أنه إمبراطور .. كده وكده !

واحد فقط من الثوار هو الذى فهم معنى الإطاحة بمحمد نجيب .. إنه أنور السادات .. الذى أدرك أن طرد محمد نجيب هو مثل « ذبح القطة » فى ليلة الدخلة .. ففى الريف ينصحون العريس بأن يذبح قطة أمام العروس لكى تخاف بعد ذلك طوال حياتها ! وأنور السادات هو الوحيد الذى أدرك هذا المعنى .

وهو الذى أيقن من أول لحظة أن الرئيس هو جمال عبد الناصر ، ولا أحد غيره . . وأن ثورة يوليو هى ثورة عبد الناصر . . وأنه لن يطبق أن يرفع أحد رأسه إلى ما يقرب من رأس عبد الناصر ، أو يعلو عليه - إلا أطاح به !

وقد استأذنت الرئيس السادات فى أن أعبر عن هذا المعنى على طريقتى فقلت له وأعجبه ذلك : إن المسبار الذى له رأس هو الذى يمكن خلعه . . أما الذى لا رأس له ، فهو الذى يظل غائرًا يصعب خلعه . .

وقرر أنور السادات أن يكون بلا رأس ، فعاش طويلا . ثم إن أنور السادات كان يؤكد لجمال عبد الناصر بأنه شخص لا خطورة له .

وأكد له أنور السادات - بخبث الفلاحين - أنه إنسان مريض . . وأنه لن يعيش طويلا . . ثم إنه أوصى جمال عبد الناصر بأولاده من بعده . .

إذن فالسادات لا خوف منه ولا حياة له . ولذلك بقى نائباً لجمال عبد الناصر . . وأساء جمال عبد الناصر فهم أنور السادات . فإذا كان عبد الناصر هو الزعيم فأنور السادات هو السياسى الذى عاش متأمرًا يحسب ألف حساب لكل الناس حوله . . يعطيهم الأمان وهو لا يثق فيهم . .

فعبد الناصر اختار محمد نجيب ساترا . . واختار أنور السادات ستارا وممثلا يلعب بعيدًا ويستدعيه عندما يريد . . بل إن أنور السادات قد ذهب بعيدًا جدًّا فى أعماق الريف يهتف بعظمة جمال عبد الناصر بعد الهزيمة العسكرية . . بالضبط فى الوقت الذى احتاج فيه عبد الناصر إلى ترضية وتعزيز . . بينما وقف بقية الثوار شامتين وخائفين ومتربصين ومتلصصين .

واختار أنور السادات حسنى مبارك لأسباب أخرى . . اختاره نائبًا لثقتة فيه وإعجابه به . فهو أحد أبطال حرب أكتوبر . وهو الضابط القائد الذى يتمتع بسمعة طيبة وسلوك محترم . ثم إنه رجل لم تفسده السياسة . . وهو جاء إلى الحكم من فوق . . من أنور السادات ومن سلاح الطيران . . ومن انتصارات أكتوبر . .

فهو الرئيس الوحيد الذى تولى الحكم عن ثقة تامة به . . وبعد ذلك عن إيمان من الشعب بأنه سوف يكون الحاكم الحكيم الهادئ بعد ذلك - فكان ما اعتقده الشعب ! .

(٢)

يقال إن رجلا عجوزًا ذهب لتحية الرئيس الأمريكى لنكولن . وكانت العادة أن يقف الرئيس على منصة . ويمر الشعب أمامه يراه ويحييه ولكن لا يصفحه ، فلما اقترب العجوز رفع قبعته وقال له : ياسيادة الرئيس أنا جئت إليك من مكان بعيد . . إننا هناك نؤمن بأن الله والرئيس هما وحدهما القادران على حل مشاكلنا .

فضحك الرئيس لنكولين وقال : معك نصف الحق !
أى إن الله وحده القادر على الحل وليس الرئيس !
والرؤساء أمام أحداث التاريخ ومشاكله أشكال وأحجام وقدرات . . هناك ثلاثة
أنواع من الرؤساء :

رئيس يصنع الأحداث . .

ورئيس تصنعه الأحداث . .

ورئيس يركب الأحداث . . أو يسايرها ويستأنسها ليصبح قادراً على ترويضها وحلها . .
ولكن كيف نفرق بين الرؤساء . . وكيف نتنبأ بسلوك الرئيس ومواجهته للقوى والضغط
والمتغيرات في عصره ؟

يجب أن نعود إلى (شخصية) الرئيس . . فكل شيء سوف يتغير إلا شخصيته . .
فالشخصية هي صفات ثابتة في كل إنسان ، وسلوك ثابت أمام المتغيرات . .

ولكى تفهم شخصية الرئيس يجب أن نعود إلى أيام لم يكن فيها رئيساً : كيف رأى الدنيا . .
كيف فهمها ، كيف كان سلوكه معها ، كيف استجاب للمناخ الشعبى ، كيف شعوره وهو
يؤدي عمله ؟ هل هو الرجل الساخط على أعباء الحياة ، أو هو الرجل الذى يقبل المشاكل
على أنها واقع ويحلها سعيًا بذلك ، لأنه من الواجب أن يفعل ذلك . .

وأخيراً هل هذه الشخصية تلهم الناس الثقة فيه والاطمئنان إليه ؟

كل التحليلات تؤكد أن حسنى مبارك كان ضابطاً (منضبطاً) . . كان مقاتلاً مائة في
المائة . . ولذلك كان متفوقاً في عمله ومتميزاً في أدائه . . وكان يسعده أن يكون كذلك .

(٣)

أذكر أن حسنى مبارك وهو نائب للرئيس كان في مهمة إلى السودان . ولم يكذ يصل
الخرطوم ويلتقى بالرئيس نميرى حتى اتصل تليفونيا بالرئيس السادات . وكنت أسمع الرئيس
يقول :

أيوه كده . . كويس يا حسنى . . تمام . . تمام يا حسنى . . ريجتنى . . طيب يا حسنى . شكراً .
وأوضح لى الرئيس السادات ما الذى فعله حسنى مبارك نائب رئيس الجمهورية .

قال : إن حسنى يتصرف بالضبط كما كلفته « تمام كده » . . ويمكن الاعتماد عليه مائة في
المائة . . وأداؤه لمهمته هادئ رزين وحاسم . ولو كنت فى مثل هذا الموقف فإننى لن أفعل
أفضل من ذلك . .

ومرة أخرى أوفد الرئيس السادات نائبه حسنى مبارك فى مهمة إلى أمريكا . واتصل به تليفونيا وهو يعلم طبعا أن المكالمات مسجلة ومرصودة . .

وسمعت السادات يقول له : آه . . يعنى أنت ؟ تمام كده . . السفير . . لا يستطيع أن يستوعب كل هذا . . إنه ينظر إليها من جانب واحد . . تمام . . برافو يا حسنى لما ترجع ، أنا فاهم . . أنا فاهم . . لا . . كده أحسن قوى قوى . . تمام برافو عليك . . طيب مع السلامة .

واستوضحت الرئيس السادات فقال : إن حسنى كان فى مهمة صعبة . والأمريكان أناس ظراف لطاف . . ولكن فى الحقيقة خبثاء وعندهم معلومات من كل ناحية . . والتعامل معهم يجب أن يكون بحذر شديد . . ولكن أهم شىء فى التعامل معهم هو أن تجعلهم يثقون بك . . وحسنى مبارك هو موضع ثقة تامة لأنه لا يلف ولا يدور وإنما يقول ويناور ويتنظر . . ولذلك فهو أحسن من أبعث به إلى أمريكا . . وبينى وبينك أنا ليست عندى هذه الحيوية التى عند حسنى . . إنه ملئ بالحيوية ، وفى نفس الوقت بالهدوء والرزانة . . تمام كده . .

وحسنى مبارك هو النائب الوحيد الذى كان يلم بكل تفاصيل الحكم فى مصر . . فهو الرجل الثانى الذى تجمعت لديه كل المعلومات وكل المشاكل . . وهو الذى يعرف كل ذلك يعرضه على الرئيس الذى هو صاحب القرار .

ولذلك فالذى يعرفه النائب أضعاف الذى يعرفه الرئيس .

وهو الوحيد الذى يعرف الموضوع ويعرف القرار ويشارك بالرأى والمشورة . .

وهو النائب الوحيد الذى يشغل هذا المنصب عن ثقة تامة به .

وهو النائب الوحيد الذى تدرب على فن الحكم وعقده ومشاكله قبل أن يكون رئيسا . . فأنور السادات نفسه لم يشارك فى الحكم . . وإذا كان أنور السادات يقول إنه مسئول عن كل قرارات عبد الناصر . . فلكى يثبت شيئا وينفى شيئا آخر . . لكى يثبت أنه كان شريكا فى الحكم ، وبالتالي فى المسئولية ولكى ينفى أنه كان بعيدا عن صنع القرار . . أى قرار !

فاختار أنور السادات أن يكون المسئول عن القرارات الخاطئة . . لأن هذا أفضل من أنه لم يكن له دور . . لا فى الطور ولا فى الطحين .

ولكن حسنى مبارك كان مختلفا عن نائب رئيس الجمهورية أنور السادات .

وقد عرف حسنى مبارك نائب الرئيس الكثير من الوجوه والخطوط التى ظهرت بعد ذلك أمامه مرة أخرى عندما صار رئيسا لمصر . . ولذلك كان عنده متسع من الوقت ليرى ويفكر ويقرر ويدبر . . وهذا بالضبط ما لم يتح لجمال عبد الناصر وأنور السادات . . ولذلك عندما

جاء حسنى مبارك إلى الحكم كان على فهم ودراية بمعالم القيادات السياسية والإدارية والفكرية التى سوف يتعاون معها والتى سوف يدير بها مصر ويواجه العالم العربى .

ومن أهم ما يمتاز به سلوك حسنى مبارك أنه رجل بسيط . . بساطة القائد يجلس مع جنوده على الأرض ويأكل ويشرب معهم ويشترك فى قضاياهم ومشاكلهم . . بساطة القادة والجنود على أرض المعركة ، وفى الخندق الواحد وتحت النار ووسط الدخان والجثث .

كانت للرئيس السادات عادة أنه إذا أراد شيئاً فإنه يصدر به أمراً فوراً فيقول لى مثلاً : قل لحسنى .

أى أنا الذى أقول لحسنى مبارك كذا وكذا . . السادات يقولها ببساطة . . ولكنها ليست بسيطة إذ كيف أقول لنائب رئيس الجمهورية إن الرئيس يقول لك كذا وكذا .

ولماذا لا يقول له الرئيس ما يريد مباشرة فهو الرئيس وحسنى مبارك نائبه . . وأنا كيف أدخل بين الاثنين .

ولكن بعد أن أمر الرئيس السادات أن أقول لنائبه كذا وكذا . . فلا بد أن أقول له . .

ويكون حديثى مع حسنى مبارك نائب رئيس الجمهورية هكذا : ياسيادة النائب . . أنا كنت مع الرئيس السادات وناقشت موضوع كذا وكذا . . ومن رأيه كذا . . وأعتقد أنه سوف يتحدث إليك فى هذا الموضوع ، وأظن أنه سوف يكتب إليك كذا وكذا .

وكان حسنى مبارك لا يرى فى هذه المكالمات ما يخرجه . . ولكنه يتقبل ذلك ببساطة ولا يرى أننى (واسطة) بينه وبين الرئيس . . ولا يرى أن الرئيس لم يشأ أن يكلمه وإنما كلف واحداً آخر . .

(٤)

إن شخصية الرئيس مبارك يجب أن ينظر إليها من هذه النواحي . .

هل هو إيجابى ؟

كيف يواجه المشاكل والمتاعب ؟

ما هى صورة العالم أمامه ؟

ما هى طريقته فى التعامل مع الواقع والمتغيرات ؟

كيف يواجه مصادر القوى المحتملة فى بلده وفى العالم ؟

ثم ما هو الجو العام لتوقعات الناس فيه ؟ أو إلى أى حد يثق الناس فى قدرته على تحقيق

رغباتهم ، وأن يكون مصدر الثقة والأمان لهم ؟

حسنى مبارك رجل واقعى . . وهو لا يذهب إلى النظريات والخيالات لكى يحل مشكلة من المشاكل . . إنه يذهب إليها . . ويرى حجمها . . ويشير إلى حلها السريع أو بعد فترة من الزمن . . وهو لا يعطى للواقع حجما أكبر أو ألوانا وردية أو سوداء . . وإنما بالضبط يعطى للأشياء حجمها الصغير أو الكبير .

ثم إنه لا يذهب إلى المشاكل فى زفة إعلامية أو مظاهرة من الشعارات أو عبر غابة من النظريات .

فهو فى أول حديث إلى الشعب طلب إلى الناس أن تساعدوه على أن يحقق الاستقرار . . فقد جاء إلى الحكم بعد اغتيال الرئيس السادات . . ومن مظاهر الاستقرار أن السلطة انتقلت بهدوء إليه . . واستقرت ثابتة بين يديه وعلى يديه وتحت قدميه .

والاستقرار واستمرار الاستقرار ، واستقرار الاستمرار : هو اللحن المميز لكل أحاديث الرئيس إلى الشعب . .

ولا يزال الاستقرار هو واقعنا وأملنا أيضًا . . ولذلك برزت شعبية وزراء الداخلية أو عدم شعبيتهم . . ولا أحد يعرف أسماء وزراء المالية أو الاقتصاد أو السياحة أو الصحة أو الرى فى السنوات الماضية . . ولكن كل الناس يتذكرون أسماء محمد دوح سالم والنبوى إسماعيل وأبو باشا وأحمد رشدى وزكى بدر وعبد الحليم موسى . . وقبلهم شعراوى جمعة وزكريا عيسى الدين . .

فهم الذين يواجهون مشكلة عدم الاستقرار وتحقيق أسمى أمانى الشعب والحاكم : الأمن والأمان . .

والمثل الإغريقى القديم يقول : الحجر المتحرك لا ينبت عليه العشب . . ولكى ينبت العشب على الحجر ، لابد أن يستقر الحجر ويسكن وينزل عليه المطر ويضرب بجذوره فى ذرات الحجر . . ولو دار الحجر لتحطمت أوراق العشب . .

أما نظرة حسنى مبارك لمصر وللعالم فهى : أن مشاكلنا صدى لمشاكل الدنيا . . وأنا لسنا وحدنا . . وما يحدث فى أى مكان لابد أن يكون له أثر فىنا . . ولكن لابد أن نعمل ونتتبع حتى لا نتوقف . . وإذا توقفنا فإننا نجمد . . وإذا جمدنا فإننا نموت . . فالطريق إلى الأمل هو العمل . . والطريق إلى الرخاء هو الإنتاج وفائض الإنتاج . .

ومصر دولة عربية ، كانت وسوف تبقى . . ولابد أن تعود كما كانت عربية . . وعاد العرب إلى مصر ، أو عادت إليهم . . واتسعت رقعة مصر وترامت حدودها . . ثم إن العرب عادوا إلى الذى رفضوه من قرارات مصر بشأن السلام . . وعادت أرض مصر إلى مصر مقابل

السلام مع إسرائيل . . وقبل أن يشيع السلام كانت المفاوضات معها . . أى الجلوس معها . .
وهو ما يتمناه العرب وتحاوله أمريكا الآن . .

وعاد العرب إلى أسلوب مصر . . فالأمة العربية كلها يسودها المنطق المصرى فى حل
مشاكل السلام بالمفاوضات وليس بالحرب !!

(٥)

وعندما وقعت أزمة الخليج . . وعدوان العراق على الكويت ، وقفت مصر سياسيا
وإعلاميا وعسكريا مع السعودية والكويت ضد العراق . . إلى جانب أعظم قوة فى العالم . .
أمريكا وحلفائها . .

وكانت معركة مصر فى جامعة الدول العربية ضد العراق وأعوانه فى الأردن والسودان
واليمن . . واتصرت مصر للحق وللحرية . . وكان موقف مصر هو نقطة تحول فى أمن الشرق
الأوسط . .

أما الموقف فيتسم بالواقعية والشجاعة والمصرية والعروبة . . وهو موقف يحسب لحسن
مبارك فى الصدق والإخلاص . .

أما قوى العالم كله : فلاشك أن أمريكا هى أقوى وأغنى دولة فى العالم . . وهى مصدر
القرار والاستقرار . . وهى التى تساعدنا اقتصاديا .

أما الاتحاد السوفيتى فهو دولة كبرى مثل الصين وألمانيا وبريطانيا وفرنسا . . ولم يعد دولة
عظمى . . والاتحاد السوفيتى السابق ، له نفوذ أدبى وله حق الفيتو فى مجلس الأمن . .
وبقية الدول الكبرى تمشى فى الفلك الأمريكى .

وإسرائيل لها علاقة خاصة بأمريكا ، علاقة ليس لها نظير فى الدنيا . . وهى قوة إعلامية
واقتصادية وبرلمانية . . ولا تزال كلمات الرئيس تيتو هى الحكمة : من أراد أن يلقى بإسرائيل
فى البحر فليلق أولاً بأمريكا .

والمثل يقول : من هو الذى أطول من العملاق ؟

الجواب : القزم الذى يركب كتفى العملاق .

أى إسرائيل وهى على كتفى أمريكا .

ولما قيل لفتاة جميلة كيف تزوجت رجلا قصير القامة . . قالت : صحيح أنه قصير
ولكنكم لم تروه عندما يقف فوق فلوسه ، كم يكون طويلا جدا .

وكذلك إسرائيل وهي عندما تقف فوق بنوك أمريكا وأوروبا والبورصة !

وقد أضاع العرب والفلسطينيون وقتا طويلا في الكلام وفي الخلافات والشقاكات . .
والوقت . . الآن . . أئمن وقت وأحسن وقت لكى نحقق شيئا حتى نهاية القرن . . ولذلك
كانت دعوات الرئيس مبارك في كل مكان بحل المشكلتين الفلسطينية والسورية بالتفاوض كما
جرينا ذلك . .

وقد مسح حسنى مبارك الكثير من الإهانات الشخصية . . مسحها بيد التسامح وبيد
المصلحة الوطنية . . ابتلع الإهانات الشخصية من أجل مصر ومن أجل قضية السلام .
فصافح من لم يستحق المصافحة وعانق من لا يساوى وزنه ترابا . .

فعل ذلك بنفس البساطة ، وب بنفس الاقتناع بأن القضية ليست شخصية . . وإنما وطنية
وقومية وعالمية . . من أجل استقرار الحبوب في الأرض لتضرب بجذورها التي نمت وزهورها
وثمارها . .

أما مناخ التوقعات . . أو المزاج العام للشعب وهو يتطلع إلى الأداء الرئاسى ، فقد خلقت
الإنجازات السابقة لمبارك عندما كان نائبا ، ثم بعد أن أصبح رئيسا . .

فالناس ينظرون إلى الرئيس على أنه فوق ، ولكنه في نفس الوقت قريب منهم . .
ويستلهمون الثقة منه . . وكذلك الإقبال على الحياة . . ويرون في صحته استقرارهم . . وفي
ضحكاته وإبتسامته ولطفه دليلا على أنه مطمئن إلى ما يجرى في مصر وحولها . . وأنه ليس
عصيبا ولا متطرفا ولا متقلبا . . وإنما هو قوى ، ولذلك فهو أكبر من الأحداث . . ولأنه
دائم الابتسامة أى إن مزاجه معتدل ، وليس قلقا ولا خائفا . . إذن فهو إنسان متفائل . . ولو
كان قلقا لظهر ذلك على حركاته العصبية . . ولو كان حزينا لا متع وجعه ، واكفهرت
معامله . .

إن الرئيس عبد الناصر تحامل على نفسه مريضاً وذهب للوداع الأخير لرؤساء العرب . .
لقد مات في أحضانهم . . ولأنه يعرف أن الشعب يستمد صلابته من قوة الرئيس . . ولذلك
وصف الرئيس عبد الناصر أنتونى إيدن بأنه رجل خرج - بكسر الخاء والراء .

وتحيرت وكالات الأنباء والصحف العالمية في ترجمة هذه الكلمة . ولكنه كافى يؤمن بأنه مرآة
الشعب . . فالشعب يرى نفسه في ملامحه وفي قوامه وقوته . . ولذلك يجب أن يظهر عكس ما
يظن . . أن يتظاهر بالصحة وهو مريض ، وبالهدوء وهو يتمزق من داخله .

والرئيس مبارك أبسط جدا مما يبدو في الصور وأكثر مرحا وأكثر تفاؤلا . . وهو يرى أن هذا
هو الدواء الذى يجب أن يشيعه بين الناس لكى يتحملوا أعباء الحياة . . وإذا كانت أعباء

حسنى مبارك هى حكم مصر ومشاكل العرب والعالم ، فليس ذلك سبباً لأن يبدو عاجزاً عن حمل الأمانة . . وإنما يجب أن يبدو قادراً ، ليفعل الناس مثله ، وأن يبدو متفائلاً ليحذو الناس حذوه .

وليس الفرق بين التحرير والخيش أن التحرير بلا عقد ، وأن الخيش هو البارز العقد ، أبداً . وإنما التحرير أكثر عقداً . . ولكن هذه العقد ناعمة ومتلاحقة حتى تبدو للعين وللأصابع أنها ليست هناك . . والحقيقة أنها هناك ولكنها ناعمة ، وبمئات الملايين . . وكذلك وجه الحاكم وأسلوبه وسلوكه له ملمس التحرير ونعومته . . ولكن لا نهاية للخيط المتقاطعة والمتراصة والعقد .

هذه هى الصورة التفصيلية لحسنى مبارك نائباً ورئيساً لمصر وزعيماً عربياً وشخصية عالمية .

(٦)

والرئيس مبارك قد تعلم فى الاتحاد السوفيتى . . وهو أقدر الناس على معرفة العقلية السوفيتية . . والعسكرية الروسية . . وهو قد عاش فى موسكو فى (عز) الشيوعية التى بدأت تنتعش فى مصر وفى العالم العربى كله .

وبعد أن رأى ما حدث أخيراً فى الاتحاد السوفيتى ، فإنه يقبل يديه ظهراً لبطن على نعمة الديمقراطية المصرية التى أرساها عاماً بعد عام . .

فمصر تنعم بالديموقراطية وحرية التعبير . . وحرية شتم الرئيس ورجاله فى كل صحف المعارضة ، وفى البرلمان ، وفى الصحف القومية أيضاً - بلا خوف من كاتب على مصيره ، بعد أن رفع القلم وجف الحبر وتم توزيع الصحف بين الناس . . ولا خوف على الذين يسخرون من رؤساء مصر بمن فيهم حسنى مبارك على المسارح الكوميديية فى مصر . . لا خوف . وإنما هو الأمان المستمر . الأمان المستقر .

وبعد كل التساؤلات عن مصر اليوم ، وسنوات حكم الرئيس مبارك ، قد شغلنى سؤال عابر لمندوب التلفزيون المصرى للرئيس جورباتشوف فى موسكو .

السؤال بسيط وغريب ويشبه الأسئلة التى تجيء فى برامج المنوعات فى التلفزيون . وسيادتك تقول لمحمود ياسين ماذا ، وتقول لعادل إمام ماذا ، ولمحمود عبد العزيز ماذا ؟

ويكون السؤال عادة محرّجا ومفاجئاً .

ومندوب التلفزيون وجه هذا السؤال للرئيس جورباتشوف الذى خرج من مصيبة شخصية وكارثة للقوميات السوفيتية وزلزال عالمى . . خرج كأنه نوح عليه السلام وسط الطوفان

الديموقراطى الذى هدم الشيوعية على أدمغة الحزب الشيوعى فى روسيا وفى أوروبا وفى العالم كله .

السؤال هو : ما الذى تقوله سيادتكم للرئيس حسنى مبارك والشعب المصرى .

وارتبك المترجم الروسى . . ولم يستوعب السؤال . . وجاء مترجم آخر ينقل السؤال إلى أذن جورباتشوف وينقل كلام جورباتشوف إلى أذن الرئيس مبارك . . أما نحن فلم نفهم ماذا قال جورباتشوف .

ولكن انشغلت بالذى يمكن أن يقوله . . أو بالذى يمكن أن أقوله أنا نيابة عن جورباتشوف . . فلو كنت جورباتشوف لقلت للرئيس مبارك : سيادة الرئيس مبارك صديقى وأخى أهنتك على أنك لم تكن شيوعيا . . ولا كانت بلادك . . ويجب أن تحمد الله على أن عبد الناصر عندما أدخل الشيوعية إلى الشرق لم تلق الشيوعية إلا صدى ضئيلا فى كل مكان . . وكان الإسلام أقوى أعداء الشيوعية . . فهو الذى صدها عن بلادك وعن بقية بلاد المسلمين . احمدوا ربنا ، فقد أغناكم عن الجوع الذى ألجأنا إلى التسول ، والتسول الذى أورثنا الهوان . . فقد كانت ألسنتنا أطول من أيدينا واليوم أيدينا أطول من ألسنتنا . . وبجاحتنا أقوى من كبريائنا ، فنحن اليوم نطلب مساعدة الدول التى حاربناها بأحققر الأسلحة سبعين عاما . . نطلب الرغيف من أمريكا ومن ألمانيا ومن بريطانيا ومن فرنسا . . واليابان تساو منا ، لا مساعدة إذا لم نعطيها الجزر التى استولينا عليها فى الحرب العالمية الثانية . وكان أملنا دائما أن تنهار أمريكا وأن يقف بوش وماجور وميتران وكول أمام الكرملين يقولون : الله يا أسيادنا الله . . حسنة قليلة تمنع بلاوى كثيرة . ثم نقفل الباب فى وجوههم . . ونضمهم للسرك القومى انتصارا للشيوعية على الرأسمالية . . وانتصارا للحزب على الديموقراطية . . وارتفاعا بهاركس ولينين وخورشوف على محمد وعيسى وموسى . . وتفصيلا للكرملين على الكعبة . . وكتاب رأس المال على القرآن . وأنت تعلم ياسيادة الرئيس ، وقد عشت فى موسكو بأن الشيوعية طردت الله من بلادنا وأنكوت الأنبياء ودفنت الكتب المقدسة . . وأغلقت المساجد والكنائس والمعابد ، وفتحت بيوتا للجان الحزب وأمرأ الحزب الشيوعى . وعلى الرغم من أن الشيوعية لا تؤمن بالله واليوم الآخر وأنبيائه وكتبه . . فإنها قد خلقت لها مقدسات أخرى : فالتاريخ هو الله والكتب هى « رأس المال » والأنبياء هم ماركس وإنجلز وستالين ولينين وخورشوف واليوم الآخر له معنى آخر عندنا . . وهو أن العالم ينتهى نهاية سعيدة ، وذلك عندما تنهار الرأسمالية وتزول الفوارق بين الطبقات ولا يكون هناك أدنى صراع ولا يكون غنى ولا فقير . . فالتناس جميعا سواء . . هذه هى جنة الطبقة العاملة . . هذا هو اليوم الآخر . . فيدخل الشيوعيون الجنة ، ويدخل الرأسماليون النار . وكانت هذه أكذوبتنا

الكبيرة التى ضللتنا بها العالم كله . . ولم نفلح فى تضليل مصر وشعب مصر . فمبروك عليك
شعب مصر الطيب المؤمن ، ومبروك على شعب مصر رئيسهم الحاكم الحكيم القويم . إن
الحرية التى نحلم بها الآن هى واحد على عشرة مما لديكم من حرية وأحزاب وبرلمان . . إن
الناس فى بلادنا فى ذهول فقد أصبحت لديهم القدرة على شتم جورباتشوف بلا خوف . .
وعلى الثورة ضده واتهامه بأنه ضد البروستروپكا . . التى جاء بها لعلاج أمراض السياسة
والاقتصاد فى روسيا وفى كل الدول الشيوعية » ا

* * *

ولو كنت من الرئيس مبارك لقلت لجورباتشوف : فعلا نحن نحمد الله كثيرا على الأمن
والأمان والحرية والديموقراطية . . ونحمده على أنه جنبنا ويلات الشيوعية . وأنا أتوجه إلى
الشعب الروسى وأقول له : إن رئيسكم هو أعظم رئيس . . فهو لم يكتف بالغضب على
الشيوعية ، ولا بالسخط على الحزب ، وإنما هو صاحب ثورة هادئة على كل أنواع الفساد . .
ولذلك فقد لقي ما لقيه الأنبياء حين كفر بهم مواطنوهم - وعندنا مثل يقول : كل نبى فى وطنه
مهان .

وعندنا مثل آخر يقول : زمار الحى لا يطرب .

ولكن الحمد لله لقد استردك شعبك لتكمل رسالتك العظيمة . . فمبروك عليك شعبك
الذى عرف قدرك ، ومبروك على شعبك أنه احتفظ بهذا الكنز العظيم ، والضوء الباهر
والمصلح الهادئ : الرئيس ميخائيل جورباتشوف » .

ابنتى العزيزة : أعطينى يدك أقرأ سعادتك !

العمر الطويل لك يا ابنتى . .

والأعمار بيد الله . . والله يمسك الماضى والحاضر والمستقبل ، « وما تدرى نفس ماذا
تكسب غدا وما تدرى نفس بأى أرض تموت » . .

وأبو العلاء المعرى قال . .

مشيناها خطى كتبت علينا ومن كتبت عليه خطى مشاها

ومن كانت منيته بأرض فليس يموت فى أرض سواها

وأنت يا ابنتى أطول عمرا من آبائك وأبنائك وبناتك وقرائك وعشاقك . . وقال شاعر آخر
زهق لأن له ابنة وحيدة ، لا يعرف ما الذى يحدث لها مستقبلا لو تزوجت غنيا أو فقيرا أو
واحدا قليل الأدب . . لقد حار ودار وداخ ولعن الأيام التى رزق فيها بالبنت . . وتمنى لها ما
لا يتمناه لك يا ابنتى الوحيدة بين ١٣٠ كتابا .

قال الشاعر . .

أحب بنيتى وودت أنى

دفنت بنيتى فى جوب لحد

فإما أن أزوجه غنيا

وتبقى عنده والهم عندى

ولما أن أزوجه فقيرا

فتبقى عنده مثل عبد

ولما أن أزوجه سفيها

فيلعن والذى ويسب جدى

دعوت الله يأخذها قريتا

ولو كانت أعز الناس عندى !

.. فلك العمر الطويل والعزة والكرامة والأبهة والسعادة وحب الناس وأملهم فيك
يا ابتنى .. وحبك للناس وآمالك العظيمة في رضاهم وسعادتهم .. فالسعادة تقبل القسمة
على ألف ، وكلما تقاسمها الناس زادت وانتشرت وعمت الجميع وفاضت في كل قلب هناء
وفي كل عين برقا ، وفي كل عقل نورا ..

ومنذ سافرت إلى بلاد الصين أخيرا وأنا لا أقرأ إلا الأدب الصيني والتاريخ والأساطير التي
هي أحلام الشعوب في الخلاص من الخوف والمرض والجهل والفقر والقهر والتي هي رموز
العلم والأدب والفن والحياة ونهاية العالم ونشأة الكون .. إن الصين كنز لا أول له ولا آخر .

ويوسفنى يا ابتنى أننى تأخرت في معرفة أشياء كثيرة في هذه الدنيا .. تأخرت في معرفة
بعض الناس والعلاقات والأشياء وقراءة المستقبل .. فتأخرت في معرفة طه حسين أروع
الأدباء .. وسبب تأخرى أننى انشغلت بالأستاذ العقاد فحجب عني أن أرى غيره من مفكرى
مصر .. ولكن لم أندم .. فقد كان طه حسين تعريضا سخيا عن الذى فاتنى .. وتأخرت في
معرفة كامل الشناوى مع أننى قابلته في مستهل حياتى الصحفية سنة ١٩٥٠ وكان نقطة تحول
في حياتى ، وحياة كثيرين من الصحفيين والأدباء والفنانين والشعراء .. وكامل الشناوى مثل
أم كلثوم والسنباطى وأحمد صدقى وإبراهيم ناجى وعلى محمود طه والهمشرى وصالح جودت
والفنان مختار وعلى باشا مبارك ولطفى السيد كلهم بلدياتى .. وتمنيت لو عرفته في شبابه
وطفولتى فهو مثل والدى : رجل يحب الأدب ويتذوقه ورجل لا يحب الفلوس ولا تحبه الفلوس
أيضا .. ولكنه لا يعيش إلا بين قلوب الناس .. وقلوب الناس متقلبة .. فكان مصدر
العذاب في حياته أنه يتألب ويتقلب ويتوجع وينزف شعرا - وكان أبى شاعرا رومانسيا وصوفيا
بعد ذلك . وكنت أنا أيضا . لولا أن الفلسفة معشوقتى رفضت أن يكون لها في قلبى شريك
ورفيق !

وتأخرت في معرفة المرحوم على أمين أحد أعمدة الصحافة الحديثة . مع أننى لقيته سنة
١٩٥٢ وكنت قبل ذلك أعمل في الأهرام .. من سنة ١٩٥٠ حتى ١٩٥٢ .. وكان على أمين
يجب عمله ويرى أن العمل حياة ، وأن الحياة عمل . وأن كل ما عدا ذلك وهم .. فقد ولدنا
لنموت ونحن نعمل . ومع أن هذا لا يزال أسلوبى في الحياة ! ولكن على أمين كان يفعل ذلك
لأسباب عملية بسيطة ، وأنا أعمل لأسباب فلسفية .. ولو عرفت على أمين يوم عرفت لطفى
السيد ، لكان حالى غير الحال ..

ولكنك أفضل منى كثيرا يا ابتنى فقد عرفت الكثير والكثيرين وأنت ماتزالين صغيرة ..
وبصراحة يا ابتنى فأنا نادم على أننى لم أتنبه إلى عظمة الحضارة الصينية .. برغم أننى قرأت
طويلا وعميقا وكثيرا ما كتبه الفيلسوف الألمانى اشبنجلر عن انبهار حضارة الغرب وأن المستقبل

للشعوب الصفراء : الصين واليابان . . وأنه خير للإنسان أن يتعلم الصينية الآن وباختياره قبل أن يفرضوها عليه . .

وقد مات أخيراً صديقى ألبرتو مورافيا الذى ألف كتاباً بديعاً عن « حائط الصين العظيم » أروع رحلة أدبية ، أو أروع أدب رحلات . . أو أجمل سياحة عقلية أدبية فنية لعملاق الرواية الأوروبية الحديثة . قال لى مرة ونحن فى فندق سميراميس القديم إنه يتمنى لو كان يستطيع أن يمشى على ساقين صينيتين منفرجتين متوازنتين . . فالدنيا عند الشعب الصينى تمشى على ساقين : السعادة والعلم . . أى كيف يكون الإنسان سعيداً عالماً . . أو كيف يكون مستنيراً سعيداً . فالسعادة من الممكن أن يعيشها الجاهل . . والعلم من الممكن أن يشقى به أصحابه ولكن المعادلة الصعبة هى أن يتوازن العقل والقلب . . أن يتوازن النور والعمل . . أن يكون الوجه والوجدان توءمين . . وهذا واضح فى كل الوجوه الصينية . . حاول ذلك خمس دقائق كل يوم ، تتحقق لك الحكمة السعيدة . . وهى التى نادى بها الفيلسوف الألمانى العظيم نيتشه فى كتابه الشهير «الحكمة المرحية» . .

حاولى يا ابنتى أن تكونى سعيدة عاقلة ، أو تكونى عاقلة سعيدة !

لقد كانت هذه ملحوظة سمعتها من صديقى العظيم ألبرتو مورافيا . ولكنى نسيتهما ونسيت غيرها فى زحمة الحياة العمل ، والعمل الحياة . . أو الحياة الحب والحب الحياة - كما يقول شوقى فى أغنية محمد عبد الوهاب الشهيرة :

أنا انطونيو وانطونيو أنا ما لقلينا عن الحب غنى !

هاتى يدك يا ابنتى . .

أنت ولدت يوم ٣١ أكتوبر سنة ١٩٧٦ . . والأبراج الصينية تقول إنك من مواليد برج الثنين .

وأنا من مواليد برج الفأر . .

والأبراج الصينية مختلفة عن الأبراج التى فى الصحف والمجلات إنها : الخنزير والفأر والثور والنمر والأرنب والثنين والشعبان والحصان والأعنام والقرد والديك والكلب . . وهذه الأبراج لا علاقة لها بأسمائها . . وإنما لهذه الحيوانات مدلولات مختلفة تماماً فى الأساطير الصينية . .

والذين ولدوا معك فى هذا البرج هم مواليد ١٩٠٤ و ١٦ و ٢٨ و ٤٠ و ٥٢ و ٦٤ و ٧٦ و ٨٨ و ٢٠٠٠ . .

وقد ولد معك عدد كبير من نجوم الشاشة ، وأنت نجمة النجوم . . بل أنت مسرح النجوم وسماؤهم . . ولدت : كليوباترة وشيرلى تمبل ، وماى وست وبتي جرابل واودرى

هبورن ومارلين ديتريش وجريتا جاربو وأنطونى كوين وكيرك دوجلاس . والساسة الذين ولدوا معك هم تشرشل وجيفارا وهارولد ويلسون وادوارد هيث . .

والأدباء : توماس هاردى واسبورن وتشيفخوف . .

والشاعر : اليوت

والفلاسفة : كروتشة واسبنسر وبرجسون . .

وأعظم المهندسين فى العصر الحديث : لوكوربوزيه . .

هاتى يدك يا ابتى . . مكتوب لك أنك طويلة العمر . وأن حياتك ألوان وحوادث .
وأنك شديدة التمسك برأيك . وأنك متدينة وأنك صلبة . وتحبب القوة ، وفى الوقت نفسه
تحبب المرونة السياسية . . وأنت من الذين يملكون صنع القرار . . وأنك لا تهريين من
المسئولية . بل إنك تطالين كل إنسان أن يحمل مسئوليته على كتفيه وأن يقاتل . ولا يهم أن
يكسب فى النهاية . المهم هو أداء الواجب . . ومن الذين ولدوا معك فى هذا البرج جان دارك
تلك الفتاة الفرنسية التى دافعت عن فرنسا ضد الاحتلال الإنجليزى . . وماتت على
الصليب . . على دينها . . على يقينها . . فكانت النار التى أحرقوها بها نورا للأجيال من
بعدها ، وكانت عذابا لضمير الطغاة والظالمين . . وكانت جان دارك طفلة كبيرة ولكن
حكايته تعيش إلى نهاية العالم . . فحكايته شابة مثلها تتجدد كل عام . .

وكان المفروض أن تولدى يا ابتى يوم ١٥ مايو سنة ١٩٧٦ أى بعد الإعلان عن اسمك
بشهر ونصف . وكان ذلك مستحيلا . .

وأعلن الرئيس السادات فى مؤتمر صحفى فى فيينا وهو من برج الثعبان أن ميلاد مجلة
(أكتوبر) سوف يكون يوم ٢٣ يوليو - عيد الثورة . وصرخت للرئيس : أن هذا مستحيل ، فأنا
لم أعرف فى ذلك الوقت ما اسمك ولا رسمك ولا حجمك ولا أين تولدين . . وكيف ؟ ومن
الذى يركاك ؟

وطلبت من الرئيس السادات أن يمهلنى بعض الوقت .

والطوال الصينية تقول إن برج الثعبان الذى هو برج السادات وبرج التينين الذى هو
برجك يختلفان فى أشياء كثيرة ولكنها لا يتناطحان . وإنما يتشاجران بعض الوقت لتكون
الصداقة صحيحة والعشق عميقا .

فكان ميلادك يوم ٣١ أكتوبر سنة ١٩٧٦ .

وتقول الطوال الصينية إن مواليد هذا البرج مع مواليد برج الفأر سعداء . .

ففى ولادتك لقاء بين التينين - الذى هو برجك ، والفأر الذى هو برجى .

أنت طبعاً تعرفين أغنية المطرب الأمريكى فرانك سيناترا « مشوار حياتى » - وهو أيضاً مولود
فى برجك يا ابتى - الأغنية تقول : مشوار حياتى طويل . . طويل سعيد . . سعيد لأنى
أحبك . . أحبك لأنك استمرار لمشوارى الطويل . .

المصادفة السعيدة هى التى ولدتك فى برج التين القوى المحبوب القادر على التحدى
والاستمرار فى احترام وإعجاب . .

وكان من عادة الملوك قديماً أن يسألوا الذين يتأملون النجوم إن كانت رحلاتهم سعيدة . .
أو إن كانت حروبهم موفقة . . أو إن كان هذا الوقت المناسب لبناء مدينة - كما فعل جوهر
الصقلى عند بناء مدينة القاهرة .

ولو تذكرنا ذلك لسألنا علماء الطابع وقراء النجوم . . ولو فعلوا لاختاروا لك يوم ٣١
أكتوبر أسعد الأيام ، وأروع البدايات لمشوار حياتك وحياة الألوف من الشباب معك وبك
ولك . . وملايين الذين يتأملون وجهك الجميل وقوامك البديع من الغلاف إلى الغلاف . .

قال صلى الله عليه وسلم : « لو اطلعت على الغيب لاختترتم الواقع » . .

وقد كان الواقع والغيب هما يوم ٣١ أكتوبر سنة ١٩٧٦ يوم مولدك السعيد المتجدد . .
وكل سنة وأنت سعيدة بالناس وهم سعداء بك : طفلة قوية ، وشابة جميلة تقفز كل ١٤ سنة
خطوة إلى الأمام والأمان ، والسلامة والسلام . .

دعوت الله أن يسعدنا قريباً

فقد كانت أعز الناس عندي !

عاشوا فى الحمام وماتوا أيضاً!

العظيم ليس عظيماً فى كل تصرفاته . . وإنما فقط عندما يفكر أو عندما يدبر . . ولكن فى الأشياء الأخرى لا يختلف عن بقية خلق الله . .

ومنذ أيام ظهرت مذكرات سيريل دافيز ، وهو رجل المخابرات الذى كان يرافق الزعيم البريطانى تشرشل (١٨٧٢ - ١٩٦٥) . . يحكى كيف أن هذا الرجل العظيم خرج من الحمام نصف عريان يطارد خادمه الخاص فى كل مكان . . والناس ينظرون إليه فى حالة من الفزع .

فمن عادة تشرشل قبل أن يأكل يستحم . . صباحاً وظهراً ومساءً . . فالاستحمام هو الفعل الوحيد المؤكد فى سلوك تشرشل فى أى يوم . . وفى ذلك اليوم خلع ملابسه وفتح الدش فإذا الماء يغلى . وكان ذلك فى جناحه الخاص فى الباخرة « كوين مارى » . أما الذى حدث فهو أن الماء الساخن كان ينزل من الدش طوال الليل . . فلم يكذب تشرشل يفتح الدش حتى انسلك جلده . . فلم يطق صبراً وإنما خرج ببعض ملابسه يبحث عن خادمه الخاص لكى يجعله يخلع ملابسه لتشويه المياه الساخنة . .

وعندما كتب د . موران مذكراته عن الحرب ، وكان الطبيب الخاص لتشرشل قال : إن شيئاً واحداً مؤكداً سوف يفعله تشرشل فى أى صباح . . أن يجلس على « القصرية » ويقرأ التقارير ويؤشر عليها . . ويصدر أخطر القرارات !

فقد كان تشرشل يشكو من إمساك دائم أو إسهال دائم . . وكان هو الذى يعالج نفسه ويتبرع بعلاج كل الذين حوله أيضاً ، وكان الجنرال أيزنهاور من ضحاياه !

والحمام كلمة عربية معناها مكان الماء الساخن . وفى اللغة يقال : « حمى » النهار بكسر الميم أى ارتفعت درجة حرارته . . وكذلك حمى الماء . . والرسول عليه الصلاة والسلام هو أول من استخدم هذا التعبير « حمى الوطيس » أى سخن . . وهى عبارة أطلقها الرسول عليه

السلام عند معركة حنين . . وكان يقصد بها أن الحرب قد اشتعلت . والوطيس معناها .
الفرن . أى إن فرن الحرب قد اشتعل !

ولكن بعض الناس لا يطيق الماء الساخن . فالزعيم الفرنسى جان - بول مارا
(١٧٤٠-١٧٩٣) كان مصابا بمرض جلدى فكان يقضى النهار والليل مغمورا في ماء بارد .
يقرأ ويكتب ويناقش . . حتى صديقاته لابد أن ينزلن إليه في الحمام البارد . . وقد اغتالته
الآنسة شارلوت كورداي . . لقد ادعت أنها جاءت لتعالج قروحها الجلدية . . ولكنها قد
اتهمته بخيانة مبادئ الثورة الفرنسية !

لقد كان المرحوم يوسف السباعي أكثر ضبطا للنفس من تشرشل . . فعندما كنا في بلودان
بسوريا ، سألتني يوسف السباعي إن كنت قد أخذت حماما . فقلت نعم . فسألني إن كان
الماء ساخنا . فقلت : دافئ جميل . .

ودخل يوسف السباعي تحت الدش وبعد لحظات راح يصرخ . . فقد كان الماء شديدا
البرودة !

وضحكنا . وبعدها بشهر قرأت إعلانا في الصفحة الأولى من كل الصحف المصرية هذا
نصه : الله يخرب بيتك يا أنيس منصور ، بقلم يوسف السباعي . وانزعجت . ومددت يدي
إلى مجلة « التحرير » التي كان يرأسها يوسف السباعي . . فإذا به يحكي مقلب الحمام البارد !
ويقول رجل المخابرات سيريل دافيز إن تشرشل كان يجد الحمام الساخن فاتحا للشهية . .
مريحا للأعصاب . . فإذا انشغل تشرشل باتخاذ أى قرار ذهب إلى دورة المياه وبعدها أخذ
دشا . . وجلس في غاية اليقظة والسيجار الطويل بين شفتيه . . ولابد أن تكون بهذا الترتيب :
دورة المياه والدش والسيجار !

وأشهر حمام في التاريخ هو حمام العالم الإغريقى أرشميدس (٢٨٧ - ٢١٢ ق . م) . وهذا
العالم عاش في الإسكندرية . . وهو الذى اخترع الطنبور لرفع المياه . . وما يزال مستخدما في
مصر . . واخترع كثيرا من الأسلحة استخدمها في الدفاع ضد الرومان . ولما استولى الرومان
على بلده سيراكوزة ذبحوه !

ولكن من أشهر كلمات أرشميدس كلمة : أويوركا - ومعناها : وجدتها !

فقد كان يستحم في بانيو . . ولما ألقى بنفسه في الماء ، طفع الماء . . فخرج من البانيو
عاريا يقول : وجدتها . . أما الذى وجدته فهو أنه لم يكن يعرف حجم الجسم الإنسانى
وغيره . . فعرف الآن أن البانيو إذا كان مليئا حتى آخره ونزل هو فيه . . فالماء الذى سقط من
البانيو يساوى حجم جسمه تماما !

والكاتب الفرنسى ادمون رويستون (١٨٦٥ - ١٩١٨) مؤلف رواية سيرانو دى برجرارك الشهيرة كان لا يحلو له التأليف والكتابة إلا وهو فى البانيو . . وكان يأكل ويشرب . . واخترع لنفسه صينية من الخشب لكى يضع عليها الطعام وهو فى البانيو . . وكانت عنده مشكلة وهو أنه فى بعض الأحيان يحتاج إلى أن يسجل أفكاره بسرعة . . ويخشى إن هو ارتدى ملابسه أن تطير منه الأفكار . . فكان ينبطح على أرض الحمام يكتب ويكتب . . حتى يعطس فيعود إلى البانيو الذى يكون الماء فيه قد برد - ولذلك كان مزكوما دائما !

أما الأديب الإنجليزى وليام بليك (١٧٥٧ - ١٨٢٧) فكان يتمدد فى البانيو ويسند رأسه وينام نوما عميقا . وكانت زوجته تضع الماء الساخن فى البانيو من حين إلى حين لكى تحتفظ له بهاء دافئ . . وكانت هى الأخرى تنزل فى بانيو مجاور . . فكان إذا زاره أحد وناداه فكان يرد عليه قائلا : تعال . . لن نجد هنا إلا آدم وحواء !

والأديب والمغامر والصحفى والموسيقار وذئب النساء وصاحب أطول مذكرات فى التاريخ (١٧ مجلدا) جيوفانى كازانوفا (١٧٢٥ - ١٧٩٨) فكان من شدة حبه لذاته وجنونه بنفسه يشرب من ماء البانيو الذى يستحم فيه . . والذى تستحم فيه مئات الجميلات اللاتى عرفهن فى حياته . . وفى مذكراته يقول : للنساء مذاق خاص إذا وضعتهن فى بانيو من النيذ أو فى بانيو من الشمبانبا . . والله لم يخلق الماء إلا للخنازير والحمير . . أما عصير العنب والتفاح فلكى نجعله شرابا لأجسامنا ومدادا لأقلامنا . . ولذلك فأهله الإغريق - لم يكونوا يفيقون من الخمر !

ومؤلف قصص الأطفال هانس اندرسن (١٨٠٥ - ١٨٧٥) كان دائم السخرية من نفسه . . فهو نحيف جدا ، ولذلك يحشو ملابسه بأوراق الصحف حتى يبدو « ملو هدومه » . . وكان يقول لصاحبة البيت : أريد فنجانا من الماء الساخن . .

فتسأله : ولكن لماذا ؟

فيقول ضاحكا : فقط أريد أن استحم !

ويقول إنه فى إحدى المرات علق على باب الحمام خطابا لصاحبة البيت : أرجو أن تفتحى الباب فإذا وجدتني لا أتحرك ولا أتنفس فإننى لم أمت . . وإنما أبعدو كذلك !

والتاريخ يذكر لنا أن أول من أدخل البانيو إلى أمريكا هو المفكر الأمريكى العظيم بنيامين فرانكلين (١٧٠٧ - ١٧٩٠) . فقد نقله معه من فرنسا حيث كان يعمل سفيرا لبلاده . واخترع فرانكلين أشكالا وألوانا وأحجاما من الحمامات . . أما الحمام الذى كان يناسبه هو فقد جعل به منضدة من الرخام بحيث إذا جلس ليكتب فإنه يكون مغمورا حتى رقبتة ثم يخرج

ذراعيه من تحت الماء ويكتب . . ولم يفلح فرانكلين في أن يخترع نوعا من الأقلام لا يفسدها الماء . . وكان إذا أراد أن ينام وهو في الحمام ، فتح الماء قليلا لينصرف بعضه . . ويهبط حتى صدره . . ثم يضع ذراعيه تحت رأسه وينام - أجمل وأسعد نومة !

وفرانكلين له عبارات لها شكل الحكمة ومذاقها . . مثلا : لا شيء في الدنيا مؤكد إلا الموت والضرائب والحمام اللذيذ !

* * *

لن يختلف الناس كثيرا إذا التقوا في حمام واحد كلما احترقت أعصابهم !

* * *

أنا لا أعرف فلانا ، فنحن لم نجلس في حمام واحد !

* * *

أما صديقي الأديب الإيطالي ألبرتو مورافيا (١٩٠٨ - ١٩٩٠) فقد عرفته أكثر من ثلاثين عاما . وأنا أول من قدمه إلى القارئ العربي . عندما عرضت ولخصت وترجمت له رواية « فتاة من روما » . أروع ما كتب ألبرتو مورافيا . وهي تصف رجال ونساء الطبقة الوسطى في إيطاليا في أعقاب الحرب العالمية الثانية . وقد أدى هجومه على الفاشية إلى اختفائه بين الجبال يتنقل متنكرا وينشر في الصحف بأسماء مستعارة حتى سقط موسوليني ونقلته القوات الأمريكية ليعيش في روما التي أحبها ولم يكتب إلا عنها . .

أما روايته الأولى التي ظهرت وهو في الثانية والعشرين من عمره فهي « زمن اللامبالاة » . . وجاءت بعد ذلك رواية « المنضبط » . . وتوالت رواياته الرائعة وقصصه القصيرة البديعة - وقد ترجمت منها ١٣٧ قصة .

وقد التقيت به في بيته في روما . وعرفت زوجته الأولى الأديبة السه موارنتسه التي هجرته إلى رجل آخر .

وعرفت زوجته الثانية الجميلة داشيا مارياني التي ألفت رواية اسمها « الزمن الرديء » وقد تركته لأنها تفضل الشذوذ الجنسي . .

وقابلته بعد ذلك في برلين وفي هافانا . . ثم في القاهرة . . ودعوته لزيارة مصر . وعلى الرغم من أن موارفيا هو أعظم الروائيين المعاصرين فإنه لم يفز بجائزة نوبل في الأدب بعد أن رشحوه سبع مرات . والسبب هو الجنس الصارخ في كل أعماله الأدبية . . ولأنه أيضا ليس مؤمنا . . ولأنه كان شيوعيا . . ثم كان فوضويا . . ثم وجوديا .

ومورافيا متشائم . ويؤمن بأن الإنسان تعيس . وأن حضارة الإنسان لم تحقق له أى نوع من أنواع السعادة . . ثم إن الإنسان شرير يزداد شرا . . فقد كان يرمى الناس بالحجارة . . وتطورت الحجارة فصارت قنابل ذرية . . إنه نفس الإنسان المتوحش . . ولا تزال الأخلاق والدين غلالة رقيقة زائفة . . فالأصدقاء أعداء تحت التمرين . . والمرأة ولدت خائنة . . فقط اعطها فرصة . . وهو لم يقابل فى حياته امرأة واحدة صادقة . . ولا أحد قابل امرأة صادقة مخلصة وفية . . والفنان قد عاقبه الله بأن خلق له موهبة وحساسية شديدة ثم عاقب هو نفسه بأن تزوج . . وهو تزوج لأنه صدق امرأة كاذبة . . وهو صدقها لأنه يحب المديح والإطراء . . أليس الفنان خالقا مبدعا ؟ ثم أليس الخالق يطلب من الناس أن يصلوا له وأن يعبدوه وأن يشكروه ؟ ! فالفنان كذلك . . فإذا تزوج انكشف له جوهر المرأة وخداعها فإنه يترك الزوجة وينسى . . أو يتركها لكى ينسى فتحثال عليه ثانية وثالثة . . وهو ينسى . . ولكن لا ينسى أبدا أنه نصف إله . . وأنه فى حاجة إلى عباد وإلى مصليين وإلى راكعين وساجدين . . فهو الإله المخدوع والمغفل المقدس ، والحمار الأبدى !

وجدوا البروتومورافيا ملقى أمام البانيو . . وتركوه حتى اليوم التالى . . لقد أصيب بأزمة قلبية .

ولما سئلت الخادمة كيف لم تنبه إلى ذلك قالت : مألوف جدا أن يدخل الحمام ومعه الكتب وزجاجة النبيذ والتليفون والتلفزيون . . إنه يفعل ذلك من ثلاثين عاما . . إنه حوت عبقري . . عندما خرج من الماء مات ! .

ليالى الأنس فى فيينا: سنة حلوة يا جميل!

(١)

عبارة مشهورة عن مدينة فيينا : ليس فيها وجع للدماغ ، ولكن فيها وجع للقلب !
أغنية مشهورة تقول عن مقاهى فيينا : أنت لا تجد طعاما - اذهب إلى المقهى أنت تجد
طعاما ولا تجد عرشا - اذهب إلى المقهى .

أنت تكره كل الناس ، ولا تستطيع أن تستغنى عنهم - اذهب إلى المقهى !
أنت لا تجد البنت التى تحبها ، وعندما وجدتها احتقرتها - إذن اذهب إلى المقهى . .
قالها الأديب التنبرج . .

ولكن لماذا قالها ؟ لأن فى فيينا أجمل مقاهى الدنيا . . وقد بدأت هذه المقاهى فى أثناء
الحصار التركى سنة ١٦٨٢ . وفى أثناء هذه المحنة قام واحد كروانى بجمع ما تبقى من حبوب
البن وراء الجيش التركى وافتتح أول مقهى . . وجاء واحد إيطالى وأضاف إلى هذا المقهى
تراييزات للبياردو والقمار والشطرنج والصحف أيضا .
وأصبحت المقاهى أشكالا وألوانا . .

وهناك أنواع من المقاهى أطلقوا عليها مقاهى العظمة المجنونة . . ففى هذه المقاهى يجلس
الأدباء والشعراء والرسامون وجلساتهم حفلات تكريم لأنفسهم ، ما دام لا أحد هناك
يكرمهم ويضعهم فى مكانهم الصحيح ! .

وفى فيينا التقى أكبر عدد من الأدباء والرسامين والموسيقيين . . ولكن نصيب فيينا من
الفلاسفة قليل جدًا . .

ربما كان فى فيينا اثنان أو ثلاثة فلاسفة . . مثل الوجودى فتجنشتين ونصف الوجودى
فانيجر والكافر بالجميع ماخ . . أما عدد الأدباء فكثير جدا من بينهم : كافكا وقرفل
وتسفايج وهو فنانشتال . .

أما الموسيقيون فهم موتسارت واشتراوس ولبهار ومالر ؟ وكان هنا هايدن وبيتهوفن وشوبان وجاء فاجنر إلى فيينا أيضًا . .

وهناك عبارة عن فيينا تقول : كل ما فيها لذيذ إلا الهواء . .

وعبارة أخرى تقول : ولكن الهواء يهب على فيينا لأنها للذيدة !

أول مرة رأيت فيينا كان سنة ١٩٥٠ . . وقررنا فيها بيننا أن نجعل ليلتنا كما وصفتها أسمهان : ليلي الأنس في فيينا . .

وفي ذلك الوقت كانت فيينا مقسمة خمسة أقسام : كل دولة عظمى تحتل قسما من المدينة . . والقسم الخامس هو القسم الدولي . والذي نزلت في أحد فنادقه . . والكباريه الذى ذهبنا إليه في القسم الخامس الدولي . . الكباريه اسمه (مولان روج) - أى الطاحونة الحمراء . . وهو لا يختلف عن أى كباريه آخر في أى مكان . . ولكنه في فيينا التى ليلاتها أنس كما تقول الأغنية . . وكانت أنوار دافئة وموسيقى صاخبة ، وراقصات في لون النار من بعيد ولكن هواء من فاسد من قريب . . ولكنها فيينا التى ليلاتها أنس . . سألت جارتى التى تجلس إلى مائدة أخرى : طبعا نمساوية . . فأجابت مستنكرة : ولماذا طبعا . . فهل أنت نمساوية طبعا ؟ قلت : طبعا لا . .

واختفى الأنس ساعة من ليلي فيينا . . واقترحت على الزملاء أن نغير المكان (د . عبد العزيز حجازى ود . عبد المنعم البنا ود . حسن عثمان ود . مراد كامل ود . محمد محمود الصياد ومدير الإذاعة الأستاذ طيفور) . .

وسألتنى جارتى : من إيطاليا .

قلت : لا .

قالت : من الشرق الأوسط .

قلت : نعم . . وأنت ؟

قالت : من الشرق الأوسط .

فقلت : من لبنان ؟

فأجابت : نحن جميعا من إسرائيل !

ويبدو أن ما تبقى من أمل في أن يكون هناك أى نوع من الأنس قد اختفى . . وهمست في أذن الذى إلى جوارى ليهمس في أذن الذى إلى جواره واتفقنا على مغادرة الطاحونة الحمراء . .

وأمامها قلت : طبعى جدا أن يكون هنا هذا العدد الكبير من اليهود . . ففينا هي بلد الصحفي العالمى هرتسل الذى كان أبا دينيا للصهيونية العالمية . .

واقترحت أن نخرج وأن نجلس فى أحد المقاهى . . وكان أقربها (مقهى سخر) . . وبنت صاحب المقهى كانت ملكة جمال فيينا ، ثم تزوجت رئيس وزراء مصر محمد باشا نسيم . . وفى فيينا تورته مشهورة بالشيكلاتة اسمها تورته سخر . .

هل كان المكان ضيقا . . هل كان دافئا . . هل كانت الأضواء شاعرية أو إننا رأيناها كذلك لأننا نريد تعويضًا عن الذى أصابنا فى الطاحونة الحمراء - فقد رأيت المقهى بعد ذلك عدة مرات ، ولم أجده هكذا جميلًا ساحرًا . ولكن الجمال والسحر نحن الذين نسجنهما لأنفسنا . . كأنه مطلوب منا أن نقنع أو نقنع أنفسنا بأن ليالى فيينا هي ليالى الأنس !

وفى الساعة الثانية صباحا كانت دقات على الباب . وفتحت الباب وأنا اغط فى النوم . وأمامى أحد رجال الشرطة ومعه فتاة يسألها : هل هو هذا ؟ تقول الفتاة : لا . . ليس هذا . وخرج الأصدقاء جميعا من غرفهم بالبيجاما ورجل الشرطة يسأل الفتاة : هل هو هذا ؟ إذن هو هذا ؟ ليس هذا . . ولا هذا . . إذن كيف كان شكله . . كان يجلس مع كل هؤلاء . . هرب . . إذن هرب ! .

والحكاية أن واحدا قد ضحك على هذه الفتاة وأعطاه جنيها على أنه مائة دولار . . وما دام قد وعدا بهذا المبلغ ، وهى لا تكذب فلا بد من دفعه . . لابد أن نتعاون جميعا على دفعه ، وإلا فلا خروج من النمسا ، وإنما دخول للسجن ! .

منتهى اليأس من الأنس فى فيينا !

(٢)

فى يوليو سنة ١٩٥٢ كنت فى فيينا . . وفجأة صدرت الصحف كلها وعليها هذه المانشئات : هكذا قال د. عصفور . . تصريح خطير لدكتور عصفور ٣٥٠٠ ألف مدرس نمساوى تحتاج إليهم مصر لتعليم اللغة الألمانية . . مفاجأة كبرى من ثورة مصر : أول احتياجاتهم مدرسون من هنا فورًا .

أما دكتور أحمد عصفور فكان عضوا فى حزب مصر الفتاة وفى آخر أيامه كان يعمل مستشارًا للبرفس عباس حليم . . فقد طلع فى دماغ عباس حليم أنه اشتراكى . . أو شيوعى على خفيف وأنه ضد الملك وضد النظام الملكى . . وكانت الصحف المصرية ترى فيه ثائرا . .

ولم يكن ذلك إلا (تقليعه) اجتماعية . . وإن د. عصفور قد ضحك عليه . . وجعله يركب الترام مثل الشعب المصرى . . وكان بذلك يغيظ الملك « فاروق » . .

ود. أحمد عصفور كان نازيا . . مع الألمان ضد الإنجليز . . وكان مع عباس حليم ضد الملك . . وهرب من مصر بعد أن تزوج فتاة نمساوية ساعدته على أن يحصل على الدكتوراه من جامعة سويسرية - هى التى كتبت له الرسالة طبعا . . وكانت مراجع هذه الرسالة كلها عربية وليس فى متناول أى إنسان خارج مصر . . فكلها مأخوذة عن جريدة (الجمهور المصرى) التى كان يرأس تحريرها الصحفى الرهيب أبو الخير نجيب . . وكان أحمد عصفور هذا أعرج وكل ذى عاهة جبار . . وكان جبارا فى معاملة هذه الزوجة . . فكان يضربها ويطردها . . وكانت تدق أبواب كل أصدقائه ولم تستطع أن تخرج من مصر ، فكل جوازات السفر معه هو . .

وساعدته على الهرب من مصر وعلى أن يفتح مطعما للفول والطعمية فى فيينا . . وكان قد استورد كمية كبيرة من الفول ولم تفرج عنها الجمارك النمساوية . . إلا إذا دفع مبلغا كبيرا . وهو لا يريد ولا يستطيع . فلما وقعت الثورة المصرية عقد مؤتمرا صحفيا . أعلن فيه صداقته الحميمة لرجل الثورة المصرية الرئيس محمد نجيب . وقال فى المؤتمر الصحفى إنه اتصل به تليفونيا وهنأه على الثورة التى كان ينتظرها . . ولكنها تأخرت عن الموعد الذى حدده معه . . ولما تأخرت فقد يئس من نشوبها . ولذلك ترك مصر . وقال : إن صديقه الرئيس نجيب الذى يتكلم الألمانية ويحب الأدب الألمانى قد طلب منه أن يتوسط لدى الحكومة النمساوية لعلها أن تبعث فوراً بثلاثين ألف مدرس .

ومثل هذا الخبر قد هز الحكومة النمساوية والشعب . . فأول قرار تتخذه الثورة المصرية هو الاستعانة بالنمساويين وليس بالألمان . . ثم هذا العدد الكبير جدا من دولة عددها خمسة ملايين ١٩ .

وأفرجت الحكومة النمساوية عن الفول والعدس والأرز الخاص بالدكتور عصفور . . وبعد إفراجها عن هذه الكمية الكبيرة ، وإنكار الثورة المصرية لهذه التصريحات التى أدلى بها د. عصفور هرب إلى الدانمرك ! .

(٣)

سنة ١٩٦٠ جئت مرة أخرى إلى فيينا . . كانت أجمل ألطف أرق . . الصحة والشباب والابتسامة والرغبة فى الحديث مع أى أحد : كانت من علامات المجتمع النمساوى . وفى فيينا أنت لا تعرف ما هى ملامح الرجل أو السيدة النمساوية . . فهنا خليط هائل من كل

شعوب أواسط أوروبا وتركيا . . وهناك أقلية على الحدود تحتفظ بالمعالم الألمانية ويتفاخرون بأنهم
ألمان . . ويتكلمون الألمانية بلهجة الألمان العنيفة ، وليس بلهجة النمساويين الرقيقة . . ثم
إنهم يعلقون العلم الألماني وليس العلم النمساوى . . ولا أحد يلومهم فهم جميعا ألمان
لاشك في ذلك . . والنمسا بالألمانية معناها : الدولة الشرقية أو المنطقة الشرقية من ألمانيا . .

وسافرت إلى سالزبورج المدينة التى ولد فيها عبقرى الموسيقى موتسارت . . والذى صورته
في كل مكان . . على المحلات وعلى الشيكولاتة والذى موسيقاه في كل أذن . . في المقهى
والمطعم وصالون الحلاقة . .

واخترت بنسيونا صغيراً قديماً حطمت الحرب نصفه بالطول . . ولم تستطع صاحبة
البنسيون أن تبني النصف الآخر . ولكن عندها حكايات كثيرة عن كيف انهدم عليها البيت
وهى تحت الأرض . . فلما خرجت وجدت نصف البيت كومة من التراب . . وهى تأسف على
ما حدث . . وتحمد الله على الباقي . . ومعنى ذلك أنه من الواجب عليك أن تغفر لها أى
تقصير أو إهمال . . والحقيقة أننى لم أجد فيها أى إهمال ولا تقصير . . فالبيت نظيف
جدا . . فأنا عندما أفتح الباب أجدها قد وقفت بالإبريق والطشت لكى تساعدنى على غسل
وجهى . . أما إذا حلقت ذقنى ، فإن ابتها الصغيرة تكون قد أمسكت الإبريق لكى أغسل
وجهى مرة أخرى . .

وأخيراً وجدت حلاً وهو أن أغسل وجهى في محطة السكك الحديدية . . فإننى لم أسترح
إلى هذا الذى تفعله صاحبة البنسيون وبناتها الجميلات جدا . . ولكنها تشعر بأنها لا تفعل
أكثر مما يجب . . فهذا واجبها . وما دام واجبا فهو شيء مقدس - وهى في ذلك ألمانية مائة في
المائة !

ولكن الذى لم تستطع أن تفعله هذه السيدة ولابناتها الجميلات هو حكاية البراغيث في
غرفة النوم . . إنها شديدة اللسع . . فإذا كشفت وجهى لسعتنى ، وإذا غطيته لسعتنى
وإذا جلست وإذا وقفت وإذا لبست وإذا قلعت . . فإننى ملسوع ملسوع . وإذا أضيئت
الغرفة ، فإننى لا أراها . . ولذلك لا وسيلة للنجاة من هذه البراغيث . .
ولا أعرف كيف أشكو فالسيدة قد قدمت لى كل الأعذار . .

ولكن وجدت لنفسى قصة ترضينى وأتحدث عنها منذ ذلك الحين . . وهى أن هذه
البراغيث هى أحفاد البراغيث التى لسعت الموسيقار العبقرى موتسارت . . فدم موتسارت
يجرى في عروقى مع الموسيقى . . وفي ذلك ألف عذر وعذر لليلة واحدة في مدينة
سالزبورج !

(٤)

فى أول إبريل ١٩٧٦ وفى مؤتمر صحفى للرئيس السادات سأله فأجاب : إن مجلة ٦ أكتوبر سوف تصدر يوم الاحتفال بثورة التصحيح . . يوم ١٥ مايو القادم بإذن الله !

ولم أستطع أن أكنم صرخة من قلبى : ياتهار أسود . كيف ؟

فقرار صدور المجلة عمره ٢٤ ساعة ونحن مسافرون مع الرئيس السادات أياما أخرى . . وليس عندى معلومات من أى نوع عن اسم المجلة ولا شكلها ولا حتى مكان صدورها . . ولا عندى صورة عن نظام العمل . . ولا معنى محرر واحد . .

وتحولت ليلالى فيينا إلى ليلالى حزن وغم . . ذهبت إلى عمرو موسى ، فوجدته بالبيجاما والطاقيّة : قلت له ما رأيك ؟

قال لى : تضرب دماغك فى الحائط فالمجلة لابد أن تصدر . . هذا قرار جمهورى .

قلت : أعرف ولكن يستحيل أن تصدر فى هذا الموعد الذى قرره الرئيس . .

قال : اذهب إليه وناقشه بسرعة !

ذهبت إلى أسامة الباز . . وهو دائما فى بعض ملابسه . . فلم أر فى حياتى واحدا يمشى نصف عريان فى غرفته فى أى وقت وبلا ملابس داخلية . . أقل الملابس الداخلية . . وحتى عندما يخرج إلى الشارع مهما كانت درجة الحرارة تحت الصفر فهو بلا فالتة - فالتة خطأ - ولا بلوفر ولا بالطور . . قلت له : ما رأيك !

قال : لا رأى . . يجب أن تصدر ولكن ليس فى هذا الموعد . . فأنا أعترف أن هناك صعوبة . اذهب إليه . . بسرعة قبل أن يتمسك بهذا القرار .

قلت : إنه صحفى ويعرف استحالة ذلك . .

قال : ولكنه رئيس جمهورية وهذا أمر . وهو أعلن وعليك أن تنفذ له هذه الرغبة . .

وقابلت الرئيس السادات وقلت له : ياريس كيف تصدر المجلة فى هذا الوقت . . لا عندى مكان . . لا عندى فكرة . . ولا أعرف أين تصدر ولا كيف . . ولا عندى محررون . .

قال : إذن يجب أن تصدر فى عيد ثورة يوليو . .

قلت : ممكن . حاضر ياريس !

ولم أشعر فى حياتى بضرورة أن أتصعلك على مقاهى فيينا ، كما شعرت فى ذلك الوقت . . وأغرقتنى الحيرة والقلق وكنت قد انشغلت عن مثل هذه المشاعر . . فبدلا من الصعلكة

الحركية ، أصبحت عندى صعلكة روحية . . بين المذاهب الفلسفية والأدبية والدينية واعتدت
أن ألف الدنيا وأدور حولها وأنا جالس فى مكانى . .

ورحلت أتنقل بين مقاهى فيينا . .

ففى هذا المقهى خطط الثوار الروس لثورة أكتوبر . .

وهنا أعلن الرسامون النمساويون ثورتهم على الخطوط الكلاسيكية والألوان التقليدية . .

وهنا جلس العالم النمساوى الكبير فرويد وأدار رأسه وأدار رءوسا كبيرة وكثيرة أيضًا . .

وأسندت ظهري لتمثال الإمبراطورة ماريا تريزا وأقول لها : قولى لى ياست أنت كيف
حللت مشكلة بنتك الملكة ماري أنطوانت عندما عرفت أن زوجها الملك لويس السادس
عشر عاجز جنسيا . . وأنه لم يفلح فى أن يقترب حتى مات . . وكانت هى تبدد طاقتها
وأموالها فى شراء الفساتين والمجوهرات وزيارة بيوت الفقراء . . وكان كلما جلس عند قدميها
كما أفعل الآن كنت أنت تكتبين إليها وتقولين : ابنتى لا أحد عنده كل شيء . . الكمال ليس
صفة إنسانية . . فليكن لك أى شيء . . إنه أفضل كثيرا من لا شيء !

أبدا يا صاحبة الجلالة . لا بد أن يكون الشيء كاملا فريدا وإلا فلا معنى له . . يا مجلة
ممتازة ليس لها نظير فى مصر والعالم العربى ، وإلا فلا معنى لذلك . . أبدا وحياتك يا جلالة
الإمبراطورة - يا أم عشرة من الأولاد . . وإلا لا داعى مطلقا لأن تصدر مجلة وهى نسخة مكررة
من المجلات المصرية أو العربية !

وتوقفت أمام تمثال الإمبراطورة ماريا تريزا ونخيلت أنها أدارت رأسها إلى الناحية الأخرى وأن
ذراعى قد طالت وطالت حتى بلغت قفاها ، واستحييت أن أفعل شيئا . . ولكن يدها هى
التي امتدت إلى شفتى فقبلت الجمال والأبهة وروعة نهار وليل فيينا !

وطلبت مقابلة الرئيس السادات : عندى رأى يسيادة الرئيس والرأى لك . . لماذا ما
دامت المجلة اسمها ٦ أكتوبر أن تصدر يوم ٦ أكتوبر !

قال متهللا : لا بأس يا أنيس . . مفيش مانع أبدا !

شكرا ياريس . .

(٥)

٣٠ أكتوبر سنة ١٩٩١ وفى مقهى السلام بفينا . . تذكرت أيام كنا نذهب إلى صالون
العقاد فى مصر الجديدة . . وكنا لشدة إعجابنا بالأستاذ العقاد نعتقد أن الأعلام المرفوعة على

كل المؤسسات يوم الجمعة ، قد وضعت تحية للأستاذ أو لتلامذة الأستاذ الذين يسعون إليه
مسرعين لكي يصلوا الساعة التاسعة تماما . .

كل هذه الأعلام لكل هؤلاء الشبان . . ياسلام . . دعنى أصف لك واحدا منهم . إنه
نحيف . . شعره منكوش يرتدى قميصا وينطلونا . . يعطس فقد نسى المنديل في البيت . .
أو إن المنديل في جيبه ولكنه نسى أن يضع يده في جيبه . . أو إن المنديل في جيبه ولكنه لا يريد
أن يخفى فيه أنفه . . فلعله يريد أن يصيبه التهاب في الحلق ، لكي يلف حول رقبته كوفيه
كالتى يضعها الأستاذ العقاد حول رقبته . . ثم إنه وهو يمشى يجعل خطوته واسعة ويميل إلى
الأمام مثل الأستاذ . . أما الوجه فهو مكشّر قليلا ، وهو مستقل عن كل شيء حوله . . كأنه
غارق في التفكير . . وهو نزل من المترو قبل بيت الأستاذ . . لأنه يريد أن يمشى إلى بيت
الأستاذ . . أن يسعى إليه . . وأن يعرف كل الناس أنه ذاهب للعقاد . . وأنه شخص مهم
جدا ، كما أن الأستاذ شخصية هامة جدا . . ولا يدل على استغراق هذا الشاب في عظمة
الأستاذ إلا أنه على الرغم من صعود السلم ألف مرة فلم يخطر على باله أن يعرف كم عدد
السلم . . كم واحدة سليمة وكم واحدة مكسرة . . ولا إن كان السلم مغسولا . . ولا ما هي
نوعية الروائح التى تخرج من كل الشقق ، وهذه الروائح هي أكبر دليل على نوعية الناس . .
نوعية الطبقة الاجتماعية . . ولا ما هي الروائح التى تنبعث من بيت الأستاذ . . غالبا لا رائحة
فالشباك الشرقى مفتوح على الباب الغربى . . والتيار يجمىء من هنا ويخرج من هنا . . ثم إن
أحدا لا يدخن في صالون الأستاذ . . فالجو بارد . . وهذه البرودة هي التى توقف نمو
الكلمات والضحكات . . أو إنها تقلص الحركات والأضواء والأصدا . . وعندما يدخل هذا
الشاب النحيف فإنه يحشد كل حيويته وفي وجهه وفي يده . . فهو يضحك سعيدا برؤية
الأستاذ ويمد يده بسرعة ، وبسرعة يجلس ويتنظر وقد ضم ساقيه وقدميه ورفع رأسه وفتح
أذنيه وعينيه - ذلك الشاب هو أنا في ذلك الوقت !

وليست هذه الأعلام حولى في فيينا والصور والشيكلات التى رسمت عليها صورة
موتسارت عبقري الموسيقى الذى يحتفلون بمرور قرنين على وفاته ، إلا احتفالا بمناسبة
أخرى . .

فكلما جاء الجرسون انصرف ووقف بعيدا يرانى أقلب في شيكلاتة موتسارت . . وصورة
على قائمة الطعام وفي الصحف وعلى الجدران فالعين تراه في كل مكان . . والأذان تستمع إليه
من كل باب وشباك . . والوجوه سعيدة بذلك وتتوقع أن نهتها بمرور قرنين . . فتدعو لأى
إنسان أن ربنا يعطيه طول العمر ليحتفل بمرور ثلاثة أو أربعة قرون . . ويتلقى منك الناس
هذه الأمنية بامتنان عظيم ، كأنها ممكنة !

ثم عاد الجرسون سعيدا بيا رأى . . وأحنى رأسه لكى أطلب فقلت : تورتة .

- من أى نوع .

- لعيد ميلاد .

- كم شمعة . .

....

- وحدك سوف تحتفل ؟

- نعم . .

- فهمت . .

أما الذى فهمه ، فهو أنه رأى أننى وحدى وأننى أردت أن أحتفل بعيد ميلادى . . ومنعه الحياء أن يسألنى عن عمري . . فاخفى وعاد بتورته عليها شمعة واحدة كبيرة . . ترمز إلى الاحتفال دون ذكر لعدد السنين . .

فقلت : بل أريد ١٥ شمعة .

- حالا ياسيدى .

وأتى بالشموع . . وأشعلها . . والموسيقى تقول : سنة حلوة يا جهيل .

فأطفأت الشموع الخمس عشرة التى ترمز إلى عيد ميلاد مجلة (أكتوبر) ، أطال الله عمرها ونجاحها رمزا للشباب والحيوية والشعبية . .

وكان هذا الاحتفال الصغير بداية رقيقة بديعة لإحدى ليالى الأناضول فى فيينا . . وإحدى سنوات السلام فى مدريد والشرق الأوسط .

ما أحلاها عيشة الفلاح ولكن في كواكب أخرى!

من خمسين عاما كان محمد عبد الوهاب يغنى ويقول ، ونصدقه ونردد وراءه . .

ما أحلاها عيشة الفلاح متنهى وباله مرتاح !

ولكننا الآن لا نغنيها ولا نرددنا وراءه ، وإن كانت نغمة الصوت الموسيقى للأغنية هي التي تأخذنا بجمالها وليست بمعانيها . . فحياة الفلاح لا يحسده عليها أحد : لا هو مرتاح ولا نحن . . ولا يستطيع أن يجد شجرة ينام تحتها ، وإن وجد الشجرة فإنه لن يجد النوم ، وإذا وجد النوم فسوف ينهض مدشدا . . فالهواء فاسد والماء والطعام . فالفلاح رحمة تنزل على فلاح زمان الذي ذهب ولن يعود !

ومن ٢٥٠ سنة كان الفيلسوف الفرنسي روسو يتغنى بجمال الطبيعة . ويدعو الناس إلى حياة الفطرة . . إلى الغابات والجبال والوديان والسير على الأقدام . . فاتجهت أوروبا كلها إلى جبالها ووديانها بعيدا عن المدن والكباريات والمقاهي . . وانتقلوا بعد ذلك إلى غابات إفريقيا وآسيا . . وخلعوا ملابسهم ورأوا في الإنسان البدائي النموذج الحقيقي لسعادة الإنسان قبل أن تفسده الفلسفة والعلوم . .

أما كيف تحول الفيلسوف روسو إلى عشق الطبيعة والدعوة إلى الفطرة والبساطة والابتعاد عن العلوم والفلسفة ، فإنه كان يمشى في أحد شوارع جنيف . . ثم في باريس فوجد إعلانا عن مسابقة أدبية موضوعها : هل العلوم أفسدت أخلاق الإنسان ؟

ووجد روسو أن هذا السؤال هو الذي يهز أعماقه ، وأنه مؤمن إيمانا قاطعا بأن العلم الحديث قد أفسد ذوق الإنسان وأخلاقه ، وملاء بالغرور والجشع والحقد والكراهية والعنف والحرب . . وذكر أن مصر القديمة كانت رمزا لجمال الفن والعمارة . . ولكن العلوم الحديثة والغزوات أفسدتها . . وكذلك بلاد الإغريق حطمها الملك فيليب المقدوني الذي انهزمت قواته مرتين في آسيا . . أما ماذا يجب أن يفعله الإنسان ؟

هو أن يمشى بين الغابات تحت الأشجار وأن يفتح صدره للهواء وقلبه للشمس . وأن ينام متى أراد ، وأن يصحو متى يشاء . . وأن يفتح ذراعيه لكل ما خلق الله . . ولكل مخلوقات الله . .

هل هو ضد العلم ؟

أبداً . إن العلم من غير أخلاق : سيارة من غير فرامل . . بندقية بلا أمان . . تمهور بلا ضوابط . . والأخلاق بغير علم : اندفاع أهوج . . فوضى بلا قواعد . .

ولكن القلب أروع من العقل ، والإنسان البدائي أشرف من كل نبلاء أوربا في كل العصور

أما إن العلم قد أفسد علينا الحياة فأكثر جدًّا مما كان يتصور روسو . .

ولو حاول أحد منا أن يذهب إلى الغابة لوجدها فقيرة . . ولو حاول أحد أن ينام تحت شجرة ، لكانت الشجرة هي التي تنام فوقه - أو كأنها . لأنه لن يجد الراحة في الهواء أو الماء أو الطعام أو الشراب !

حتى الإنسان البدائي يموت الآن من الجوع . . يموت من الجفاف . . هذا الجفاف سببه المصانع الضخمة في أوروبا وأمريكا التي أقامت سحباً لا نهائية حول الأرض تمتص الحرارة ولا تسمح بخروجها . . وسببه أيضاً أن غاز (ك . ف . ك) كلورو فلورو كاربون هو الذي مزق طبقة الأوزون فوق القطب الجنوبي فدخلت أشعة الموت تصيب الإنسان البدائي في الصحارى الجليدية وتصيب الحيوانات والأسماك أيضاً . . ولذلك فنحن جميعاً نعاني من الخوف . . الخوف من كل الأمراض المعقولة : والأمراض الوهمية . .

وهذا الخوف الجنوني من المرض ، هو الذي أصاب الإنسان بجنون الأدوية والمستحضرات الكيماوية . أمريكا مثلاً : كل شيء في أمريكا قد دخلته المواد الكيماوية : الخبز والماء والقهوة والشاي والحلوى والفواكه . . ثم الأدوية نفسها . وكلها يبتلعها المواطن الأمريكي . . وكلها مهلكة للمعدة والكبد والدم والقلب والمخ . فكيف لا يصاب بكل الأمراض أبناء الحضارة الحديثة . . أبناء العلوم الحديثة والفلسفة الجديدة التي تنادى بحماية البيئة من الإنسان وحماية الإنسان من الإنسان . . إن هذه الأدوية والمستحضرات الكيماوية هي قوات مرتزقة يستخدمها الجسم لمساندة قواته الوطنية في الدم . . وكثيراً ما انضمت القوات المرتزقة إلى قوات الميكروبات المضادة . . فكانت كلها جيوشاً معادية للإنسان . .

أما الأغنية الساحرة التي كنا نردها في الخمسينات للمطربة شارون تيت فهي الأخرى من أغاني الماضي الذي لن يعود . تقول الأغنية :

دعنى شجرة فى غابتك .
دعنى فرعا فى شجرتك .
دعنى زهرة فى غصنك .
دعنى بقعة خضراء فى لوحتك .
دعنى الإصبع التى تمسك اللوحة .
والعين التى تراها وتراك . .
دعنى هنا فى قلبك داخل قلبك .
ادفنى هنا فى قلبك . .
قلبنى فى قلبك . .
دعنى اتمدد تحت شجرة .
على شاطئ نهر السعادة !

هذه الأغنية هى الأخرى مثل « ما احلاها عيشة الفلاح » مثل النقوش على الكهوف
القديمة : صورة من صور العصر الذهبى الذى لن يعود . .

فكيف المستقبل إذن ؟

كما ترى فنحن نخوض فى بحار من الكيماويات . . اعتدنا عليها . . والجسم أيضا .
ونحن لا نستطيع أن نرد القضاء والقدر ولكن نطلب اللطف فيه . . نطلبه من أنفسنا . .
نطلبه من الدول الصناعية الكبرى . . لأننا اليوم نعيش فى بيوت زجاجية خائقة وسط غابات
مريضة وليس صدفة أن نتجه إلى الكواكب الأخرى . . فليس ذلك استعراضا فقط للقوة .
وإنما هو هجرة إلى كواكب أخرى تشبه فى نظافتها أرضنا من ملايين السنين . . صحيح أنه
الإنسان يهرب من كوكب إلى كواكب أخرى ، فسوف تكون الكواكب جديدة بيئات
جديدة . . ولكن ستبقى المشكلة دائما : إن الإنسان هو الإنسان . . وإنه سوف يقوم بتهجير
مشاكله إلى مستويات أعلى . . ولكنه لن يفسد هذه البيئات الجديدة قبل ملايين السنين . .
وبعدها يستأنف الهجرة إلى مجرات أخرى - والله أعلم وأرحم !

أرضنا تطرح: بطيخاً وغراباً أبيض!

اهرب بجلدك من القاهرة واتجه إلى الطريق الصحراوى . . وسوف تتأكد لديك حقيقة واحدة : أن هناك أملاً فى إنقاذ مصر من كسل وبلادة شعب مصر . . فالأرض الصحراوية تبوح بأسرارها الخضراء : أشجاراً وثيلاً وطيوراً . . وهذا الشريط الضيق الأخضر يمكن أن يتسع ويشمل الصحارى كلها : فالتربة غنية وماؤها بحيرات تحتها ، والهواء والشمس وملايين الأيدي الشابة جاهزة تنتظر الإشارة !

قال لى صديق سودانى رأى الطريق الصحراوى إلى الإسكندرية وإلى الإسماعيلية : إنكم تذهبون أنفسكم . . إنكم تظلمون أنفسكم . . إنكم تحولون الأمل إلى يأس . . إنكم تخصصتم فى دفن الأحياء من الشبان . . فقد سحبتم الأوكسجين من الهواء الذى هو أمل الحياة ، حتى يختنق الشباب أو يهرب من الحياة أو يرتد معتدياً على مصر !
لقد بهرته الأرض المزروعة . .

وعندما جاء شيمون بيريز وزير خارجية إسرائيل ورأى المناطق المزروعة فى الصحاحية بهرته الصحارى المزروعة والبيوت والمدن والميكنة الزراعية . . ولم ير إلا جانباً ضئيلاً من مصر . . فوصف الرئيس «مبارك» بأنه أكبر منشىء فى القرن العشرين . . آه لو رأى بيريز الطريق إلى الإسكندرية شرقاً وغرباً . . آه لو رأى سيناء التى احتلتها إسرائيل واستعادتها مصر وأطلقت فيها كتائب من الشباب بينى ويعرق ويزرع ويكسب . . ولكن وبقدر اجتهاده تواجهه الصعوبات الرسمية ، كأن مصر لا تريد أن تغير خريطةها الجغرافية ، كأن الوادى الضيق الذى ورثته تريده أن يبقى ضيقاً . . وأن يزداد ضيقاً بنا ، عندما نبنى عليه العمارات . . فى استطاعتك أن تتفرج على أطراف العواصم لترى ناطحات السحاب على الأرض المزروعة . . تنطح السحاب والقوانين !

بل هى تعلو وتعلو لترمى بتصريحات المسئولين من فوق حتى يكون لها دوى ويكون للدوى صدى ، ويكون للصدى صدى فى رأس كل من يفكر من أجل مصر !

ومن الممكن أن يقرأ د . يوسف وإلى نائب رئيس الوزراء هذه السطور السابقة ويصدر قراراً يعرض عشرة آلاف فدان ليشترها الشباب فوراً !

وبعدها بأيام يعرض عشرة آلاف فدان في مكان آخر فوراً !

خطأ ياسيدى خطأ . . ما هكذا تحل مشاكل الأرض المصرية ولا الشباب .

الحل : هو أن تكون سياسة الدولة الثابتة التى لا تتغير مع الوزراء هى أن الأرض للشباب . . نص دستورى . . كل واحد يمتلك مساحة من الأرض . . والدولة تعطيه قرضاً . . وقبل ذلك توفر له الطرق والمواصلات . . وتضع ما تشاء من الشروط . . وتغنى وتطبل للشباب وتدعوه وتدفعه وتدرجه لكي يكون فلاحاً مستثمراً .

وإذا كان المؤرخ الإغريقى هيرودوت قال من ٢٥ قرناً : إن مصر هبة النيل فيمكننا أن نقول : والصحراء هبة الشباب !

ليس مستحيلاً زراعة الصحراء . . لقد زرعت . . وهناك أمثلة كثيرة على ذلك : مديرية التحرير والمساحات الهائلة للمؤسسات على جانبي الدلتا . . كلها مزروعة . . فادحة التكاليف . . ولكن يبقى أن نعبئ جيوش الشباب في أشرف معركة . . عرق بلا دم ، حب بلا حرب . .

ونحن عندما نزرع الصحراء . . فإننا نزرع الشباب أيضاً . . فيطرح لنا قوة وحيوية ومستقبلاً باهراً . . نجعل له جذوراً في أرضه . . فيكون البيت والأسرة . . وتكون الأرض هى العرض . . وليس تشجيعاً على مصر ما نشرته الصحف العالمية عن أسباب « ضعف » الجندي المصرى في معظم الحروب التى خاضها . . كان سبب ضعفه أنه لا يملك في مصر شيئاً . . فالذى لا يملك يدافع عن الذى يملك . . الفقراء يدافعون عن الأغنياء . . المعدمون يدافعون عن الملاك . . ولكن عندما تصبح الأرض ملكاً للناس جميعاً ، فالدفاع عنها استشهاد من أجل : الأم والزوجة والابن . . والحياة نفسها !

ولو كان الناس جميعاً لا يملكون ، لكانت الأرض لنا جميعاً . . فكلنا يدافع عن كلنا . . حتى الدول الشيوعية التى حرمت ملكية الأرض والبيت ، عادت تعطى للإنسان الحق في أن يملك . . في أن تكون له خصوصيات : كالزوجة والابن . . وبذلك تكون أرضى هى عرضى . . ودولتى : أسرتى . . وأبناء الناس : أبنائى . . والموت في سبيل الولد ، كالموت في سبيل الوطن : شرف ما بعده شرف !

* * *

أما أن تخرج لنا الجامعة مئآت الألوف كل سنة ، فلا بأس . . فمن حق الناس جميعاً أن

يتعلموا . . وبغير العلم لا تقدم . . وبغير النور لا هدى . . وبغير الشباب لا مستقبل . .
وإذا نحن أردنا للشباب أن يكون شبابا . فلنعذره إذا كانت له أنياب وأظافر . . فليس
شبابا من لا يشهر مخالبه ، ويكشف عن أنيابه . . كنا كذلك ، فيجب ألا ننسى وألا ننكر
على الشباب إذا فعل ما كنا نفعله !

ولكن أن نقص أجنحة الشباب فلا يطير في السماء ، وأن نقضم أظافره فلا يحفر الصخر
وأن نكسر أنيابه فلا ينهش الكسل واليأس والفقر والخوف - هذا بالضبط ما تفعله الدولة كل
عام . . وذلك عندما تقرر « توظيف » الشباب في المؤسسات الحكومية - فهي قد علمته ، وهي
قد وظفته ونحن نعرف أية وظيفة هذه ؟ أى عمل هذا الذى يجعل الشباب ينتقل من « اللطعة »
على المقاهى وفى الأندية إلى « اللطعة » على المكاتب والكراسى .

كان شاعرنا الصعلوك عبد الحميد الديب ، بلا عمل . . ثم وظفوه فى دار الكتب . .
وسألوه عن حاله بعد ذلك . . فقال ما ينطبق على شباب مصر :

بالأمس كنت مشرداً أهلياً واليوم صرت مشرداً رسمياً !

إن الشباب بمئات الألوف الذين نحيلهم إلى « الاستيداع » بمجرد تخرجهم ، لخسارة
كبرى على مصر . . لأننا نجردهم من أهم صفات الشباب : الإرادة والشجاعة والإقبال
والكفاح . . ونسوقهم أسرى إلى المنطقة المنزوعة السلاح : دواوين الحكومة .

ومعنى ذلك أننا قررنا أن نبني مصر بجيش من الأسرى : الشباب الذين علمناهم وأنفقنا
عليهم ، ثم تقاضينا الثمن فادحاً حين نزعنا منهم الريش والمنقار والمخالب ! وحولنا الصقور
والنسور إلى طيور داجنة : أوز وبط وفراخ وأرانب !
هكذا أصبحت المؤسسات مزارع للدواجن . .

ولكى ترى الصورة أوضح وأفدح ، اذهب إلى مزرعة الدواجن . . سوف تجد المزرعة
مضاءة ليلاً ونهاراً . . حتى لا تنام الفراخ . . أمامها يتحرك الطعام والماء . . ومطلوب من
هذه الدواجن أن تأكل وأن تبيض . . كل يوم بيضة . . وبعد سنة أو سنتين تتوقف الدجاجة
عن البيض . . لقد تجاوزت عمرها الافتراضى . . ولذلك يجب أن تموت . . فيذبحونها طعاماً
للشعب . .

وبسبب الإضاءة المستمرة والسجن الدائم وعجزها عن الحركة ، فإنها فى حالة هياج
عصبى مستمر . . ولذلك تتقاتل وينهش بعضها بعضاً . . فلا تكاد الدجاجة ترى جاريتها
وهى تبيض وترى لحمها ودمها حتى تنهال عليها تأكلها وتقتلها . . ولذلك فإنهم يكسرون
منقار الدجاجة . . كل الدجاج الذى يبيض يكسرون منقاره حتى إذا اعتدى على الدجاج
الأخر فإنه لا يقتله . . ويقلمون مخالبها أيضاً .

فما هو المعنى؟

المعنى أن يكون تحويل الطيور الجارحة إلى دواجن بالسجن والإرهاق . . ولكن السجن والإرهاق من الممكن أن يثيرا أعصاب الدواجن - حتى الدواجن من الممكن أن تثور - فتقتل بعضها بعضًا . . ولذلك فقد كسرنا الجزء العلوى من المنقار . . وحططنا المخالب . . ورغم ذلك تثور !

ويدهشنا ذلك !

مع أن هذه الدهشة هي التي تبعث على الدهشة . . فما الذى من الممكن أن نتوقعه مع القفص الحديد ، ونزع سلاح الشباب . . فهل نحن نريد ذلك ؟ الجواب : نحن لا نريد !

فما هو الحل ؟

الحل هو أن تمتلئ أيدي الشباب بتراب مصر ، والشباب وحده القادر على أن يحول التراب إلى تير - لقد استطاع ذلك دائماً ويستطيع فى أى وقت ولأى وقت !

* * *

ولكل عصر سؤال . . والإجابة عن هذا السؤال هي مفتاح العصر . .

فقد يما كانوا يقولون : قل لى كيف تعاملون العبيد والأسرى ، وأنا أقول لكم من أنتم ؟

وقيل : كيف تعاملون المرأة وأنا أقول لكم من أنتم ؟

وقيل : كيف تعاملون الأقليات وأنا أقول لكم من أنتم ؟

ولكن مفهوم الشباب عندنا هو : رعاية اللعب واللاعبين وبناء المدرجات . . كأن بلادنا هي « مونت كارلو » - كازينو للقمار حوله بيوت تعيش على ذلك . . أو كأنها « لاس فيجاس » ولاية القمار والدعارة والمافيا ، يعيش منها وحولها عدد من الشرفاء يدافعون عن القانون وكرامة الإنسان ويأسفون كثيراً على الذى يحدث فى الكباريات والكازينوهات . . ونحن يجب ألا نأسف على إقامة الملاعب وتشجيع الرياضة : الحرب الشريفة من أجل التفوق بالقانون . . ولكن يجب أن نأسف إذا كانت كل معانى الشباب عندنا هي اللعب من أجل اللعب !

ولا تزال هتافات اللاعبين أعلى من كل الشعارات : أهلى حديد . . يازمالك ياهندسة . . بالروح بالدم نفديك يا جمال . . ياسادات . . يامبارك - فلا نحن نصدق ذلك ، ولا نحن قد اهتدينا إلى شيء جديد ، يكون له معنى جديد . . وهذا يدل على « عقم » الحماس الشعبى . . وإنه لم يذهب إلى أبعد من تمزيق الحناجر . . بدلاً من تقوية الأيدي والسواعد واجباه من أجل مستقبل مصر !

لماذا لا يكون لنا شعار جديد حتى نهاية القرن : مجانية الأرض تمامًا كمجانية التعليم . .
فكما إن التعليم للجميع ، فالأرض للجميع . .
هل أضرب مثلاً صحيحاً مهما ضايقنا ؟
إسرائيل : لم تكن عندهم أرض ، ولذلك لم يعرفوا الزراعة . ولأنهم بلا أرض لا يملكونها
لم يكن لهم جيش !

فماذا حدث ؟ تفوقوا في العسكرية وفي الزراعة . . لماذا ؟ بالعلم والإيمان - بالعلم الذى
نعرفه جميعاً ، وبإيمانهم الذى لا نوافق عليه . . فلا عندهم أرض . . ولا عندهم ماء . .
ويصيبهم الجنون عندما يجدون الصحارى الشاسعة عندنا ، والمياه الغزيرة وملايين الأيدي
العاملة . قرأت مقالاً لباحث إسرائيلي يقول : كيف لا يباع كيلو السمك في مصر بقرش
صاغ : عندهم النيل والبحيرات والترع والبحران الأبيض والأحمر ؟ كيف لا يكون كيلو البلح
والبرتقال والسمن والبطيخ بمليم ، وعندهم كل هذه المساحات من الأرض الصالحة
للزراعة ؟ كيف لا يكون في مصر مليون مليونير في عشر سنوات وعندهم كل هذه الخيرات ؟
لا أنسى دهشة مناحم بيجين عندما رأى النيل من فندق أوبروى « في أسوان » . أدهشه
أن الماء كثير جداً والشاطئ الخصب ليس مزروعاً ؟ اندهش جداً . . ثم طلب من أى أحد أن
يفهمه . . أفهموه . . ولكنه لم يقتنع . . لأنه لا يتصور أن عندنا كل هذا الماء ، وصخورنا لا تنفجر
بأشجار الجوز والمطاط . . إن عقله لا يستطيع أن يستوعب وجود الماء والصحارى معاً ؟ !

* * *

كانت الأمثلة الشعبية تقول : تضرب الأرض تطلع « بطيخ » . . دليلاً على المستحيل ، أما
الآن فهذا هو الممكن في أى وقت !

وكان العرب يقولون : إن المستحيل هو أن يكون الغراب أبيض . . وقد رأيت في حدائق
حيوانات سيدنى باستراليا ، عددًا كبيرًا من الغربان البيض . . فلا مستحيل ما دام هناك
شباب تفتتح له الأبواب ، لتوظيف مغالبه وأظافره وأنيابه وإرادته وشجاعته على أرضه .

وشاعرنا كمال عبد الحليم قال :

هذه أرضى أنا

وأبى مات هنا

وأبى قال لنا

مزقوا أعداءنا !

وأعداؤنا : اللامبة والكسل و « وتدجين » الشباب فلا يهش ولا ينش وإنما يبيض . .
ليموت ضحية .

وداعاً ..

يا آخر نعمة مصرية !

الملك الألماني « ذو اللحية الحمراء » فريد ريش الأول (١١٢٢ - ١٢٩٠) هو أول من التفت إلى حماية البيئة الحيوانية في التاريخ . فقد حدث أن رأى عددًا من الشبان يربطون الخنازير بالحبال ثم يطلقون عليها السهام والنبال . . وقف يتفرج ولكن بعد أن فرغ الشبان من هذا اللهو العنيف . . ألقى القبض عليهم ثم ربطهم بالحبال وجعل جنودًا يقلدوهم بالطوب . . وأساءوا فهم الملك ذي اللحية الحمراء وظنوا أنه يحرم أكل اللحوم ، ولحم الخنزير بالذات . . ولكنه بعث من يعلن في جنوب المانيا وفي شمال إيطاليا التي استولى عليها : إنه ضد العنف وضد القسوة . . فمن يشاء أن يلبح الخنزير فليفعل . ولكن أن يعذبه فلا !

ولكن الملك فريد ريش الأول هذا لم يكن رحيمًا مع الإنسان . فقد كان أحد أبطال الحروب الصليبية . وكان في غاية الغلظة مع جنوده ومع القساوسة الذين رافقوه . . وفي طريق عودته غرق في أحد أنهار تركيا ويقال في البحر ويقال أغرقوه . . وبعد وفاته أشيع أنه لم يموت وإنما سوف يعود في الوقت المناسب لحل أزمت الشعوب الجرمانية !

وعلى الرغم من إعجاب الكثيرين به فإنهم أطلقوا عليه الكثير من الفكاهات . . قالوا . إنه ليس صحيحًا أنه غرق . . وإنما جاءه في النوم خنزير فعقره فمات من الخوف . . فالخنازير تحب الضرب كما إنها تحب القسوة !

ولكن « ذو اللحية الحمراء » وإن لم يترك رسالة أو مرسومًا لتحريم ضرب الحيوان - الخنازير مثلاً - فإن في بعض رسائله إلى الأمراء ما يدل على أنه كان يكره قطف الزهور ويكره منظر ذبح الحيوان . . ولا يقوى على سماع بكاء الأطفال . . ويقال أعلن أنه سوف يعطى جائزة كبيرة لأطبائه إن أفلح أحد في البحث عن طريقة لإسكات الطفل حتى لا يبكي في الليل . ويقال إن الأطباء عثروا على مركب كيميائي يشربه الطفل - إن الملك الألماني لم يعيش ليرى ماذا تفعله الخادومات في زماننا . . عندما يشمن الأطفال رائحة البوتاجاز فيظل الطفل دائخًا حتى تفرغ الخادمة من حديثها الغرامي مع الخدم في الشقق المجاورة !

ولكن هذا الملك وضع أصبعه على البداية : الطفل كيف لا يبكى . . كيف لا يتعذب . .
فلا يكون قاسيًا عندما يكبر . .

هذه البداية نحن لا نعرفها في مصر . . فلا يوجد في أية مدرسة صغيرة أو كبيرة أية توجيهات للرحمة بالحيوان والنبات . . أى للرفق بالحياتين الحيوانية والنباتية . . فقط بعض الملصقات « الهزلية » تظهر فيها صور الحيوانات المصرية التى انقرضت أو سوف تنقرض .
ومطلوب من ولى أمر الطفل أن يقول له : لا تقتل . . لا تسرق . . لا تكن قاسيا مع هذه الحيوانات التى لا يعرفها ولا يراها إلا فى أقفاص حدائق الحيوان . . بينما الدولة بهيئاتها المحترمة تمنح تصريحات للصيادين من الشرق والغرب يقتلون ويذبحون . . ويدفعون يمينا وشمالا . وقد سمعت أخيرا - وأرجو ألا يكون صحيحا - أن بعض الصيادين الأشقاء يجيئون إلى شبال سيناء . ويتبرعون بمئات ألوف الدولارات . . وتحت ستار هذه التبرعات يسمحون لهم بالصيد العنيف فى المناطق المحرمة . سمعت من يؤكد أن هذا يحدث كل سنة !

قال لى د. محمد حسين عامر وكيل الوزارة لشئون حدائق الحيوان والطيور والأسماك والحياة البرية إنه يتلقى يوميا ٢٠٠ تلميذ ينصحونهم كيف يحمون الحياة . . جهد صادق ولكنه متواضع جدا . . فالوسائل المستخدمة فى إقناع الأطفال هى بعض الصور الملونة . . وهو يحتاج مع مساعدته من دكاترة الحديقة إلى سبعين سنة لكى يعرض هذه الصور على طلبة المدارس المصرية - طلبة هذا العام فقط ١٩

فحديقة الحيوانات وحدها لا تكفى ولا تستطيع . . وإنما كل وسائل الإعلام ، وكل المدارس وكل البيوت . . والبداية هى هذا الشعار : أنت يجب أن تعيش ، وكل الحيوانات وكل الزهور وكل النباتات . . يجب أن نعيش ونُدع غيرنا يعيش . . الحياة حلوة . . ومن الممكن أن تكون حلوة . . وليس كل الذين أصبحوا شيئا ، كانوا كذلك فى البداية . . وإنما عاشوا وتركناهم يعيشون ، وحاولوا . . وكافحوا وتعَبوا . . ونجحوا ووصلوا . . وكذلك كل من يحاول أن ينجح . . وكل مريض يريد الشفاء ويريد العافية . . يجب أن تكون لدى المريض إرادة الحياة . . وإرادة الصحة . . وإرادة البقاء !

فى سنة ١٩٥٧ كنت فى ألمانيا ، وقرأت فى مجلة ألمانية هجوما عنيفا على مصر وعلى الجامعة العربية . المقال بالصور . والمجلة واسعة الانتشار . فقابلت د. فقوسة مندوب الجامعة العربية . وسألته ما الذى يفعله فى مثل هذه الحالة للرد على المجلة الألمانية المعادية للعرب . فإذا بالرجل يقف فى حماس شديد ويقول : أنت ترى هذا المكتب الصغير . .

ودرت بعينى فى المكتب . . إنها غرفة صغيرة . المكتب يشغل نصف الغرفة والمكتب والمجلات تشغل نصف الأرضية . . والستائر نصف الجدران والمقاعد محشورة بين الأوراق

والحائط . . وإذا انفتح الباب كان من الضروري أن نقف حتى يمكن أن نرى من الذى يدق الباب . ولا يدق الباب عادة إلا السكرتيرة وقد أعدت رد الدكتور فقوسة على المجلة الألمانية . . الرد من نار . فعلا من نار . . وأعطينى السكرتيرة التى هى من نار أيضا مقال مندوب الجامعة العربية . المقال تحفة أدبية منطقية .

وسألنى : ما رأيك !

قلت : عظمة !

قال : أنا لا أسكت أبدا . هم يكتبون وأنا لسانى طويل لا أسكت .

سألت : وهل ينشرون هذا الرد ؟

وبقدرة قادر كأن السقف قد انسحب من فوقنا بسرعة لتهبط إحدى السحب المشبعة بالبخار ، مطرا على رأس مندوب الجامعة العربية فتذهب ألوانه وصوته ولمعان عينيه من تحت منظاره ويرتمى على مقعده قائلا : أبدا . . ولا كلمة !

وتذكرت ما فعله نحن عادة عندما نتلقى بيانات السفارات وخاصة التى ترد على ما ييجى عنها فى الصحف . . إننا نلقيها فى سلة المهملات . . لا السلة امتلأت ولا السفارات سكنت . . هم يردون ونحن لا نقرأ ولا ننشر . . ولا هم توقفوا عن الكتابة ولا نحن توقفنا عن إهمال ذلك !

فقلت : أطال الله عمرك يادكتور سيزيف !

فسألنى مندهشا : من هو سيزيف !

ورويت له الأسطورة التى تصور بطلا إغريقيا حكمت عليه الآلهة بأن يدفع أمامه حجرا إلى قمة الجبل ، ثم يتدحرج الحجر إلى السفح ليعود البطل فيدفعه أمامه إلى القمة . . وهكذا إلى الأبد . . الحكمة البالغة البليغة معناها : إن سيزيف هذا لم ييأس . . وكأنه يتحدى الآلهة . . أرادوا أن يزهدوا وأن يموت من الملل لسخافة هذا الذى يفعله كل يوم . . فما كان منه إلا أن أعاظ الآلهة عندما ظهرت المتعة على وجهه !

وكان أمطار هذه السحابة قد نفذت إلى أحماق د . فقوسة فقال : ولكن سيزيف هذا بطل . . وهو أسطورة . . أما أنا فكما ترى أجلس فى هذه الزنزانة أواجه وحدى العواصف والبراكين الألمانية التى تعمل لحساب الصهيونية وضد العروبة . . ولكن أنا أؤدى واجبى . . حتى لو لم تكن هناك نتيجة . . فعلا أنا الصورة المتواضعة جدا للبطل الإغريقى ماذا نحب أن تشرب !

ووجدت أن فى هذا الطلب نوعا من اللامبالاة بعذاب سيزيف العربى . .

فقلت : القهوة مع بعض الموسيقى .. هاها .. هاها !

شئ من مثل هذا تفعله حديقة حيوانات الجيزة : د. محمد عامر ومعاونوه .. بينما المدارس والوزارات كلها تتفرج على هذا المجهود المتواضع المتحضر !
وجاءنى من بلدياتى د. المحمدى السيد عيد رئيس جهاز شئون البيئة التابع لمجلس الوزراء ..

« الكاتب الكبير والأستاذ الفاضل أنيس منصور » أسعدنى متابعة سلسلة مقالات «الأرض تموت والإنسان» التى تفضلتم سيادتكم بكتابتها فى جريدة « أخبار اليوم » ولعل لا أخفى على سيادتكم أن كل مقال يتناول قضايا البيئة أشعر أنه إضافة هامة للمجهود المبذولة فى نشر الوعي البيئى بين الجماهير .

وبالنسبة للآراء التى تفضلتم سيادتكم بنشرها فى سلسلة كتاباتكم الأخيرة ، فإننا نعتبرها تجسيدا لاهتمامكم الشديد بحماية البيئة المصرية ، ونأمل أن يحدو كل كتاب مصر حذوكم فيه ، إلا أن هناك بعض النقاط الخاصة بما أثير حول « محمية رأس محمد » يشرفنى أن أعرضها على سيادتكم فيما يلى ..

١ - إنه قبل إنشاء جهاز شئون البيئة تابعا لرئاسة مجلس الوزراء لم يكن هناك فى مصر كلها أى جهود تبذل للتنسيق بين الهيئات المعنية من أجل حماية الحياة الطبيعية النادرة فى مصر وبعد إنشاء الجهاز وضعنا فى مصر أول تقرير وطنى عن البيئة فى مصر ، متضمنا حالة المناطق الطبيعية المتميزة ، وما تحتاجه من جهود ورعاية .

٢ - فيما يتعلق بتنمية المحميات الطبيعية فى مصر يتم اللجوء إلى الهيئات العالمية ذات الخبرة المتميزة فى هذا الشأن ، ولعل سيادتكم تتفقون معى فى الخبرة الطويلة التى يتمتع بها خبراء السوق الأوروبية المشتركة ، والولايات المتحدة الأمريكية فى مجال إنشاء مناطق المحميات الطبيعية ، وهما الجهتان اللتان شاركتا خبراء مصر فى وضع ما يلزم من خطط وبرامج لإنشاء هذه المحميات .

٣ - إن المحميات الطبيعية فى كل دول العالم لا يمنع الزوار من دخولها أو مشاهدة الجمال النادر بها ، ولكن يسمح بهذا ، وذلك تحت رقابة مشددة حتى تتاح الفرصة للأفراد للاستمتاع بهذا الموروث الجمالى الطبيعى ، ولذا فمعظم هذه المحميات على مستوى العالم تعتبر مناطق جذب سياحى تقدم فيها الخدمات للزائرين فى مناطق تبعد عن « حرم » المحمية الطبيعية ، وهذا ما نفدناه حرفيا فى رأس محمد ..

(١) تم تحديد حرم بحرى للمحمية التى قامت بها القوات البحرية المصرية بعمل مسح بحرى للمحمية وتم الإعلان الدولى لذلك .

(ب) يتم العمل فى تحديد مدخل للمحمية يتمشى مع البيئة والطبيعة ، وكذلك تحديد منطقة آمنة « حرم برى » للمحمية لا يسمح بأى حال من الأحوال بالبناء داخلها .

(جـ) تم رصف طريق برى يسهل المرور والدخول حتى منطقة الحرم للمحمية .

(د) إبعاد المنطقة المحمية تماما عن مركز استقبال الزائرين ، ووضعت لها شروط مشددة للزيارة ، واحتفظنا فيها بكل ما لها من صفات طبيعية بكر ، ولم نسمح بأى إنشاءات داخل منطقة المحمية .

(هـ) يتم إنشاء مركز استقبال بحرى مزود بمحطة ميدانية لاستمرار الحفاظ على صفات المحمية النادرة .

(و) يتم إنشاء مركز استقبال الزائرين بعيدا عن المحمية متضمنا مجموعات شرائح وأعلاما وكتيبات عن الصفات النادرة للمحمية ، وقد تم تصميمه على شكل محارة متمشيا مع الوضع الطبيعى لهذه المنطقة النادرة .

(ز) اعتبارا من شهر مارس القادم سيقم بالمحمية خبير دولى متخصص للإقامة الدائمة بشرم الشيخ للإشراف على تنفيذ البرنامج المقترح والمرفق مع تجهيز المحمية بتلسكوبات تمكن الرؤية للمشاهدين من مناطق مشاهدة محددة .

أما باقى المناطق الطبيعية فلم يتم فيها حتى الآن أى إنشاءات أو تدخلات تسمى لصفاتها الطبيعية من قريب أو بعيد ، ولكن القرار الذى تم اتخاذه كان للحفاظ عليها وإن شاء الله سيتلوها أخرى وأخرى حفاظا على كنوز مصر النادرة » .

« ولسيادتكم خالص شكرى وتقديرى »

ثم جاءنى الرد من اللواء محمد نور الدين عفيفى يؤكد فيه . .

« لم . . ولن يتم إنشاء فنادق أو مطاعم أو رصف طرق داخل حدود المحمية . . وإن ما تم رصفه هو الطريق الرئيسى خارج المحمية ولهدف تقصير المسافة بين مدينة شرم الشيخ والمحمية ، ومن أساسيات الحفاظ على الشكل الطبيعى للمحمية الإبقاء على مظاهر البيئة الطبيعية داخلها » .

وفى مصر هيئات علمية عالمية كثيرة تهتم بالحيوانات المصرية . . بل وتسجيل الحيوانات التى فى الحديقة . . وأهم من ذلك بنقل الحيوانات من حدائق مصر إلى حدائق أوروبا وأمريكا . . وذلك لتنويع السلالات وحتى لا تضعف لأنها تتزاوج من بعضها البعض لسنوات طويلة . . والزواج من الأقارب يضعف النسل ، فى الحيوان والإنسان أيضا . . ومن المؤلف أن تجد عالما أمريكيا جاء ليأخذ معه همارا مصريا ، ويأتى بحمار أمريكى . . حتى لا

تضعف الحمير المصرية - هذه مسألة علمية . . وهذا جزء من الاهتمام بحماية الحيوان صحياً سليماً معافى . .

ولكن هذه الهيئات العلمية العالمية لا تلقى ما تستحقه من الاهتمام الشعبى أو الرسمى أو التربوى . .

وقد سمعت من أطباء حديقة الحيوان أن الأطفال كانوا يذفونهم فى الشوارع وهم يتابعون الطيور المهاجرة . . أو عندما كانوا يسألون الأطفال إن كان أحد منهم قد رأى عصفوراً أو غراباً أو ثعلباً أو ثعلباً . والأطفال لا يفهمون معنى هذه الأسئلة . . ثم إن أحداً من الهيئات الشعبية لا يساعدهم ولا يقف إلى جوارهم والسبب واضح : لا يوجد وعى بينى . . لا يوجد فهم لدور الأجهزة العلمية لحماية الحيوان والنبات . .

قال لى أحد العلماء المصريين إنه اندهش جداً عندما وجد مجموعة من الأطفال قد نصبوا مشنقة والتفوا حولها . . وإذا بالمحكوم عليه بالإعدام قط صغير برىء . . فما كان منه إلا أن وقف وأنقذ القط وكاد يضرب الأطفال وكادوا يذفونه بالحجارة . . والتفت إلى أحد القيادات الشعبية مستنكراً . فما كان من هذا المسئول الشعبى إلا أن قال له : جرى إليه يادكتور عيال بتلعب . . يعنى جت على هذا القط . . هاها . . هاها . . والناس حوله : هاها . . هاها . .

وإذا كان هذا ما يفعله المسئول فلا لوم على الأطفال !

وتبقى القضية : كيف نجعل الحياة مقدسة . . كيف نجعل حرص الأطفال على كل ما هو حى ، حيواناً أو نباتاً . . كيف لا نلمس ما لا نملك . . كيف لا نضع المسامير وأمواس الحلاقة فى جيوبنا لنمزق بها المقاعد فى السينما وفى المسارح وفى الأتوبيس والمترو . . ولا نمر بها على الأبواب والجدران والسيارات . . كيف نقضى على روح القتل والهدم والتخريب - هذه هى القضية التى يجب ألا تنفرد بالدعوة إليها حداثق حيوانات الجيزة . . فحماية مصر ليست مشكلة « حيوانية » . . ولكن حماية الحياة والجمال والصحة والسلام والسلامة والأسرة مشكلة مصر كلها . . مدارسها وبيوتها وصحفها وميكروفوناتهما ومساجدها وكنائسها . .

والناس كثيرون الذين يحبون الحيوان والطيور والزهور . . والذين ينفضون التراب من فوق المقاعد التى لا يملكونها ، لأنهم يحبون النظافة ولا فرق عندهم بين مقعد يملكونه ومقعد تملكه الدولة . . فهم يحرصون على الذى لهم والذى ليس لهم . . ويحبون أطفالهم وأطفال غيرهم ، وكلاهم وقطط غيرهم . .

والمطلوب هو إقناع عام لكل أجهزة الدولة فى الداخل والخارج بأن تساعد الأجهزة المصرية

والدولية على حماية البيئتين البرية والمائية . . وليكن ذلك معلوما لدى كل الدول وكل سفاراتها في مصر . وفي ١١ / ٦ / ١٩٨٨ بعثت إدارة المراسم بوزارة الخارجية المصرية إلى كل السفارات المعتمدة في مصر تقول :

ونظراً لما لوحظ في رغبة العديد من السائحين القيام بزيارة الصحراء في محافظات سيناء ومرسى مطروح وغيرها بغرض الصيد دون الحصول على ترخيص بذلك وتصريح من وزارة الزراعة التي هي الجهة المناط بها تنفيذ القوانين الخاصة بحماية البيئة . لذلك تكون وزارة الخارجية ممثلة تفضلكم بالتخاذ ما ترونه لازماً لإعلام السائحين الذين يحملون جنسية دولتكم بما تقدم قبل قيامهم بزيارة المناطق الصحراوية بغرض الصيد والتنبيه عليهم بضرورة الحصول على موافقة مسبقة من وزارة الزراعة قبل التوجه لهذه المناطق للصيد .

ومن الصدف أن نرى أخيراً في التليفزيون رسالة عمان ومن قبلها رسالة السعودية : كيف أنهم يحافظون على البيئة . . ياتون بالغزلان من أمريكا لإطلاقها في صحارى السعودية ويأتون بحيوان المها الجميل - ٦٦ ذكراً وأنثى - إلى سلطنة عمان ويطلقونها في أماكنها الطبيعية - في الوقت الذي نعمل جاهدين على انقراض الحيوانات المصرية . .

قال لي د . السيد جامع الخبير المصرى في حماية البيئة إنه عندما ذهب إلى « محمية علبه » على البحر الأحمر لم يجد نعاماً مصرية واحدة ! وكانت في هذه المنطقة أكثر من مائتى نعاماً من الذى قتلها ؟ إنهم الصيادون من البلاد العربية التى تعلن عن صدق ، أنها مهتمة جداً بحماية بيئتها الحيوانية والنباتية !؟

شرم الشيخ: أجمل شواطئ مصر!

تعال ورائى وأنا أدلك على أجمل شواطئ مصر كلها . . إنه جنوب سيناء . . وأجمل ما فى جنوب سيناء شرم الشيخ ، وأجمل ما فى شرم الشيخ قراها السياحية الطويلة العريضة التى يتبارى فيها المهندسون والفنانون . . وأجمل ما فى هذه القرى شبابها .

يريدون أن ينغرسوا فى هذه الأرض هم وزوجاتهم وأولادهم . . يريدون أن يتحولوا من موظفين إلى أصحاب مشروعات . . من سكان إلى مالكين للأرض . . ومن مالكين إلى أصحاب رسالات لكل شباب مصر يقولون لهم : هنا يولد أمل مصر فى الخلاص من قرف العواصم الكبرى . وأسوؤها جميعا القاهرة . . فكل شىء فيها زحام وضوضاء . . وكل أنواع التلوث : الصوتى والضوئى والفكرى . . أما هنا فكل شىء صحة وصفاء وجمال وفلوس ومستقبل . . وكل الدنيا تحب إليك . . والحياة هنا إيقاعها أهدأ ، ونفسها أطول . . وكل شىء صريح . . فهذا الممتد أمامك هو البحر . . والذى تحتك شعب مرجانية . . والذى وراءك جبل . . جبل موسى وعيون موسى وحمام موسى . . والطريق الذى تاه فيه موسى وبنو إسرائيل أربعين عاما . . وهنا تجلى الله لموسى . . وهنا نزلت الوصايا العشر . . وهنا أمطرت السماء المن والسلوى . . والمن نبات مثل السكر . والسلوى هى طائر السماء . . وهنا تمتد البحيرات المرة حيث شق موسى البحر بعصاه . . ويقال إنه جاء من ناحية المنيا إلى رأس محمد . . ورأس محمد ، شبه جزيرة وإحدى قمم الجبال العالمى . . وأصحاق الفتنة الحيوانية والإنسانية . . وهنا ملتقى الغواصين من جميع أنحاء العالم . . وفى العالم كله ١٦ مليون غواص أه لو جاءنا ربع هذا العدد كل سنة ؟

وفى العام الماضى جاء اليابانيون وتمنوا للعالم كله يوم رأس السنة سنة سعيدة . . قالوها من تحت الماء والأسماك من كل لون وحجم مفردات وعبارات جميلة تكتب هذه الأمنية السعيدة بعيونها وقروشها وزعانفها بأجمل الألوان وأعمق الأنوار . .

وعلى الناحية الأخرى شواطئ الغردقة الجميلة . . الشاطئ هناك مستقيم والقرى السياحية

متراصة الواحدة إلى جوار الأخرى صفا واحدا في استعراض معمارى هادئ بديع . . ولكن الجمال الأروع هنا في جنوب سيناء . . إنها محافظة الجبال والشواطئ . . فلا توجد صحارى في جنوب سيناء . . والشاطئ يدخل ويخرج ويبرز ويتوارى . . والصخور فوق حمراء داكنة . . والصخور تحت في الماء جزر صناعية وتيران . . والشاطئ يتعرج ويتعرج ويعتدل ، ثم يعلو ويتعالى ، ويجرى متواضعا نحو الشاطئ كأنه يركع ويسجد لجلال الله في الماء وتحت الماء . . والشواطئ والجبال تتلاقى وتتخاصم . . والقرى السياحية واسعة ممتدة . . وكلها أحضان للهضاب . . وقبيلات للماء . . والسهاء ستائر شفافة والرمال غلالة ناعمة . . كلها ترحب بالوافد من أى مكان . . فكما إن الجمال هنا ، والجلال هنا ، فالأمان أيضًا .

ضع على أذنك أية قطعة حجر وأنت تسمع ملحمة جنوب سيناء . . صدق كل الذى ترى ، وكل الذى تسمع . . فإذا أمضيت يوما هنا ، بهرك كل شيء . . فإذا أمضيت يومين . . فأنت لم تعد تدري شيئا . . فكل ما تقع عليه عينك جديد في جديد . . لقد جئت هذه المنطقة أيام الاحتلال الإسرائيلى . . بهرتنى الأشجار القليلة هنا وهناك . . وقلت : إنهم يزرعون الصحراء . . فكيف لم نفعل . . والطرق طويلة مرصوفة . . وقلت : إنهم يرصفون الصحراء فكيف لا نفعل . . وهنا فندق صغير فوق ربوة . . التوافذ كأنها « مزاغل » . . والفندق كأنه قلعة . . لقد كانوا يستحمون والسلاح في أعناقهم . طيبعى ، فالأرض ليست لهم . . وإنهم لخارجون اليوم أو غدا أو بعد غد . . لا محالة !

وقد امتلأت مدينة « الطور » العاصمة ، بالشوارع الجميلة ، والمطاعم المعلقة ، والشواطئ الأنيقة ، ومكتبة الأطفال ، أكبر مكتبة في أى مكان في مصر . . ومطلوب أناس من مصر إلى هذه المدينة الفاتنة . . وكانت مدينة الطور هى السجن الرهيب المخيف لمصر كلها . . لعتاة المجرمين . . إن مدينة الطور الآن ليس بها سجن . . ولا سجن في جنوب سيناء !

أما الخارجون على القانون ، وما أقلهم ، يبعثون بهم إلى الزقازيق . . هنا في مدينة الطور كان الحجر الصحى للمساكين المسافرين إلى بيت الله الحرام ، لابد أن يجسوهم حتى تظهر عليهم أعراض المرض . . فإذا ظهرت جسوهم مرة أخرى . . لقد دخلت مدينة الطور في شكل معمارى جميل وثقافى شامل - إن مسرحها الحديث يتسع لثلاثة آلاف نسمة - أى نصف سكان المدينة . .

وما أكثر الاستراحات في جنوب سيناء . . كأن لديهم إحساسا بأن المشوار طويل والرحلة مرهقة ، ولذلك تعددت الاستراحات الأبهة - أقصى درجات الإغراء لعل أحدا يذهب . وإذا ذهب سوف يندم على أنه لم يفعل ذلك من قبل !

والمدن الأخرى : دهب ونويبع وطابا وسانت كاترين ، كل واحدة لها جمال خاص . .

قلت للصديق نور الدين عفيفى محافظ جنوب سيناء ، وأحب أهلها إليها : إن الشباب لهم مشكلة : يريدون أرضا . يريدون أن يبقوا هنا . . الشباب يريد مساكن . . لقد قرروا ألا يعودوا إلى القاهرة والإسكندرية وبقية المحافظات !

إن المحافظ يبنى ويوزع الأرض على من يريد لها . . إنه لا يضع شروطا تكسر الرقبة والوسط . إنه يريد الأرض أن تغطى بالبيوت والأشجار ، ويريد الأطفال أن تملأ كل مكان . . ولكن الأموال التى فى يديه قليلة . صحيح أن هناك وسائل « محدودة » لإغراء المواطنين بمضاعفة مرتباتهم ، وتقديم السكن لهم بما يعادل ٧٪ من المرتب . . ولكن المحافظ فى سباق مستمر مع الراغبين فى البقاء والازدهار - كما يقول الأخوة العرب - أى التناسل . .

وكنت قد أشفقت على المحمية الطبيعية فى « رأس محمد » بعد أن تلقيت بلاغات وشكايات دولية بأن رصف الطرق وتكديس الأسمنت قد أصابا رأس محمد بالصداع . . وإن العنف فى الرصف والبناء سوف يقضى على المحمية من فوق - من نبات المانجروف الذى يعيش على الماء المالح . . ومن تحت أيضا : يخنق المرجانيات والأسماك وبقية الكائنات الصغيرة فى مياه خليجى السويس والعقبة . . وإن رأس محمد سوف يصبح مقبرة لملايين الملايين من الكائنات التى عاشت وتوالدت فى ملايين السنين . . وإنها أكبر فضيحة فى تاريخ الحياتين النباتية والحيوانية ، ووصمة عار فى حاضر مصر الحديثة المتعلمة المليئة بالعلماء أيضا . .

ولكن أكد لى د. المحمدى عيد رئيس جهاز حماية البيئة ، أنه لا خوف على المحمية وعلى مصر أيضا . . وأنه يستعين بأكبر العلماء لدراسة وحماية المحمية . .

وأكد لى المحافظ نور الدين عفيفى ، أنه لم ولن يمس جمال الطبيعة فى هذا المكان ، فإن لم يزد بها جمالا ، فلن يجرح كبرياء وشرف مصر وعلمائها . .

قلت : أريد أن أرى . .

قالوا : وحدك اذهب واحكم . .

ذهبت . فعلا وجدت شكائر أسمنت . .

قلت : آه . . هنا !

قالوا : ولكن هذا خارج المحمية !

وذهبت إلى أبعد ووجدت بلدوزرات لوريات واكشاك المهندسين والعمال . .

قلت : إذن هنا بداية هدم المحمية على رؤس كائناتها الجميلة !

قالوا : ولا هنا . . فنحن ما نزال خارج المحمية !

وتوقفت . وقالوا إنه يجرى بناء بوابة جميلة الشكل . . ورأيت نموذجا لها قد اتخذ شكل الصخور الموجودة في الجبال والهضاب . . والبوابة بعيدة تماما عن حدود المحمية . . والأسمنت الذي يستخدمونه مغطى حتى لا يتطاير مع الهواء ويهبط إلى الماء فيخنق المرجانيات . . وظهر المصورون من تحت الماء . وظهرت المصورات . . ومددت يدي إلى أشجار المانجروف . واسمها نبات الشورى - وقطعت ورقة ووضعتها على لساني . . إنها مغطاة بطبقة من الملح الناعم . . وهذا النبات هو معجزة المستقبل الزراعى في العالم كله . . فلو عرفنا كيف يعيش هذا النبات الاستوائى على الماء المالح . . وكيف يتخلص من الملح ويعيش على الماء الحلو . . إن هذا النبات هو مصنع لتحلية مياه البحر . . لو عرفنا سره لزرعنا الصحراء كلها بماء البحر - ولكن العلم لم يهتد بعد إلى هذا اللغز الإلهى !

وهناك مناطق من الجبال والهضبات تعيش فيها أعداد قليلة من الحيوانات البرية هى أيضا في حاجة إلى حماية . ويقوم البدو بحمايتها من بعضها البعض ومن الإنسان .

والناس يتحدثون - أيضا - عن الخواجات الذين هم أكثر احتراما لكل شىء جميل وللنظام عن المصريين . . فيجدون العجوز تمشى تحت الشمس نصف ساعة لكى تضع زجاجة فارغة في صندوق زبالة ، بينما الشباب المصريون يدفنون العلب في الأرض ، في أى مكان ؟

وعندما تجد كوما من الزبالة في هذا المكان الجميل يقولون لك ويمطون الشفاة ويهزون الأكتاف : طبعا كان هنا شوية طلبة ؟

ويتحدث رواد قرية الفيروز هيلتون عن طبيب القرية الذى ضبطه يصطاد سمكا ملونا من البحر وهو ممنوع قانونا . . فما كان من مدير الفندق الفرنسى إلا أن هاجمه وانتقده بعنف أمام الناس . . ثم أرغمه على أن يعيد السمك الملون إلى البحر !

ويتساءل الناس : هذا مصرى متعلم يعتدى على البيئة ، وهذا أجنبى يحميها ويلقنه درسا في احترام القانون !

وهذه « مدرسة البيئة » كان قد أقامها علماء إسرائيل ، مكانا متواضعا لبحث ظروف البيئتين النباتية والحيوانية . . وهى الآن تابعة لجامعة قناة السويس . . وسوف يهدمونها ليقام فوقها وحواليها أعظم الفنادق بأموال أبى ظبى . . والمنطقة كأنها نقلت من خليج المكسيك . . أو إن خليج المكسيك تقليد للهضبات والجبال . . والخليج والساحل الناعم الذى يطل على العقبة والسويس والبحر الأحمر وجبل الطور . . وبعدها مساحة من الأرض سوف يملكها مواطن عادى ويبنى قرية لمجموعة من الشبان والشركات . . وهنا أرض لعشرة من المهندسين الشبان والفنانين . . وهنا أرض لتجار الفضة والنحاس . . وهنا أجمل وأوسع قرية سياحية تديرها الشركات الألمانية تمتد من الجبل إلى البحر . . وهذا موتل صنافير العربى الطراز بدوقه

الفريد . . وهنا وهناك يلتقى الجمال والأناقة والبساطة والأمل والاستقرار والإيمان بالمستقبل السياحي والسكاني لهذه المنطقة الفاتنة . .

ولا يوجد طريق صحراوي أو زراعى فى مصر كلها تعددت فيه علامات المرور ذهابا وإيابا كهذا الطريق بين نفق الشهيد أحمد حمدى حتى طابا (٨٠٠ كيلو متر) .

وقبل أن تصل إلى طابا يوجد هذا التل الناعم الذى انطلق فيه رصاص الجندى سليمان خاطر على أطفال صغار فقتلهم . . إن هذه المنطقة فى صميم مصر ، بعيدة ٤٦ ميلا عن الحدود المصرية . تماما كأن هؤلاء الأطفال قد تسللوا إلى نقطة بوليس قصر النيل أو الجيزة . . إلى مكان فى قلب مصر !؟ وأخيرا قضت المحاكم المصرية بالتعويضات لعائلات الضحايا . . ثم طابا (٢٥٠ فدانا) وفيها فندق سونستا الذى يملكه بابا شادو المصرى الأصل . . سألتنى مدير الفندق : ما رأيك ؟ قلت : مخنوق يا أخى . . السقف أسود . . والشرفة صغيرة . . وكل شىء فى الفندق « مزنوق » . . والسبب أنكم تريدون استغلال كل شبر . . ثم إن الواجهة البحرية ضيقة جدًا . . وهذه القرية المحشورة فى الفندق والتي تسمونها « الشاطئ الخاص » للعرابة . . صغيرة جدا أيضا . .

قال : يعنى لا يعجبك ! لماذا لا تقنع أهللك وناسك بأن يتركوه لنا ؟!

قلت : صحيح إنه صغير . . ولكنها مساحة من السيادة المصرية ، لا يملك أحد أن يفرط فيها . . حتى لو كانت موطئ قدم . . وأنتم أيضًا تحاولون زحزحة الخط الممتد من العلامة ٩١ إلى البحر ، تحاولون أن تجعلوها ناحيتنا لتكسبوا بضعة أمتار ؟!

حتى شواطئ مدينة إيلات ضيقة . . والناس هناك ينزلون إلى البحر عراة تماما . . معظم السيدات بلا سوتيان . . والشوارع صغيرة والبيوت من دورين لا أكثر . . والميناء ضيق . . وسوف يسحبون المراكب إلى الداخل . . ولكن سكان مدينة إيلات كلهم من الشباب . . وفيها الآن انتخابات جديدة لاختيار رئيس المدينة . . المرشحون لا تزيد أعمارهم عن خمسة وثلاثين عاما ؟ . . والدولة تعفى السكان من معظم الضرائب لكي يقيموا فى هذه المناطق الصحراوية النائية . . وهذا ما يجب أن نفعله نحن أيضًا فى جنوب سيناء . - إذا أردنا أن نزرع سيناء بالشباب والحماس والعلم والمستقبل .

والشباب المصرى هنا متحمس جدا . . ولا شىء يمكن لإنجازه بغير حماس . . ولا شىء أيضا يمكن لإنجازه . إذا لم يكن لدينا إلا الحماس ؟

فالحماس هو موتور السيارة ، ولكن لابد من قائد يعرف ويخطط ويصمم على الهدف . .

ونحن يجب أن نلتقط حماس الشباب بسرعة ، فليس أسهل من أن يخذل حماسنا . .

والطريق إلى الفشل محفوف باللامبالاة .

وفي مرحلة الشباب نحن نتغلب على الصعوبات ، وفي الشيخوخة تغلبنا الصعوبات . .

ومن الغريب أن المسافة بين الشباب والشيخوخة قصيرة جدا - انظر إلى الوزراء قمة الجهاز التنفيذي - كيف كان شكلهم يوم حلف اليمين ، ثم اليوم . . بسرعة شاخوا وبيضت شعورهم ، وشحبت وجوههم ، وغارت عيونهم ، ماذا حدث ؟ إنه العمل المرهق ، وهو مرهق . لأن الوزير والمدير والرئيس يضعون كل السلطات في أيديهم ، ولا يوزعونها على معاونيهم . إنها البروقراطية المركزية التقليدية . ومن هنا كانت الإدارات والوزارات فوق دماغهم ، وليسوا هم الذين فوقها يديرونها ويوجهونها من أعلى . .

سألوا مدير أكبر شركة أمريكية وهي شركة « جنرال موتورز » كيف تدير هذه الإمبراطورية التي تبيع ألوف ملايين الدولارات كل سنة ، وأنت تنتقل بين مصاييف أوروبا وجزر هاواي . . فأجاب : تفسير هذا اللغز هو أنني نجحت في اختيار الذين يساعدونني . . وهم نجحوا في اختيار معاونيهم !

فليس العبء كله فوق دماغه لوحده - ولذلك نحن ننتقل من الشباب إلى الشيخوخة أسرع مما نقوله لنا نتيجة الحائط وشهادة الميلاد . .

ولذلك يجب أن ندق الحديد وهو ساخن . . أى ندقه لكي نجعل له شكلا ، وهدفا أيضا . . والحديد الساخن هو الشباب المتحمس - قبل أن يبرد ويفتر ولا يبالي - ويقول : وأنا مالى . . وهو أنا اللي حاصلح الكون ؟

والحقيقة أنه هو الذى سوف يصلح الكون المصرى . . لأنه هو وحده مستقبل هذا الكون . . والشباب هنا مفتون بالحركة المتجددة والطائرات ملانة بالسياح والأتوبيسات . . حيوية وشباب وفلوس . . وهو يريد أن يقفز بسرعة من موظف إلى صاحب عمل وينافس الشركات الكبرى ذات المندوبين والعملاء والفروع فى كل الدنيا . . إنه حماس وشباب . . ويجب أن نعطيهم كل فرص العمل وفرص الكفاح . . والباقي عليه . .

* * *

أما عدد المسئولين عن حماية هذا الجمال الإلهى فقليل جدا . . وهذه الشواطئ الطويلة العريضة العميقة تحتاج إلى عيون ساهرة . . واعية مهذبة أيضا . . .

سوف يحى خبراء من دول السوق الأوروبية المشتركة لإدارة هذه المحمية ومراقبة أن تظل محمية مصونة لمصر وللعالم كله . . وتكون أيضا على صلة بكل الهيئات العلمية . وبالذين

يحيثون ليصوروا تحت الماء . . ويدرسوا ويبحثوا - فما أكثر الأسرار التي أودعها الله في أصغر مخلوقاته تلك التي تصنع الشعب المرجانية مأوى رائعًا لكائنات أخرى تستدرج كائنات أكبر . . لتستدرج كائنات أكبر ، لتعيش الحياة على الحياة . . ويتحقق بذلك العدل الإلهي . والتوازن الكوني ، وانسجام السماء والأرض ، في سيمفونية الجمال والجلال . . وليس الإنسان إلا واحدة من نعماتها الشاذة الناشئة أحيانًا ، العاقلة المتكاملة أحيانًا . .

« لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ، ولا الليل سابق النهار . . وكل في فلك يسبحون »
سبحان الله . .

ولا يزال القتل مستمرا

بتصريح من الدولة؟!

الإنسان هو الحيوان الوحيد الذى يتكاثر ويتضاعف عدده . . بينما الحيوانات الأخرى تتناقص وتنقرض . . والإنسان هو أحد أسباب القضاء على هذه الحيوانات . . ونحن لا نعرف كم كان عدد سكان الأرض قبل طوفان نوح عليه السلام . وإن كنا نعرف عدد الذين ركبوا مع سيدنا نوح . . كانوا سبعين أو ثمانين . . ومن هذا العدد القليل توالدت الإنسانية مرة أخرى . . حتى أصبحت ستة آلاف مليون . .

أما عدد الحيوانات ، فلا نعرف كم كان عددها . وكم هو الآن . . ولكن من المؤكد أن النقص مستمر . . مثل واحد أذكره عن طيور السماء التى تهجر إلى بلادنا فى الحريف . . فتتهبط على سواحل البحر الأبيض وفى شمال سيناء . . فطائر السماء أو « السلوى » هو الذى أنزله الله من السماء لإنقاذ بنى إسرائيل من الجوع عند خروجهم من مصر فى القرن الثالث عشر قبل الميلاد . . لقد انهال عليهم السماء كثيرا وتكسد أمامهم ووراءهم . .
جاء فى سفر « الخروج » : السلوى صعدت وغطت المحلة . .

وجاء فى سفر « العدد » : فخرجت ريح من قبل الرب وسافت سلوى من البحر وألقتها على المحلة نحو مسيرة يوم من هنا ، ومسيرة يوم من هناك ، حولى المحلة ، ونحو ذراعين فوق وجه الأرض . . فقام الشعب كل ذلك النهار ، وكل الليل وكل يوم الغد ، وجمعوا السلوى .
وجاء فى سفر « المزمير » : . . وأمطر عليهم الرب لحما مثل التراب ورمل البحر طيوراً ذوات أجنحة . . فأتاهم بالسلوى وخبز السماء أشبعهم . .

أى أن الملايين من طيور السماء قد سقطت على مساحة كبيرة من الأرض بارتفاع ذراعين وراح بنو إسرائيل وعددهم بعشرات الآلاف يجمعون هذه الطيور أياماً !!

ويقول القرآن الكريم : « يا بنى إسرائيل قد أنجيناكم من عدوكم وواعدناكم جانب الطور الأيمن ونزلنا عليكم المن والسلوى . كلوا من طيبات ما رزقناكم . ولا تطغوا فيه فيحل عليكم

غضبى . . ومن يحلل عليه غضبى فقد هوى . وإنى لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى . .

فالله قد أنزل عليهم السماء وأنزل عليهم المن أى « عسل الندى » وهى بلورات عسلية تتساقط من أشجار الطرفاء النيلية . .

ولو وضعنا الشباك الآن فى نفس الأماكن التى سار فيها بنو إسرائيل ، فإن هذه الشباك لن تحتجز إلا بضع مئات من السمان . . فماذا حدث ؟

حدث ما نعرفه فى البر والبحر . فالإنسان قد أهلك الطيور باستخدام المبيدات الحشرية . . وأبادهما بالصيد العنيف . فانقرضت طيور وحيوانات مصرية كثيرة . وأصبح الباقي نادرا . ولذلك أصدرت مصر القوانين التى تحرم الصيد والقتل والتعذيب وتصدير هذه الحيوانات والطيور والزواحف حية أو ميتة . .

فالمادة ١١٧ من القانون ٥٣ لسنة ١٩٦٦ تنص بوضوح على حظر صيد الحيوانات وقتلها وإسكها بأية طريقة . . وحظر حيازتها أو نقلها أو التجول بها أو بيعها أو عرضها للبيع حية أو ميتة .

وكذلك ينص القانون أيضًا : لا يجوز استيراد ملكات النحل وبيض دودة الحرير أو بيعها أو الاتجار فيها إلا بترخيص من وزارة الزراعة . .

والحيوانات والطيور المحظور صيدها هى النافعة . . صديقة الفلاح مثل : العصافير والزرزور و « أبو » منجل والغراب و « أبو » قردان والبلبل والبشون والكروان والهدهد إلخ . أما الحيوانات المحرمة تماما فهى : الكباش الجبل والغزال والفهد والنسر والتمساح والنعام . والقانون قد حرم نهائيا صيد أى نوع من أنواع الطيور أو الحيوانات عند مرسى مطروح . . وفى سنة ١٩٨٢ حرم القانون تجريرا قاطعا إعطاء أى تصريح بالصيد عند مرسى مطروح . .

وبهذه القوانين والهيئات التى تشكلت لحماية البيئة ، أصبحت مصر واحدة من الدول المتحضرة التى تحترم حياة الحيوان . . وتحترم القيمة التاريخية والجمالية والاقتصادية للطيور والحيوانات . . ومعنى ذلك أن مصر قامت بما هو أعمق من ذلك ، بالدعوة لحب الحياتين الحيوانية والنباتية بين المواطنين وبين تلاميذ المدارس . فحب الحياة هو الذى يجعل الإنسان يحرص عليها وعلى نفسه . . فلا يعذب ولا يقتل ولا يدمر . . وبذلك ينغرس فى أذهان الطفل حب كل ما هو حى وكل ما هو جميل . .

ولكن القوانين التى تصدر فى وزارة الزراعة لا تعرفها وزارة الداخلية وتجهلها الخارجية والإدارات المحلية . . كأن وزارة الزراعة تعمل فى مكان آخر غير مصر ، أو كأنها لا تخاطب إلا

النباتات والحيوانات . . . ولا علاقة لها بالإنسان . ولذلك ارتكبت الهيئات الأخرى مخالفات صارخة دموية . لأن أحدا لا يدرى بهذه القوانين ، أو لأن أحدا لا يعنى كثيرا بحياة الحيوان والنبات ، مهما كانت نافعة للإنسان . .

وقد تقدم اثنان من الخبراء د . سيد متولى جامع ود . عبد الوهاب خدام بشكوى عاجلة . فقد وجدا عند البحر الأحمر ١٥٠ صيادا برفقة أحد سياح الخليج . . ومعهم أسلحة نارية وترسانة من الذخيرة والسيارات والخيام . . جاءوا يصيدون النعام والماعز الجبل والغزلان ١٩

ومعهم تصريح بالصيد صادر من حرس الحدود ومن المخابرات الحربية ١٩ ووجدوا صيادين آخرين من الخليج ومعهم أسلحة نارية . . جاءوا يصيدون في هذه المناطق المحرمة تماما ؟

أما هذه الشكوى فقد بعث بها الخبيران إلى مدير حديقة الحيوان الذى يجب أن يرفعها للسيد الوزير ، والسيد الوزير يعيدها إلى السيد الوزير المحافظ الذى يحيلها إلى وزير الداخلية ثم إلى المخابرات العسكرية . وكان قانونا قاطعا لم يصدر ولم ينشر !

وقبل ذلك بعام واحد بعث مسئول الأمن بوزارة الخارجية إلى مسئول الأمن بوزارة الزراعة يطلب إليه اتخاذ اللازم نحو الموافقة على التصريح لعدد من الصيادين من دول الخليج ١٩ فما كان من مسئول الزراعة إلا أن طلب أسماء الصيادين . كأنه هو الآخر لا يعلم أن قانونا صدر بمنع أى أحد من الصيد . .

والخطاب المرسل من الخارجية يطلب التصريح لصيادين من الكويت . . ولكن الأسماء المرفقة لصيادين من السعودية !!

وهؤلاء الخبراء وأعضاء الأجهزة الرسمية لحماية الحيوانات البرية أعطاهم القانون حق الضبطية . أى إنه إذا رأى عدوانا على القانون فإنه يتقدم بسرعة ويوقف الصيد ويسوق الصيادين إلى الشرطة والنيابة .

أما العقوبة لمن اصطاد نعاما بعشرة آلاف جنيه أو صقرا بعشرين ألفا ، فهي عشرة جنيهات !!

أى إن هذا هو العقاب الصارم الذى يضعه القانون للصياد والذى جاء معه ١٥٠ مرافقا وسيارات و ذخيرة ليقيموا شهرا فى الخيام المزودة بالثلاجات والمطابخ والتلفزيونات ليتكلموا مليون جنيه . تصور !!

وأكثر وأعنف من ذلك هناك عقاب بجنيه واحد لبعض المخالفات ١٩

فمن الذى لا يدفع هذا المبلغ التافه ولا يقتل كل حيوانات مصر شرقا وغربا ؟

ثم إن هؤلاء الخبراء الذين لهم حق الضبطية القضائية لا عندهم فلوس ولا عندهم ضمان ولا أمان . وإذا أرادوا أن ينتقلوا لن يجدوا السيارة . . وإذا وجدوها فمن الذى يملؤها بالبترين - مع أن مصر تتلقى ملايين الدولارات والجنيهات لحماية البيئتين البرية والبحرية أيضا !

ثم إن وزارة الزراعة ليست هى الهيئة الوحيدة التى تطبق القانون أو تلفت النظر إلى ذلك وإنما هناك هيئات أخرى منافسة أو معاكسة . . وأمام هذه الازدواجية ، فى تطبيق القانون أو تعطيله يحار محافظ الإقليم . . وأخيرا يريح دماغه ويوافق على ما يراه هو صالحا للسياسة أو الدعاية . .

وأذكر أننى شخصيا تلقيت من عشر سنوات برقية من باحثة أمريكية تصرخ بأعلى صوتها أن الجنود المصريين عند رأس محمد يصيدون الأسماك النادرة بالديناميت . . وأن البحر هناك يتحول إلى بحيرة من الدم . . ثم يتحول إلى بقعة كبيرة سوداء من العار . . إذ كيف يحدث ذلك فى مصر وأن يسكتوا عن ذلك ؟

أما الأسماك والشعب المرجانية فى « رأس محمد » فمأساة أخرى !

ونحن لا نعرف بالضبط ما الذى فعله الصيادون برا وبحرا فى المناطق « المحمية » إلا عندما يعودون إلى بلادهم . . وتنشر الصحف صورهم ومغامراتهم . . فمثلا نشرت الصحف فى مالطة أخيرا أن عشرات الصيادين قد عادوا سعداء جدا من رحلاتهم فى مصر . . فكل واحد قد اصطاد أكثر من مائتى عصفورة !! أى إنهم جاءوا إلى مصر ووافقنا على أن يقتلوا ألوف العصافير المحرمة آكلة الديدان صديقة الفلاح . . إنهم لم يقتلوا العصافير ، وإنما اعتدوا على كل القوانين التى وضعناها لحماية البيئة . . ولم يفعلوا ذلك سرا ولكن علنا وبموافقتنا على ذلك !

وقد رأيت فى « رسالة المملكة العربية السعودية » التى يذيعها التلفزيون المصرى كيف أن الحكومة السعودية قد اشترت عددا من الغزلان النادرة لتطلقها فى بيئتها الطبيعية . . لأنها توشك أن تنقرض . . ولا أظن المملكة السعودية ستوافق لأى صياد مصرى أيا كان اسمه . على صيد هذه الغزلان العربية النادرة !!

هذه الغزلان قد عاشت قبل ذلك فى المكسيك . . وراقبها الخبراء ودرسوها ورأوا أن انتقلها إلى الصحارى السعودية ، هو عودة إلى البيئة المناسبة . . وأنهم سوف يتركونها تتزايد - أما الصيد فممنوع تماما !

وقد نشرت مجلة « فستو » الإيطالية أن صيادا وزوجته واثنين من أولاده قد ذهبوا إلى منطقة

البحر الأحمر وإنهم أفلحوا في صيد عدد من الغزلان الجبلى . . ولكن الأهالى منعوهم من سلخ هذه الحيوانات . . أما البوليس فقد أخلى سبيلهم ، لأن معهم تصريحاً بذلك ؟

ولقد أسعدنى كثيراً أن أجلس إلى عدد من الخبراء الشبان في ندوة علمية جادة . إنهم قد درسوا في مصر وفي الجامعات الأجنبية . . تخصصوا وأخلصوا . . ولكن : لا حياة لمن تنادى كما قال الشاعر القديم . لأن أحداً لا يستمع إليهم أو يقرأ شكواهم . . وإذا كانت السلطات على الحدود لا تعرف من هي الجهة التى يحق لها أن توافق أو تعارض ، لتعدد الجهات وتضاربها ، فإنهم أيضاً أكثر حيرة . . ومن الذى يستمع إلى من يطالب بحماية الثعابين ، والناس يبحثون عن الرغيف الطباقى . . ومن الذى تهمة حماية أبى قردان والقروذ والكلاب والسحالى ، بينما الأصوات تتعالى دفاعاً عن المواطنين الذين ضاعت أرزاقهم في شركات توظيف الأموال . . مع أنه لا تعارض . فنحن جميعاً نطبق القانون لحماية الإنسان من الإنسان والحيوان من الإنسان . بل إن حماية الحيوان هي دعوة عميقة لحماية الحياة : حياة الإنسان والحيوان والنبات . فالذى يقتل النبات هو قاتل الحيوان هو الذى يستهين بروح الإنسان . .

ويوم وقف الناس في ميدان سليمان باشا في الخمسينيات يتفرجون في ذهول على أستاذ إنجليزى في آداب القاهرة ، وهو يمسك رقبة عربجى ويجرجه إلى مركز الشرطة . . اندهش الناس جدا : كيف أن خواجة يتدخل بين عربجى وحصانه . . فالعربجى قد ضرب الحصان بالكرباج . . والخواجة يرى أن هذا الضرب لا مبرر له . . إذ يكفى التلويح والتهديد . . وإنه شخصياً لا يطيق هذه القسوة ولن يسكت عليها . . والناس تدق كفا بكف وتقول له : وأنت مالك ؟ يا أخى واحد يضرب حصانه . . يقتله ويشرب من دمه . . وأنت مالك ؟

ولكن الخواجة يؤكد أن كل قوانين الدنيا تحمى الحصان من الضرب والعنف والوحشية . . وإنه هو مندهش كيف أن الناس تقف مع العربجى المتوحش ضد الحصان المسكين !!

إننا ما نزال ياخواجة نقف مع الصياد المتوحش الذى وافقنا على وحشيته ، ضد الطيور النافعة والحيوانات النادرة !

* * *

لم أشأ أن أقول لهؤلاء الخبراء الذين جلست إليهم إن هناك نكتة تصور حالهم . . يقال إن عفريتاً تقدمت به السن حتى أصبح عاجزاً عن الحركة . . فرأى طفلاً صغيراً فناداه : تعال يا ابنى . . خذ إيدى . . علشان أقوم أخوفك !

إن أحدا يجب أن يأخذ بيد هؤلاء الخبراء الذين لا قوة لهم لكى يتمكنوا من تخويف
الصيادين وتخويف الذين أعطوهم التراخيص بمخالفة القانون !
ومن العدل أن نقول إنهم استطاعوا ضبط تمساحين صغيرين عند أحد تجار المعادى . .
التمساحان اشتراهما التاجر من صياد فى بحيرة السد العالى . وجاء بهما إلى القاهرة ليبيعهما إلى
السياح . . فإذا كانت هذه أول ضبطية فنرجو ألا تكون الأخيرة !

الذين لم تعلمهم حدائق الحيوان!

الطفل الذى يحرص على ارتداء ملابسه كاملة وعلى ترتيب كتبه قبل ذهابه إلى المدرسة ثم يعود بسرعة إلى البيت لقد نسى شيئًا هامًا . . نسى المسبار الذى يمر به على الجدران وعلى كل السيارات الواقعة . .

ثم هذا الشاب الذى يضع فى جيبه موسى حلاقة فإذا ذهب إلى السينما وانتهى الفيلم أخرج الموسيقى بسرعة ومزق الكرسي الذى جلس عليه واستراح . هذا الشاب هو الذى إذا ذهب إلى المكتبة العامة ليقرأ أحد الكتب نزع منه الصفحات ليقرأها فى البيت . وبذلك يحرم غيره من أن يقرءوا ثم إنه أفسد كتابا لا يملكه ، وإنما هو ملك للدولة ملك لكل الناس .

إنه نفس الرجل الذى يسرق اللمبات والكابلات وهو الذى يدخل المصعد مع أن بعض الموجودين قد نهبوه إلى أنه كامل العدد ، وأنه رجل متعلم وأنه يعرف أن لكل جهاز طاقة وعمر ، ومع ذلك أصر على أن يكون المحمولة الزائدة !

وعندما يكبر هذا الطفل أو هذا الشاب فلا يهتم كثيرًا خراب مصر وضياح حقوق مواطنيها ، ولا يهتم كثيرًا أن يقتل الناس : إن هذا الطفل أو هذا الشاب أو هذا الرجل لم يذهب إلى حديقة الحيوانات ولم يفهم معنى أن تقام للحيوانات حديقة . المعنى أن يتفرج وأن يضيف إلى معلوماته شيئًا جديدًا ، وأن يحب هذه الحيوانات ، فلا يؤذيها ولا يقدم لها طعاما . لأن التعليمات تحذر من ذلك ومن الواجب أن يحترم تعليمات الخبراء . وأن يحترم عالم الحيوان ومن أجل ذلك أيضًا كانت حدائق الأسماك نذهب ونتأمل جمال المخلوقات وأن نحبها وأن نحترم القانون . . ومن أجل ذلك أيضًا كانت حديقة الأورمان - حديقة النباتات النادرة نرى ونتعجب لعظمة الخالق . . وأن نحب الحياة فى الحيوان والنبات وأن نحترم حياة الناس وألا نعتدى على أحد أو شيء . وأن نحترم القانون دائمًا ، ولكن الذى رأى أباه يضرب الحمار ضربا عنيفا هو نفسه الذى لا يضيق إذا رأى أباه يضرب أمه وينهال على أولاده ضربا ويطردهم من البيت ومن المدرسة .

وإذا رأينا شبابا جامعيًا يعودون إلى هذا المسار ويكتبون به أسماءهم وعبارات بذيئة في داخل المعابد الفرعونية وعلى التماثيل التي لا يصح أن يمسها أحد ، أدركنا أن هؤلاء جميعًا لم يتعلموا احترام القانون وجلال التاريخ واحترام الحياة ، وأنهم لم يتعلموا الذوق . ولم يفهم أحد منهم معنى الرحمة بالحيوان والنبات والإنسان . . وهم أيضًا الذين إذا جلسوا إلى الطعام « ظلطوه » دون أن يروه ودون أن يتذوقوه . فهم لا يتذوقون المعانى . . ولم يتدربوا على أن لديهم حاسة جمالية . . فأى نوع من الناس هؤلاء ؟ إنهم الذين لم يذهبوا إلى حدائق الحيوانات والأسماك والنباتات . . أو إنهم ذهبوا فلم يفرقوا بين الحارة والحديقة . . ولذلك ما كان ينبغي لهم أن يخرجوا منها فهم حيوانات أسوأ من الحيوانات !

فمن أهم الأسباب التي تعمق الشعور بحماية البيئتين البرية والمائية أن يكون الأطفال والشباب قد تعلموا حب الحياة . . وحب الجمال . . والرحمة والذوق واحترام القانون . .

* * *

ولا نزال نذكر يوم أطلق الروس الكلبة « لايكا » في الفضاء الخارجى ، لتدور وتموت في السماء ، ثارت جمعيات الرفق بالحيوان وحماية البيئة لهذه القسوة السوفيتية مع أن الروس لم يطلقوها إلا لكي يجربوا عليها ويعرفوا ما الذى سوف يحدث للإنسان حتى لا يموت في الفضاء .

وإنما ينطلق ليعود حيا . ثم إن في المعامل مئات ألوف الحيوانات تعيش وتموت فداء للإنسان . . ورغم أن الهيئات العالمية لحماية البيئة تعلم ذلك ، فقد خافوا أن يكون لهذه الصورة أثر عنيف على الأطفال الذين يحبون الكلاب والقطة والفئران !

فحماية البيئتين - المائية والبرية - تبدأ من الطفولة . . فإذا آمن بها الطفل ، فإنه يكون أكثر إيمانًا عندما يكبر . . ويكون مسئولًا عن كل حيوانات مصر ونباتاتها وحيثما لن يضع في جيبه مسبارًا ولا موسى .

فما هو المقصود بحماية البيئة ؟ وما هو المطلوب ؟

لقد تحددت مناطق في مصر ليحميها القانون من الإنسان ، الصيد والقاتل والمهمل - هذه المناطق قد نص عليها القانون ١٠٢ لسنة ١٩٨٣ :

١ - محمية منطقة علة : وتشمل البحر الأحمر وغابات المنجروف - التي تسمى أعشاب الشورى - تلك النباتات العجيبة التي تشرب من الماء المالح وتحوله إلى ماء حلو . . وتعيش عليه . . والأمل عظيم جدًا عند العلماء في رى الأراضي الصحراوية بباء البحر بدلًا من تحلية الماء الذى يتكلف مئآت الملايين . . والمثل الذى أمام العلماء هو نبات الشورى . . وفي

هذه المنطقة المحمية قانوناً توجد الماعز الجبلى والحمار البرى والغزال المصرى والأرنب الجبلى والقط والنعام والحبارى والتسور والعقبان والسلاحف . .

وقد تحررت مخالفات بالمثلث للصيد العنيف - أما الجهات التى تمنح التصاريحات المخالفة للقانون فهى المخابرات العسكرية وأمن السواحل - تصور ١١

٢ - محمية الزرانيق شمال سيناء وفيها الطيور المهاجرة من أوروبا وآسيا ، وهى بمئات الأنواع والصيداؤون يقتلونهم بمنتهى العنف ، وخاصة السمان ويصيدون الطيور المائية بالخرطوش . .

٣ - محمية رأس محمد نموذج فريد فى العالم كله للحيوانات والنباتات .

٤ - محمية العميد بمرسى مطروح وقد منع منعاً باتاً صيد أى حيوان برى أو مائى من أى نوع وتوجد محمية مساحتها كيلو متر مربع مخصصة لأبحاث جامعة الإسكندرية على النباتات والحيوانات والطيور المهددة بالانقراض . .

٥ - محمية مجموعة جزر النيل عند أسوان : جزر سالوجا وغزال وآمون . . وتتغذى بكساء نباتى طبيعى . وهذه الجزر صالحة تماماً للطيور البرية . .

٦ - محمية وادى الريان بالفيوم وهى تضم الحيوانات البرية الآخذة فى الانقراض مثل الغزال الأبيض والثعلب والذئب . . ولم تتحول هذه المنطقة إلى محمية بعد ١٩ ولم تسفر الاتصالات عن شىء ، وكذلك التوسلات إلى مجلس الوزراء بالتعجيل بحماية الحيوانات . .

٧ - محمية الغابة المتحجرة شرقى المعادى . إنها غابة من الأشجار نحجرت وعمرها أربعون مليون سنة . . وليس لها نظير فى العالم . . وهذه المحمية ليست إلا مشروعاً لم يلق أى اهتمام من مجلس الوزراء . .

والسبب هو أن هناك وزارة الزراعة بهيئاتها وهناك مجلس الوزراء بهيئة واحدة تتبعه . ولا أحد يعرف من الذى يتخذ القرار . . هل هى وزارة الزراعة المعنية فى المقام الأول ، أو هو مجلس الوزراء الذى هو أقوى سلطة وأبعد وأوسع . . وأكبر دليل على ذلك مأساة محمية رأس محمد . . فقد نشرت الصحف أخيراً أن محافظة جنوب سيناء سوف تقوم « بتطوير » هذه المحمية النادرة ، لتكون متحفاً عالمياً يتفرج عليه السياح وهواة الصيد والغطس والتصوير . .

أما مفهوم التطوير فهو رصف الطرق وإقامة البوابات والمطاعم والفنادق ومراكز للتدريب على الغطس والصيد . .

ولكن د . محمد عامر رئيس الإدارة المركزية لحماية الحياة البرية يفهم أن التطوير هو تطوير

حماية البيئة . . أى استخدام الوسائل المتطورة لحماية البيئة الطبيعية . . أى لتظل البيئة على طبيعتها دون تدخل من الإنسان . . لأن كل البيئات الحيوانية والنباتية قد أفسدها الإنسان وأخل توازنها . .

فهذه التطويرات التى أعلنها المحافظ نور الدين عفيفى من رصف للشوارع وإقامة المطاعم والفنادق والمحلات التجارية سوف تؤدى إلى إفساد البيئة الفريدة فى رأس محمد . . فالأسمت الذى سوف يتطاير سوف يخنق الكائنات المجهرية فى الشعب المرجانية . . وسوف تؤدى عكارة المياه إلى قتل الكائنات البحرية . . ثم إن الصيد يحطم الشعب المرجانية . . ولا يزال الصيادون فى مواسم سمك الشعور يصيدون بمنتهى العنف ويتلفون الشعب المرجانية التى تكونت من إفراز كائنات دقيقة جدا على مدى ألوف السنين - أفرزتها من الكلسيوم الملون والناعم لتعيش فى داخلها . .

ثم هناك التلوث البترولى الذى أفسد هذه المحمية الفريدة فى العالم كله . . قال لى مصور الأحماق العالمى أيمى صلاح طاهر إن بعض شركات تنقيب البترول قد طلبت منه قبل قيامها بأعمال التنقيب أن يصور لها البحر الأحمر . . حتى لا يؤدى الحفر إلى إفساد البيئتين الحيوانية والنباتية لماذا؟ لأن إحدى الشركات فى المكسيك قد قامت بأعمال الحفر دون إدراك للبيئة الحيوانية ، فدفعت غرامة مئآت ملايين الدولارات . . وقد ظنت هذه الشركات التى تنقب فى مصر أنها لو فعلت ذلك لعوقبت عقابا شديدا - غلطانة هذه الشركات ، لأن العقوبة بنص القانون لا تزيد عن عشرة جنيهات ! وإذا كان عند هذه الشركات محام شاطر فسوف تدفع جنيها واحدا . . وإذا كان لها محام أشطر ، فسوف توجه لها الحكومة الشكر لأنها قامت بتنظيف البحر من هذه الشعب المرجانية التى لا تهم المواطن المصرى المشغول بالرغيف الطباقى والمطحون بالأسعار والمسطول فى المسارح يضحك على خبيثته دنيا وآخرة ! .

ولم تكذ تنتشر تصريحات السيد نور الدين عفيفى محافظ جنوب سيناء حتى نقلتها وكالات الأنباء . . وحتى تلقت مصر من جميع الهيئات الدولية تحذيرات عنيفة تقول : إن محمية رأس محمد فى أرض مصرية ولكن لها قيمة عالمية . . والعدوان عليها عدوان على التراث الإنسانى !

أما جمعيات حماية البيئة غير الحكومية ، فلإيمانها منها بأن الشكوى لأهل البصيرة عيب ، فقد اتجهت إلى المواطن المصرى تستعطفه وتقول له : إن الصيد الجائر للطيور والحيوانات البرية ما زال مستمرا ، وخاصة من الأجانب الذين تمنع دولهم مثل هذا النشاط المدمر للبيئة ، كما إن التلوث البيئى بجميع أشكاله ما زال قائما سواء فى الهواء أو التربة أو المياه العذبة والمالحة والأكثر من ذلك فإن المحميات الطبيعية ما زالت بدون إدارة علمية أو تنفيذية مما أدى إلى الاضمحلال السريع لهذه البيئات الطبيعية ، وهناك الكثير من الوقائع والحالات المؤسفة التى تحدث داخل وخارج المحميات الطبيعية فى مصر . ولذلك نناشد جميع المهتمين بالبيئة فى جميع

المواقع حكومة وشعبا أن يقفوا بكل حزم ويتعاونوا لمواجهة هذه الأخطار المريعة وغير المريعة والعمل على تلافيها وإيجاد الحلول المناسبة لها .

وينتهى هذا النداء بهذه الحكمة إن لم يحافظ هذا الجيل على بيئته فسيلعنه الأجداد والأحفاد والإمضاء الجمعية المصرية للحياة البرية والجمعية المصرية لعلم الحيوان والجمعية المصرية لعلوم الطيور والجمعية المصرية للحفاظ على الثروات الطبيعية ، أى إن هذا النداء انجبه إلى كل الناس إلا الجهة التابعة لمجلس الوزراء التى هى الخصص والحكم - التى منها وإليها تشكو ١٩

* * *

والمطلوب هو أن يكف الإنسان - بمساعدة الدولة - عن إحداث أى خلل فى البيئتين الحيوانية والنباتية . أى منع الإنسان من الاعتداء على حياة الحيوان والنبات لأن هذا الاعتداء يؤدى إلى ارتباك عنيف فى دورة الحياة البيئية . مثلاً إن استخدام الإنسان للمبيدات الحشرية قد أدى إلى زيادة الفئران التى أصبحت وباء قومياً ، فالمبيدات قد قتلت الغربان والبوم والثعالب والذئاب التى تأكل الفئران فزادت الفئران وراحت تأكل النباتات والطيور وصغار الحيوان والأطفال ١٩

وعلى الرغم من أننا أوقفنا استخدام الـ د. د. د. ت من عشرين عاماً ، فإن السودان ما يزال يستخدمه ولذلك يجرى إلينا فى مياه النيل ويؤكد بعض العلماء أن أثر الـ د. د. د. ت موجود فى المصريين فى كل دم . . . وإنه مسئول عن كثير من اضطرابات الغدد وعن ظهور حالات كثيرة من التخلف العقلى وعن اختفاء ظاهرة ولادة التوائم فى مصر . .

وقد تناقصت الأسماك فى بحيرة المنزلة بسبب الأملاح والكيماويات الموجودة فى المصارف وقد ماتت أسماك كثيرة فى النيل الذى جعله السد العالى - راکدًا ، فتكثفت فيه الأملاح التى قضت على الأسماك .

إن حماية البيئة ليست موقفًا حكومياً ، وإنما يجب أن تكون موقفاً قومياً وطنياً تربوياً جالياً أخلاقياً . وإذا كان الكبار لا يحترمون القانون فلأنهم لم يتعلموا ذلك فى البيت أو فى حدائق الحيوان والأسماك والنبات ، ولذلك يجب أن نتوجه إلى الأطفال فى المدرسة والبيت والتلفزيون وندريبهم على حب الحياة والرحمة والدوق . . فالذى يجب الحياة هو الذى يجب الناس . . وهو الذى يجب أن يعيش وأن يدع غيره يعيش . . هو الذى يجب السلام ، هو الذى ينحنى أمام القانون ، قانون الإنسان وقانون الطبيعة . .

قال أحد علماء البيئة إن الله سبحانه وتعالى عندما خلق الجمال .

قال له : اذهب إلى رأس محمد !

وما دام الكبار لا يرون ذلك ، فلنتجه إلى الصغار لعلمهم يستوعبون هذه الحكمة فيعتدل ميزان الحياة على أيديهم من أجلهم ومن أجل أجيال تحب الحياة والجمال والرحمة والسلام !

يا شيخ شعرائى مددا

برافو . . برافو . . ما أروعك . . ما أعظمك . . قالها الجمهور . .

وكان التصفيق حادًا عندما فرغت الفرقة الموسيقية من عزف « المتابعة الموسيقية » شهر زاد للموسيقار الروسى ومسكى كورساكوف . . ثم وقف الموسيقار وانحنى والدموع فى عينيه . . وهنا الناس بعضهم البعض . والقيصر أعلن أنه سعيد لأنه عاش ليسمع مثل هذا اللحن الجميل الذى استوحاه الفنان الكبير من ليالى ألف ليلة . . ومن مغامرات السندباد البحرى ومن العواصف والأمواج التى أطاحت بالسفن وأغرقتها . . كل ذلك فى فتنة ساحرة !

ولكن طيبًا تقدم للموسيقار يقول له : نحمد الله ياسيدى أنك لست طبيبًا !

فسأله الموسيقار : ولكن لماذا ؟

قال الطبيب : لأنك جعلت التكرار شيئًا جميلًا . .

قال الموسيقار : لم أفهم !

فرد عليه الطبيب : إن العبارات الجميلة التى تتكرر فى موسيقاك وتتجاوب بديعة ياسيدى . .

ولكننا فى الطب ياسيدى لا نريد أن يلغى التكرار مثل هذه السعادة بين الناس . . لأننا نريد أن نفزع الناس على أنفسهم . . فنقول لهم كل يوم : احتس . . لا تأكل . . لا تشرب . . لا تهمل . . إن الطبيب لا يستطيع كل شيء . . لابد أن يساعد المريض . . فلو أحب الناس هذا التكرار . . أو إن هذا التكرار لا يلغى اهتمامًا بالغًا من الناس لمات الناس . . وانتهى دور الأطباء . . هذا ما أردت أن أقوله لك . . وأن أشكر الله على أنك لست طبيبًا . . تعيد وتزيد بصورة جميلة كل نصائحك !

ويبدو أن الموسيقار لم يستوعب تمامًا ما قاله الطبيب . . فالطبيب يشير إلى عبارات تتكرر

في هذا اللحن الخالد الذي استوحاه الموسيقار من ليالى ألف ليلة . . فهذه الليالى التى تحكيها شهر زاد لزوجها الملك شهر يار تبدأ هكذا : بلغنى أيها الملك السعيد ذو العقل الرشيد أن كذا وكذا . .

وتنتهى كل ليلة بهذه العبارة أيضًا : وأدرك شهر زاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح . . وقد حرص الموسيقار على الاحتفاظ بهذا التكرار الجميل في حكاياته الأربع في هذا اللحن الساحر . .

وبعد مائة سنة تماما اختفى التكرار الجميل وتجاوبت صرخات الأطباء والعلماء والساسة يلفتون عيون خمسة آلاف مليون نسمة إلى أن الأرض نفسها تحذر وتنذر وتكرر التحذير والإنذار . . وتلفت عقول سكانها إلى أن موتا مؤكدا يحيق بالإنسان . . وبالأرض نفسها . . صحيح أن الأرض لن تموت قبل خمسة آلاف مليون سنة ، ولكن الإنسان الذى يعيش على الأرض من مليون سنة سوف يقضى على نفسه بنفسه إن لم ينتبه إلى ماذا صنعت يده . .

أما هذه الإنذارات المروعة في سنة ١٩٨٨ فهى أن الجفاف قد أصاب أمريكا ثلاثة شهور قفقت ملايين الأغنام ونقص المحصول . .

وارتفعت درجة الحرارة سبع درجات . . وأدى ذلك إلى موت الحياة النباتية في ملايين الأفدنة ، في أمريكا أيضًا . .

كما إن الأبخرة التى تتصاعد من الغابات في البرازيل وتتحول إلى أمطار قد نقصت هذا العام أيضًا . . السبب أن الإنسان بدأ يقطع الغابات . . فكل ثانية يقطع من الغابات ما يساوى مساحة أستاذ القاهرة . . فتتناقص الأبخرة والأمطار ويزداد الجفاف . .

وقد هبت الأعاصير على جزر الكاريبي ، فأغرقت وأهلكت وأحرقت . .

والفيضانات في بنجلاديش أمتت الغابات والحيوانات وشردت الناس . .

وفي أرمينيا وقع زلزال دفن تحته ستين ألفا وشرد أضعاف هذا العدد . . ولم يكن ذلك كله بسبب الزلزال ، وإنما لأن البيوت قد أقيمت من الطوب الهش - وهذا هو الإهمال الجسيم !

إن سيدنا « نوح » عليه السلام قد أندر قومه . . وراح يصنع بأعينهم سفينة على الشاطئ ويبعدها عن البحر . فكانوا يسخرون منه . . وكان يكرر لهم ما أوحى الله به إليه . . إن طوفانا سوف يهلك الكافرين . . وأنه خير لهم أن يؤمنوا به وأن يركبوا معه . . ولكنهم لم يصدقوه . . كما إن واحدا من أولاده لم يصدقه ، وحاول أن ينجو بذراعيه سابحا إلى جبل توهمه قريبًا . . فغرقوا وغرق . . ونجا نوح عليه السلام . .

أما هذه المرة فإن الأرض نفسها هي التي تقوم بدور نوح عليه السلام تحذر وتنذر بأن قوى الطبيعة مع أخطاء الإنسان ، سوف تعجل بنهاية الإنسان . والإنسان لا يخاف من الموت . فهو النهاية . . ولكن الخوف هو من السنوات السابقة على الموت . . سنوات المرض والعذاب . . والإنذار معناه : أيها الإنسان لا تضاعف عذابك . . لا تضيف إلى ويلات الطبيعة ويلات صنعتها بيديك . .

فكانت سنة ١٩٨٨ هي السنة التي قرر العلماء أن يجتمعوا ليقولوا للعالم كله ما الذي يجب عمله حرصا على حياة الإنسان . .

وقبلها انعقد في أمريكا وحدها ١٩٢ مؤتمرا علميا لدراسة « البيئة » . . وتحليل الأخطار التي سوف تؤدي بصحة الإنسان . . وفي بريطانيا وألمانيا وفرنسا واليابان . . واتخذوا جميعا موضوعا واحداً : الخطر مؤكد . فكيف نواجهه ونخفف من آثاره المهلكة للإنسان والحيوان والنبات و « جو » الأرض . .

وكانت مجلة « تايم » الأمريكية ، أكثر مجلات العالم احتراما وفاعلية أسبق إلى اختيار كوكب الأرض شخصية سنة ١٩٨٨ وإلى عقد مؤتمر يضم علماء من ثلاثين دولة من بينها الاتحاد السوفيتي . واستعرضوا كل الأخطار التي تهدد حياتنا على الأرض . وأوصوا . ولا يبقى إلا أن تحيىء الدول كلها وتتابع ذلك . .

فكما إن الصناعات تتطور وأضرارها تتضخم ، والسكان يزداد عددهم واحتياجاتهم الغذائية والأمنية والصحية والاقتصادية . فكذلك الأضرار التي تحيىء بعد كل خطوة علمية متقدمة . . فيوم استمع الناس إلى لحن « شهر زاد » لأول مرة كان عدد سكان العالم ألف مليون . . وفي سنة ١٩٣٠ تضاعف إلى ألفي مليون وفي سنة ١٩٧٥ تضاعف إلى أربعة آلاف مليون . . وفي سنة ١٩٨٨ صار خمسة آلاف مليون نسمة . .

فمنذ الثورة الصناعية « المباركة » وأبخرة المصانع وهبابها وثنائي أوكسيد الكربون الشفاف يتصاعد في الجو . . وكذلك تتضاعف السموم في الأرض وفي المياه وفي الهواء وفي طعام الإنسان وفي دمه . .

مثلا : عندما اخترعت أمريكا المصباح الكهربى راحت كندا تصرخ . . لا من النور ، ولا من المصابيح التي أطالت النهار وزحفت على الليل . . ولكن من المحطات التي تولد الطاقة الكهربائية . . هذه المحطات تدار بالفحم . . والفحم له دخان . . والدخان تدرؤه الرياح سموما إلى كندا . .

وعندما اخترع الإنسان السيارة التي أنقذت المدن من مخلفات الخيول والبغال التي تهر

العربات . راح يشكو من العادم الذى يخرج من السيارات فيفسد جو المدن ويتلف خلايا الإنسان ، ويسد رئتيه . . ويساعد على تسلل الأمراض فى جسمه . .

وعندما استخدم الإنسان البترول بدلا من الفحم فى البواخر ، فإنه قد اختصر المسافات واختصر الزمن . . ولكن الإنسان بدأ يشكو من تلوث المياه وموت الأسماك . . وتلوث الشواطئ . . وحوادث اصطدام ناقلات البترول وتغطية ألوف الأميال المربعة بالزيت قد وقعت كثيرا . . فأفسدت الشواطئ وقتلت الأسماك . .

وعندما استخدم الإنسان الطاقة النووية انتشرت الإشعاعات القاتلة فى كل مكان فى الدنيا . . وهو يحاول الآن أن « يروض » الطاقة وأن « يطهرها » من السموم . . وأن يجردها من أسلحة الدمار . .

والإنسان كل يوم يمسك « القمقم » المعروف فى « ألف ليلة » ويفتحه . . فينطلق منه عفريت . . وهذا العفريت يحاول أن يقتل الإنسان الذى حرره من السجن الطويل . . ويحاول الإنسان بذكائه أن يعيد العفريت إلى الزجاجة التى كان محبوسا فيها . . وقد أفلح الإنسان بخياله العظيم فى « ألف ليلة » أن يعيد العفريت إلى سجنه الزجاجى ويلقى به فى البحر . . ولكن العفاريت النووية والكيمياوية التى أطلقها الإنسان ، لم يفلح بعد فى حبسها . . أو فى ترويضها . . كما تروض الوحوش فى السيرك . . فقد انطلقت الشرور وانتهى الأمر . . تماما كما حدث فى الأساطير الإغريقية عندما أمسكت حواء صندوق الآلهة - ورغم أنهم نصحوها ألا تفتحه - فإنها قد فتحت الصندوق . . فخرجت كل الشرور : الفقر والجهل والمرض والظلم . . ولكن فى آخر لحظة أغلقت الصندوق على شيء واحد هو . الأمل !

والأمل عندنا لا فى أن نعيد الشرور إلى صندوقها . . إلى القمقم . . وإنما فى استئناس هذه الشرور وإنقاذنا من ضررها وسمومها . . وهذا ما يحاوله العلماء والساسة الآن !

ومن المعروف تاريخيا أنه فى أعقاب كل تغير كبير على الأرض ، تنقرض بعض الحيوانات أو الطيور أو النباتات . . تماما كما حدث من ١٣٢ مليون سنة ، عندما انقرض حيوان الديناصور . . ويقال إنه انقرض بسبب الجفاف الذى أدى إلى موت هذه الحيوانات الضخمة . . ويقال إن أحد الأجرام السماوية قد سقط على الأرض . . فأدى إلى إحراق سطحها المغطى بالغابات . . ويقال إنه أيضا أثار سحباً كثيفة من التراب . . كل ذلك أدى إلى موت الديناصورات . . ولم نعد فى حاجة الآن إلى مثل هذه الأجرام السماوية لكى نهدد الحياة على الأرض . . إننا نحن نصنع بأيدينا ومصانعنا كل هذه التغيرات العنيفة الحمقاء . . وسوف نزداد حاقة وجنونا بكل ما هو جديد فى العلوم . . أيا كان الثمن فادحا . وهو فادح .

فالعالم قد قفز إلى الأمام عدة مرات . .
عندما انتقلنا من استخدام قوى الرياح في السفن الشراعية والمضخات المائية إلى استخدام الفحم . .

وعندما انتقلنا من البخار إلى استخدام البترول . .
وانتقلنا إلى استخدام الطاقة النووية .

ثم استخدمنا الترانزستور والبطاريات الجافة . .

وأخيراً جاءت الثورة البيولوجية ، فالإنسان الآن اهتدى إلى « الهندسة الوراثية » . . أى إعادة ترتيب مكونات الخلية الحيوانية والنباتية والإنسانية . . إنها الثورة الجديدة التى سوف تضاعف الإنتاج وتضاعف أحجام الحيوان والنبات . . وذلك عن طريق التحكم فى نمو الخلايا . . لمواجهة زيادة السكان . .

وزيادة السكان تضاعف احتياجات الإنسان . وهذه الاحتياجات لا يمكن الوفاء بها إلا بالقوة . بقوة الجيوش والسلاح . . ومصانع الأسلحة . . والمصانع تخدم ترسانة السلاح . بالمواد الكيميائية والنووية . . وهذه المصانع الضخمة لها نفايات . هذه النفايات يجب أن نطرحها بعيداً عن الإنسان الذى يصنع السلاح وعن الإنسان الذى يحميه السلاح . ولذلك طاحت صناديق الزباله بين الأرض والبحر والسماء . . يدفعونها فى أعماق الأرض . . وفى قرار المحيط وفى الفضاء الخارجى . . ومن سنوات تفرج العالم كله على فضيحة الإنسان : فالسفينة بليكانو حملت ١٤ ألف طن من النفايات الكيميائية والنووية . . تحاول أن تباع هذه النفايات لأية دولة بأعلى الأسعار . . والهدف كان الدول الفقيرة طبعاً . . فبعضها قبض الملايين ليدفن النفايات فى جوف الجبال وقاع البحيرات . انتهى استغلال الأغنياء للفقراء . . وبعض هذه النفايات ألقيت فى المحيط الهندى جنوبى قارة آسيا التى تضم ثلثى سكان الأرض !

وفى ذلك استهانة بالإنسان وحق الإنسان فى الحياة . . وبكرامة الإنسان . . والعالم كله يتفرج ولا يتكلم !

وفى أيام استخدام الفحم للوقود بدلاً من الخشب فى المصانع كانوا يلقون الأطفال الصغار فى المداخل . . فيؤدى سقوط الأطفال إلى تنظيف المداخل من الهباب المتراكم . . وكان الأطفال يموتون بعد ذلك . . ثم دفعتهم الرحمة بالأطفال إلى استخدام الدجاج والبط . . فيلقون عدداً من الدجاج أو البط فى المداخل . . فتضرب الهباب بأجنحتها وهى هابطة . . ويؤدى ذلك إلى تسليك المداخل من الهباب المتراكم . . ويموت الدجاج بعد ذلك !

والآن اتسعت المداخل وأصبح الهباب يشمل العالم كله . . ولم يعد أحد يلقي بالأطفال أو الدجاج لكى يتطاير الهباب . . وإنما الهباب والإشعاع والسموم هى التى تطارد الناس فى بيوتهم ومصانعهم لكى يموتوا بعد ذلك . . أو لكى يصابوا بالأمراض الغريبة العجيبة قبل أن يموتوا !

أما مجلة « ناشونال جيوغرافيك » العظيمة الاحترام ، فقد أصدرت عددًا فريدًا . . استخدمت أسلوبًا جديدًا فى صناعة الغلاف . . والغلاف للكرة الأرضية البارز وقد أحاطت بها السحب السامة . . والأرض كأنها ترتجف من كل ذلك . . ثم المجلة من أولها لآخرها عن هذا الذى أصاب كوكب الأرض . . وإذا كانت مجلة « تايم » قد اختارت شخصية عام ١٩٨٨ « كوكب الأرض » الملفوفة بالحبال والأسلاك للدلالة على خطورة ما نصنعه بها ، فإن مجلة « ناشونال جيوغرافيك » قد قدمت لنا حيثيات هذا الاختيار بأقلام وصور عدد كبير من أعظم الخبراء . .

* * *

وكل الدول الصناعية الكبرى تحاول الآن أن تعيد دورة النفايات السامة . . أى أن تستخدم هذه النفايات كمادة جديدة تصنع منها شيئًا مختلفًا . . تمامًا كما تستخدم العربات القديمة وتحولها إلى حديد وصلب . . أى تحولها إلى مادة خام ، لتصنيع شيء جديد . . أو تعيد استخدام الزجاجات الفارغة . . أو تعيد عجن ورق الصحف والكتب ، لتصنع منها ورقًا للصحف والمجلات مرة أخرى . .

مثلا فى أمريكا يرمون فى الزبالة كل سنة ٢٥٠ مليون عجلة كاوتش . . وثلاثة آلاف مليون قلم بلاستيك . . وثلاثة آلاف مليون موسى حلقة . . وعشرين ألف مليون منديل ورق . .

وقد بدأ هذا الاهتمام بصورة فريدة مع رواد الفضاء . فقد علموهم أن يحرقوا مخلفاتهم . . أو يصبوا عليها مواد كيميائية تحولها إلى عجينة أو إلى غاز يتم تبريده . . وكذلك دربوا العلماء على إعادة استخدام مخلفاتهم من البول والبراز بمعالجتها كيميائياً وتطهيرها وإعادة تناولها . تماماً كما تتحول مياه المجارى إلى مياه للشرب فى كثير من الدول الأوروبية . ولقد رأيت محطات لتحويل مياه المجارى إلى مياه للرى فى السعودية بالقرب من مدينة الطائف . .

وقد كانت اليابان أسبق من كل دول العالم فى إعادة استخدام كل النفايات . . وليس على المواطن اليابانى إلا أن يتصل بإحدى الشركات يخبرها عن الزبالة التى يريد التخلص منها . . ابتداء من الراديو والتلفزيون والثلاجة والسيارة . ونجىء اللوريات تنقل هذه النفايات . وتقوم المصانع بتحويلها إلى مادة خام . . أو إلى مخصبات أو غاز للوقود . . ويحاول العلماء اليابانيون

الآن إعادة استخدام النفايات النووية في إدارة محطات الطاقة ثم إعادة استخدام نفايات هذه المحطات مرة ثانية وثالثة حتى يتم إرهاب المواد المشعة . . أى إخمادها إلى أكبر قدر مستطاع !

والعلماء لكى يعرفوا عمر أية مادة فإنهم يحولونها إلى « كربون » ثم يقيسون عدد الذرات التى تحللت . . ومعروف أن كل مادة لها عمر . . فإذا بلغت هذا العمر أصبحت عجوزاً لا حياة فيها . . والذى يحاوله العلماء اليابانيون الآن هو « تشييع » أو « تعجيز » هذه المواد المشعة أى تحويلها إلى شييع أو عجوز قبل الأوان - وبذلك يتقون شرها وفتكها بالإنسان . . وهم الآن فى بداية الطريق !

* * *

وكنا - قبل ذلك - عندما نقرأ عن استخدام السموم فى قصور الملوك والنبلاء ، نفرع لوضعهم السم فى الخواتم فى أصابعهم . . فتجد الواحد ينزع غطاء الخاتم ويلقى بالسم المسحوق فى كأس سوف يشربها الخصم . . وكنا نرى السيدة الإيطالية الباهرة « لوكريشيا يورجيا » امرأة بشعة لأنها تقتل بالسم كل الذين حولها . . من عشاقها وأعدائها من الرجال والنساء . . وكانت لها طرق مبتكرة . . من بينها أنها كانت ترتدى الأساور الشائكة . . وهذا الجانب الشائك من الأسورة عبارة عن إبرة مثقوبة كالحقنة تماماً . . فإذا ضغطت على صديقة أو عدو أنفذت الشوكة فى ظهرها أو بطنه . . كأنها لدغة ثعبان . . ويكون الموت محققاً !

ذلك ما كانت تفعله سيدة واحدة لكى تتخلص من خصومها . . ولكن كم من ملايين ملايين الأشواك التى نلقاها فى كل مكان . . نصبتها لأنفسنا . . لنموت بها . . فى كل ذرة ماء وهواء شوكة يندفع منها السم المؤكد إلى خلايانا !

فكيف لا نرى صورتنا بشعة أمام أنفسنا !؟

* * *

وفى نهاية المؤتمر الدولى للبيئة الذى انعقد أخيراً فى برلين وقف أحد رجال الدين يقول . أرجو ألا تكون صرخاتنا مثل صرخات يوحنا المعمدان الذى وصفه « الكتاب المقدس » بأنه الصارخ فى البرية . . أى فى الصحراء . . فلا يسمعه أحد . . وانتهى الصراخ بالقضاء عليه فمات وعاشت قضيته . . وهى : الاستشهاد فى سبيل الفضيلة وكلمة السماء . . .

فقد كان يوحنا المعمدان يصرخ احتجاجاً على الرذيلة فى قصر الملك . . ولم يطق الملك صبرا . . فقطع رقبته - ومات يوحنا المعمدان . . ولكن صرخاته إذا كانت ماتت فى الصحراء فإنها باقية فى كل ضمير فى مواجهة كل رذيلة . .

وقد تكررت صور الاحتجاج على الشر ، كما ترددت صور الاحتجاج على إفساد الحياة النظيفة وجمال الطبيعة منذ الثورة الصناعية الأولى . . فلم تكن « الرومانسية » الأوربية في الأدب والفن إلا نوعا من الاحتجاج على المصانع التى أكلت الأرض وأفسدت الهدوء والصفاء والتى عندما حررت الإنسان من أعبائه العضلية قد استعبدته . . فكأن الإنسان قد صنع الآلة ليعبدها . . تماما كما صنع الأوثان ليعبدها . . يصنعها ويخاف منها . . يريد لها وسيلة فتكون غاية ، يريد خادما فتكون سيذا طاغيا !

ولابد أن عالمنا الجليل د . حسين فوزى كان يقصد هذا المعنى عندما اشترك فى أحد المؤتمرات فوجد العلماء نياما . . أما القضية فكانت حماية الأحياء المائية من الانقراض بسبب التلوث وبسبب الصيد الجاهل العنيف لكثير من الأسماك النادرة . . قال د . حسين فوزى . لو كانت عندى حنجرة الشيخ عبد الوهاب الشعرانى لزلزلت هذه الأجساد وهذه العقول ! مدد ياشعرانى مدد !

فقد كان الشيخ عبد الوهاب الشعرانى ذلك المتصوف المصرى الذى عاش فى القرن السابع عشر رجلا صالحا . وكان عميق الإيمان ، قوى الشفافية . . ويقال إنه صباح فى غضب فاهتز المسجد . واهتزت البيوت المجاورة . . وقرر « المجاورون » الصالحون أن يتركوا له المكان . . فكان هو أسبقهم إلى ترك المكان . . وقال فى ذلك : إنه جاءه وحى بأن يترك هذا المكان إلى مكان أفضل !

أى إنه صرخ معلنا غضبه على المكان ثم انتقله إلى مكان آخر . . هو الذى أعلن غضبه وهو الذى انتقل !

ومنى د . حسين فوزى أن يصرخ فى هؤلاء العلماء لكى ينهضوا فيكونوا قدوة لكل الناس . . ولكن المصيبة أنه ليس كل واحد قادرا على أن يصرخ وأن يبدأ بنفسه !

* * *

. . ومن أهم توصيات كل هذه المؤتمرات الدولية العناية الفائقة بما يحدث فى البيئة الإنسانية والنباتية والحيوانية . فتتفق الدولة مزيدا من الملايين على التوعية والحماية . .

وإن العلماء الذين يهتمون بالبيئة يستحقون أسعى الجوائز - جائزة نوبل مثلا . فليس فى جائزة نوبل نصيب لعلماء البيئة . ولذلك يرون أن تبدأ أكاديمية نوبل بتكريم عالمة الأمريكية راشيل كارسون فقد كانت أسبق العلماء جميعا بالتحذير من استخدام الددت وبقية المبيدات الحشرية على صحة الإنسان وحياة الطيور والحشرات والنباتات . وإن أكاديمية نوبل يجب أن

تمنحها هذه الجائزة بأثر رجعى . فقد كان كتابها « الربيع الصامت » الذى أصدرته سنة ١٩٦٢ بداية « الرعب » العالمى مما يصنعه الإنسان بالإنسان . .

وإذا كانت أكاديمية نوبل قد أضافت أخيراً جائزة لعلماء الاقتصاد لخطورة الاقتصاد فى حياة الشعوب ، فإن الوقت قد حان لكى تمنح هذه الجائزة لعلماء البيئة الذين يعملون على إنقاذ الإنسان من اكتشافات الإنسان . .

إن اليابان تحاول الآن شيئاً جديداً . . فهى لا تدخل العفريت فى القمقم . . وإنما هى تحاول أن تصيب العفريت بأمراض مختلفة . . تضعف من قدرته وتشل إرادته . . وبدلاً من أن تدخله كله القمقم فإنها تقطع أوصاله وتدخلها واحداً واحداً فى أكثر من قمقم - إنها البداية !

فما الذى عندنا فى العالم الثالث ، وفى مصر ؟

كتب للمؤلف

- ٦ - الدين والدynamيت
- ٧ - لا حرب في أكتوبر ولا سلام
- ٨ - السيدة الأولى
- ٩ - التاريخ أنياب وأظافر
- ١٠ - الخالدون مائة - أعظمهم محمد (صلى الله عليه وسلم)
- ١١ - لعنة الفراعنة
- ١٢ - على رقاب العباد
- ١٣ - ديانات أخرى
- ١٤ - وكانت الصحة هي الثمن
- ١٥ - الغرباء
- ١٦ - الحبز والقبلات

- (ج) قصص
- ١ - عزيزي فلان
- ٢ - هي وغيرها
- ٣ - بقايا كل شيء
- ٤ - يا من كنت حبيبي
- ٥ - قلوب صغيرة

- (أ) ترجمة ذاتية
- ١ - في صالون العقاد كانت لنا أيام
- ٢ - عاشوا في حياتي
- ٣ - إلا قليلا
- ٤ - طلع البدر علينا
- ٥ - البقية في حياتي
- ٦ - نحن أولاد الفجر
- ٧ - من نفسي
- ٨ - حتى أنت يا أنا
- ٩ - أضواء وضوء
- ١٠ - كل شيء نسبي

- (ب) دراسات سياسية
- ١ - الحائط والدموع
- ٢ - وجع في قلب إسرائيل
- ٣ - الصابرا (الجيل الجديد في إسرائيل)
- ٤ - عبد الناصر - المفترى عليه والمفترى علينا
- ٥ - في السياسة (٣ أجزاء)

(ز) مسرحيات مترجمة

* للأديب السويسرى فريدريش

ديرنهات

١ - رومولوس العظيم

٢ - زيارة السيدة العجوز

٣ - زواج السيد مسيسى

٤ - الشهاب

٥ - هى وعشاقها

* للأديب السويسرى ماكس فريش

١ - أمير الأراضى البور

٢ - مشعلو النيران

* للأديب الفرنسى جان جيروودو

١ - من أجل سواد عينيها

* للأديب الأمريكى آرثر ميللر

١ - بعد السقوط

* للأديب الأمريكى تنسى وليامز

١ - فوق الكهف

* للأديب الأمريكى يوجين أونيل

١ - الامبراطور جونز

* للأديب الفرنسى يوجين ليونسكو

١ - تعب كلها الحياة

* للأديب الفرنسى اداموف

١ - الباب والشباك

* للأديب الأسباني أربال

١ - ملح على جرح

(ح) دراسات نفسية

١ - الحنان أقوى

٢ - من أول نظرة

٣ - طريق العذاب

٤ - ألوان من الحب

٥ - شباب . . شباب

٦ - مذكرات شاب غاضب

٧ - مذكرات شابة غاضبة

٨ - جسمك لا يكذب

٩ - اثنين . . اثنين

١٠ - الذين هاجروا

١١ - غرباء فى كل عصر

١٢ - أظافرها الطويلة

١٣ - هموم هذا الزمان

١٤ - الحب الذى بيننا

١٥ - عذاب كل يوم

١٦ - لأول مرة

١٧ - كيمياء الفضيحة

(ط) دراسات علمية

١ - الذين هبطوا من السماء

٢ - الذين عادوا إلى السماء

٣ - القوى الخفية

٤ - أرواح وأشباح

٥ - لعنة الفراغة

٦ - شارع التهنيدات

٧ - فوق الركبة

٨ - هذه الصغيرة (وقصص أخرى)

٩ - عريس فاطمة

١٠ - يوم بيوم

١١ - إنها الأشياء الصغيرة

١٢ - إلا فاطمة

١٣ - القلب أبدا يدق

(د) نقد أدبي

١ - يسقط الحائط الرابع

٢ - وداعا أيها الملل

٣ - كرسي على الشمال

٤ - ساعات بلا عقارب

٥ - مع الآخرين

٦ - شيء من الفكر

٧ - لو كنت أيوب

٨ - يعيش . . يعيش

٩ - الوجودية

١٠ - عذاب كل يوم

١١ - طريق العذاب

١٢ - وحدي . . ومع الآخرين

١٣ - ما لا تعلمون

١٤ - لحظات مسروقة

١٥ - كتاب عن كتب

١٦ - أنتم الناس أيها الشعراء

١٧ - أيها الموت . . لحظة من فضلك

١٨ - أوراق على شجر

١٩ - في تلك السنة

٢٠ - دراسات في الأدب الأمريكي

٢١ - دراسات في الأدب الألماني

٢٢ - دراسات في الأدب الإيطالي

٢٣ - فلاسفة وجوديون

٢٤ - فلاسفة العدم

(هـ) رحلات :

١ - حول العالم في ٢٠٠ يوم

٢ - بلاد الله خلق الله

٣ - غريب في بلاد غريبة

٤ - اليمن ذلك المجهول

٥ - أنت في اليابان وبلاد أخرى

٦ - أطيب تحياتي من موسكو

٧ - أعجب الرحلات في التاريخ

(و) مسرحيات كوميدية

١ - مدرسة الحب

٢ - حلمك يا شيخ علام

٣ - مين قتل مين

٤ - جمعية كل واشكر

٥ - الأحياء المجاورة

٦ - سلطان زمانه

٧ - حقنة بنج

٨ - العبقرى

٩ - الكلام لك يا جارة

رقم الإيداع ٥٧٨٠ / ١٩٩٤
LS.B.N 977 - 09-0216 - 0

مطابع الشروق

القاهرة : ٨ شارع سيويه المعري - ت : ٤٠٢٢٩٩ - فاكس : ٤٠٣٧٥٦٧ (٠٢)
بيروت : من.ب : ٨٠٦٤ - هاتف : ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٢١٣ - فاكس : ٨١٧٧٦٥ (٠١)

.

.

.

.

.

لأول مرة !

هذا هو الكتاب رقم ١٦٠ لكاتبنا الكبير أنيس منصور . . وهو في كل كتاب طائر بين السماء والأرض طائر بين الناس . . بين الزمان والمكان عصفور كثير التنقل . . سر قوى النظر . . أصابعه دود فز يحول أوراق التوت إلى حرير . . يلف الحرير حول المعاني ويعلقها عقوداً رقيقة ناعمة فريدة . .

درس الفلسفة وقام بتدريسها في الجامعة . . ومنذ ذلك الوقت وهو حريص على شيء واحد . . ألا تكون عبارته فلسفية . . وإنما أن تكون معانية فلسفية . . أن يكون مفهومًا لأقل الناس تخصصًا وثقافة . . ونجح في ذلك .

واختارته الإحصاءات الكاتب الأكثر انتشارًا في مصر منذ الستينيات . . واختارته جريدة الأهرام في إحصائها الشامل : كاتب المقال القصير الأول في مصر . . وكاتب المقال الأدبي الأول في مصر أيضًا . . وكتبه تسجل دائمًا أرقامًا قياسية في أرقام التوزيع . . وكميات الطبع . . وإعادة الطبع . . لماذا ؟ لأن حيويته لم تخمد ، وتعطشه إلى المعرفة لا نهاية له . . ولو جلست إلى كاتبنا الكبير أنيس منصور لوجدت إنسانًا بسيطًا متواضعًا لأن الذي يريد أن يعرفه كثيره ، والذي يريد أن ينقله إلى القارئ كثير جدًا .

وعنده إحساس غريب عجيب قد لا تصدقه . ولكنه صحيح . . عنده إحساس إنه لم يكتب ولم يقل مع أنه صاحب أكبر عدد من الكتب في الأدب العربي . . ولكنه هو هكذا يرى إنه لم يقل إلا القليل ولم يعرف إلا أقل القليل . . وهي طبيعة العلماء الذين لم يشبعوا من العلم . . وفي كتابه لأول مرة يدعشك ما الذي قاله لأول مرة ورآه لأول مرة وناقشه وعاشه . .



To: www.al-mostafa.com